

رواية ثالث

بهاء طاهر



تعطى الورا

الإهداء

في ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير
يحيى حقي .. رحمة الله
أنتسم عطر الأحباب !

بهاء طاهر

٧ يناير ٢٠٠١

قال أستاذنا الحكيم :

- الناس أجناس والنفوس لباس ، ومن تلبس نفسها
من غير جنسه وقع في الالتباس .

فسألناه :

- يا معلمـنا ، فهل النفس قناع نرتديه إن أحـبـناه
وانـ كـرـهـناـ نـبـذـنـاهـ ؟

فرد مؤنـياـ :

- أو لم أقل لكم من تقـنـعـ هـلـكـ ؟

فـلـتـلـاـ:

- فمن ينجـوـ يا مـعـلـمـناـ ؟

أطـرـقـ مـتـأـمـلاـ ثـمـ رـفـعـ رـأـسـهـ يـجـولـ فـيـنـاـ بـبـصـرـهـ
وـقـالـ فـيـ بـطـءـ :

- يا أـبـنـائـيـ وأـحـبـائـيـ ، أـفـنـيـتـ الـعـمـرـ فـيـ الـبـحـثـ
وـالـتـرـحالـ ، فـمـاـ عـرـفـتـ إـلـاـ أـنـ الـجـوابـ هـوـ السـؤـالـ .

الغلاف رسم

وتصميم الفنان :

محمد أبو طالب

القسم الأول

iiilas.com/vb3
سلم
ola_mfs

(١)

بناء الحاج سعدى والد الباشكاتب فى مطلع القرن ، تشغل الأسرة طابقه الثالث
وتسكن الشقق الأخرى الموجزة مذ بناه، البيت أسر من أصحاب محلات القرية
ورث أبناؤهم منهم ومساكنهم وهم نجار ومنجد وعطار وكهربائى وثاجر أحذية ،
كان الباشكاتب هو الموظف الوحيد من سكان البيت ، وكانتوا جميعا يحترمونه
ويعيشهونه .

لا يعرف سالم لون البيت أو طلاء الخارجى الأصلى ، فقد دعى عليه يلوته
الحالى الجامع بين الرمادى والبني ، والذى يشبه لون المساجد والتکايا والاسبلة
الأتية المنتشرة فى الحى ، ولكن من الواضح أن البد الأكابر اعتنى بزخرفة بيته
عندما بناه . فالي جوار الشرقين الحجرتين قى كل طابق ، كانت هناك شرفتان
أصناف ، الفريزهما من حديد مشغول على شكل أفرع كروم مقوسه تتدلى منها
علاءل حديد ، وليكونها المهرقات بامتداد طول العمارة من تاجرين مقابلتين زخرفة
منقوشة فى الحجر كصفائر مجدهلة تحفل برقاعاتها زهر حجرية مدورة الأوراق ،
وكأن هناك أيضا سور حديدى واطى ، يحيط بدخل البيت وبمحضن الممر
الصغير الذى يسمى بعض السكان (البنيت) لأن يضم إلى جانب شجرة التمر
جنة اثنين من شجيرات (الفيكىكس) ذات الأوراق اللامعة المقطرة المسماة (ودن
القبيل) ، والمزروعة فى كثير من بيوت الحى . غير أن أبوزيد بواب العمارة العجوز
لم يعد يستطيع العناية بهاتين الشجرتين كما كان يفعل من قبل ، أصبح لمى
شيخوخته شبه مقيد فى غرفته الموجدة أسفل السلم وأهمل الري المتقطم ،
فاختفت بعض الأوراق وتهافت ، ولكن الأشجار هلت سليمة فى مجملها تهوى
للبيت مدخلها زاهى الخضراء .

كانت تلك هي واجهة العمارة التى تطل على الشارع الرئيسى المتفرع من
ميدان السيدة زينب . أما جانب البيت المطل على ناحية الحارة والجانب الآخر
فتشغلهما مواجهة خشبية مستطيلة متوازية .

عاش سالم منذ طفولته فى رعاية جده الباشكاتب .

لم يكن يعرف وهو صغير معنى هذا اللقب ولا تلك الوظيفة ، لكنه كان يسمع
آياه يرد على استفسارات بعض الجيران بعبارة «ساسال الوالد حضرة
الباشكتاب» ، ففهم أنها وظيفة مهمة .

وعن سالم على الدنيا وجده على المعاش . كانت الجد أحسن غرفة في البيت ،
تطل على البحرى وتفتح على الشرفة الواسعة المعروفة في البيت باسم
(التراسينة) ، والتي تعلو قاعدتها المكتونة من اسطوانات حجرية ضلعها شجرة
شيايك خشبية مشغولة مثل الشريبات ، تكسر حدة الشتاء في النهار وتفتح على
مصاريعها للهواء في المساء . واعتاد الباشكاتب أن يتنفس وقتا طويلا في هذه
الغرفة كل ليلة قبيل أن ينام ، يجلس على مقعد أمام نافذة مفتوحة ، يتابع ما
يحدث في الشارع المردم بالقادمين من ميدان السيدة زينب والمتوجهين إليه ،
يحمل النسيم إليه في موسم الزهر عطر شجرة «التمر حنة» المزروعة في الممر
الصغير أسفل البيت .

أما غرفة الباشكاتب نفسها فكانت تضم سريره النحاسى الكبير بأعمدته
الأربعة العلقة فيها التاموسية ، والمكتب ذو الأدراج العديدة المقلقة باستمرار ،
والذى تعلوه أكواخ من الكتب الجلدية في ناحية ، وفي الناحية الأخرى ملفات قديمة
باهمة الخضراء ومصقرة الأطراف .

وعندما كبر سالم قليلا عرف أن الشقة التي يقيمون فيها هي شقة جده ، وأنه
هو أيضا مالك البيت الذى يضم ست شقق موجزة ، كان بيته من أربعة طوابق

ولد سالم في ذلك البيت وعاش هو وأخته الأكبر فوزية والدهما شعبان الذي نظر يقيم مع أبيه الباشكاتب بعد زواجه وانتسابه . ولا يذكر سالم أنه التي ماتت بعد مولده بستين . ولكن رأها في الصور جميلة جداً، مثل اخته فوزية، لها وجه مستدير وشعر كستانى غزير يسترسل بعيداً وراء، الكتفين، وعينان ملوشان كريوتين لامعتين ورثهما هو وأخته .

واعتاد الباشكاتب توفيق أن يصبح معه حفيده من الصغر لكن يصلها الجمعة في مسجد السيدة زينب، وعلمه من وقتها أشياء : أن يذهب إلى المسجد من طريق وأن يرجعاً من طريق آخر لأن هذا يزيد الثواب . وأن يشترياً أشياء صغيرة بعد الصلاة ، ليموتاً أو بعض الفاكهة أو البخور . وكانت فوزية تتحمّل أحياناً وتقول إن البيت أصبح مكتساً بالليون والبخور . غيره الباشكاتب فتشتم وهو بربت على خدّها : أهدي الزيارة للجيران . ثم يشير بإصبعه للمسافر وهو يقول شراء بعد صلاة الجمعة ثوابه هناك .

كان الباشكاتب يحب حفيته كثيراً . هي الوحيدة المسنوح لها يمكن توقف غرفته حتى في حالة وجود شغاله في البيت ، ترتيب الملفات القديمة والكتب التي تعلو المكتب وتختفي التراب . ولكن لم يكن من حقّها أن تغير ترتيب هذه الملفات أو أن تفتح الأدراج التي يحتفظ هو وحده بمقاييسها .

واعتاد أيضاً أن يدخل معها الطبخ ، يعطيها تصانع وينوّق الطعام . يقتصر زيارة اللحى أو الاكتفاء عند هذا الحد في تحمير البصل . ويردد أشعاراً وأمثالاً عن معظم أنواع الطعام . فعلى يوم طبخ القلقاس يضع يده على صدره ويردد «إذا سألك عن قلب قاسي وقل قاسي» . وعندما تطلي فوزية الرجل الضئراء ، يتظاهر بأنه يعرج وهو يقول «العاقل لا يأكل رجله» . أما في يوم الملوخية التي

كان يحبها كثيراً فكان يفرد يديه على اتساعهما ويقول بلهجة فخمة ، «طعم الملوك يا ملوكة» . وكانت عنده عبارات كثيرة من هذا النوع تجعل فوزية وسالم يضحكان دائماً . مع أن العبارات ، والحركات أيضاً ، لم تكن تتغير في أغلب الأحيان . ولكن كانت هناك أشياء اختص بها الباشكاتب حفيده منه الصغر ولا تشارك فيها اخته ، كانا يجلسان معاً فوق السطح ويتسامران ، في الشمس شتاءً ، وفي الأسميات صيفاً . يكلف الجد حفيده بشراء كتب كبيرة من الترسن توضع بيتهما في طبق . ويعصر الباشكاتب عليها كثيراً من الليمون فنانلاً لحفيدته فيما يشبه الأمر «كل .. هذا ينقي الدم» ثم يكل بضحكته الطلقة «لكي لا يصفر وجهك مثل أبيك» .

في يوم الخميس يوجد من كل أسبوع تتقطع هذه الجلسات ، إذ يخرج الباشكاتب قبل النور ويرجع متاخرًا في الليل . يرتدى في الغالب (جاكتة) واسعة قديمة من الكتان الأبيض ، لكنها نظيفة ومكونة باستمرار وبضع قوتها - في الثالث فقط - عباءة من الصوف البنى . ولم يكن أحد في الأسرة يعرف أين يذهب .

وكان خروجه - باستثناء ذلك - نادراً في الليل ، حين يذهب في أسميات متباينة وغالباً في المواسم الدينية ، إلى حلقات للذكور . وحافظ الباشكاتب على عادات ورثها عن المرحوم والده . فكان هناك فاري ، ضرير يأتى صباح كل يوم جمعة ليمرتل آيات من القرآن الكريم متربعاً على (كتبة) في الصالة الواسعة ، بينما تطفو فوزية بالبخور في حجرات البيت الخمس . وواصل لسنوات طويلة التقليد الذي استنه الحاج السعدي بتغريق ذبيحة في المولد النبوى الشريف واستضافة منشدين يرثتون بردة البوصيري فوق سطح البيت مع دعوة الجيران والأصدقاء إلى الوليمة والاستمتاع للبردة .

ولكن بعد إحالة الباشكاتب إلى المعاش لم تعد امكانياته تسمح بذلك.
فاكتفى في هذه المناسبة وغیرها باستئجار عدد محدود من القارئين يختتمون
المصحف بتناوب قراءة أرباع أجزاء القرآن الكريم فوق السطح أو في صالة
البيت الكبيرة . وكان يحضر هذه (الرابعة) ويستطيع بالمشاركة فيها من شاء من
الجيران . وفي ذلك اليوم كان سالم يتوجه مع أبيزيد البابا محملاً بالأرغفة
المحسنة بالفول الناب لتوزيعها على المسؤولين والمحاجنين المتلقين حول مسجد
أم العواجز .

(٤)

في جلسات السطح شبه اليومية استمع سالم منذ صغره إلى كثير من
قصص جده وذكرياته ، وكان كثير من هذه القصص يدور حول معلمه وصديق
شيهاب ، الباشم حضر السيد السناني . الذي غلب عليه لقب «أبوخطوة» . وكان
الباشكاتب المحب للضحك والمرح يشهد صوته وتقييم عيناه عندما يتحدث عن
صديقه ، الذي لم يكن في العادة يذكره أمام أحد رغم أنه لا يفتق عن باله . ولكنه
لسبب ما اعتاد أن يبحك عنده سالم منذ طفولته . ففي الوقت الذي كان فيه الجد
كثيراً ي الحديث التقى في ملكية (أسيوط) في مطلع العشرينات من القرن العشرين
ـ سمع عن الكثير من كرامات هذا الرجل المبارك ، بل وشاهد بعضها . لكنه لم
يجد بالطبع الكراهة الرئيسية التي أعطته لقبه : أي أن السناني قد شوهد في
 وقت واحد ذات يوم وهو يؤدي صلاة العصر في مسجد سيدنا الحسين في
 القاهرة وبعشي متمهلاً في سوق أسيوط يصافح أصدقاء ويتحدث إلى غيرهم .
اقسم على ذلك آناس صالحون لا يرقى إلى شهادتهم أي شك : رأه بعضهم في
 العاصمة وكلمه البعض الآخر في أسيوط وجرزواً بين ذلك كان في الساعة
 الرابعة .

سال سالم - الذي كان وقتها في التاسعة من عمره - في شئ من الالتباس
والغمبة . كيف يمكن أن يحدث ذلك يا جدي؟
فرد جده في خسوع : يمكن يا ولدي . يمكن لمن صفت نفسه وتطهرت روحه أن
يفعل ذلك وأكثر منه بأمر ربي .

ومنها أيضاً حكاية وكيل النيابة المتغطرس الذي (شخط) مرة في أبوخطوة وحين خرج من عنده اكتشف بعد فترة أنه يسير في أروقة المحكمة حتى القديمين، فرجع إلى أبوخطوة يقبل رأسه ويستسمحه، وكان سالم يستمتع بهذه الحكايات، ويستأ، كثيراً عندما ينتقل جده منها ليتحتها في دروس المخطوطات والقواعد.

لم يكن الباشكاتب قد رأى هذه الواقعية بعينيه، ولكنه رأى ما هو أهم منها، كما أن الكرامات لم تكن هي التي بهرته في شبابه، بل الرجل، عجز عن أن يفهم لماذا اصطفاه هو من بين الكثير من محببيه من موظفي المحكمة، علمه وهو موظف جديد كل تفاصيل العمل وأسراره، وفي أوقات الفراغ من العمل كان يجب أن يصحبه ويتحاور معه، ولم يكن السنانييري يتخذ سمت الأولياء، المسيحي العيون الذين يعتقدون فيهم، ولكنون في أحاديث من الوعظ والإرشاد، بل كان رجالاً بشوشة يجب أن يمسحوك وأن يمازح من حوله، ومع ذلك ظلت هناك فيبة تحبط به، فيبة لم تصنعها قصص الكرامات التي تروي عنه وإنما شيء غير محدد في جهته وفي حضوره.

وعندما منع توفيق محبته وثقته شعر الكاتب الجديد بأنه يخدع الباشكاتب عنحقيقة نفسه، وصمم ذات يوم على أن يبرو له بالحقيقة، قال له إنه كابن وحيد لوالده الشري نشا مدللاً يجري في يده المال فلم يدخل على نفسه بآية لذة من المذاقات، واعترف لأبوخطوة بأنه حتى يبعد أن بدا العمل في الوظيفة وانتهت سنوات الفراغ والطيش لم يستطع أن يكبح نفسه، ظل جسد العقلي أقوى داشا من عزمه، قال للرجل الصالح لا تخدع بمظاهرى فانا لست أهلاً لصحبة الأنبياء.

استمع أبوخطوة إلى اعتراضاته في هذه، كأنه قد سمع هذا الكلام من قبل وقال:

قال سالم وحيرته تزداد: ولكن كيف يمكن شخصين في الوقت نفسه، واحد في أسيوط واحد في القاهرة؟

انفعل الباشكاتب تليلًا وهو يقول: وإن فما الفرق بين أبو خطوة وبقية الناس؟ أنت الآن مقلل ولكن عندما تكبر ستفهم.

سكت سالم ولكن جده شرد لحظة واستغرق في التفكير ثم قال في شيء من التردد: معك حق مع ذلك، لا يمكن أن يصبح شخصين، المقصود بالطبع أنهقطع المسافة من أسيوط للقاهرة في خطوة وصل إلى هناك ثم خطف رجله عائداً إلى أسيوط في وقت صلاة العصر أيضاً.

وبعد ذلك ضم الباشكاتب حفيده إليه وقال بشيء من الغرور: كيف انتهيت إلى هذا في مثل سنتك؟ أنا نفسى لم أفك في المسألة أبداً بهذه الطريقة، بالعقل طبعاً لا بد يكون قد ذهب ورجع، أنت ذكي ولك مستقبل كبير يا ولدي ملهمت شاستخدم عقلك.

فرح سالم لذلك كثيراً، ولكن الباشكاتب أصبح بعدها حريصاً على الأجر، حفيده المطلل بالحديث عن الكرامات الكبرى المشهورة التي لا يستويها عرق، لم يحك مثلاً قصة إيقاف القطار المتحرك من أسيوط إلى القاهرة الذي كان يقل فاقضاً أراد إيهذا أبو خطوة، وأفهم من ذلك أنه عرف أن الوقت لم يحن بعد ليحدث حفيده عما يخصهما معاً من قصص أبوخطوة، شاقتصر في تلك الفترة على حكايات صغيرة كانت تعجب سالم وبخبط لها في كل مرة، منها عندما طلب أحد المحضررين لنجانًا من القهوة في مكتبه والباشكاتب في طرف القاعة الآخر وكلاهما مستغرق في عمله، إذ أخذ المحضر رشطة من القهوة ولكن لما مد يده ليأخذ الرشفة الثانية لم يجد النجحان أمامه، وفي طرف القاعة البعيد كان أبوخطوة يقول متذمراً والننجان في يده «فهؤلئك مسكرة أكثر من اللازم يا أخي».

- ولكنك تندم على ما تفعل يا توفيق أفندي، أليس كذلك؟
فرد فيأسف :

- بلـ .. أندم ثم أعود كما كنت .
- الندم باب الحياة، والحياة باب التوبة .

- ولكنك قلت لك يا مولانا إنني أندم ثم أعود !
- لا ، أنت لا تعود لأن الزمن لا يعود . أنت لا ترجع إلى ما ندمت عليه لأن
انتهى وإن يرجع .

- إذن فلما أرجع إلى ذنب جديد ، فما الفرق ؟ وما فائدة الندم ؟ قل لي كيف
أجد الطريق .

سكت السنانيـري لحظة ويدا أنه يذكر قبل أن يقولـ

- أراك تبـتـسم يا توفيق أفنـدي وأـنتـ تعملـ (إـلى زـيـلاـقـ يـحـمـوـكـ والنـاسـ)
الـذـينـ يـاتـونـ لـالـعـملـ يـحـمـوـكـ. أـراكـ لـاـ تـفـرـقـ فـيـ قـضـاءـ مـصـالـحـ النـاسـ بـيـنـ المـقـبـيرـ
وـالـغـنـيـ، بلـ أـراكـ تـجـزـ مـصـالـحـ الـقـسـيفـ قـبـلـ الـقـوىـ. كـتـ أـضـحـكـ فـيـ سـوـىـ وـإـنـاـ
أـراكـ تـلـعـنـ مـلـاتـ الـدـعـاوـيـ الـتـيـ يـقـدـمـهـاـ لـأـصـحـ الـخـاصـيـاـ لـرـفـقـ قـطـلـيـاـمـ فـتـلـعـنـ
لـهـمـ إـنـهـ نـسـواـ بـادـخـلـهـ نـقـودـاـ شـمـ تـرـدـهـ إـلـيـهـمـ. لـمـ يـخـطـرـ بـيـاـكـ حـتـىـ أـنـ هـذـهـ
رـشـاـويـ وـأـنـهـ يـدـهـشـونـ لـأـنـ تـرـدـهـاـ ثـمـ تـفـضـسـ لـهـ مـسـالـحـهـ بـعـدـ ذـاكـ .

- وما عـلـاقـةـ ذـاكـ بـمـاـ نـحـنـ فـيـهـ ؟ قـلـ لـكـ إـنـيـ اـنـتـلـ منـ ذـنبـ إـلـيـ ذـنبـ !

- فـكـرـ معـيـ ، إـنـ أـنـتـ أـحـبـبـتـ وـعـذـبـتـ فـيـ الـحـبـ وـصـبـرـتـ طـوـيلـاـ عـلـىـ ذـاكـ
الـعـذـابـ ثـمـ فـرـزـ بـعـدـ ذـاكـ بـعـدـ تـحـبـهـ ، أـلـاـ يـكـونـ شـعـورـكـ بـهـذـاـ الـلـوزـ أـكـبـرـ مـاـ لـوـ نـدـ
الـوـصـالـ بـسـرـعـةـ ؟

- لـأـفـهـمـ تـامـاـ مـاـ مـوـلـانـاـ وـأـرـجـوـكـ أـنـ تـحـدـثـيـ عـنـ التـوـبـةـ لـاـ عـنـ الـحـبـ. فـلـماـ لـمـ
يـشـقـنـ وـيـسـبـعـنـ غـيـرـ هـذـاـ الـحـبـ !

قال أبوخطوة وكـانـ يـزـنـهـ :
- أـخـطـأـتـ هـنـاـ يـاـ توـفـيقـ . الـحـبـ يـقـرـبـ وـلـيـ بـعـدـ .
- وـلـكـ مـنـ ؟
- سـيـاسـتـ الـوقـتـ ، وـلـكـ تـعـلمـ يـاـ ولـدـيـ أـلـاـ تـنـظـبـ مـنـ الـوقـتـ إـلـاـ مـاـ يـاتـنـ بـهـ رـبـكـ
وـرـبـ الـوقـتـ .

عـشـراتـ السـنـينـ مـرـتـ عـلـىـ ذـاكـ الـحـوارـ وـمـازـالـ توـفـيقـ يـتـنـظـرـ الـوـعـدـ .
وـمـعـ ذـاكـ فـلـيـعـتـرـفـ يـاـنـ الـحـبـ أـنـقـذـهـ طـوـيلـاـ ، وـبـاـنـ الـحـيـاـ بـعـدـ زـوـاجـهـ مـنـ سـمـيـةـ
لـمـ يـكـنـ تـشـبـهـ مـاـ قـبـلـهـ .

اهـتـمـ الـبـاشـكـاتـ اـهـتـمـاـ كـبـيرـاـ بـدـرـاسـةـ حـقـيـقـيـهـ سـالـمـ الـذـيـ تـبـاـعـهـ بـمـسـتـقـيلـ
يـاـهـرـ وـقـلـيـسـاـعـهـ وـبـرـاجـعـ مـعـهـ الـمـوـادـ الـتـيـ يـعـرـفـهـاـ مـنـ الـرـاحـلـةـ الـاـبـدـانـيـهـ وـحـسـنـ
شـهـادـهـ الـفـانـتوـسـيـهـ الـتـيـ وـصـلـ سـالـمـ إـلـىـ سـنـتـهـ الـاخـيـرـهـ فـيـ عـامـ ١٩٧٥ـ . كـانـ
الـبـاشـكـاتـ الـحاـصـلـ عـلـىـ شـهـادـهـ الـكـفـاءـ الـقـدـيمـ مـخـضـلـهـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـهـ .
يـعـرـفـ بـهـ الـتـارـيـخـ وـالـجـغرـافـيـهـ . وـلـمـ يـسـخـلـ عـلـىـ حـقـيـقـيـهـ بـدـرـاسـينـ فـيـ الـلـغـهـ
الـاـنـجـليـزـيهـ رـعـمـ إـلـامـهـ بـهـ يـحـكـمـ درـاستـهـ وـعـملـهـ فـتـرـهـ اـثـنـاءـ تـرـؤـظـهـ فـيـ إـحدـىـ الـمـحاـكـمـ
الـمـخـتـلـفـهـ الـتـيـ كـانـتـ سـتـخـدـمـ الـاـنـجـليـزـيهـ وـالـفـرـنـسـيهـ . وـكـانـ يـغـضـبـ إـذـاـ مـاـ رـأـهـ يـهـمـ
فـيـ الـاـسـتـدـارـ وـيـحـذـرـهـ : لـوـ اـهـتـمـ أـبـيـكـ بـمـذـاكـرـهـ لـكـانـ فـيـ حـالـ غـيـرـ الـحـالـ .

وـكـانـ سـالـمـ يـعـرـفـ أـنـ آيـاهـ لـمـ يـتـقدـمـ فـيـ الـتـعـلـيمـ بـعـدـ السـنـةـ الـاـولـىـ الـثـانـوـيـهـ مـنـ
الـنـظـامـ الـقـدـيمـ فـاـخـسـطـرـ الـجـدـ أـنـ يـوجـهـ لـلـتـجـارـةـ . وـسـاعـدـهـ فـيـ إـعادـةـ فـتـحـ مـسـحلـ
الـسـعـدـيـ لـتـجـارـةـ الـأـقـمـشـةـ وـالـمـاـنـيـفـاتـورـةـ . بـالـقـرـبـ مـنـ شـارـعـ السـدـ الـمـجاـورـ لـلـبـيـتـ
وـالـمـزـحـمـ بـمـحـلـاتـ الـأـقـمـشـةـ وـلـكـنـ تـجـارـةـ شـعـبـانـ السـعـدـيـ لـمـ تـزـدـهـرـ مـقـلـ تـجـارـةـ
جـدـهـ . كـانـ الـحـلـ يـدـرـ دـخـلـ مـعـقـلـاـ فـيـ أـوـقـاتـ حـصـصـ التـموـينـ الـتـيـ يـرـوجـ فـيـهاـ
الـبـيـعـ وـأـثـنـاءـ مـوـلـدـ الـسـتـ الـطـاهـرـةـ الـتـيـ تـكـثـرـ فـيـ الـرـجـلـ فـيـ الـحـيـ . وـلـكـنـ كـانـ يـعـملـ

وكان سالم يطبعه يكره الشجار والعنف بالحركات أو الكلام ، لهذا استجاب لأمر والده .

وهكذا فقد شب دون أن يكون له أصدقاء من سنّه ، سواء من جيرانه أو من زملاء دراسته . تلقت صديقته الوحيدة الحقيقة الفريدة من قلبها هي اخته فوزية . فمع أنها لم تكن تكبره إلا باربع سنوات ، إلا أنها حتى وهي طفلة في الثامنة من عمرها كانت تعامله كمن بعد وفاة والدتها . اعتادت أن تعلمه بيدها وأن تغير له شبابه وتأخذه إلى الحمام . وعندما يذهب إلى المدرسة كانت تصحبه حتى يابها قبل أن تذهب هي إلى مدرستها ، أما في العودة فكان أبوه أو جده هما اللذان يصطحبانه إلى أن تعلم العودة بمفرده . وب مجرد رجوع فوزية من المدرسة كانت تهدّه ولوجهها المدار ، وتلتف معه العابهما المفضلة التي علمته إياها : « الكروشية » والسلام « الشياطين والحوائط » « الشفافية » . وكانت تسأله عما حدث في المدرسة في يومه فسيحكى لها وتراجع بنفسها كرتاريس واجياته قبل أن يتولى جده هذه التسليمة لأنّها ما دبت بينهما الشاحرات الصغيرة الملاوقة بين الاخته . ولم يحدث أبداً أن أشتكي أحدهما من الآخر إلى والدهما أو جدهما . بل كانوا يبتكان معًا في خلوة إذا ما تعرض أحدهما لאי عقاب .

وعندما بلغت فوزية سن الخامسة عشرة اضطررت إلى أن تقرّع تماماً للبيت ، كانت قد أصبحت امرأة حقيقة طولية ، ذات قوام ناضج كامل الاستدارة ، ووجه صبور شبره عيناها الزيتونيتان وبحيطة كأنها شعر كستنائي ناعم ومسترسل . وبدأت المشاكل عندما سمع في البيت أن شبانا يلاحقونها ويعاكسونها منذ خروجها من باب المدرسة ، وجزر أحدهم ذات مرة أن ينتبه لها حتى باب البيت . وكان من سوء حظه أن رأه سالم من الشرفة فهبط بسرعة البرق وفني يده عصا جده الثقيلة واتهال بها ضربا على العاشق الذي اضطر إلى الهرب جرياً . وسالم

محاريقه بصعوبة قيماً عدا ذلك . وظل الباشكتاب رغم هذا يشجع ابنه ويمساعدته بالأموال ولم يفقد الأمل في أن محل سباته من وراءه خير كثير ذات يوم . على عودة بركة الوالد وأيامه الـلـذـيمـةـ ، وسافـرـ مـرـةـ إـلـىـ أـسـمـوـطـةـ مـلـمـسـاـ نـصـبـحةـ السـنـانـيـرـ وـدـعـاهـ لـوـلـدـهـ ، وـكـانـتـ هـيـ أـخـرـ مـرـةـ رـأـيـ قـيـهاـ أـبـوـحـمـطـةـ قـبـلـ أـنـ يـنـتـقلـ إـلـىـ رـحـمـةـ اللهـ .

ولم يكن سالم يتبادر كثيراً من الحديث مع والده أو يقضى معه وقتاً كالذى يقضيه مع جده . كان شعبان مختلفاً من البيت معظمه الوقت وشبة مقيم في محل الأقمشة . وبعد وفاة زوجته المبكرة ترك شتون البيت وتربية ابنته وايشهه . ومع ذلك فإن شعبان كان صارماً مع ابنته في شيء واحد هو متنه منها باتاً من اللعب في الحارة التي يقع البيت على ناصيتهما . ضربه ضرباً قاسياً ذات يوم عندما رأه يلعب الكرة مع الأطفال هناك . قال له : « هل هولا الناسيل من مستوانا؟ » .

عرك أذن سالم وحذره من العودة إلى اللعب مع هؤلاء الأولاد ، وحذره أيضاً بصلة خاصة من أن يحتضنه أحد أو يلمس مؤخرته سواء في الحارة أو الشارع أو المدرسة قائلاً بشيء من القهقهة عبارة لم يفهمها سالم في وقتها « أنت جميل كالبيتان فحساب على نفسك » .

ولم يأسف سالم كثيراً لامتناعه عن اللعب في الحارة . كان يحب لعب الكرة ولكنه يتلقاً من مشاجرات الأولاد وسبابهم الفاحش للأب والأم آثما ، الشجار ، وكانتوا هم يمسخرون منه وراء ظهره وينتدرون على أدبه وإن لم يجردوا على إيزاته بسبب مكانة جده في الحي ، ولسبب آخر أعم وهو أن سالم منذ صغره كان طويلاً وعربيضاً بالنسبة لسنّه وكانتوا يحتاجون إليه داشماً كحارس مرمى لفريق الحارة لاسيما عند اللعب مع فرق الحارات الأخرى . ثم أنه عندما شagaraً معه ولد مشاغب ذات مرة وجرب قبضته القوية لم يفكّر هو أو غيره في إعادة المحاولة .

حدث المشكلة الحقيقة ذات مساء شتوى ، والاسرة كلها مجتمعة في البيت بعد العشاء في الصالة . وقف سالم بعيدا عنهم بجوار حائط وكان يهتز الحمن واليسار بحركة بسيطة منتظمة ويداه خلف ظهره وكانته يلعب وحيدا ثم فجأة انطلق يقول بصوت مرتفع « يا غجر ! .. يا ماما ! »

التفتوا نحوه فـي ذهول وكان هو يصوب نحو جده وأبيه وأخته نظرة ثابتة لا يطرف له فيها جفن . وبعد تلك البداية أكمل ينفس الصوت المرتفع والنظر المركزة أنهم « حوش وتربيه حوارى وأولاد ستبن » ثم راح يسبب في شتائم جنسية بدئية لا تخطر على بال أحد في هذه الأسرة .

ظلوا ينتظرون نحوه مبهوسين وهو لا يصدقون أذانهم . وعندما بدأت الشتائم الجنسية أفلقت من فوزية ضحكة عالية بالرغم منها فنظر لها أبوها نظرة قاسية ثم تفجع في الحال وانهال على ابنه بالقسوات والكلمات وهو يأمره أن يخرب قلم يطلع في إيقاع سبل الشتائم المتدق . ثم سد فمه بيده بينما راح سالم يتملص منه وتنطلق من فمه أصوات الشتائم كلما استطاع الإفلات من قبضة أبيه .

نامت فوزية أيضا وكانت تحاول أحيانا أن تتقذّ أخاها من الضرب وتلتئم على جسمها بدلا منه . وأحيانا أخرى تشارك في ضربه عندما تجد أن بناته قد زارت على الحمد . ولكن شيئا لم ينفع في إيقافه لا الضرب من أبيه ولا الملاينة من أخيه إلى أن هذا آخرها من تلك، نفسه وجلس على الأرض وهو يلهم.

كان أبوه وأخته يقفن فوق رأسه ، وظل شعبان ينتظر له في غضب هائل ثم قال بعد فترة :

- من علمك هذا الكلام القذر يا ولد؟

فقال سالم بصوت مجده ودهشة شديدة:

- أنا يا أبي؟ أي كلام قذر؟

الصبي يلاحقه حتى اختفي عن الانظار . وبعد تلك الحادثة أمر والدها بأن تبقى فوزية في البيت . لم تكن قد أنهت السنة الثانية الثانوية فاعتبرت جدا فائلاً : انتظر يا شعبان على الأقل حتى تحصل على الشهادة . فرد شعبان : البيت مصيريها للزواج يا والدى . قال والده : ولكن الشهادة سلاح في يديها . فقال شعبان لن أزوجها الشخص تحتاج معه إلى أي سلاح . ثم أضاف فيما يشبه الصراوة : لا تقتضي المشاكل يا حضرة الباشكتاب ، البنت بتيمية وفي سن خطورة . رأى الجد أنه لا يستطيع المجادلة في قرار يصر عليه الآب . أما فوزية نفسها فلم تهتم قالت باستهانة : ومن التي تبكي على (العلم) ؟ . البيت أحسن ألف مرة .

كانت تعى تماما أنها جميلة وأن الزواج لن يتغير . فمنذ وقت كانت تبادر جارها (فراج) الطالب المسالم والمعلم وزن أن يدخل بذلك أحد في الأسرة . بدأت المعرفة من شباب المقيم الذي يطل على منزل فراج في الحارة . وكانت تنتظر معه أن ينتهي من الدراسة في الجاويعية ليتم الزواج .

وفي تلك الفترة عندما كان سالم في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره حدث شيء غير متوقع .

قبلها لم يكن سالم يثير أي مشكلة في البيت . كان طفلا عاديا ، محبوبيا لدى أسرته ، ناجحا في مدرسته ، صديقا مقربا لجده وأخته . وإن ظل صموتا معتملا الوقت ما لم يكلمه أحد . غير أن تلك لم تكن مشكلة . بل اعتبرها جده ميرزا وأسماء عبادة بن الصامت ، ثينا بالصحابي الجليل . ولم يكن أحد في البيت يعرف من هو عبادة ، ولكنهم كانوا يضحكون عندما يطلق اللقب على سالم المنزوى في صحبته الطويل . بل كان سالم نفسه يشتراك أحيانا في الفحش .

إلى طبيب نفسى رغم أن الجد لم يتحمس أبداً لهذه الفكرة. كان يرى أن هذه مشكلة عابرة ستنتهي مع الوقت ومع الدعاء الصادق يأن يكتشف الله عن سالم الكرب، لكن شعبان أصر على رأيه.

كان الطبيب النفسي الذى سمع عن مهارته عجوزاً يهدى على وجهه الإرهاق وتعبره لفت نظر شعبان، كاته تفاصيل الصبر أو الاستعداد للانفجار فى أي لحظة، لكن على العكس مما تصوره فقد قضى الطبيب وقتاً طويلاً مع الآب على انفراد واهتم بإن يسمع وييان يعرف أوضاع الأسرة والطريقة التي يقضى بها سالم وقته ثم سال عن حاله في الدراسة.

قال الآب إن سالم تلميذه عادى لم يرسب في أي سنة وإن لم يكن أبداً من الأولين، كغيره من تلاميذ مدرس الحساب يقول إنه متخرج في مارث، وهو يحصل بالفعل على درجات مرتفعة، بل على الدرجات النهائية في بعض الأحيان، ويشتمل على مدارس مستقبل كبير في علوم الرياضة.

وفي المغات؟
لا .. درجاته عاديه .

سأل الطبيب إن كان مستوى الدراسي قد تغير بعد هذه التوبات فقال شعبان إن جده الذي يشرف على دراسته، لم يلاحظ أن مستوى تعير، كما أنه لم يتلقوا أي شكوى من المدرسة.

سأله أيضاً إن كان قد لاحظ عليه آى شيء غير عادى قبل هذه التوبات أو بعدها، هل تنصبه حالة من التشنج مثلاً أو الإغماء؟ لم يلاحظ شيئاً من ذلك ولكن أخته تتول إيه تاته أحلام وكوابيس في الليل. ابتسם الطبيب: أخته تتقول وجده يذاكر له، أنا أنساك أنت!

وبدا واضحاً أنه لا يذكر آى شيء مما حدث.

وطوال هذا الوقت ظل الجد جالساً في مكانه وهو يكرر بصوت متهدج «سلام قولا من رب رحيم .. سلام قولا من رب رحيم» يعلو صوته وينخفض مع إيقاعات عبارات حقيقية.

تجاهلت الأسرة ما حدث بعد ذلك ولم ينطرق إليه أحد. ظل جده يراجع له دروسه ويصاحبه إلى صلاة الجمعة كالمعتاد، ويرقص بين الحين والأخر وهو يضع يده على رأسه ويتوال المعونتين ثم إنه عل حجاباً قديماً في صدره وتصحه بشدة لا يزعجه من مكانه. وعندما كانت فزوية تطوف بالمبشرة في البيت صباح الجمعة كانت تبكي، بشكل خاص وهي تدبرها حول رأسه وتدعوه في سرها. ولكن هذه التوبة من الهدناني تكررت بعد شهرين أو ثلاثة بالطريقة السابقة نفسها. كانت الأسرة مجتمعة بعد العشاء في المصالحة ودار حديث ثابت عن أن تاجرها ثريا في السوق تقدم إلى شعبان يطلب بد فزوية فرد عليه شعبان بما يعرفه وما أكدته فزوية أكثر من مرة وهو أنها لن تفكري في الزواج قبل أن يتغير سالم من الثانوية العامة، وقال الجد ضاحكاً: وكانت تستطيع أن ترمي عليه بناك يمكن أن تدخل السجن لو زوجت فزوية قبل بلوغها السن القانونية: فقال شعبان: لا يمنع هذا من عقد الخطوبة إلى أن تبلغ السن: لو جلت فزوية بيدها وقاتلت مجازية ضحكت جدها: لا سجن ولا خطوبة ولا زواج قبل أن أزوجكم أنتم الثلاثة .. !! لابد أن أطمئن عليكم جميعاً أولاً في بيت العدل، ثم أكملت بلهجة جادة ووحاسمة: ليس قبل أن أطمئن على سالم في الجامعة . وبعد أحاديث أخرى عابرة قاماً جميعاً لمشاهدة المسلسل الكوميدي في التليفزيون الذي اشتراه الجد حديثاً وعلت ضحكتهم، لكن سالم انتبهم وذهب إلى جوار الحائط وبدأ اهتزازه الطفيف المنظم ثم بدأ سيل الشتائم من جديد. بعد تلك المرة أصر أبوه على أن يصحبه

ثم غير الطبيب الموصوّع! اسمع، كنت أستطيع أن أجعلك تذهب وتحيى، إلى العيادة دون داعٍ كما يفعل غيري، ولكنني فحصت الولد وأ jade مقللاً ذكراً من المتوسط وأنت تقول إن مستوى في المدرسة لم يتغير، وسلوكه عادي بحسبنا هذه الحالة التي لا تأتيه إلا في البيت ووسط أسرته، فما هو الخطير؟ هل تعرف؟ عندما كنت أنا في سن إينك كنت طفلًا منقوصاً على نفسك وكانت تأتيني حالات نزيف من الأنف وإنفاس ارتعش لها أهلي ولم يستطع الأطباء علاجها ولكنها توقفت من تلقاء نفسها بعد سن المراهقة.

لم يستطع شعبان أن يفهم العلاقة بين تزييف أنت الطبيب المظلل وحالة والده ولكن قال وهو تخير كلماته ولكن ربما يمكن يا دكتور أن تتطور هذه الحالة وتأتيه خارج البيت أيضاً

ورغم الحاج الاب فإنه لم يكتب دواه ولم ينصح بآى علاج آخر،
لم يكتتب شعبان تشخيص هذا الطبيب، وصاحب سالم بعد أيام، وبعد أن
استئنأ أكثر من شخص، الى طبيب آخر مشهد، عيادة قرب باب الفتوة.

لم تختلف أسلحة هذا الطبيب ولا طرقه في الكشف عن الطبيب الأول إلا أنه كان أسرع منه في كل شيء، ولم يقل للاب أي عبارات مطمئنة بل طلب إجراء

رسم مع مدام. كان يكتب في «مساند» صاحب المعلم بالطبع.
ويعن أن نتيجة هذا الرسم لم تكشف أى شيء، غير عادي في مع سالم، مما
غير الطيب إلى حد ما، فقد كتب (روشتة) طولية فيها كثير من العقاقير، على أن

يعود لرؤية الطبيب مرة أخرى بعد انتهاء من تعاطي الأدوية.
وبعد أيام قليلة من هذا العلاج أصبح سالم يقضى نهاره كله في الفراش
وعندما يصحو كان يسير في البيت مترنحاً ويرتطم بالآلات ويقطط أحياناً في
الأرض، وانقطع بطبيعة الحال عن المدرسة.

هو ، لم يستطع أن يضيق شيئاً غير أنه قال إن عيسي سالم كانتا تغيمان
أثناء الغربة . ويبعد أنه لا يشعر بما شيء حوله وحين تنهى بيده عليه إرهاق
شديد ولا يذكر شيئاً مما حدث .
ولتكن تذكرة شيئاً فقال إن سالم ظل بيول في فراشه حتى سن السادسة أو
السابعة

أشباح الطيب بيده فناناً: عادي! ألم تقل إنه فقد أمّه في الثالثة من عمره؟
فحسّن الطيب العجوز سالم بعد ذلك بدقائق . أجري علىه كشفاً بالأشهرة ووجه
إليه أنسنة وأعطاها العبايا ملائكة من الكرتون ليبعيد تركيبتها وعرض عليه صوراً
غرافية الاشكال طلب منه أن يتحدث عنها يبرأ فيها .
وأخيراً اختفى الطيب يالاب مرة أخرى وعاد يسبّها شيئاً بغير الشفاعة .
هي المشكلة ؟

شرح الآب من جديد حكاية المؤمنين اللذين أصابتنا سالم والشمام (البر
بطلتها).

قال الطبيب وهو يحول وجهه المحتقن عن الآب . والله أنا شخصياً أفعل ذلك في مجرى طوال اليوم وليتنى أ碧و بهذه الشتائم مثل إبيك . ما أكثر من ستحقق بها !

اشتدت دهشة الآباء ذلك فهم ينظرون فنواجله الطيبة

- الـ ٢٠٠٣ عـلـى فـاتـكـهـة - الـ ٢٠٠٣

۱۳۰

- ولكن يا دكتور الأطفال العاديين لا يستحقون أباً لهم !

- ٦٢ -

$$y = \frac{1}{2} + \frac{1}{2} \cos \left(\frac{\pi}{2} x \right)$$

اٹا نم اسیم ابیں فلی سری ایدا۔

انت حسنه

بكث فوزية كثيراً وهي ترى سالم في هذه الحالة وقالت لجدها : دعوه يشتم
كما يشاء ، يا جدي . لـن يصوت أحد من الشنيعة ولكن أخي سيموت من هذا العلاج
كل أمني .

ويند ظهر أحد الأيام دخل الجد إلى غرفة سالم فلم يجد هناك . بحث عنه في
كل الغرف الأخرى وفي المطبخ والحمام دون جدوى . وأخيراً عاد الباشكاتب إلى
غرفته هو وفتش جيداً فوجد سالم ينام على الأرض متوكلاً أسفل سرير جده .
فحمله برفق إلى غرفته ووضعه على قراشه . شعر به سالم ففتح عينيه بصعوبة
وقال لجده بصوت واهن : هل لي يا جدي ، هل أنا مجنون ؟
فانحنى جده وهو يحتضنه في صدره بقوه وقال بصوت مختنق : لا يا ولدي ،
بل نحن المجانين .

ثم إن جمع كل العقاقير والأدوية التي اشتراها الأبا والفنى لها في التمامة
و فعل شيئاً نادراً ما يفعله إذ رفع صوته وقال لأبنه في غضب : أبعد يا شعبان
عن الولد واترك في حاله .

احتاج الآب باسم الطبيب المشهور والمبلغ الكبير الذي دفعوه في دسم الكلفت
والأدوية . وقال ابن العلاج لم ينته بعد حتى يحكموا على قاتله ، لكن غضبة الجد
اكتسحت كل الاعتراضات واضطرب شعبان إلى أن يترك سالم في حاله بالفعل .
تعودوا بعدها على التزام الصمت وتحوّل انتظارهم بعيداً عندما تنتابه تلك
الحالة التي أدهشهم ، وأراهم أيضاً أنها لا تأتيه خارج البيت . وكما تنبأ الجد
فقد قلت تلك التنبيات مع مر السنين وأصبحت نادرة الحدوث حتى أشك أن
تختفي ، ثم بدا للجميع بعد سن الراقة أنها قد اختفت بالفعل .

كان سالم في نهاية السنة الثانية الثانوية - قبل عام تدريساً من حصوله
على الشهادة التي انتظرتها فوزية طويلاً - عندما تقدم جارهم فراج ليطلب بدء
أخته .

استقبله رجال الأسرة الثلاثة في حجرة (المسالون) . وتنذر سالم أنه رأه عدة
مرات في الطريق خارجاً من الحارة أو داخلاً إليها ، وأنه كان في بعض الأحيان
يرفع له يده بالتحية غيردها له سالم بالفشل ولكتها لم يتتسدلاً أبداً كلام . جاء
مرتدياً قيسماً أبيضاً جقيداً وينطلوها رماديـاً . وكان شاباً وسيماً ، طويلاً ومتنوـلاً
العضل . يقطـط يوجهه الألسـرـ شـعـرـ غـزـيرـ فـاحـمـ السـوـادـ يـمـشـطـهـ بـفـرقـ فيـ جـانـبـهـ .
وكانت عيـنةـ السـوـدـاوـانـ تـلـمـعـانـ حينـ يـرـكـزـهـماـ عـلـىـ مـحـدـثـهـ فـيـ بـيـنـ وـجـهـهـ كـهـ
بالحـوـرـةـ . وـتـرـسـمـ عـلـىـ مـلـامـحـهـ اـبـسـامـةـ طـبـيعـةـ دائـنةـ .

لـعـنـ سـأـلـاـلـ الشـرـابـ وـعـيـارـاتـ التـرـحـيبـ وـعـيـارـاتـ الـجـامـالـةـ قالـ فـراجـ إـنـ جـارـ لـهـمـ مـذـ
مـذـ وـيـعـرـفـ الـكـثـيرـ عـنـ سـمـعـةـ أـسـرـةـ حـضـرـةـ الـبـاشـكـاتـ الطـبـيـةـ وـالـذـانـعـةـ فـيـ الـحـرـ
كـهـ ، وـإـنـ يـشـرـفـ كـثـيرـاـ أـنـ يـنـتـسـبـ إـلـىـ هـذـهـ أـسـرـةـ الـكـرـيمـةـ . كـانـ يـتـكـلـ بـلـهـجـةـ
شـدـيـدةـ الـتـهـيـبـ وـلـكـنـ مـعـ ثـقـةـ وـاسـحةـ فـيـ النـفـسـ .

سـأـلـ شـعبـانـ - الـذـيـ اـسـتـفـرـهـ أـنـ يـخـسـرـ فـراجـ لـطلـبـ بدـ أـبـنـتـهـ دـوـنـ أـنـ يـكـفـ
نـفـسـهـ عـنـ اـرـشـاءـ بـذـلـةـ كـامـلـةـ - سـأـلـ بـشـيـءـ مـنـ الـفـتـرـةـ مـاـذـاـ لـمـ يـتـشـرـفـواـ بـمـقـاـلـةـ
الـسـيـدـ الـوـالـدـ فـيـ هـذـهـ مـاـنـاسـيـةـ ؟ فـاعـتـرـ بـيـانـ وـالـدـيـهـ الـمـقـيـمـيـنـ فـيـ الـقـرـيـةـ عـجـوزـانـ لـاـ
يـحـتـلـانـ مـشـقـةـ السـقـرـ وـلـكـتـهـماـ سـيـحـضـرـانـ بـالتـكـيدـ إـذـاـ مـاـ تـمـ اللـهـ بـخـيرـ .

سـأـلـ شـعبـانـ ، بـالـلـهـجـةـ نـفـسـهاـ ، عـنـ اـسـمـ هـذـهـ الـقـرـيـةـ وـمـكـانـهاـ ، لـكـنـ الـبـاشـكـاتـ
فـاطـعـ اـسـتـرـسـالـ هـذـهـ الـاسـتـجـوابـ وـخـاطـبـ فـراجـ مـعـ ضـحـكةـ صـغـيرـةـ «ـاسـكـنـيـ اـنـاـ يـاـ

ابنى عن مشقة السفر، حتى مشوار العتبة أصبحت أعتبره في سنى هذه سفراً بعيداً، ودهش شعبان لأن هذا لم يكن صحيحاً، إذ كان الباشكانت يخرج ويبيس كثيراً كل يوم . ومضى الحد يسأل فراج باسمه عن نوع دراسته وعمله فقال إنه تخرج في كلية التجارة قبل شهور وكان محظوظاً إذ عينته القوى العاملة في شركة قطاع عام للمعادن في حلوان، والعلقبي للأخ سالم إن شاء الله .

تدخل شعبان مرة أخرى ليسأل عن مرتبه في هذه الشركة، وعندما سمع المبلغ أصابهذهول وسأل : وكيف تتوى يا أبي أن تفتح بيتك بهذا المرتب؟ رد فراج بأنه والحمد لله مرتب كبير بالفعل يزيد عن مرتب زملائه الذين عينتهم القوى العاملة في الحكومة، ثم إنه عندما كان في الجامعة كان يدرس وبعيش بقليل من نصف هذا المبلغ، فكيف لا يكتفى بالكلمة الان لاثنين؟

قال الأب : وعندما تتزوج أولاداً يباذن الله؟

فرد الخاطب : سيكون المرتب قد زاد، فلتحضرتك إن هذه الشركة جديدة ومستقبلها كبير، ستكون الترقيات فيها أسرع من غيرها، بل هناك ما يخص كلها عن احتمال سفرى فيبعث إلى المانيا الشرقيه، لأننا بعد أن انتصرنا في حرب أكتوبر بحمد الله ستنتفت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد وستركز على الصناعة بالذات، ولو فرجها ربنا بهذه البعثة إلى المانيا قريباً فسأتمكن من ادخار مبلغ للمهر والشبكة.

سأك الجد : ويعناسب العرب ماذا عن فترة تجنيديك؟

فقال فراج : أنا معفى لأنني وحيد والدى، ليس لي سوى اخت واحدة متزوجة في البلد، ولكن كنت أتنفس مع ذلك لو شاركت في حرب أكتوبر.

إيتسم الجد قائلاً : إذن فعلى هذه الفرقه أربعة مغفون من التجنيد للسبب نفسه؟

لكن هذه المقاطعة من الباشكانت للمرة الثانية لم تعجب شعبان الذي عاد يسأل :

- تعنى يا أستاذ فراج أن مبلغ المهر والشبكة غير جاهز؟

فرد بيساطة : بالطبع لا، من أين؟ تعب والدى المزارع حتى دبر مصاريف تعليمي، والآن يجب ألا أطلب منه شيئاً بعد أن توفقت، ببل جاه، دورى لارد له الجميل .

مضى شعبان وهو لا يصدق نفسه : إنـ فـسـتـسـاعـدـ الأـسـرـةـ فيـ الـبـلـدـ أـيـضـاـ منـ مـرـبـكـ؟

غاضت ابتسامة فراج لأول مرة وتصلب وجهه وهو يكرر : بالطبع، يجب أن أرد لأبي وأمى الدين

تدخل الباشكانت مرة ثالثة في الحوار : هكذا يتصرف أولاد الأصول، مبارك عليك يركب بوالديك يا أستاذ فراج ولكن أين تتوى أن تسكن عندما تتزوج إن شاء الله؟

ـ أـمـيـشـتـيـ .

ارتقت صيحة سالم حادة ورقيعة : في الحرارة؟!

فتنظر له جده نظرة صارمة، كان قد خذله قبل زيارة فراج من أن يفتح قمه بكلمة ، قال له هذا موضوع يتكلم فيه الكبار فقط.

أغضى سالم رأسه على مضض وهو يكرز على أستانه لكن فراج رد وهو يعاود الابتسام :

- نعم يا أخ سالم ، في البداية على الأقل، إلى أن تدخل مبلغاً يكفي للسكن في مكان أفضل، وسيحدث هذا صدقني، ربما بعد البعثة مباشرة.

ثم استعانت ابتسامت وأشرق وجهه مرة أخرى وقال : أنا يا حضرة الباشكانت وبما عمني شعبان وبما أخ سالم إنسان متelligent وواثق من المستقبل بفضل الله، شاركوه في النازل واستكون ابتنكم في عيني.

أوشك شعبان أن يقول لفراج إن التفازل في هذه الظروف يكاد يكون وفاحة.

لكنه ضغط على نفسه وقال :

- ولكن لماذا لا تتنزل يا ابنتي حتى تكون مستقبلاً قبل أن..

فاستمرت مقاطعات الباشكتاب لشعبان وقال مخاطباً فراج :

- أنا أيضاً يا أستاذ فراج متقابل مثل داشما، وأحب المتقابلين.

ثم أكمل بليهجة من يريد إنتهاء المقابلة : وإن فعلن خيرة الله، أترك لنا فرصة للتشاور ولكنني سأسأل ابنتنا عن رأيها وسيكون الرد خيراً بإذن الله.

ثم نهض وصافح الخاطب وسط نظرات الدهشة من الآباء والخطيب، وبعد أن ودعوه عند الباب وانصرف انصرف النجر شعبان مددداً :

- كيف وانتي الجرأة؟ مَاذا جرى لشعبان هذه الأيام؟

غير أن الباشكتاب قال : تعال يا شعبان، أزيدك إلى كمبيوتر.

ودخل من جديد حجرة الجلوس، أما سالم فقد توجه متقدلاً إلى حجرة أخيه التي كانت تجلس على السرير مستندة بمرفقها إلى الحاجز وتبدو مستقرة في التفكير، وعندما فتح سالم الباب في عنف حدثت على الفور ما يليه في ذات فواجهته بابتسمامة مقتبسة عندما قال :

- هل رأيت؟.. جدي بدلاً من أن يطرد..

- لماذا تريد أن يطرد يا سالم؟

- فلاخ ومقفلس وسيكن في الحارة ويعلم أن تسكتي فيها معه.. تصوري؟

سكت فوزية فاستحسنها سالم وهو يشعر بالخوف: سترفضين بالطبع؟

احت فوزية رأسها وقالت لست أنا التي تقيل أو ترفضن يا سالم.. الرأي لا يك وجدك.

فصاح مستكراً: ولكنك رفضت أكثر من مرة ولم تسمعي كلام أبيك أو

جدى! فما معنى ..

ثم انخرط فجأة في البكاء.

قامت فوزية واحتضنت أخيها بشدة وراحت تقبله وهي تقول :

- أسكط الآن يا سالم.. أرجوك انتظر ما سيقوله أبي.

وكان أبيها وقتها يردد كلاماً مشابهاً في مواجهة الباشكتاب، يكاد يلومه لأنه لم يترك له الفرصة ليرفض هذا الخطاب على الفور. كانا يجلسان على مقعددين متقابلين ولكن الباشكتاب ظل محظيًّا به دونه وهو يسمع إلى أخيه الشابر يكيل الشتائم للجار الواقع الذي تجرأ...

غير الباشكتاب مكانه وجلس على مقعد مجاور لولده وتكلم بصوت خفيض:

- نعم، معك حق يا شعبان، أنا أيضاً مثلك أنتهى مستقبلاً أفضل لفوزية، أعرف أن هذا الشاب لا يملك شيئاً غير وسامته، وأعرف أن المسكن الذي يريد أن يعيش فيه لا يزيد على حجرتين صغيرتين،

- بالطبع لن تعيش فيه! لن أوفق أبداً.

ثم انتهت التمهي، في حدث واده فاستدرك: ولكن كيف عرفت حضرتك أن منزله من حجرتين؟

زاد صوت الجد خطوتاً حتى كاد يهمس:

- فوزية هي التي قالت لي..

- وما أدرها هي؟

- هي تدرك..

- كيف؟

سكت الجد وهو ينظر في عيني ولده، فارتاع شعبان وهب واقفاً وظل ينظر

لأبيه صامتاً لفترة قبل أن يهمس بدوره:

- تقصد ...

كان شعبان يقف مستغرقا في همة لا يكاد يفقه ما يقوله أبوه أو أن يتبع ثورته . غمره إحساسه بالعار والغضب والهزيمة ، فترك أبياه واقتلاه وسط الغرفة واندفع خارجا ليجد سالم وفزوة يقلنان مذعورين في الصالة لارتفاع صوت أبيهما في وجه الباشكاب لأول مرة في حياته . حدهما أبوهما بنظرة غاضبة ، تکاد تكون كارهة ، قبل أن يخرج من البيت ويصفق الباب وراءه .

وغير تلك الليلة غزت سالم أحلام وكوابيس كثيرة ، في البدء زارت أمه ، اقتربت منه واحتضنته وألقته شيئاً ترسبها ، فقال أنا كبرت يا أمي ولكن مع ذلك راح يرpush فيهم شديد قبل أن تنزع شيئاً فجأة وتقول كيف؟ لم تصبح رجلاً يا سالم؟ قال ولكن يا أمي .. وهو يمد يده في يائس لشيئها الذي يشر منه الدين دون أن يلتفت لباقي الناس ، مثل بشرى ، رواها وهو يندل لكرن .. لكن يا أمي .. فجأة شعبان ممسكا بعصا الباشكاب التي أصبحت فجأة أطول من أبيه نفسه وراح يصرخ على سالم على بطنه وهو يقول اخرجه ! اخرجه يا ولد .. وهو يمسح وسط لعائط العصا ما الذي أخرجه؟ خذ كل شيء ، واتركني ، غير أن العصا صارت تخرجها مشرعاً في وجهه ولم يكن الشخص الذي يحمل الخنجر أبياه فارتعد وراح يصرخ .

ولم يشعر سالم باليد التي جاءت تمسح جبينه وتهدهده وتجفف عرقه وتعديل وضعه في الفراش إلى أن هذا ارتتجافه وتشيجه .

لكن في الصباح كان مجدها وكان شاحبها ، لم تعاوده نوبة الهذيان كالمعتاد بعد الكوابيس ، بل غرق في صمت عبيق . وحدث في تلك الليلة شيء ، كان قد توقف منذ فترة طويلة ، إذ بال في فراشه .

- ٣٣ -

فتعاجله الجد : لا أقصد شيئاً يا شعبان!

ثم أخذ رأسه وكانت يكلم نفسه : تمنيت لو مرت هذه الليلة على خير .. تمنيت على الله أن تقبل هذا الشاب لأن ابنته تريده ، تمنيت الا تسألني عن شيء ، ولكن سكت مرة أخرى ثم همس وفي صوته غصة : زوج ابنته بسرعة يا شعبان . ظل شعبان يقف في مكانه يقامت الطولية التحلية مطلباً على أبيه بوجه محتقن وعينين محمرتين تحبسان الدموع ، ثم قال بصوت مرتجف :

- أنت أفسدت حياتي يا أمي !

وقف الباشكاب يدوره وغضبات وجهه ترتعش :

- أنا الذي أفسدت حياتك يا شعبان؟ كيف؟

- أخذت مني أولادي وضيعتهم كما ضيعتني !

كان جسد الباشكاب كله الآن يرتجف ويجد بمحضه مسوقة التي كان يحتقد أحياناً وينتحول إلى غيمة غير مفهومة :

- متى؟ كيف؟ تكلم .. هل تجرب يا ولد أنت كنت أعرف شيئاً؟ أنت يمكن أن تعرف شيئاً؟ هي ابنته ، للماذا بعد أن صدمت على أن تقطعه واستهلاكم تراقبها؟ أنا منعتك يا شعبان؟ وكيف كان يمكن أن تعرف؟ هي بالأمس فقط

كذبتني وأنت الذي حددت الشاب الموعد عندما جاءك في المجل

كيف .. متى كان يمكن أن أكمل ، وماذا كنت سأقول لك؟

ثم فقد القدرة على السيطرة على نفسه فارتفع صوته: خذ أولادك يا شعبان واترك هذا البيت لتربيهم كما شئت .. متى ، قلل لي متى منعتك أنا من أن تقترب منهما أو من أن تربيهما؟ متى أفسدت حياتك؟ قل .. لماذا لا تتكلم؟ كل شيء حاولته معك ولكن ..

ماذا كنت تريدين أن أفعل؟

- ٣٤ -

لما الياشكائب إلى شرفته وبقي فيها طويلاً. جلس ينطليع مهموماً إلى الطريق الذي دانما ما تسرى عنه حركته وعابروه ولكنه ظل ينظر دون أن يرى أو يسمع. كيف استطاع شعبان أن يقول ما قال؟ ضييعه وضييع ولديه مرة واحدة؟ مازا كان يوسعه أن ي فعل لهم أكثر مما فعل؟ أعطاهم عمره وما له وجه، فهل ضييعهم الحب؟ مازا يقول أبوخطوة في هذا وفي الحب الذي يقرب ولا يبعد؟ هناك للحظة ما، فما هي؟

أي أب كان يستطيع أن يبدل أكثر مما بدل هو لشعبان؟ أحبه قبل أن يولد يقدر حبه لسمية، أحبه كجزء من الفالية التي ملاط حياته قبل أن يكون ولده، ولكن حتى في طفولته الباكرة وقبل أن تموت أمه كان بعيداً وياتياً. يحب أن يلعب وجده ولا يريد الاختلاط بغيره من أطفال الجيران. وبعد أيام متصلة عاشت له أيام وأاما، يطعنه ويلبسه ويداكر له دروسه ويقاد يلازمه طول الوقت وهو ذلك طفل شعبان مصمتاً ووحيداً. راوده الأمل في أن يتغير ولده بعد انتقاله إلى محكمة في القاهرة قبيل وفاة سمية. كان شعبان وقتها في العاشرة من عمره، وسكن البيت كلهم يعيشون كائنة واحدة. تمنى أن يشجعه ذلك على الخروج من البيت واللعب مع أولاد الجيران لكنه لم يفعل. أراد دانما أن يبقى وجده ولم يعرف هو أبداً ما الذي يدور في رأس ولده. أم أنه في الحقيقة لا يوجد أى شيء يدور في رأسه؟

يذكر دهشتة حين كان يذاكر له دروسه في المرحلة الابتدائية، يذكر عجزه عن أن يكتب ولو سطوراً قليلة في أي موضوع للإنشاء، اعتاد أن يشرح له الموضوع، ويزوره بالعناصر التي يمكن أن يكتب عنها، ويعطيه ما يسمى بالجمل المقيدة لكن يستعين بها في كتابة موضوعه، فلم يكن يفعل غير أن يعيد كتابة هذه الجمل. كان محروماً من أي خيال، وأحرزته كتاب في آخر الأمر أن يسلم يان ولده لا يملك أى

ذكاً، لم تكن مساحة الدروس الخصوصية معروفة أيامها في مطلع الأربعينات ولكنه جاء له بمدرسین لكل المواد فاشتكوا جميعاً من بطيء فهمه.

بالتأكيد استطاع أن يعيّر به مرحلة الدراسة الابتدائية ثم تمسّر بعدها. ظل يربّب في أول سنة من المدرسة الثانوية ويعيدها المرة بعد الأخرى إلى أن فصلوه من المدرسة الحكومية. أدخله مدرسة أهلية ظل يدفع لها والمدرسين الخصوصيين معظم مرتبه ومع ذلك لم يتفتح شيء. وأخيراً، بعد أن أصبح له شارب كث وأشرف على العشرين من عمره اضطر أن يستسلم وأن يقطع دراسته. أعاد فتح محل الحاج السعدي على أمل أن يعلم السوق ابنه ما فشلت فيه الدراسة. لكن شعبان لم يكن هو الحاج السعدي الذي عاش عمره صديقاً لكل جيبرانه في السوق بخدمتهم وبخدمتهم، يجلب لهم الزبائن ويجلبون له، يحب زبائنه ويحبون معاملته لهم وسؤاله عن اختلافهم وعن أحوال أولادهم فيرجعون إليه باستمرار. لم يستطع شعبان أن يفعل شيئاً من ذلك. عجز عن أن يصادق أحداً في السوق بعد أن عجز قبل ذلك في البيت.

أين كانت غلطته إذن وأين كان تفسيره؟ أو لم يستجب بعد ذلك لطلبه بالزواج بعد أن فتح له المحل؟ ليته ما فعل؟ قليستغرر الله. كيف كان له أن يعرف ما يخفيه القدر؟ فعل أيضاً أقصى ما بوسعه. زوجه فتاة مهدية من قريات سمية ومن قريتها. وكانت سعاد جميلة ووديعة. تصحو مبكراً قبيل أى إنسان وتقوم بمقدرها بكل الأعمال في البيت. تحفو عليه وعلى الأسرة كلها بحب لا تختلف فيه. لم يسمعها يوماً تشكو أو تتصرّم من زوجها أو من منتاب طفليها. لعلها لهذا السبب ماتت في صمت، دون أن تصرخ ودون أن يسمع أحد صوتها أو تطلب المساعدة، عندما لزّمت غرفتها يومين ودخل ليمسّل عن صحتها حاله شحوب وجهها. ولا سمع من شعبان أنها تشكو من التزيف من يومين سائلة لماذا لم ينقلها إلى

المستشفى على الفور؟ لماذا لم يخبره بحالتها من قبل؟ رد وهو يرتجف خائفًا بأنه اعتقد أن هذه الأشياء طبيعية لدى النساء، وأنها مستشفى من تلك النساء نفسها! وعندما نقلوها بعد ذلك إلى المستشفى كان الوقت قد فات. فكتلها بإهماله، بسذاجته ، أو فلقيتها : بغيانه ! لا . ليسنفر الله من جديد! حان أجلها هذا كل ما في الأمر . نعم . حان ولكن على يد شعبان! متى إذن ضيع شعبان؟ حين حسم على أن يتعلم ؟ حين ساده على فتح محل جده؟ حين زوجه من سعاد؟

اهداً يا حضرة البشكابن!

نعم . كانت نيتك حسنة في كل ما فعلته ، لكن كل شيء انتقلب إلى عكس مقصودك . فلماذا إذن بدلًا من أن تلوم شعبان لا تحاول أن تفهم السبب؟ هل هي عقوبة من الله؟ إن تكون كذلك فهو يستحقها . يستحقها عن حداه ، عاش عمره كله يطبع تزويره . لا يستحق عقابا على ذلك؟ لا يستحق عقابا على ما يفعله لأن بحياته ؟

تواضع يا حضرة البشكابن . تواضع قليلا قبل أن ترمي ابنك بالغيبة ربما تكون أنت أبغض منه . فكر في أن شعبان لم يفتر عاماً في أي شيء حظله عليه . حتى في المدرسة لم يكن يهمل دروسه كما انتهت أيام سالم . كان يقضى ساعات طويلة في الاستذكار وحل الواجبات ولم يكن ذنبه أنه عجز عن النجاح . ثم أنت لا تستطيع أن تذكر أنه ابن بار . ربما كانت هذه أول مرة في حياته يرفع فيها صوره أمامك . له عذر . فلتحمد الله أنه لم يتهور وتحول المسألة إلى قضية . لا تتقدس القضايا! لوريه تفعل ذلك؟ أسلك شامًا . لوريه حفيديثك!

ولكن أينوها؟ يستطيع أن يفهم نفسه كما يشاء . غير أنه لا يمكن أن يتم لهم شعبان . هذه صفرة لم يكن يفوتها فرض ولا ستة . فهل يستطيع أن يقول إنه يحارى ابنه في ذلك؟ هو يتنظم في الصلاة فقط في شهر رمضان وفي أيام الجمع وتلوثه بعد ذلك فرائض كثيرة . فما عذر؟

للسامي ابنه إذن على ثورته . لا ! للسامي ابنه ! للسامي ربه !
ومع ذلك يقول أبوخطوة إن التدم سبتجيه والحب !
فلماذا لم ينجيه هذا ولا ذاك من قبل؟
ومتي وقد قربت ساعتها كثيرا سياتيه الفرج الذي تبا به صديقه الصالح؟
ومانا لو عرفت أسرته ما يخفيه أو لو عاش أبوخطوة ليعرف ما صار إليه
صديقه الصالح؟ ومن في هذه الدنيا يتغير حقا ؟

أنتي البشكابن على صوت فتفعة إغلاق الباب المعدني لأحد الدكاكين .
كانت محال كثيرة قد أغلقت أبوابها ومع ذلك ظل الشارع صاحبا وجها
بالياعة الذين يفترشون الأرضفة ويتلون على بضائعهم ، وبازال القادمين التي لا
تقطعه من اتجاه الميدان .
دوالن يفتحون البيته يختبرون بأصواتهم لتسكت أصواته . ولكنه عرف أنه قد
حان له أن يدخل غرفته عندما سمع الصوت المنتمي بقى قاربا من الميدان . كان

يغير كل ليلة في الموعد نفسه . هل يبدأ جولته أم يختبئ؟
ويعرفه جيدا . ليس دائما جلبابا ظيفيا أبيض فوق (جاكتة) رمادية ، تغطي
عينيه نظارة سوداء ، وشconde فتاة ملابسها نظيفة أيضا . وهو يردد مرة بعد أخرى
بلا انقطاع ، بيضاء ، ويصوت شجي .

توكلت على الله ربِّي وخالقِي . . وأيقتَ أنَّ الله لا شكَّ رازقِي
إنْ كانَ لِي رزقٌ فليس يفوتش . . ورحمة الرحمن ملجاً المُزمن
كان يمر بخطوطه البليطنة لا يتوقف في الطريق ولا يسأل أحدا . تأخذ الفتاة
ما يوجد به المستون وتضعه صامتة في جيب جلبابها .
ظل البشكابن يتابع الصوت الجميل وهو يتبعه ثم همس لنفسه وهو ينهره :
لو تذلني كيف تقطعنَ المطلوب !

حضر والدا فراج مع اخته وزوجها وأولادها، وكانوا يلبسون ثياباً ريفية من جلابيب جديدة ويجلسون متزوين في ركن السطح، وكانوا يتمتعون كلما قدم لهم شراب أو طعام، ولا يتناولون بعد إلحاد سوى القليل، على عكس بقية المدعون القاهررين. حاول الباشكاتب أن يتغلب على إحساسهم بالغرابة بالجلوس معهم والبالغة في الترحيب بهم ولكن حباهم كان أقوى من كل محاولات الجد ومداعياته. ولم تقنع أيضاً جهود فراج الذي كان يترك مكانه إلى جوار عروسه في (الكرشة) ويقوم ليجلس مع أسرته مقبلاً للمرة بعد المرة يد والده ورأس أمه. ولكن الراقصة نجحت في خلق جو آخر عندما تمثلت في رقصها أمام الباشكاتب ووالد العريس وراحت تميل عليهما في دلال، فعلاً صفير الشباب وضحكهم. وأخذ الباشكاتب يتحقق ويتمايل بجسمه، ولم يشاركه نسيبه في ذلك، بل أطرق رأسه وبقيتضاً لارقايا وإن له نفث أن يضع يده في حببه ليعطي للراقصة وطالها (النقطة). ورحب شعبان بانتسابه في حدود الواجب ولكنه اختفى معظم الوقت مغتنماً بانتسابه في تنظيم الفرح (البوفيه) والترحيب ببقية المدعون. أما سالم فاحتل مقعداً أمام الكرشة لازمه طوال الفرح تقريباً، وكان الجميع يعرفون مسألة قلة كلامه فلم يتذمروا منه أكثر من التحية الموجزة قبل أن يعود إلى مكانه وصمت.

وفي نهاية الفرح قدمت والدة فراج (كردانها) هدية لفروزية وهي تقول بصوت خافت «تمنيت يابنتي لو كان عندي مال فارون» فقبلتها العروس التي كانت في قمة جمالها وسعادتها وقالت «يكفيني دعاوك يا أم». وعندما شبك فراج زراعه في ذراع فروزية ورقتها الراقصة حتى سلم البيت وسط طبول عالية وزغاريد أعلى صوتاً أطلقتها جارات فروزية وحبيباتها، تبع المدعون جميعاً الزفة التي استمرت لفترة طويلة على السلم.

لم تأت بعثة المانيا الشرقية وازدهار الصناعة بعد الحرب بسرعة كما توقع فراج، ولكن زواج فروزية هو الذى تم بسرعة. قال فراج إنه لا يريد شيئاً من الأسرة لأنه لم يدفع شيئاً. كل ما يريد هو امرأة وأن تشاركه حياته كما هي، على أن يبنتها مستقبلاً لها خطوة خطوة كلما تحصلت الأحوال، لكن الباشكاتب أصر على تجديد طلاق شقته الصغيرة وأن يفرشها من جديد على حسابه وظل فراج يعارض في عنان أن يدخل شقته شيء لا يدفع ثمنه. حاول الباشكاتب أن يشرح بأن العرف جرى على أن تجهز أسرة العروس بيتها، فرد فراج بأن المجتمع تغير وينتشر نبذ التقاليد البدائية. لكن الباشكاتب نجح في النهاية في إقناعه بأن يتقاسما التكاليف باعتبار نصف المبلغ هدية الأسرة لابنته والنصف الآخر قرضاً يرده فراج عندما يتوفى له المال، فوافق على مخصوص بشرط أن يكتب إيصالات بالمثل لتكون التزاماً عليه برد الدين، وأجمل في مبلغ الدين (الشبكة) التي اشتراها الجد ليقدمها فراج إلى عروسه.

تم فرج فروزية حسب الأصول ودفع تكاليفه الباشكاتب الذي تطلب على ممانعة فراج هذه المرة بأن قال له ضاحكاً «يا أخي فراج لا تحضر أنت إن كان لا يعجبك». ولكن نحن نريد أن نفرح يابنتنا!، وهكذا فقد علقت زينات كهرمانية ملونة في مدخل البيت وفوق السطح الذي أقيم فيه شادر ووصلت مقاعد تكفي لكل الجيران والمدعون. وعلق مكبر صوت ليصدح فيه المطرب ولتقدم الفرقة أحانها لأهل الحي.

خلا الشابر والسطح إلا من المصايب الملوثة المعلقة التي كانت أفرغها بهتز
اهتزازاً طفيفاً.

ووسط المقاد الشاغرة والمداخلة وقف شعبان سالم متبعدين.

★ ★ *

بعد زواج فوزية تغيرت الحياة في البيت .

أصبح من الضروري الاستعانة بشغاله ، كانت تأتي سرتين في الأسبوع لتنظيف البيت والطبخ، ولكن الباشكابي لم يعد يشعر براحة فيدخول المطبخ وإعطاء تعليماته لهذه الشغاله . غير أن فوزية هلت تتردد على البيت بالتقاطم من شقتها القريبة وتحاول تنظيم الأمور قدر الإمكان : تراجع أعمال الشغاله وتتفقد سالم طويلاً مع سالم ومع جدها التوحي بأن شيئاً لم يتغير في علاقتها بالأسرة، كما أنها لم تفقد امتياز ترتيب غرفة جدها التي كانت محلمة على الشغاله وكانت تأتي أحياناً بفردتها للتناول معهم القداء أو العشاء ، ولكن فراج الذي أحبه الجد كثيراً وارتاح لصحبته لم يكن يستطيع أن يزورهم إلا في يوم الجمعة . كان يعمل في الشركة في فترتين صباحية ومسائية، ولم يعد لديه أي فراغ .

وهكذا أصبح سالم وجده يقضيان معظم الوقت بمفردهما . لم يكن شعبان يظهر إلا عند العشاء، يعود عليه الإلهام دائمًا ويرد بالقصاص وأذب على أسلنه والده عن أحوال العمل، التي لم تكن جيدة في معظم الأحيان، كان بعد ثورة الوحيدة والتقصيرية الأجل قد قبل رأس والده طالباً الصفح قائلاً إنه لا يستطيع أن يعيش دون رضا عنه، وقال الباشكابي إنه تنسى ما حدث وإنه ربما لو كان مكانه لفعل ما فعله والده، رجعت أحوال شعبان وغيابه بما يدور في البيت مثلاً كانت من قبيل، ولكنه اعتاد قبل أن يدخل غرفته ليصل إلى العشاء ويعلم أن يسأل سالم عن دراسته، فبرد الجد بيتها على ما يرام، فيما عدا ذلك كان الجد والحفيد يتبادلان الحديث والسماع بحرية في البيت وفوق السطح على السواء .

- ٤٠ -

وفي تلك الأيام وفي إحدى جلسات المطبع طلب سالم من جده أن يحكى له عن جدته التي لم يرها، فسمع منه قصة زواجه، وكان زواج حب .

كان توفيق أفندي قد انتقل من أسيوط كاتباً في محكمة المنصورة ورأى (سمية) وهي تتردد مع والدتها على المحكمة فأخبأها من أول نظره، كانت بفداء، وممثلة امتلاكاً، حسناً، ولم يتم بيتها تصرفه كثيراً في السن أو بيتها لم تتجاوز السادسة عشرة، فعلى ذلك الوقت في مطلع الثلاثينيات، كانت هذه سناً معقولة جداً لزواج الفتى، وكان مرتبه كبيراً في حينها ولديه إيراد هذا البيت الذي ورثه عن والده، أي أنه كان مستعداً ومكتمل الرجلة فلم يتردد، ثم إنه نبه سالم إلى دروس مهم جداً لينفعه في الحياة: محتاج أي بنت في الدنيا هو أمها، وهكذا فقد سلك الطريق المأهول وكسرته الأم . ساعدتها هي وابنتهما في مزاعهما مع الأعمام على اليراث، يمكن قد يدق لهم الكبار بعد توزيع الأرض بينهما وبين الأعمام ولكن حتى بالنسبة لهذا القليل الذي كان يكفيهما بالكاد، بدأ أحدهما يرتفعون قضايا وتقامون اتصالات قديمة وتوكييلات موقعة من الألاب لافتراض بقية الأرض، وحين راجع توفيق ملفات القضايا في المحكمة أحس بخيরته أن هناك تزويراً وتلاعباً في المستندات وساورةه الشك في أن الحاسس الذي وكلته لأعمال صالح الأعمام، فنصح بتغييره وبالطبع في المستندات، وأمكن بالفعل بفضل تصاحبه استئناف القليل الذي يقع لهما من قبضة الأقرباء، وفي تلك الفترة بدأ يتردد بنفسه على البيت ليتابع الأخبار وليرشد الأم إلى ما ينفعه، وما كان قصده شربطاً فإنه لم يتردد أبداً زيارات تلك في استخدام لغة النظرات مع سمية، فسقطت الجدة كاثشرة الناضجة .

قال سالم : كان فرق السن بيني وبينها يزيد على خمس عشرة سنة، أتفطن أنني شعرت بذلك أو أنها شعرت به؟ الحب يا ولدي الثقا، روحين والأزواج لا عمر

- ٤١ -

ولكن سالم لم يسمع هذه العبارة الأخيرة، كان هو الذي شرد الآن بعيداً ثم
قال فجأة :

- ولكن ما الذي فعله أبي لتموت أمي وأمه؟
انتقض الجد في فزع :

- استغفر الله جديتك وأمك ماتت ميتة ربنا، الله وحده يأول.
لكل أمي ماتت صغيرة جداً.
هذا أمر الله، حكمه وحكمته.

ثم بدا على الباشكالب شئ من التوجس فقال لحفيده:
- ولكن لماذا تسأل عن ذلك الآن؟ هل سمعت شيئاً؟ هل قال لك أحد شيئاً ما؟

فأطلق سالم في سرعة وغضب: لا تكتب يا جدي!.. لماذا يهرب أبي مني،
لماذا يهرب من كل إنسان من فزوعة ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لا يزوره
أحد ولا يزور هو أحداً؟ لماذا يحول وجهه بعيداً كلما كلامه أنا ولماذا ينظر في
الأرض حين تكلمه أنت؟ ما الذي فعله أبي؟

قام السيد من مكانه و يقدم من حفيده بخطوات مهددة وهو يوجه نحوه سيارته
في غضب: إياك أن تتكلم عن أبيك هكذا!

ثم تمالك نفسه وقال وهو يضع يديه على كتفى سالم: أهدا يا سالم ربنا
يهديك.

لكن سالم لم يسمع تأنيب جده ولا دعاءه، بل واصل ثورته وهو ينتقض
- أبي فعل شيئاً يخفيه هو وتخفيه أنت، أبي لا يحبينا، كان يريد أن يمسعني
منذ زمن مع المجنين، وزوج فزوعية لرجل فلاح في الحارة لأنه يريد أن يتخلص
منها ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولأنه، لا تكتب يا جدي! أنت لا تحبه وأنت لا
تحبه ولا أحد يحبه ولهذا لا يأتيه زبائن في الحل، ولهذا يعاقبه ربنا!

لها وحين خضنا في النهاية بيت كنت أستعجل الوقت الذي أرجع فيه من المحكمة،
أكاد أجرى في الطريق ففتحت لي الباب قبل أن أطرقه وشوقها مثل شوقي.. تلهث
كتتها هي التي صعدت السلم وثبتاً لا أنا. تادرا ما كانا نخرج من البيت، لم يكن
أخذنا يحتاج غير الآخر، الآن أنسال نفسى من أين كانا منى بكل هذا الكلام؟ ولم
كان كل كلام يهجه؟ من أين كان يأتينا ذلك الفرج ونحن معنا؟ لماذا كانت كل
 أيامنا وليلتنا يوماً واحداً ممتداً من التعب ولياناً صارت الأيام بعدها طويلة
 كالدهور؟

قال الجد ودمع في عينيه إنه عرف معها سعادة لا تغواص عنها نساء الدنيا ،
ثم شرد طويلاً وحول نظره عن حفيده في اتجاه بيوت الحارة المتلاصقة حتى
ظن سالم أنه نسيه، لكنه عاد يقول بصوت أكثر خطورة دون أن ينظر في اتجاه
حفيده:

- لما أتيجتنا أياك فرحنا بالطبع، أحبيتنا ورغبتنا، كنت أقول إبني أراها في
فتقول إنها تراوني أنا، حتى طلقتنا لم يكن ثالثنا في البيت، بل كنا كلانا فنه مما
لم يكن في دينانا غيرها وغيري.

ثم تنهى طويلاً وهو يلتقط من جديد إلى حفيده قائلاً :
- كنت أفكر دائمًا أنني سأموت قبلها فتحاول أن أحدثها برفق عما تملك، عن
هذا البيت وعن نقود كنت أذخرها وعن المعاش الذي ستنقبضه بعد أن أرحل.
فترد: بدونك أنت لا حياة لي ولا له، ولكن انتظ، ها إننا قد عشت كل هذه السنين
الطويلة بعد أن رحلت هي :

كانت اليوم تقطي وجه الجد وهو يتحدث عن زوجته الراحلة، غير أنه لم يكن
يطبق الحزن طويلاً فمسح خذه وقال متضاحكاً :

- هانت! قريباً تلقاها وتلقى الأحبة .

كان يعرف أنه يخاف في شيخوخته أن ينظر إلى نفسه وأن يحاسبها، يكرر لنفسه دائماً فناء الوقت ولكن سالم أبيض من جديد الأشياء التي يجب أن تظل ثابتة.

^٢ ساله أبوخطوة في شبابه لما ذهب من نفسك ياتوفيق أفتدي؟.

فرد عليه بصرامة «لأنني لا أرى فيها ماسير»! فقال له: «ولكن كيف يمكن أن أراك أنا لاتدع، أنت تفضل».

لم يفهم توفيق في كثير من الأحيان ما يعنيه أبوخطوة بحديثه وتجنب التعق
في السؤال، بلأخذ يتهرب منه بالفعل بعد أن اعترف له بحقيقة حاله، غير أنه
أمن بعد أن التقى بسمية بأن الحب قد ألقاه بالفشل، لم تتبه حياته معها أى
شيء عرقه عن النساء، قيل لها، كانت كما قال لسالم كفایت من الدنيا، لم تكن أجمل
من عرقها عن النساء، ولا أكثرهن فتنته كامرأة، ومع ذلك فهو لم يعرف في حياته
متعة في ممارسة الحب كالتى عرفها مع سمية، كان هو الذى طالما عذبه قترة
جمدة، سرر تلك المتعة تماماً في كثير من الأحيان، طوال حياته معها لم تكن
سمية روجحة فقط، فائى شى، كان ذلك الحب؟ كان يشتتها ويشقق عليها ويريد أن
يجمعها من الدنيا ويريدتها هي أن تحميه فى حضنها وأن ترعاه هو الكهل كتلقل.
فإن جاء النقاء الجسدىن فكانوا هؤلئك لذاك كله، كان الحب معها امتلاء،
و، حمة.

- سائل البلاستيك نسله وهو يشعر بلذعة البرد فوق السطح للنلادا إذن وقد يوقف الحمى الحقيقية لم يتفقد ذلك الحس حتى نهاية الحياة.

وأين يعثر على إجابة للأسئلة التي عذبتني من مطلع العمر؟

نهض ترتيل ورفع راسه للسماء، التي ازاحت بالنجوم وكرر لنفسه:
— هانت!

حاول اليائشكاتب أن يتغلب على انفعال سالم بالبالغة في الهدوء

— لا يأولدي أنت تخطلي ، أبوك رجل طيب ياسالم ويعرف ربنا ، هو أكثر
صلاحا مني ومثل فلماذا يعاقبها ربنا؟ أنت لا تعرف إلا ما تقول ، أبوك يحبنا
وأنا لم أكرهه أبدا ، ولا أنت أيضا يأولدي لأننا نعرف أن حمله ثقيل ، ماتت أمك
وكانت سنه أصغر مني بكثير عندما فقدت جدتك ، كفت أنا رجلا كبيرا فاحتفلت
با زفافك ، شابي ، هل قيمت؟ أهدا ياسالم .

دستورالعمل: کل یا سالم.

٢٣٠ - الأذن، ملائكة الماء.

• ٢٠١٣ - ٢٠١٤ - ٢٠١٥

فـ¹ باقتضای: أشعر بالبرد.

يُقْرَأُ مِنْ بَابِ الْمَسْكَاتِ بِمَفْزِدَهُ فَوْقَ السَّطْحِ وَلَمْ يَكُنْ يَكُرَهْ شَيْئًا قَدْ كَرَاهِتَهُ لِلْوَجْهَةِ

في شبابه لم يكن هناك مجال لهما، كان مشغولاً بمقامراته وعمله ورفاقه، وفي كهولته اعتاد أن يذهب إلى مقهى قريب من البيت ليلتقي بالجيرون والأصحاب، يتبارأون الأحاديث والذكريات والضحكات، ثم بدأ زفاف العمر يرحلون واحداً بعد الآخر، ولم يعد يرى في القهى حين يذهب إليه وجوده من بقى منهم، وإنما صور من رحلوا، فاعتنقت في بيته معظم الوقت وشقته صحبة ولده وحفيديه.

منها: الثياب المهرة، والأحذية المزخرفة الجلد والمعوال، والمستديق الورقية والزجاجات الصغيرة الفارغة، وتفضل بصفة خاصة الأشياء العديمة: الأقفال والمرايا الصدمة، عدد موافق الكيروسين الثالثة، مقابض الأبواب المكسورة... إلخ، ويعرف الجميع أنها تخزن هذه الأشياء في «السجارة» الخشبية الضخمة التي تشغل كل مساحة شرفتها، ظل يعتقد لفترة طويلة أنها تستقيم بشكل ما من هذه الأشياء القديمة، ولكنها بعد إصابة زوجها بالشلل استدعت باائع الروبيكينا لتبيع بعض مقتنياتها، فقال البائع إن الشيء الوحيد الذي يصلح للشراء من هذه التفاسيات هو (السجارة) نفسها ونزل متبعاً بشتائم السيد إنصاف حتى الدرجة الأخيرة من السلم ثم لاحظته بسبابها من الشرفة إلى أن اختفى بغيره عن الانظار، ومنذ ذلك اليوم قلل من أبزوريد الباب وأن يعطيها الإيمصال في أول كل شهر دون أن يلتفت لها الإيجاز، قال إنه سيفصلها بنفسه من الحاج إبراهيم بعد أن يقوم بالسلامة، شكرته السيد إنصاف ودعت له كثيراً وطويلاً ولكنها قلت تدق الألات في الظهرة ولاتخرج أبداً إلا وفي يدها شيء.

انتبه منذ مدة طويلة إلى أنه كلما كانت العادات الغربية وغير مفهومة استحال التخلص منها، واعتقد لفترة أنه أخطأ في الحكم على جاره الأسطوري حميد الوحيد من السكان الذي يقاربه في السن، ظل الكهربائي بالفعل مهموماً ومهدماً بعد وفاة زوجته، كان يعيش في جنائزتها وهو يمسنده بيده من ناحية وجار آخر يمسنده من الناحية الأخرى، وهما يحملان تقريراً بينما يجرجر بالكلاد قدميه، واعتكت في بيت أسابيع طويلة يدها، واعتقد أن يقضى معه أمسيات كثيرة يحيطه على الرجوع إلى عمله والتسلیم بقضاء الله، وعندما فتح الكهربائي دكانه أخيراً رجع بعد قليل مثلاً كان من قبل بالضبط، يستوقفه على السلم حين يلقاء ليهمس في ذئنه بأخر النكات المكتوفة التي ظل الأسطوري حميد عمره كله يحب الاستماع إليها وروايتها

استعصم اليوم على الباشكتاب في تلك الليلة، يقى في غرفته بسبب البرد ولازمته في فراشه الألكار التي طالما حاول أن يهرب منها، ومع ذلك فقد كان يعرف، بل كان واثقاً في قراره نفسه أن ذلك الهم لن يستمر معه سوى يومين أو ثلاثة ثم يرجع بعدها إلى طبيعته، اكتشف منه زميل طوبل أن الإنسان مهما يصادف في الدنيا من مشكلات أو حتى من مأساته فهو لا يستطيع أن يكون غير نفسه، لم يصدق أبداً أن أحداً يمكن أن يتغير تغييراً حقيقياً، فهو نفسه ولا غيره، سيقى سالم هو سالم بحسبه الطويل وتوبات الهايج التي تأتيه بين الحين والحين، وسيقى شعبان ذلك الكائن المصمت الذي لا يفهمه أبداً ولا يعرف ما يدور في رأسه، وسيقى فوزية على حنانها وحبها للضحك أيا كان ما يحدث لها في الحياة، سمع هذه السنة أن جارهم الأسطوري حميد الكهربائي العجوز قد هدء حزنه بعد أن ماتت زوجته، وأن جارتهم السيد إنصاف قد لزمت البيت لأنفك عن السكان، منذ أيام شلل تصفى زوجها الحاج إبراهيم المنجد، لكنه كان واثقاً في قراره نفسه أن الحنة لن تغير أيا منها، وطلب من الله أن يسامحه على ذنبه، وبالفعل فإنه بعد أسبوع من مرض زوجها رجع السيد إنصاف تساوم الباومة الجائين كعادتها وتشاجر معهم بصوتها العالى من شرفتها في الطابق الثاني دون أن يردعها الحزن، ورجعت إلى هواياتها الأخرى التي يعرفها تماماً، تدق الباب في الظهيرة في حضور فوزية لشرب معها القهوة وتقتل لها أخبار السكان، ثم تحاول رغم مراوغات حفيديثه أن تعرف أيضاً ما يدور في بيت الباشكتاب، رجع كذلك إلى هواياتها الأخرى، إذ لم تكن تخرج أبداً خاربة اليدين، بل تطلب من فوزية ومن غيرها من الجارات وتجمع - حتى من الشارع - كل الأشياء القديمة التي لانفع

بعد دفع العواند وإنارة السلم ومرتب الباب، لكنها كانت ترغم جدها على الاعتذار وهو يحتضنها ويستند إليها إلى أقرب مقدار في الصالة.

اعتقدت أن تائى أكثر من مرة في الأسبوع خلال النهار، ترتب غرفة جدها وتختلى به قليلاً، تحدد للشغالة أصناف الطعام التي تطبخها، وتجلس مع سالم كثيراً إن كان في البيت لتتحدث معه عن أحواله وعن دراسته، تحاول أيضاً أن تذيب نفوره من فرج الذي حدسته منذ البدء، لم يقل لها سالم أى شيء، بعد احتجاجه الأول على خطيبتها ولكن صمتها كان يصبح أعمق وأطول عندما تائى بصحبة زوجها، بل بدأ بعد الزواج يتبعها كلها يعاقبها، وحاولت فوزية كثيراً غمرته يحبها واهتمامها أكثر مما كانت تفعل من قبل واعتقدت أن تقضي معه أوقاتاً طويلة دون أن يعذر له، كما كانت تفعل مع جدها، يائى يجب أن تنتصر لتجز الأعطان في بيته.

ولم تكن تتكلف هذا كله إذ كان حبها لأخيها كبيراً، اعتقدت لا تشیر كثيراً إلى فرج أمام سالم في بداية زواجهما، وبدأت بعد فترة تقول بشكل عابر إنها تعتقد أن عرق (العيط) الموجود فيها يرجع إلى أن أمها وجدها فلاحتان، وقالت إن فرج أيضاً (عيط) مثتها يصدق كل مايسمع، بين مستقبله كله على كلمة سمعها عن أنه سيسافر إلى بعنة، ولما انتهت أمر هذه البعثة جاءت في رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية فيزيون مرتبة، لوحظ بيديها أيام أخيها وهي تضحك «وحلنى ياسيني»، وقالت إنها تعتقد أن من أسباب عبطه أنه عندما كان طالباً في الجامعة أدخلوه في معهد اسمه المعهد الاشتراكي وهناك علموه أن كل الأمور (تمام) وهو مازال يصدق هذا الكلام، تصور! يقضى في عمله ساعات أكثر من زملائه لكن «يزيد الإنتاج» ولكن سواه، زاد إنتاج المصنع أو قلل فسيظل مرتبه كما هو لا يزيد ولا يتقدم أليس كذلك ياسالم؟ فلماذا لا يفعل مثل زملاته العقاد؟

وهو يضحك من قلبه في الحالتين، لم يدهش ذلك كثيراً ولم يدهشه أيضاً أن الكهربائي لم يغير عادته الغريبة الأخرى، إذ ظل دائماً آخر من يدفع الإيجار من السكان بعد أن يتضمن من الشهر معظمها، يقول للباب حين يحمل له الإيمال أن ينتظر بضعة أيام إلى أن يفرجها ربنا، ويشكره أبو زيد الذي لم يعد يستطيع احتمال صعود السلم وزرولة، كان الباب قد فقد أسنانه كلها وأصبح يتكلم اللغة الغربية لا يفهم منها غير عبارة «الأسطري حمى»، فيقول له إلا يطالبه مرة أخرى لانه سيدفع من ثلقاء نفسه حين يريد، كان يعرف أن حبيبي لايعانى أى مشكلة مالية، بل ويتشاء أنه ليس بخيلاً، فهو يستطيع دائماً في المناسبات بتركيب الزينات الكهربائية في البيت على حسابه ويصلح الأعطال لغيره بالمجان، ولكنه لم يصب ما يكره أن يخرج نقوداً من جيبه ويرجع، ذلك مادام يستطيع ، ولم تغير ملائكة شيئاً من ذلك.

نعم، هو يعرف حدود أحزان البشر، ويعرف أن هناك أحراناً الله تعالى وآباء ولكن يفهم أيضاً معنى ذلك، لا أحد يتغير بسبب الحزن، وأقل من ذلك بكثير بسبب شجار مع ولده أو نقاش مع حفيده أو ذكريات من أيامه التي تذهب لماذا يريد أن يكون هو الاستثناء، ستنتهي هذه الحالة بعد يومين أو ثلاثة أيام.

مع ذلك قضى الباشكتاب معظم ليلته مؤرقاً، تزوره وجود أحبائه الذين رحلوا حين تغلق عينه، ثم صحا مجدها على غير عادته في الصباح، لكن أحزانه لم تظل حتى يومين أو ثلاثة كما تبتا لنفسه.

للفي الصباح كان يتلقى فوزية في أحضانه وكانت يضحكان معاً، بدأ تظهر عليها أعراض الحمل وكانت تدخل البيت لافتة من طلوع السلم وهي تضحك واضحة يدها على بطئها وتسائل: لماذا اختارت الدور الثالث ياجدي؟ ومني تركب مصعداً للبيت؟ لستنا جميعاً شباباً مثلنا؟ وكانت تعرف أنه طلب مستحيل في بيت لا يكاد يتبقى من إيجار مسكنه شر،

لما زا يهلاك نفسه في العمل، ولما زا يضم على أن يخصم من مرتبه الصغير كل شهر ليرد إلى جدها أقساط دين لم يطالبه به، يذمك هل يفعل هذا أحد سوى العبط؟

كانت مقاومة سالم أعمق بكثير من كل محاولات فوزية، ولكنه أراد أن يرضي اخته فحاول أن يقترب قليلاً من فراج، وعندما كان يرى سعادتها وهو يرحب بزوجها قليلاً أو يتباين معه الحديث أو يشاركه الفسح كان يرجع إلى صفتة على الفور، وفهمت فوزية ذلك أيضاً فبدأت تتجاهل وجودهما معاً، ثم إنها منذ بدأ العمل انشغلت عنهما.

وساعدت ظروف سالم في تلك الأيام فوزية، كان مستغرقاً تماماً في دراسته واستعداده للثانوية العامة، اختار أولاً قسم الرياضيات بناءً على تصريحه أستاذه الذي رأى مستقبلاً في كلية الهندسة ولكن عندما رأى في وجه جده الحزن وخيبة الأمل عدل اختياره ودخل القسم الآدبي، ولم يكن الباشكابي قد قال شيئاً قط عندما علم باختياره قسم الرياضيات غير أنه احتضنها في فرج بعد أن غير المختار، قال إنه واثق - ويكان يقسم - أن سالم سيصبح وكيل النيابة وربما ناقصاً؛ كان يثق في ذكاء حفيده وفي ثبوته سمعها من أبوخطوة وإن لم يدرك معناها تماماً، ومع ذلك أصر على أن يستعين سالم بمدرسین خصوصيين في التاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، وأشرف بنفسه بهمة مضايقة على مقرر اللغة العربية.

ولكن كيف إنن حدث الخصم في تلك الأيام الخامسة؟ وفي عز المذاكرة، قبليماً كان الباشكابي يتبع سالم ولا يكفي عن تشجيعه ليكون منذ البدء من الأولئك في كلية الحقوق، غضب على حفيده فجأة غضباً شديداً دون سبب واضح، كان في العادة سريع الصنف إذا ما أتساءل سالم التصرف، لا يشير بكلمة واحدة إلى ما يسمعه من إساءة له أو لغيره في نوبات الهذيان التي تصيب حفيده، أما

في هذه المرة فلم تحدث نوبة من هذا النوع، ولم يستطع سالم أن يعرف سر تحول جده الذي ظل أياماً يكلمه بطريقه جافة وفي الأمور المهمة وحدها وامتنع عن الصعود معه إلى السطح وعن دخول غرفته، حاول مرات عديدة أن يستعرض جده وأن يستوضح سبب غضبته قلم يلقي أبداً.

لها سالم إلى أبيه وهو في غاية الحزن، وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي تحدث فيها مع أبيه عن جده أو عن أي موضوع آخر، غير أن شعبان قال لأبيه بلجة تأثير صارمة:

- أنت أغضبست حضرة حضرة الباشكابي فقبل يده ورأسه حتى يرضي عنك، لن تتوجه في الشهادة مالم يرضي عنك.

لكن سالم اكتفى، لأن حال أبيه كحاله وأنه لا يعرف أى شيء عن سبب انفصال جده للخارج، وكتبتا حاول مع ذلك أن يعمل بالتصحية، لم يسمع له الباشكابي أن يلعن بيده تأهيل من أن يقليلها، نظر نحو حفيده في غضب وهو يتقدم منه مادراً جده فترفع سالم على الفور.

فور توحدها هي التي استطاعت فيما يليه أن تفعل شيئاً لمساعدة سالم في تلك الأيام الصعبة، فعلى أول زيارة لها بعد ذلك التحاصم الكثيف حكى لها شقيقها عمها بجرى لفكرت لحظة ثم قالت بابتسامة:

- هل حدثت مثلاً عن خروجه يوم الخميس؟ هل ساكته أين يذهب؟
- لا بالطبع، ماشتن بذلك؟

- فهو تعرف أنت إين أين يذهب؟ هل تابعته مرةً؟

- أنت مجتونة يا فوزية؟ كيف يمكن أن أتجسس على جدي؟

- أنا مستعدة أن أتجسس لو استطعت! أدفع نصف عمرى وأعترف أين يذهب يوم الخميس!

ثم أضافت وهي تضحك: مازا يفعل جدنا المكار؟

عندما كان الباشكات ينزل السلم يوم الخميس طرأ على ذهنه أن بعد أيام سبعة الخامس والسبعين، لم يتعد أن يحتفل بعيد ميلاده ولا حتى أن يذكره إلا بعد أن ينتهي بيده، غير أنه توقف لحظة عندما ذكر وقال لنفسه:

- ها إنذا أبلغ الخامسة والسبعين ومازالت مبنية بالصحة والعافية، ولدت في أول سنة من القرن قبل سبعين على أن أحمله على كثفي حتى نهايته.

بدأ ينزل الدرجات ببطء على غير عادة، تمنى لو يقابل أحداً من الجيران ليقف معه قليلاً ويتحدث إليه، ولكن في ذلك الوقت من النهار يكون الكبار في أعمالهم والصغار في مدارسهم، كان هناك الصمت الذي يلقى ويحاول أن يهرب منه ألا يلمس صحت ينفث السلم والعبارة كلها، قليلاً وسميكاً يوحى بالفراغ والوحشة، يزكده وقع خطواته وإيقاع عصاه.

توقفت على بسطة السلم وحدث نفسه مرة أخرى: صمت أثقل من ذلك سجيني، عما قريب، فكيف ستواجهه؟ لا ياسيدى، لا تخدع نفسك، لانهاية القرن دربها حتى لانهاية العام.

أسرعت خطواته على الدرج الخالي كأن هناك من يطارده، وتتنفس بعمق حين خرج إلى الطريق المزدحم، اتجه كالعادة نحو محطة (الأتوبوس)، لكنه حاد فجأة عن طريقه وجلس على مقهى كان يتردد عليه من قبل في بعض الأحيان، جلس يطل على ميدان السيدة زينب الواسع، يغزو سمعه صليل عربات الترام المتتابعة ونداءات باعة السجح والبخور، وباعة الفاكهة الجائعين وصيحة مجنوب المستطاولة الملتحى الذي يلبس فوق الجلباب سترة صفراء، ويصبح أمام يابها «مدلاّد» وهو يلوح بعصاه الطويلة، وأشارته هذه الضجة المأكولة بالطمأنينة، ركل

قال سالم ناقد الصبر: يا فوزية ليس هذا هو موضوعنا، هو حر يفعل ما يشاء، ولكن لماذا ..

فجأة استكتئف فوزية بحركة من يدها، وبدا أن فكرة طرأت على بالها، ثم انطلقت في حركة عالية وقالت: فهمت! أظن أن جدك يعتقد أنك تسرق المجالات من الآخرين، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر.

سأل سالم في حيرة: أية مجالات؟
فقالت وهي تنظر في عين شقيقها مباشرة واستسامة عابثة على شفتيها:

- إل م ج ل ١١١ ت الصورا.

لم يفهم أيضاً فطلت تنظر إليه من أعلى إلى أسفل، ثم حدجته بنظرة فيها شيء من الإشفاق وهي تقول:

- معقول أنك لا تعرف يا سالم، مع كل هذا الطول والعرض؟، هل هذا عيب أو استعياً؟.

قال ولوجهه تشن به على وشك الانفجار: عن أي شيء تتكلمين يا فوزية؟ أنا لأنفهم أي شيء، مما تقولين، أي مجالات؟ أنا لا أفك في أن أحد يدي على الأدراق جدي.

فرفعت فوزية يدها مرة أخرى تسكّت أخاهما وقالت:

- إنس، ساتكلم أنا مع جدي وسأعرف منه كل شيء، لاتفاق، من لجدك غيرك في هذا البيت؟، لو صبرت قليلاً لن يستمر هذا الخصم.

ثم انصرف عنه إلى جدها المعتكف في غرفته، ولا يعرف سالم ما الذي فعلته فوزية أو ما الذي قالت له جدها، ولكن في عصر ذلك اليوم حدث شيئاً: صمم الباشكات على طرد الشفالة الجديدة، وهن في وجه حفيده من جديد وهو يسأل:

- هل اشتريت الترس؟.

ثم إنها رجعاً صاحبين.

بالفضيلا، ليس تماما، فهو في الواقع طمع في الفرج الكبير، لا، ليكن صريحا
هو مازال حتى الآن يطمع، ربما لهذا أتته الأحزان الكبيرة منذ فقد سمعية.

جاء الجرسون بالقهوة وقال بللوجه الاستعراضية وهو يصبعها أمامه في
الفنجان:

- ها أنت ذا ترى يا حضرة الباشكاتب، جابر أيضا ليس عجوزاً، لم أنس
طوال هذه المدة قهوة، هاهي ذى : « على الريحة».

ابتسم الباشكاتب بالرغم منه وهو يقول: فضحت نفسك يا جابر! أنا أشربها
طول عمري (زيادة).

أراد جابر أن يرفع المangan معترضاً: غبت هنا أطول من اللازم يا استاذ،
لكن الباشكاتب أزاج بيده قائلاً: اترك، زيادة أو ناقص كلها سموم، لا تفرق،
قل لي يا جابر، كتف حال ومانك؟

- انتهوا يا استاذ، الدنيا تغيرت والزيارات تغيروا.
- أخفا! قل لي كيف يتغير الناس، أحب أن أعرف.

قال بالتفهّم وهو يضرب كفه على كف: يتغيرون بسرعة؛ اليابان القدامى
اختنعوا، يائسوا الآن في النساء، شباب، عواجيز لا يشحدون إلا عن السفر إلى
بيروت وتغيير البضاعة من الجمرك وتغيير التولايات، حتى زبائن زمال المحظوظون
مثل حضرتك يغضّهم الآن يا استاذ يشقّلُون تجاري شنطة. (يسبسون) شعورهم
ويليسون تذكريات سوداء في عز الليل ولا أعرف لماذا؟، والكل الان يشتري أرضًا
ويبني بيوتاً، مثل الأرض الذي كان يسرع التراب في حواري السيدة أصبح الآن
بياع بالشىء، الفلاني.

لم تكن هذه الأخبار لهم الباشكاتب في شيء، فقال وهو يأخذ رشقة من فنجان
قهوة:

- ذكرتني يا جابر فشكرا لك، جاش خطاب قبل أيام من تنظيم الحفل بأنـ

يصره على قبة المسجد البيضاوية، وقال لنفسه إنه ملزم الآن أن يذكر في مصيره
بطريقة أخرى.

في الدقائق الخمس الأخيرة قبل جمع الأوراق تذكر أبو خطوة وزيارة الأخيرة
له قبل خمسة عشر عاما، هو واثق أنه لو أتجهد ذهنه ليفهم معنى ماحدث في هذه
الزيارة فسيجد حلاً لكل ما يزوره، لكن في تلك اللحظة جاء جرسون المقهى العجوز
الذى يبريش بجفونيه ورحب به بحرارة وهو يهتف: عاش من شافك يا حضرة
الباشكاتب، ثم أضاف بللوجه تمثيلية: «أين أنت وأين أيامك الحلوة؟ شافت
الرؤوس وأصبحنا عجوزين».

تغلبت على الباشكاتب طبيعته: أنت الذى أصبحت عجوزاً وجداً يا جابر، أنا
المحسان هذا ليس شيئاً، هذه صبغة.

انصرف الجرسون ضاحكاً ليحضر له القهوة التي طلبها وأعاد الباشكاتب
يذكر: نعم، هو لم يكن، مازال بالفعل كالمحسان ولكن حتى متى؟

وكيف انقضت سنوات عمره الطويلة دون أن يشعر بالزمن؟ لو كان أبو خطوة
حياناً لسافر إليه مرة أخرى ليسأله عن المفترى، بل لسافر إليه لياعتنه آلة لم يدله
بما شرط على الطريق بدلاً من أن يترك سادراً فيما هو فيه بكلام غامض عن الحب
وعن الندم وعن الحياة، الذي هو بباب آخر.

لم تفده كثيراً أيضاً تلك الكتب التي أعطاها له أبو خطوة الذي يقرأها، لم تكن
كتباً دينية بالطبع، بل كتبها عن سير الصالحين وطرائق السالكين، أحب قرائتها
كثيراً كما كان يحب في شبابه قراءة الشعر، وجد فيها كلاماً جميلاً مازال يذكره،
بل مازال يحفظه: «سوابق الهم لاتخرق أسوار القراء»، ورب عمر اتسعت أماته
وقلت أمداده، وإن قلل مانقرح به قل مانحزن عليه.

ذكر وهو يبسم نفسه: هو يحفظ هذه العبارات لأنها تشخص حالته

هناك شرخاً في جانب البيت.

سأله جابر بلهفة وجاذبية (بيريشان) بسرعة أكبر: ستفهم البيت يا أستاذ؟

رد الباشكاتب في دفنشة:

ـ لماذا أهدمه يا جابر؟، سارعه طبعاً.

ـ فنكم بلهجة المشق على زبونه القديم:

ـ غيرك يا أستاذ يدفع أموالاً ليحصل على هذا الخطاب؟، كل الملاك يتمضون

الآن هدم بيوت الإيجار القديم ليكتي بينها عمارات للتعليل.

هز الباشكاتب رأسه دون اكتراث وسكت لكن يفهم جابر أنه لا يريد مواصلة

الحديث، ولكن جابر قلل منكنا إلى جواره وأخيراً تنهج وقال وهو يشيع بوجهه

قليلًا:

ـ قل لي يا حضررة الباشكاتب، بالامس أخذوني أحد الزبائن أن الحكومة

تسمع الآن بتغيير الدولارات في السوق السوداء، فهل هذا صحيح؟ الزبون يريد

أن أعمل معه في تغيير الدولارات ويعطيني عمولة لكنني خائف.

ـ معك حق يا جابر، تغير العملات خارج البنوك جريمة حقوقية السيف.

ـ يا ساتر يا رب، الله الغنى.

ولكن عندما انصرف جابر متظاهراً بالذعر تسامل الباشكاتب إن كان يسمى

النصيحة بالفعل أم يعرض عليه الدولارات؟ لم يتغير جابر، من قبل كان

يعرض على زبنته لفائف (الكيف) في ورق (السيلوفان)، لعله مازال يفعل ولعله

الآن يجمع بين الحستين، مثاله هو وذاك؟، المهم الآن أن يتغير هو نفسه لو

استطاع.

ليتمس حين تذكر عبارة أبو خطوة المهم لا تيأس من الاستقامة إن وقع منه

ذنب فقد يكون هو آخر ذنب كتب عليك، إن ينسى يا توفيق أفندي كنت شخصاً

سقط من فوق قمرس، فإن ظل ساقطاً على الأرض فمات بلوغ مقصدك وإن جاد

لبرك قرسه من جديد وصل إلى غايتها.

ولكن كم مرة عاود هو امتحان الفرس دون أن يصل إلى أي مكان؟

أراوح فنجان اللثة من أمامه في شيء من الضيق وهو يزغرف: لماذا يظلم نفسه؟ هو ليس إنساناً سيناً إلى هذا الحد، أكد لنفسه: أنا لم أؤذ إنساناً في حياته، أحبيت الناس جميعاً، ولم يعرف البعض طريقه إلى قلبي ضد إنسان حتى ولو أساء إلى.

وبعد أن ماتت سمسمة المم أبيق وأفيا لذكرها عشرات السنين؟ نسيت هذا الجسد الذي ابتلاعني به الله وكرست حياتي لولدي ولولديه من بعده، حتى عندما زرت أبوخطوة آخر مرة لم يكن هذا من أجل نفسي، بل من أجل شعبان، ومرة أخرى حيرني الرجل (الطلب) بما قال وبما فعل.

ـ ولكن وما تكمن تلك في اللحظة التي ستكتشف كل شيء، ربما تكون هي لحظة النداء، للพยายาม الان استعادة كل شيء، كلمة كلمة، خطوة خطوة، كان قد أسمى صوراً جداً عندما زرت، كنت أنا نفسى قد خرجت إلى المعاش وخرج هو ثيله بكل قليل لكنه وجدته مع ذلك في مكتب القديم نفسه، تعلموا في المحكمة يأخذون دائم لإبقاء عليه في الخدمة، «للاستفادة من خبرته»، حتى ولو لم يفعل شيئاً على الإطلاق، أراواه فقط أن يظل معهم ليشعروا بأن (البركة) باقية في المكان، احتضنتني حين رأته وقال: كنت أعرف أنه لن تفوتك المناسبة، وأنك ستبلي الدعوة، لم أفهم معنى ذلك في حينها ولكنني اختفيت به وحدثه عن شعبان، إنني استخرت الله وأعدت فتح محل جده لكن أحواله في العمل ليست على ما يرام، كنت إنني جئت التمس النصائح والهدايا، استمع إلى بانتباها وحين انتهيت سألتها بالاهتمام: «ما اسم حفيدك الصغير يا أبا توفيق؟»، ثم أخرج مفكرة من جيبه وكتب فيها اسم سالم، خشيت أن يكون قد أساء القلم فقلت له يا مولانا ولدي اسمه

نحوى يعىين مفترر قرين بالدموع ثم رفع يدى فقبلها، هو الذى كان يائى على الآخرين أن يقبلوا يده ويرجحهم إن حاولوا ذلك، سائله فى ذهول وسط دموعى «أنت تفعل ذلك، وأنا الذى أدعوك يا مولاانا؟».

فهز رأسه وقال بصوت خافت نعم، فكم أحتاج إلى دعاءك.

ليلتها لم أكذ أعرف النوم فى غرفة الفندق الصغير فى أسيوط، أتنوى فى المساء سمية ورأيت وجهها يشبه وجهي أبو خطوة أو ربما كان أبو خطوة يقف إلى جانبها وسط زحام كثير فاستيقظت من النوم وأنا أتشاج وارتجمف، ثم أسيبت الوسوء، وصلبت وانا أطلب المغفرة وأدعوه لأبو خطوة طويلاً وكثيراً كان تنفيذ وصيبه تلك سيفتح لي باب النجا

وفي الصباح الباكر وفدت إلى المكتب القديم، ابتسما لي أحد السعاة وقال مولاانا لا تأتى فى مثل هذا الوقت المبكر.

لكن أبوخطوة أتى مبكراً في ذلك الصباح.

احتضنى بوجه باش وهو يقول: «رأيت لك الليلة رؤيا وبشرى» فقلت: «وأنا أيضاً رأيت فى المساء». ثم سالته بلهفة: «ماهى البشرى؟» فهز رأسه دون أن تفارق الابتسامة شفتيه وقال: «لستا مانورين بالبوج، ولكن هى خير». ثم وضع يده في جيبي وأخرج ورقة مطوية أعطاها لي وهو يقول: «هذه لحفيدك سالم ياسيد توفيق، عندما يأتى الوقت لادتعها تفارق صدره، فلتكن دانما قرب قلبك»، أمسكت الحجاب المطوى بين يدى ورحت أقلبها وأنظر إلى قنحولت ابتسامة أبوخطوة إلى ضحكة ظلقة وهو يقول: «لانخف ياخصرة الباشكانت». تحن لاتصنع سحراً ولاتكتب تمام ولا خرافات، هي أدعية كتبتها من قلبى وأرجو أن يقبلها الله، فخدمت أعرف ذلك بالطبع يامولاانا ولكنك أردت أن أسأل عما طلبت منه ولدوى فرد ياقتضايا: «سيكون بخير يابن الله»، سائله بالحاج «دعوت له يامولاانا أن

شعيان وهو الذى من أجله جئت، لكنه أكمل وكانت لم يسمعني «أمهلى حتى اللد يا أخي توفيق، غداً ستجد ماتطلبه حاضراً يابن الله»، ثم غام بصره قليلاً وهو يتطلع نحو السقف قبل أن يقول «معك حق يا أخي، أحياناً يكون أحظاناً أحلى بنا من أيامنا الذين هم أصلابنا، أحياناً أيضاً يكونون أيامنا دون أن تدرك»، لم أجرؤ على مراجعته لأنقول له إنى مانطقتك بشىء من ذلك كله، لكنى غممت «سالم صغير يامولاانا، لم يدخل المدرسة بعد، أما أبوه فيحتاج حقاً أن تدعوه» فرد: «ومن هنا لا يحتاج إلى الدعا، وإلى رحمة ربنا ياخصرة الباشكانت» غير أن الطريق طويل وخطانا التي نحبسها تخضى بها على الطريق تقودنا أحياناً إلى عكس الطريق، سعيد من تهدى خطاء فلا يضل، ولا ت慈悲 يائزفique أن عملك أو علىى هو المتبع وإنما هي رحمة مولانا».

لابد أن يكون قد رأى فى وجهي وقتها الحزن لأنعد ياخصره على إكتفى كانه يغضى إليه ونظر إلى يحنو كما ينظر إلى طفل صغير وقال: «لا تخش شيئاً ياخصرة الباشكانت، أنت رجل صالح وستحل بك وينسل البركة يابن الله»، تناهى من أول اللقاء، آن أحدث عن نفسى ولكنه حين تكلم عن صلاحى مفتر من عين الدموع وقلت بصوت مختنق: «أنت تقول لي ذلك وأنت أدرى الناس بخيانتي»، فرد: «ولأننى أدرى لئن أنا أتكلم، الأرواح وحدها هي التي تتلوث يا أخي توفيق وأنت روحك أصنف من البلور، من أدرك بخيانتي أنا أو بذنبوى؟»، أنا كنت أسوأ مما يمكن لخيالك أن يتصور، أتحسب أن الصالحين يولدون ملائكة؟ ألم تعلم أنه كان منهم الغوانى واللصوصون؟»، قلت: «ولتكنهم تابوا في الوقت صالح فاصبحوا من الصالحين، أما أنا كما ترى فقد مررت بى السنون وصررت شيخاً أشيب»، فقال: «لابد من الوقت إلا من يجعل أن الرحمة تسيق الوقت ولا يسيقها الوقت، وأنت كابدت وستكابد أكثر قادع لي يا أخي توفيق»، وجين قال ذلك نظر

زيارة مصفرة ومتعددة وقدمها الياشكاب الذى نظر إليها فى دفعته وهو يسأل
ما هذا يا جابر؟

- عنوان المسماى الذى حدثت عنه باحضور الياشكاب.
- أى مسمى؟

- إن شئت حضرتك أن تهدم البيت أو بيعه؟

سأله فى ذوق:

- أنا حدثك يا جابر عن هدم البيت أو بيعه، أنا لكت لك يا إبنى إننى سارمه،
فقال وهو ما زال يضع البطاقة تحت أنف الياشكاب:

- هو بعدل أيضاً في الترميم.

انظر خطير رقم ثيابونه لقد تحتاج إليه.

ابتعد الياشكاب عنه وهو يقول إن احتجت إليه فسامعو إيلك، شكرًا.

ثم انصرف من المقهى وظل يلتف فتره في الطريق، فكر للحظة أن يرجع إلى
البيت، ولكن خطاه قادته إلى محطة الأنبويس وهو يقول لنفسه:

- متاخرنا على الهاشم.

عندما رجع الياشكاب إلى البيت متاخرًا في الليل كالعادة وجد سالم
مستغرقاً في الاستذكار، فجلس إلى جواره يراجع معه ما أكمل من دروس، لكن
سالم قال له:

- قبل أن أنسى، غوزية كانت هنا.

- في الليل هل كانت تزيد شيئاً؟

- نعم، قالت كلاماً غريباً، ساكت إن كان من الممكن أن تبني مكان (الجنبية)

يسير له الله؟، فقال: «كثيراً يا ولدي، وادع له أنت أيضًا دون أن تفقد الأمل.
واعلم أن الامر كما قال أشياخنا، فقد يفتح للمرء باب الطاعة دون أن يفتح عليه
بالغلو، وربما يقضى عليه بالذنب فيكون سبب الوصول».

★★★

ظل الياشكاب في المقهى مستغرقاً في التفكير، راح للمرة الالتفات يستعيد
التفاصيل والعبارات التي حفظها ليدرك معناها، وهاهو زا في المزيع الأخير من
العمر مازال متغيراً كما كان في البد، قال لنفسه: أفهم بالطبع أنه حدس أن
سالم سيفكون في حاجة إلى المساعدة أكثر من أبي، أما كيف حدس ذلك فلا
أدرى، وأنهم بالطبع أنه تنبأ لي بحسن الختام، ولكن، يقى ونعن الآن بالفعل في
الختام؟

ثم تساءل الياشكاب ساخطاً: ولماذا لا تفهم أنه كان يشجعك على أن تغير
طريقك في الحياة؟ ألم يقل إن خطانا تقدورنا أحياها دون أن ندرك إلى مكمن
الطريق، وأن السعيد من تهتمي خطاء، فما الذي يضل خطاء؟ أنت لا تعيقني بأمرك
كل شيء، وتفهم كل شيء؟ إن شئت أن تبدأ اليوم قلن يمنعك أحد، وإن شئت أن
تلظل كما أنت فلن ينفعك مائة أبوحطة ولو مروا لتجدتك من القبور؟، نعم، ولكن
شيئنا في نفسنا يقول مع ذلك إن هناك رسالة خفية وراء ذلك الواضح والمفهوم
ليكن، حتى لو كان هذا صحيحاً فهو ليس عذرًا للإرجاج، ولا للتمادي.

مرة أخرى رفر الياشكاب وقال وهو يستعد للنهوض: «هانت».

نادى على جابر ليدفع له الحساب فقال له: بدري يا أستاذًا.

فرد الياشكاب وهو يضحك: بل متاخر جداً يا جابر!

ولكن جابر كان مشغولاً بالبحث عن شيء في جيبه وأخيراً أخرج بطالة

بعض الدكاكين وتزجّرها بالإيجارات الجديدة.

هب الجد واقنا وهو يهتف:

- بدأنا!

ومضى سالم يقول:

- لا أظن أن هذه الفكرة السخيفة من عندها، أعتقد أن هذه من أفكار الأستاذ

فراج!

لكن جده كان يفكر في شيء آخر، فقال بصوت أكثر حفونا:

- أو ربما تكون انتهى!

عرف سالم البنات لأول مرة وهو في السنة الثانية الثانوية، كان يقف عند سور السطح وفي يده كتاب يذكر فيه بعد زواج فوزية وانتقالها من البيت فرأى بنتاً من الجبران تلوكاً فوق السطح المقابل وتتعلق نحوه بين فتري وأخرى وعلى شفتيها شبح ابتسامة، حول يصرمه على الفور وانبهك في كتابه، وعندما رأت البنات ذلك نادته باسمه بصوت خافت مرتين فالتفت نحوها، ابتسمت ابتسامة كبيرة وهي تستخدم بيديها لغة الإشارات وأعطته موعداً.

كانت ثريا تلبّذة الصبا في مدرسة السنبية، انتظرها بعد خروجها من المدرسة وسط «معاً يحصلان» خطاطي الكتب الثقيلة، انتهت إلى أنها أقصر منه بكثير وإلى أن هناك (نمشى) في وجهها، سارا معاً صامتتين وأخيراً انفجرت هي بالضحك وقالت «أنت هضم؟»، فازداد ارتياكه ولم يقل شيئاً، يدأت تسأله أستاذة «هل يتبع مسلسل محمد صبحي في التليفزيون؟»، هل يذكر أنها سلمت عليه يوم فرج فوزية؟، هل ينوّي أن يدخل القسم العلمي؟.

ومن كل تلك الأسئلة كان سالم يجب بنعم أو لا دون زيادة، فبدأت هي تتكلم، قالت إنها تحب سعاد حسني جداً ورأت فيلمها الأخير أربع مرات، وتنتمي أن تخرج في الثانوية العامة بمجموع لكي تدخل كلية الإعلام وتشتغل بعد التخرج مذيعة في التليفزيون، والمشكلة أنهم في الإعلام يطلبون «مجمائع» كبيرة وهي لاتحب المذاكرة، وقالت إن أبيها يملك محل وورشة لصناعة المقابض والاتصال وأنه صاحب جده الباشكاتب ولكن لو رأها أبوها تمشي معه الآن فسوف يقتلاها، وقالت إن لها أمّاً أصغر منها في الابتدائية (شقي) جداً وتعتمد إماضتها بعمل ضجة

الطالب الذي قال له إنه ليس رجلاً مادام لا يعرف بنات لها استجابة لوعدها من الأصل، والأأن ما العمل؟

حاول سالم من جديد، التقى مع ثريا مرتين بعد ذلك، مشياً معاً على شاطئِ القيل ناحية قصر العيني، رأى سالم أزواجاً كثيرةً من الأولاد والبنات في ذلك المكان الذي تحجب الأشجار نور مصابيحه المطلية باللون الأزرق منذ أيام الحرب، كان الحبيون يشعرون هناك بالأمن فيمسك الأولاد بياديه البنات ويتهامسون، لا يرتفع أي صوت وإن لم ينقطع الهمس، ولكن سالم ظل صامتاً وهو يستمع إلى حكايات ثريا، كان قد أعد كلاماً يقوله لها لكنه عندما فتش عنه في رأسه لم يوجد، حاول أن يسترق السمع ليعرف عن أي شيء يتكلم الشبان إلى صاحباته ووجد ذلك ممكناً، فسرعانً ما يمكنه بسماع غير ضحاكات حافظة وكباتن متفرقة ليس فيها شيءٌ من الغزل الذي تزفنه، «قلت لأبن خالتها... لكن أنا رفضت...»، «نجم العنف في فرسان في الإجازة... بعد سنة التجنيد... الخ.. وإذا ما اقترب سالم أو عكل أكتر من اللازم كانوا يبترون أحابيthem ويقتلونه صامتين إلى أن يبعد».

في المرة الثانية حكت له ثريا بانفعال أنها من يومين وجدت قطة وليدة أمام البيت لونها مشمشي وكانت تتوه وتتكاد تموت لأن أنها تركتها، قالت إنها أحبت القطة جداً وأخذتها وتعتقد أن القطة أيضاً أحببتها لأنها ترفض أن تشرب اللبن إلا إذا قدمته لها ثريا بنفسها، ثم سأله: ما الاسم الذي يفضل للقطة مثimشة أو فانلي؟

ـ سأله في غضب: «خلاص؟ هذا كل ما عندك؟

ـ ثم طلبت في نفاذ صير وما يشبه الأمر: إحدك أنت حكاية؟

وصراح إنما، مشاهدتها للمسلسل ولكن أنها تضرره لأنها هي أيضاً تتبع التسلسلات.

ـ ثم سأله سالم هل هو مغدور جداً أو أنها بصراحة لاتعجبه وبهذا لا يريد أن يتكلم،

ـ فقال وهو يشعر بدور ويسأله تذللاته إنه ليس مغوروا ولكنه في العادة لا يتكلم كثيراً،

ـ قالت ثريا: لاحظت هذا يوم فرح فوزية.

ـ ثم أضافت وهي تضحك: ومع ذلك لا تبالغ،

ـ لم تعرف أن مجذزة هي التي جعلت سالم يذهب للقائها في المساء، ولا شعرت بالمحنة التي يعيشها وهو يسير إلى جوارها في الطريق، كان كلامها يصل إلى سمعه مكتوماً ومنقطعاً كأنه يأتي من فوق بعيد، وعندما سأله سؤالاً كلن الدم يصعد إلى رأسه ويفجّر ربله فلا يكاد يستطيع تحريك لسانه، ولم تعرفه أن كان يحاول باستماتة أن يبحث عن كلام يرد به على كلامها فلا يجده، فرميَّه عمراً الفراغ والنبيض الملاحق، لم تدرك أن ذلك ليس غروراً ولا حتى خجلًا، وإنما

ـ ببساطة أن الكلام قد هرب منه ملماً اعتماد أن يهرب عندما يلتقي بالغرباء،

ـ وبعد أن الفرقا راح يسأل نفسه في غضب لماذا؟ لماذا كان خائفاً إلى هذا الحد؟ لماذا تستطيع ثريا أن تتكلم ولا يستطيع هو؟ ما الذي يشل لسانه؟ لماذا يمكنه أن يتكلم مع جده ومع فوزية عن شيء، كثيرةً والأأن ضاعت كل الأفكار والالتفاظ؟، ولماذا لم يعالج الطبيب الذي أخذته أبسوه إليه قبل سنوات؟ لكن يعالجه من ماذ؟، هو ليس مجنوناً، أستاذ الرياضيات يقول إنه نابغ، يستطيع يتكلم مع ثريا؟ ولماذا كان يخاف من مقابلتها والخروج معها؟ لولا مشاجرته مع

أيضاً في حلقة وتهرب من رأسه، يبقى كل شيء فيه مثلاً سوى تلك التي
ينبض في عقده يكاد يسمع طنبته، في الزيارة الثالثة وهي تودعه عند الباب كان
وجهها محظتنا جداً وقالت بصوت خافت متخلص إلى حد ما:
- سأكمل الأوراق ثم أتصل بك، مع السلامة.

أغلقت الباب بشيء من العنف ولم تتصل به بعدها أبداً - ومرة أخرى شعر
سالم بأنه قد نجا وعاده نفسه على أن يتتجنب أي علاقة من أي نوع مع البنات أو
النساء.. وحين سأله أبوه ذات مرة عمما تم بالنسبة للأوراق «الست عنایات» أجابه
بالقصاص: إن موضوعها انتهى.

كان هناك على كل جبل هايشغلة، إنهم تماماً في المذاكرة للثانوية العامة، ثم
إن فوريه وضعن مثلثها بعد أقل من سنة من زواجهما، رجعت البنت القديمة بكل
مرحها، اعتادت أن تذكر بصحبة طفلها كل يوم تقريباً بعد أن يذهب زوجها إلى
عمله مبكراً جداً في الصباح، أراد فراج أن يسمى ابنه مسعد على اسم أبيه
و威名ه فوزية على تسميتها سالم، وأخيراً أسموه في شهادة الميلاد (عاطف)
ولكن فوزية تناهيه باستمرار (سالم الصغير) أو سلوم.

كانت تأتى في الصباح قبل أن ينزل آخرها إلى مدرسته وأبواها إلى دكانه
وهي تحمل الصغير الذي تعلق به الجميع، لم تكن قد ظهرت له أي ملامح غير
شعر أسود غزير كشعر أبيه وبدين ضئيلتين مضمومتين يضرب بهما الهواء غير
أن الجميع كانوا يتناولون حمله ويكتشفون فيه جمالاً غير عادي، كانت فوزية
تحسن بأن تتركه طويلاً مع أي منهم إذ تتم بديها بسرعة وهي تقول ضاحكة:
«هاته لامه الخالية!، صبح ياسلوم؟، أملك خالية قبائك أن تتطلع خاتياً مثلها»، ذاكراً
باروك وإنجع واستقلل، أريد أن أراك (ياشكتاب) قد الدنيا!.

وقالت:
- إسمعوا أنا أخاف من حكايات العقارب والجن، هل تريد أن أموت من
الرعب بالليل؟ ثم ضحكت فجأة وأكللت في حسيبة:
- يذمتك هذا الكلام تقوله لصاحبتك؟
سائلها فهى يassis.com/wb3
تسألاً لها فهى يassis ماذا أقول؟

لورحة بيدها في اتجاه الشبان الآخرين، كما يقول كل الناس.
وكان ذلك هو اللقاء الأخير، لم تعد تهمن على السطح، وعندما أبابها مرة
بالصادفة في الطريق تجاهله، ولم يحزن سالم لذلك أبداً، بل شعر براغة كبيرة
ولتكن عرف بعد ذلك في الإجازة التي سبقت سنة الثانوية العامة أزمة من
قربيات أبيه من بعيد، طلب أبوه أن يساعدها في إنها، أوراق لها قبل بعض
المصالح الحكومية لأن ليس لها رجل يقف بجانبها، وكانت عنایات تكريه يخوض
بشرة ستة على الأقل وكانت امرأة ذات جسد ناضج وعيدين مليونتين، وكانت تقول
له ضاحكة إنها عندما تنظر إلى عينيه هو تشعر كيتها تنظر إلى مرآة، أخذ
أوراقها إلى مصلحة المعاشات فطلبتوا أوراقاً ومستندات أخرى لاحصر لها، زارها
في بيتها أكثر من مرة أيام الإجازة الصيفية، وكانت يجلسان في صالون بيتها
متقابلين وهي ترتدي ثيابها البيتية الخفيفة، أحياناً كانت تأتي لتجلس إلى جواره
على (الكتبة) لكي تطلعه على الأوراق التي تزيد تقديمها، كان جسمه كله يلتهب
حين تلمسه زراعها العارية أو حين ينالها كتفها ويشعر بضغط صدرها عليه،
يتزحزح مبتعداً عنها وعرق غزير يطفو من جبهته، وفي لحظتها تختبس الكلمات

قال أبوه في يائس: لتخرين أي شئ، ما شعرا

وَسَكَتْ فِرَاجُ لِحَظَةٍ وَشَابَ حَسْوَهُ شَيْءٌ مِنَ الْحَزْنِ وَهُوَ يَقْرَأُ

- ومع ذلك فنوزية معها حق، كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم أو في مشروع يجلب مالا، ما هنا الغلاء، ياحضرة الياسكان؟، كيف يمكن
المهاتن الناس مع هذا الغلاء.

ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقاً في فكرة أخرى وقال سادساً:

ازن دینها بگونه حاکم خواهد

لم يحيط أحد من تفسير لهذه العبارة، وقال شعبان: جائحتي فكرة، يمكن أن ينبع نلاجة مياه غازية على المقطعة، يتولى البيع فيها عم أبو زيد البواس، هناك الآن كثير من الشركات الأجنبية ويتكلم عنها بعض التلبيات مجالاً أو بالتفصيل، سال البشكنت: وفي هذه الحالة تصبح نلاجتنا أم نلاجة أبو زيد؟

فُسْتَ يَعْوَزُهُ وَهُوَ يَقُولُ

لأنه لا يرى أن يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجة.

لهم سكت ولم يتكلّم أحد.

كان سالم يشعر بالخجل من نفسه فانسحب إلى صمته، وأطربت قفزة
يرأسها في حزن، وظل الياسكيات وفراج ينضر كل منها إلى الآخر دون أن يجد
بابقة، وما طال الصمت راحت قفزة تنقل بصرها بينهم، كانت حزينة وغاضبة
لكن شعوراً أقوى من ذلك غلبتها وهي تنظر نحو رجالها المغارفين في التفكير
لشحخت وهي تقول:

- مالكم ساكتين؟ بسيطة: ثبني الذكاكين فوق السطح.

لشحّوكا أيضًا، ولكن بـلا روح.

نحو جدها وتسأل: «لا يبيو نكيا ياجدي؟» لا يتفع (باشكتاب)».

فريد جداً مبتسعاً (الياشكيبة) راحت عليهم يافوزي؛ حتى لقيهم لم بعد له

لأن وجوده يعني بدء من ...
فتحخته مظاهرة بالفزع وهي تقول: لا تك يا حبيبي! جدك لا يقصد.
أحياناً كان فراج ياتي أيضاً مع فوزية في المساء. كان يبند على وجهه
الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئاً من عاداته، ظل يقطع من مرتبه في
أول كل شهر مبلغاً صغيراً ليسدّد دين الباشكتاب، ثم اضطر للتوقف قبل ولادة
فوزية وبعد إنجائها، وعده الجد بأن يعود للانتظام في السداد عندما يقبض
مكافأة تشجيعية طلبها له رئيسه وينظرها متذمدة. قال له الباشكتاب ألا
يهم وإنه لم يطالبه بشئ، من الأصل لكن فراج رديّن الدين دين، وذات مرّة
في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريلق شاكير ثون أن يوجهه إلى
لأخذ:

الدكتاكين». -

— تنظیم ارض رفعت سریع —

رسالة في الحسين

لکن فوریه مفترض است این احتجاجات سبب جنگ ایران و عراق شدند.

- فراج لا يُعرف شيئاً عن المؤمنين، وإن عرف فراج الحكمة قال بد晦ة: دكاكيين في هذه (الزينة)! ما فار
بـ، الحسين؟، متر ونصف أو متراً؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه

٢٠١٣: ٢٠١٣: ٢٠١٣: ٢٠١٣: ٢٠١٣: ٢٠١٣: ٢٠١٣: ٢٠١٣:

شنبه: دعا يسكن أن تستعملها كمخزن.

ترفعه نحو جدها وتسأله: لا يبدو ذكياً ياجدي؟ لا يدفع (باشكتاب)؟.

فبرد جداً مبتسماً: (باشكتبة) راحت عليهم بافروزية حتى لقيهم لم يعد له الآن وجود، تضيّع بدلًا من ذلك أن يصبح ابنته ضابطاً.

فتحتختسه متناظرة بالفرج وهي تقول: لا تبت ياحبيبي! جدك لا يقصد، أحياناً كان فراج ياتي أيضًا مع فروزية في المسا، كان يندو على وجهه الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئاً من عاداته، ظل يقطن من مرتبه في أول كل شهر مبلغاً صغيراً ليسدد دين الباشكتاب، ثم اضطر للتوقف قبل ولادة فروزية وبعد إنجابها، وعد الجد يان بعود للانتظام في المسداد عندما يقيمه مكافآت تشجيعية طلبها له رئيسه ويتلقّها متذمّدة، قال له الباشكتاب لا يهتم وإن لم يطاليه بشئ، من الأصل لكن فراج رجل يان الفتن دين، وذات مرة في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريقه عابرة تكون أن يوجه الخطاب لأحد:

- تنظيم الحى رفض مشروع (الدكاكيين).

- فظل فراج يتذكر إليه مبتسماً وهو يسأل في دهشة: أي دكاكيين؟

- دكاكيين الجنينة.

لم يفهم فراج أيضاً وظل يتلألأ بصريه بين سالم وشعبان وزوجته والباشكتاب ولكن فروزية نظرت إلى أخيها مقتنية الجبين وقالت بلهجه معاناة.

- فراج لا يعرف شيئاً عن الموضوع يا سالم، هذه كانت فكرتي أنا، وحين عرف فراج الحكاية قال بدفعة: دكاكيين في هذه (الزنقة)! ما هو عرض الجنينة، متر ونصف أو متران؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه المساحة، وأين يقف البائع؟ على الرصيف؟

قال شعبان: ربما يمكن أن تستعملها كمحزن.

قال أبوه في يامس: لتخرين أي شئ، ياشعيان؟

وستك قراج لحظة وشاب صوته شئ، من العزن وهو يقول:

- ومع ذلك فروزية معها حق، كل الناس الآن يفكرون في طريقة تزيد من دخلهم أو في مشروع يجلب مالاً، ما هذا الغلام، ياحضررة الباشكتاب، كيف تتكلّم المربيات الناس مع هذا الغلام؟

ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقاً في فكرة أخرى وقال ساهماً:

- إذن ربما يكون جابر على حق.

لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة، وقال شعبان: جا متى فكرة، يمكن أن تنسن ثلاثة أيام، فازارة في الجنينة، يتولى البيع فيها عم أبو زيد الباب، هناك الان كثير من الترکات الأجنبية ويقال إنها تعطى التلاهيات مجاناً أو بالتقسيط.

سأل الباشكتاب: وفي هذه الحالة تصبح ثالجتنا أم ثلاثة أبو زيد؟، ثم فضحكت بمرارة وهو يقول:

- أبو زيد يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجاته.

ثم سكت ولم يتكلم أحد.

كان سالم يشعر بالخجل من نفسه فانسحب إلى صمت، وأطربت فروزية برأسها في حزن، وظل الباشكتاب وفراج ينظرون كل منهما إلى الآخر دون أن يجد ما يقوله، ولما طال الصمت راحت فروزية تنقل بصرها بينهم، كانت حزينة وغاضبة لكن شعوراً أقوى من ذلك غلبيها وهي تنظر نحو رجالها الغارقين في التفكير فضحكت وهي تقول:

- مالكم ساكتين؟ سبطة بيني الدكاكيين فوق السطح.

فضحكتوا أيضاً، ولكن بلا روح.

قال الباشكاتب إنه قضى عمراً طويلاً يبحث عن سر تلك الأسباب التافهة للجريمة فلم يتوصّل إلى شيء يطمئن إليه، ثمّنّي لو يكتب كتاباً عن هذا الموضوع ولكن الوقت متاخر وسيترك سالم هذه المهمة بعد أن ينتهي من دراسته للقانون.

قال سالم: وسوسنة الشيطان هي السبب.

فرد جده: وسوسنة الشيطان درأ كل الجرائم يا سالم والشيطان يوسم لإنسان طوال الوقت للهدايا في مثل هذه الحالات بالذات لا يستجيب الناس إلا للسوسنة التافهة.

- هنا رأيك أنت ياجدي؟

- لو كان لي رأي لما تحرير ولوّضعت الكتاب منذ زمن طويلاً.

ثم بدأ سالم بذاته جده قد شرد قتلياً وهو يقول: ما الذي يجعل خطانا نقودنا إلى وكل الطريق ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟

- لا أظن ياجدي أن من يرتكبون هذه الجرائم التي تتكم عنها حضرتك يفكرون بعقولهم في الحلة الجريمة.

بالطبع، لأنها إذن يغيب العقل ويشيطر الفحافة.

- لماذا؟

- ستدلى أنت بعد أن تدرس.

- وهذه الكتب القيمة التي تقرّرها حضرتك والموجودة جنب الملفات لا تستاعد على فهم السبب.

تنهد الجد وسكن طويلاً قبل أن يرد:

- هذه كتب تتحدث عن النور، لا شأن لها بظلمة النفس.

★★★

بعد أن دخل سالم الكلية، وبدأت الدراسة لم يترك جده في حاله، ظلّ يسأل كل يوم عن المحاضرات، التي يتلقاها، ويضيف - بفخر - إلى المعلومات النظرية

بالرغم من كل شيء، فقد كانت تلك أياماً سعيدة للأسرة، ملأت فوزية وسالم الصغير البيت بالحركة والضجّة، وأنهمل سالم الكبير في مذاكرته ولم تعاوده الحالة في تلك الأيام الحاسمة، وانشغل الباشكاتب مع حفيده يوماً بيوم كما لو كان هو الذي يستعد لامتحان، فنسى أيضاً كثيراً مما كان يتلقّله، وكانت فرحة عمره عندما اجتاز سالم الثانوية العامة بالمجموع الذي يكفي ليحقق حلمه ويلتحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة.

وكافأ الباشكاتب حفيده على نجاحه بإطلاعه على سير الملفات الموضوعة فوق مكتبه، شرح له أنها تضم القضايا التي حبرته أثناء عمله في المحاكم، فرأى في حياته وسمع الكثير عن أسباب الجرائم والانحرافات، قرأ عن الفقر وتفتك الأسر والأمراض النفسية والجشع والموبل الإجرامية الفرعية وكثير غير ذلك، ولكن أي شيء من هذه الدوافع للجريمة كلها يجعل رجلاً مشهوراً له بالطيبة في نفس الذي يسكنه يقتل جاراً له لأن ابنه البالغ خمس سنين من العمر تشاجر مع ابن جاره الطفل.

ولماذا يقدم صراف معروف بالأمانة لعشرين السنين على اختلاس خزينة الحكومة ليقضى أسبوعاً في الاسكندرية يعرف أنه سيقضي بعده سنوات في السجن؟ ولماذا يقتل زوج زوجته التي عاش معها سنوات طويلة لأن طعام العشاء لم يعجبه؟

ولماذا غير ذلك كله من التفاهات التي تضمنها الملفات؟ كلها جرائم ليس لأصحابها تاريخ سابق في الإجرام ومع ذلك فهم جميعاً في لحظة ما ولسبب شديد التفاهة يرتكبون الجريمة التي تضيّعهم وتضيّع غيرهم.

ثم قام وهو ينزع عبادته الصوفية وقال لخفيده يشى من التردد وهو يلقي عن
الباب:

- لا أريد أن أعرف أسرارك ولكن تحت المعصية ياسالم.

ثم خرج قبيل أن يسمع ردا من حقيده الذى قتل ينظر نحو الباب المغلق شاردا وهو يتسائل هل هذا صحيح؟ هل عرف جده قبيل أن يعرف هو نفسه؟ ربما، قلل يقاوم طويلا الاعتراف باته يجب لينى، كان لها فى الكلية أصحاب وصاحبات وكثيرا ما رأها وسط مجموعات من الطلبة أما هو فلم يكن له فى الكلية أصدقاء، قلة من الزملا، كان يتبادل معهم التجربة فى المدرج وربما أسلك عابرة عن الأسنانة والمحاضرات وتستهنى علاقته بهم عند هذا الحد، وعندما كانت بعض الفيامات سلطون نحوه وفي عيونهن إعجاب ودهشة كان يبذل كل جهده ليبتعد

لم ينس سالم أبداً تجربته مع الأطباء، في صغره ولا ما كان يسمعه من همس بين طرفيه وجده عن حالته، وفهم إصرار الجد على أن يعلق الحجاب على صدره والأذن، التي كان يهمس بها حين يضع يده على رأسه، عرف أنه عندما تاتيه الحالة يقول أشياء سخية ثم ينساها وأن الأفضل له أن يلزم الصمت ويتجنب الناس قب الامكان.

أحياناً كان يثير على نفسه، يود لو يصبح مثل يقية الأولاد من سنّه،
وعندما قال له تلميذ في المدرسة إنه ليس رجلاً مادام لا يُعرف أي بيات تشارجر
مع هذا التلميذ، لكنه يكثّر وحيداً في البيت، وجاءت دعوة ثريا بعدها لتنفذ من
إحساسه بالقهر والعجز، أراد أن يقاوم حرقه وبيثت أنه مثل غيره، ولكن حكايتها
مع حارته أفنته بالبكاء والحزانة.

ابعد في الكلية عن لبني بالذات، لم تكن هي أجمل البنات لكنها لفحت نظره
منذ رأها.

التي تعلمها حفيدة خبرات عملية مستمدّة من عمله في المحاكم، ويلقى عليه بعض الأسئلة الألغاز عن إجراءات المحاكمات أو عن دوافع القانون وحين يعجز سالم عن الرد يقول له:

— أرأيت؟ ليس كل العلم في المحاضرات ولا في الكتب.
وبحين يدافع سالم عن نفسه محتاجاً، ولكن ياجدي أنا مازالت في أول السنة

يرد الباشكارات في حسم لايهم، أنت لست كبلية الطلبة، أنت يجب أن تتفوق من أول السنة الأولى.

ولكن ذات خميس بعد أسبوع من بدء الدراسة وبعد أن رجع الجد من جولته الآسيوية التي لا يعرف حفيده عنها شيئاً، نظر التاشيخات إلى خرقه سالم وهو يراجع بعض المواد وجلس قبالتها صامتاً، تفويت أن يمسك كعادته عن آخر المحاضرات غير أنه اكتفى هذه المرة بناءً على الكتاب الذي يقرؤه سالم والقرآن عليه نظرة ثم وضعه جانبياً.

ـ قل لى يا ولدى، أنت جميل حقاً وفي عز الشباب، ألم تلتف نظرك واحدة في

الحن أو في الكلبة؟ أقصد ألم تحب؟
أختي سالم رأسه وخرج صوته مبحروحاً بعد فترة وهو يقول:

- نعم يا جادى، أنا أحبك
ظل الباشكاتب حسامتا وهو يكتب فى الكتاب دون هدف، ثم رفع وجهه إلى
حفيده وهو سنتسم ابتسامة عريضة

ـ هل تعرف أني رأيت ذلك في وجهك منذ مدة؟ رأيته ربما قبل أن تعرف أنت
ولكنك أردت أن أتأنقك.

مستنقع لا شأن الذي به، من يخوض فيه يضيع، لم يهتم الباشكاتب أبداً بالسياسة واعتاد أن يغلق الراديو أو التليفزيون عندما تبدأ نشرة الأخبار، عليه عمله في الوظيفة من صغره المذعر والتحفظ وأكدت له تطورات الأمور في البلد صواب رأيه فوراً ثقيدة التفور من السياسة.

لكن بينما كان سالم يهم بالانصراف سمع صوتاً خللاً وحين التفت وجد ابنه ومعها طالب آخر يذكر شكله تماماً، كان متوسط الطول عريض الكتفين يترك شعره الأسود مموجاً وقميصه مفتوحاً عند الصدر، وكانت له شفتان غليظتان معبرتان.

سمع ليث يقول بصوت خافت ضارع: ابعد عني يا مرتضى! قلت لك أن تبعد عنِّي.

لذلك يرقص في الحاج، ولكنك وعدت.

ردت بعصبية: رجعت في كلامي يا أخي، ارتحت؟

لا... لا بد أن أعرف السبب.

قالت بصوتها يرنقله تلبلباً وكأنها على وشك أن تصرخ، يا أخي أنت محببة؟
قلت لك التركى في حالى.

توجه سالم نحوهما وكأنه سمع استغاثة ولم يقل غير كلمة واحدة:
ـ ممكن؟...

فرمطه الآخر بنظرة كارهة واستدار مبتعداً، أوشك هو أيضاً أن يمضى في طريقه ولكن ليث قال له بلهجة ممتنة: أشكوك.

قال: وماذا فعلت؟

ثم أكملا بشئ من التردد: أنا أعرف هذا الطالب.
سأكتبه باستغراب: كيف تعرفه؟

كانت تليس باستمرار (بلوزة) بيضاء، قصيرة الكمين (جوبلة) واسعة، تضع يدها في جيبها وتمشى وسط ممرات الكلية كما لو كانت مسرعاً إلى هدف ما، لكنها تتوقف بين حين وآخر وتلتقط حولها وبيدو عليها أنها غير واثقة من وجهتها، أو تميل بعنق جسمها إلى الخلف دقعة واحدة كأنها ستعود أدراجها بالسرعة نفسها لكنها تخفي في طريقها، عندما تميل أيضاً كانت تميل برأسها قليلاً إلى جانب وتخرج الكلمات من قائمها متقطعة ومترددة.

ظل سالم يراقبها من بعيد حريضاً لا تنتبه إليه، أحب عينيها العسليتين وشعرها الكستنائي المخصوص الذي يصنع دائرة حول وجهها، وتندلع منه خصلتان صغيرتان كعلامات استفهام بجانب الآذنين، أحب أكثر من ذلك شيئاً ما في مشيتها وطريقة كلامها، لكنه كان يراها مع أصحابها بمحاجاتها في الكلمة يقفون في (شلل) ويتكلمون بصوت عالٍ.

فظل سالم لنفسه هم جميعاً أنجع مني مع البنات ومن المؤكد أن واحداً منهم يحبها، أراد أن يقول الجده: إن تكون قد رأيت في وجهي الحب، فهل رأيت أيضاً أنتي أنتي لم أبع بهذا الحب؟

★★★

من شهران أو أكثر على يده، الدراسة دون أن يخرج سالم من وحشه، وفي مرة في الفاضل بين محاضرتين كان يقف وحده في ركن مزدحم بمجلات الحائط التي يحررها الطلبة، كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية تنشر كلاماً مع الرئيس السادات ومجلات أخرى بعضها مثبتة إلى الحائط مباشرة بدبابيس وقد تمزقت أجزاء منها وتنكتب كلاماً ضد الرئيس، وقف لمجرد أن يضيع الوقت في قراءة واحدة من هذه المجالس المزقة لكن الكلام بدا له كالفاز فهز رأسه وهو يهم بالانصراف، تذكر تحديرات جده الصارمة، السياسة

يكملان الحديث الذى استغرقا فيه ، بهمسان أحيانا ، يضحكان كثيرا ، يصمتان عندما يحملق طالب أو طالبة يجريان ليدخلان مدرجا بدأ في الحاضرات لكنهما لا يقumen من مكانهما، عندما يحل آئى صمت كانت لبني تمد أصابعها لتعثب بخصلة الشعر المتلذذة بجانب أنفها، أو تلتف نحو فجاة يعيشها العسلين وهم يتكلمان فتري ارتعاشة أهدابه لحظتها ويصرخ وجهها وهي تخفي رأسها على الفور، تعثب فى كتبها لحظة ثم تعود للتنطع نحو السقف تائهما الأصوات مكتومة ورثيبة من قاعات الحاضرات المغلقة فتشعران فى عزلتهما بسلام، بهمسان وتزيد فترات الصمت، دون أن يتعدى وضع يده على يدها وهو يحرك شيئا فسجيتها على الفور ونظرت نحوه بتعاب، ارتبك وتمتن باعتذر وهو يترجع مبتعدا عنها، لكنها تنهضت بعد ذلك بتطورات سريعة لليمين واليسار فى المرحاض ثم تستر يدها وأمسكت بيده دون أن تنظر إليه ووضعيتها بطيء، فوق يدها كما كانت من قبل، كانت تجلس إلى جواره مشدودة كالرمم ولكنها حين وضعت يدها الساخنة فوق يدها اللثيبة أنسنت ظهرها الحانط وهي تسترد بعمق، وراح هو ينهمس بها برق وكان أشامله تقبل تلك اليدين، غير أنها يفرزان معها وينهضان حين يفتح باب إحدى القاعات ويخرج منه الطلاب بضجيجهم الماكف، يذهبان إلى ممرات أخرى، إلى كليات أخرى في الجامعة، تنساكس أيدييهما حين يشعران بالآلام وينهضان مسرعين حين يلوح أي شخص أو يسمعان أي صوت، تمر الساعات دون أن يدركوا بالوقت وهما يتلقان من مبني إلى آخر في الجامعة الواسعة،

قرب الغروب قالت «ياه، نحن تأخرنا»، ولكنها ظلا يسيران تائهين حتى وصلتا قرب سور التلقي للجامعة، ووراء أحد المباني سقطت الكتب من يدها فانحرفت لتنقضها وانحنت هي في اللحظة نفسها وتلامس الجسدان وهما ينهضان معاً وردد وجهها قرب وجهه تماما متوردا بلون الشمس الفارمة فمس خدها بشفتيه

- مرة أصطدمت بي عند باب المدرج فاعتذرأت أنا له لكنه قال لي أن أنتبهلى المرة المقبلة.

ضحكت لبني بعضبيه: نعم، هذا بالضبط هو مرتضى، تعطى يدك في يريد أن يأخذ ذراعك.

ثم لوحت بيدها: دعنا منه رأيك تقرأ المجلات، مارأيك في الكلام؟ رفع سالم يده الخالية من الكتب أمام صدره كأنه يدفع تهمة وقال: أنا في السياسة صفر!

فهزت رأسها: هذا أفضل شيء، كانا يسيران جنبا إلى جنب بخطوات بطيئة وأراد سالم أن يساكيها عن سبب شجارها مع مرتضى لكن شيئا في داخله قال لها لأنني سمعت، كانت هي التي واصلت الحديث:

- أراك من أول السنة في الحاضرات لكنى حتى الآن لا أعرف اسمك، قال لها عن اسمه وكان هو يعرف اسمها منذ زمن طويل لكنه سأله كثيـرـاـ

بجهله، ظلا يسيران معاً وكانت هي التي تنقل الحديث من موضوع إلى آخر، ولجة وجد سالم الكلمات التي كانت تتحبس في حلقه تخرج دون عنا، لا يذكر حتى عن أي شيء، تكلما بعد أن تبادلا الأسماء، لكنهما ظلا يسيران جنبا إلى جنب، تركا المحاضرة التي كانت توشك أن تبدأ وخرجوا معاً من الكلية كان بينهما موعد، واتجها دون اتفاق نحو كلية الآداب المقابلة، وكانت على عادتها تتوقف لحظة وهما يسيران وتنشق فجاة إلى الخلف فيفعل سالم مثلها، لكن أحدا لم يكن يتبعهما، دخل كلية الآداب ومشيا معاً في ممرات وصعدا الدرجات الصجرية وهبطا أكثر من مرة وهما يشرثان دون هدف عن الزملاء والمواصلات والأسنانة وعن أي شيء، يخظر على البال، وجلسا على إفريز حجري في أحد الممرات وراحوا

برقة وسرى ملمس بشرتها الناعمة من فمه إلى جسده كله.

ابتعدت ليلى وراحت تتطلع إلى الأمام والخلف في فزع ثم قالت: كان يمكن أن يطردونا معاً لو رأوا؟ فقال سالم وقد عاوده الفزع أيضاً: لم أقصد صدقيني، لا أعرف كيف.

لكنها لم تكن تستمع، ضحكت ضحكة صغيرة وهي تقول: كل هذه الجرأة؟ فلساناً إذن ظلت من أول السنة تنظر إلى دون أن تكلمني؟ وكيف لم تفهم لماذا أنظر أنا إليك؟

ثم فجأة طوحت بكل الكتب التي ناولها لها بامتناد ذراعها وقالت بتبرة فرحة ملعون الخوف، ملعونة...، ولم تكمل ليلى ليعرف ما الذي تعلمه لكنها جذبته من يده وقالت تعال... تعال تجمع هذه الكتب مرة أخرى.

★★★

مشى سالم دون أن يدري حتى وصل إلى البيت مبتلاً للأفاس.

سأله جده في دهشة:

- مازاً يك، لماذا تلهت هكذا؟ كنت في الجامعة أو كنت تلعب الرياضة؟ لما تأخرت حتى الآن؟

لم يرد سالم على أي من هذه الأسئلة، ألقى على جده السلام ثم دخل إلى غرفته، جلس إلى المكتب وأضعا رأسه بين يديه، لم يكن يفكر في شيء، لم يسترجع حتى لحظات اللعنة التي عاشها، كان يرتاح وهو يحسّن يديه ويسلّ نفسه في دهشة: هل حدث لي هذا بالفعل؟ هل كان هذا أنا؟ ولم يخرجه من الدوامة غير طرقات جده على الباب وهو يسأل في تذمر:

- وبعد؟ ألم نتعش في ليلتنا هذه؟

فتح سالم الباب وقال لجده بابتسامة:

- سامحني يا جدي، الليلة لا أريد.

ثم أغرفت في الضحك وقالت : كيف يعبر السعداء عن فرحتهم ؟ يرقصون ؟
بدأت تدور حول نفسها أمام المرأة حتى أصابها الدوار ثم جلست على طرف
سريرها وهي تلهث وهمست بصوت مسموع : وقبلة أيضا ؟ وفي الجامعة ؟ من
يصدق ؟ أحقك لن ؟ من يمكن أن يسمعني في هذا البيت الخالي ؟ من يمكن أن
يسمعني في هذه الدنيا ؟ ولماذا تناول دادة سنية الآن ؟ .. حسن أنها نامت على كل
حال ، أحتاج أن أبقى وحدي ، أحتاج أن أفهم . احتجشت كتفيها بذراعيها
وراحت تتطلع لنفسها في المرأة وقالت : ينسى من يحبون همومهم ؟ تسيتها
بال فعل . تسيتها كانها لم تذكر .

رفعت إصبعها السبابة ووجهتها إلى نفسها في المرآة ما أتذا الآن أكتب . هناك أشياء لا تنس - ليكى - ولكن بالفعل سعيدة . إذن افتح برجاً داخل روحي قسم فوبيا كل المفاهيم والذاته ياحكم . ساقشت ذلك المدرج ذات يوم وأخرج الأشياء ليس الآن بالطبع . ولكن كيف كان يمكن للحب أن يجيء لو لم أكن نسيمتها بالفعل ؟ كيف كانت ساجورة أنا . على أن أبدأ بالكلام اليوم ؟

شكراً لرئيسي البشع على أيام حال . لولا بشاعته ما جاءت الفرصة اليوم . ثم لو لم أكون قد نسيت بالفعل قبل كان يمكن أن يغزواني من الأصل حبه : ذلك الجميل الخجول ، المتباعد طوال الوقت الذي تقول البنات في غيظ : ربما يكون شارداً ؟

نهضت لبني نفسها : ولكن بالفعل أريد أن أحكي ، هل أوقفت دادة
برغم كل شيء ؟ أذهب إلى أمي ؟
ابتسمت لبني نفسها ، أكون محظوظة لو لم يطردني الآن إذا ذهبت إلى بيتها
دون تلقيون ولا موعظ !

وتفت مرأة أخرى أمام المرأة ولوحت بيدها

(1)

فتح لبني باب الشقة فواجهها الظلام، وبعدها لمست المقناح غمراً نور النجدة
الكبيرة الآثار الثقيلة الذي تذكره في ردهة الاستقبال الواسعة : المقاعد الذهبية
بيطانتها الفخمة ، والمانحة الرخامية الطويلة التي تعلوها مزخرفة (الكريستال)
البيضاوية القصبة والخالية من الزهور . ودولاب المكتبة الزجاجية الذي يضم
وسط الكتب عصري وتماثيل فنية .

رسط الكتب دعمي وبذابيل مهني
وقلت لحظة سطعل إلى تلك الأشياء، وابتسمت لنفسي : ماذا كانت تتضرر ؟ أن
دخل فتجد بدلاً منها بستانًا أثرياً تسبح فيه .
تسالتك ولم لا ؟ إن تغيرنا نحن فلماذا لا يتغير ما حولنا ؟ ولماذا يظل العالم
جماداً ؟ لماذا لا يمكن أن نعييه بفرحتنا فيصبح أحفل وأرق .
اجتازت ممراً إلى بین الردهة ووقفت أمام باب غرفة مغلقة هادئ .
سنة .

أناها صوت ناعم : تعم يا ليني ٤
فضحك ضحكة خافتة : أنا سعيدة يا دادة ٥
فأكمل صوت الدادة الناعم : الصياح رياح يا ليني .
ظللت واقفة للحظة ثم رجعت أذرعها في المهر وقطعت الردفة الطويلة وذهبت
إلى غرفتها في المطراف الآخر من البيت . وقفـت أمام المرأة تتطلع إلى وجهها
المتضسرج وكـررت بـرداـنة :

- ٦٣ -

نظر إليها بدهشة : ولكنك منذ المدرسة الابتدائية وأنت يخترعونك دالها
لألفاء الشعر ، وكانت درجاتك في اللغات شبه تهانية . حتى في الثانوية العامة
درجاتك ..

فكرت في تصميم : الحقوق طبعاً !

لو لم يسألها ووجب بالزيارة عنها فهل كانت ستفكر في كلية الحقوق ذات
يوم ؟

ثم فكرت : ولو لم يسألها وتدخل الحقوق فهل كانت ستقبل سالم ؟ هل كانت
ستعرف هذا الفرج ؟

وتساءلت وهي تتجه نحو فراشها يختنق بطيئة : وهل الحب أيضاً هو كل هذا
التعجب ؟ هل هلا الروح والجسد فتصبح أكبر من أن تحملنا الأقدام ؟

★★★

قالت لنفسها وهي تتمدد على فراشها بثيابها : وأين كان الحب في حكاية
زوج اسها وأمها ؟ تستطيع أن تفهم أنه كانت بينهما حسابات العقل . تستطيع
أن تفهم لماذا تزوجت الدكتورة صفاء من الدكتور شوك : كان منذ شبابه الطيب
التابع ، وفيما بعد ، أشهر طبيب نساء في البلد . لابد إنها كانت له كثير من
المعجبات من زميلات الهيئة . حتى الآن مازالت له كثيرات من المعجبات من الهيئة
وخارج الهيئة ، ربما المعجبات الآن أكثر بعد أن تحرر بالطلاق ! ثم إنه لا يبدى أى
اهتمام بالنساء ولا بالرجال ! هو مشغول طوال النهار والليل في عياداته وفي
مستشفياته . لم تعرف له أى أصدقاء غير الأطباء ، الذين يعملون معه في المستشفى ،
ولكن هؤلاء جميعاً مروّيون له : العلاقة تتفق عند حد . أيكون هذا التباعد عن
الآخرين هو الذي استهوى الدكتورة صفاء العنيدة ؟ حسمت أن تفقر به ؛ وهل
هذا أيضاً هو ما استهواها هي في سالم ؟ أنه جميل وبعيد وصعب ؟

لا . لا راغب بالبالغة . لن نطردكني . ستحتسم بابتسامة كبيرة وترفع حاجبياً
مستغرباً « حبيبتي ! ما الذي ذكرت بي ؟ حسبت أنه تسيبتي » هذا إن كانت لم
تخرج مع زوجها إلى السينما أو إلى المسرح أو إلى عشاء في فندق من الفنادق
الكبيرة التي يعبانها معًا .

ثم ما الذي يمكن أن يقوله أمها عن الحب ؟ أى شيء ، تعرف الدكتورة صفاء عن
الحب ؟

وياماً ؟

سيرجع الدكتور العظيم متاخراً جداً . ثم يذهب مباشرة إلى غرفته حتى لو
كانت صاحبة . يخشى أن أشم في فمه رائحة الويسيك !
كائن لا أعرف : كان ما يفطه يهمني في شيء ولكن زباداً يحصل على أصوله
ال التربية !

اتجهت لبني إلى مكتبتها في ركن المفرقة . أمسكت بدواوين الشعر . كانت
تمسك ديواناً ثم تفسمه في مكانه : عبد الصبور وبنازك ونزار وشوقى وشسلان
وريشمان ، يمكن أن تسامهم أيضاً . لكنها ظلت تقلب صفحات الدواوين دون أن
تفتح واحداً منها . شيء في داخلها قال لها إنها ليس في هذه اللحظة يمكن أن
تقرا شيئاً ، إنها الآن يمكن أن تكتب شعراً لو كانت تستطيعه . أعادت الدواوين
إلى مكانها .

تنكرت ما حدث قبل شهر عندما دخل والدها الدكتور شوك إلى غرفتها بعد
أن تجحت في الثانوية العامة . ليتلتها لم تكن تلوح منه رائحة الويسيك ولكن ،
كالعادة ، رائحة مطر امرأة . وقف هو يقلب الدواوين والروايات . دون أن يكلف
نفسه حتى قراءة العنوان ، وقال بلهجـة حازمة : ثوبت على كلية الآزاد طبعاً !
فردت على الفور : لا . الحقوق طبعاً .

من زعن؟ من أين تجد الوقت لتفعل ذلك كله؟ وكيف تزوجت من هذا البطل، إنكل صدق؟ هو لا يطبق الفراحة ولكنه يترك الدكتورة في حالها حين تقرأ . يحب الأكل منها مع ذلك !

لكن لابد أن لديه مواهب أخرى غير ذلك وغير كونه ملاكتة فلوس يضخها من شركاته للاستيراد والتتصدير . بالطبع يحتاج هذا الجسد الجميل لن يعتني به ولكن الدكتور شوكت يبدو جيداً أيضاً من هذه الناحية لا شعر شهور إلا وتتغير رائحة عطر النساء في ثيابه .

تسائلت لبني : إنن أيكون هذا هو السبب في أنها تركته ؟ هل كان يخونها مع غيرها ؟ هل كان ينشغل عنها كثيراً بعمله ؟ كيف تعرف ؟ كانت صغيرة جداً عندما حدث الطلاق في العاشرة من عمرها . تركتها أنها لا يلبىء دون أي شجار . دون أن تدرك كم تأثرت لأن كان هذا صحيحاً لا أحد منها يتكلّم . أبوها لا يذكر أنها أبداً ، وأمهما تكفي بالشكوك حين تأتي سيرته وتسأل لبني : كيف حال عقلي الطف وبيطنا الوطني ؟

تعرف بالطبع مفرئ هذه العبارة : أنه كان لا يلبىء ماض سياسى . قضى في شبابه شهوراً في السجن لأنه كان عضواً في تنظيم شيوعي . ترك السياسة مبكراً بعد أن بدأ العمل يستفرق كل وقتة . ولكنها تذكر قبل الطلاق مشاجرات لم تفهم معناها في حبيبها . تذكر أنها وقد انتلقت ساحتها الجميلة وتشوه وجهها وهي تصرخ : «لقتنا بالإمبريالية والبروليتاريا ! لماذا لا تعالج مريضاتك مجاناً يا دكتور شوكت؟ لماذا لا تفعل مثل الدكتور شطاكيتر . تذهب إلى غابات أفريقيا وتريحنا؟» تذكر لبني جيداً تلك المشاجرات بين أبيها وأمهما التي كانت تتبعها وهي ترتجف . هل بدأ من أيامها الشوف الذي يلازمها حتى الآن في كل خطوة ؟ هل بدأ الخوف عندما كانت تسمع في فراشها أصوات شجار أبوها فيملؤها الرعب

ولكن يمكن أيضاً أن تكون المسألة عكس ذلك بالضبط . يمكن أن يكون الدكتور شوكت هو الذي سعى وراء الدكتورة صفاء . كانت جميلة الجميلات . مازالت جميلة الجميلات . لو ورثت نصف جمالها ! لو ورثت تلك القامة المشوقة ، هاتين العينين السوداويتين الواسعتين ، هاتين الشفتين الشهيتين ، تلك الشفة السفلية المثلثة والشفة العليا البارزة يروزا طفيقاً في وسطها تماماً . وهي تتطيق على الشفة السفلية . أى رجل لا يتمنى تقبيل هذا الفم المكتمل ؟ وتلك البشرة البيضاء الناعمة التي كانت في طقوولتها تحب أن تلمسها بيدها وخدتها وأن تقبلها .

اللقت بحاب وجهاً إلى المرأة . رأت وجهها ، رأت عندها العصبيتين . ألتها المستقيم ، بشرتها التجمبة ، شفتيها المثلثتين . ليس قبيحة كل إنسان يقول إنها جذابة . ولكن جذابة شريرة محبة شر ، أخر : أنها من الجميلة حقاً . وما أهمية الجمال يا مثقفة يا من قرأت كثيراً ! ألم يقل لك شعراءك إن الجمال في عين الرائي ؟

هابها ! فليقولوا ما يشاون ! لو لم يكن سالم جميلاً ، جميلاً حقاً . فهو كانت ستذكر فيه ، ذلك الانطوازي الذي لا يحسن أن يتكلّم ؟ كم من ليال قضاها ووجهه يراهم كل الوجوه التي تراها وكل السطور التي تقرها !

وهل كانت تلك القراءة ضرورية ؟ هل كان ضرورياً الا تورثها الدكتورة صفاء . جمالها وأن تورثها حب القراءة ؟ وكيف استطاعت الدكتورة أن تجمع بين هذين الشيئين الغربيين ، حب القراءة وفضتها بجسمها ؟ تقضي ساعات طويلة في التزبين أيام المرأة ، وساعات أطول في التسوق واختيار ثيابها الجميلة دائمًا ، وتأكل باستمتاع ، نوافة حقيقة . وبعد ذلك كله تقرأ الكتب في نهم : مازالت حتى الآن تسأل ابنته عن آخر كتاب قرائه وتهز رأسها حين تسمع الجواب . تكون قد قرأت

ما الذي يفعله الناس ليعيشوا السرور وينسوا أي شيء غيره؟
قالت لنفسها وهي تحول عينيها عن المرأة : هذا الفرج ليس متنبأً جدًا ؛
ستخترج الآن كل الأشياء التي أردت أن أدقنها فيه . أعرف أنها ستخرج ، لأنني
أفهم حقيقة لما حدث . لا لأنني أعتبره نهاية العالم ، ولكن لأن الإهانة ترافق أن
تزول ولأنني لا أعرف طريقة إزديابها هذه الإهانة .

غامت عينادها وشردت قليلا ثم تنهدت ورفعت رأسها تستكمل المفكرة التي
سيطرت عليها : بالطبع لو سئلني سالم ستقول كل شيء .

لا تستحق حكاية مرتضى أي اهتمام . لا توجد أي حكاية أصلًا . لو سائلها
سالم عنه ستفرغ من أمره في ثقفين . مرتضى نفسه لا يستحق من الحياة أكثر
من ثقفين . ولكن ماذا لو سأله عن الحكاية الأخرى ؟ وحتى لو لم يسأل فلابد أن
اقول الحقيقة . أنا لا أخاف ولكن من الذي يستحق الاستماع إلى الحقيقة ؟
الأتراك ، وعدهم مثل دادة سبيبة . أنا لم أقل شيئاً ليابا ولا ناما لا لأنني خفت
منهما ولكن لأنهما لا يستحقان الاستماع إلى الحقيقة .

ومن ذلك فهو حقيقة بسيطة جدا . ليست معقدة ولا غريبة . استطاع أن
تحكها بدون تمثيليات ولا مبالغات . سأقول كما في غرفة المكتب مثل ظهر كل
يوم . كان عمري ١٦ سنة وكانت في السنة الأولى الثانوية . كان مجلس أمامي على
المكتب . يعطيتني درس الرياضة . سأقول كان مدرساً عاديَا ، ربما في الخامسة
والأربعين من عمره . ربما أكثر . قلت للبنات في المدرسة إنه يشبه نجيب الريحاني
في فيلم غزل البنات . وكان يشبه بالفعل . أسميه فيما بيننا الأستاذ حمام . لم
يكن يصلح فتن الأحلام لاي بنت . كان أكبر من أبي . ومع ذلك فسأقول الحقيقة .
لن أقول إنه المتصبني . سأقول إنني لا أذكر اللحظة . سأقول لا أذكر كيف قام
من مكانه أسامي وكيف جاء بمقدمه إلى جواري . هل قلت شيئاً أو فعلت ما
شجعه على ذلك أم كان هو الذي فعل كل شيء ؟ أذكر أن جسمي كله كان يتنفس
وأنى شعرت بسخونة كالحمى وهو يعبث بيده في جسمى . ولكن بعد ذلك أيضاً .

وتضع الملائكة فوق رأسها والملائكة فوق أنفها ؟ لا . هذه مبالغة . الخوف معها من
رغم أن بعد . الخوف رفيقها منذ وقت على الدنيا وربما من قبل أن تعم . ولكنها
ذكري مع ذلك ربها حين كانت تلك الألفاظ التي لا تفهمها تصل إلى سمعها :
الإمبريالية .. الدكتور شفايزر .. والترجمة . تلك الكلمة التي كان أبيها يكررها
دائماً في المشاجرات بصوت الرقيب الحاد . وفي وسط تلك الألغاز كلها تسمع
اسمها على لسان أبيها أو أمها . لا يهم ! لأن يمكن أن تطمئن تماماً يا دكتورة
صفاء !

لم تعد لدينا في البيت إمبريالية ولا بروليتاريا ! بينما الآن مليء بلوحات غالبية
وتحف غالبية بيتيرها يابا لأنها غالبية . ربما يكون يابا الآن أغنى من أنكل صدقى
والبركة في المستشفى ! لم يعد لديه وقت حتى لفراطة الجوانب . يسمع الراديو في
الصباح على الإفطار دون انتباه . تدهش أختهار هرت على لسانها أسامي وشهاده
في ساسكين يابا تبتو في المستشفى ! وأضحك أنا في سرى . كيف أصبح جاهلاً
باختصار الرفاق إلى هذا الحد ؟

في الواقع أصبح جاهلاً بكل شيء . عدا المال طبعاً ، والطريق ، والناس ،
طبعاً ، شيئاً ولكن لا تهمني يا دكتورة ما زالت أنا هنا لا إمبريالية ولا بروليتاريا
، نحن الآن نهتف للرجل الذي كتم ثعنونه : يابا لأنه البطل السوري الذي أدخله
السجن . وأنت لأنك سليلة المجد والشرف الدكتور صفاء ، بنت الدكتور عبد العليم
بك .

جلست لبني ووضعت يدها في حجرها وهي تنظر في المرأة إلى وجهها المقطب
وتقسم : بالذمة هذه الأفكار سعيدة ؟ ألم أقل إلى سعيدة ؟ لأن إدن تهرب
السعادة بسرعة وتنهى هذه الأفكار ؟ لماذا أحوم داشا حول حكاية الطلاق ؟ ما لم
أنا الآن وبابا وما وما والثورة العالمية والمحلية ؟ لا أستطيع أن أركز على سالم
ووجهه ؟ ألم أقل سعيدة لليلة واحدة ؟

أصبحت تقابل سالم كل يوم تقريباً . يلتقيان في الكتبة ويخرجان معاً أو يتفقان سلفاً على لقاء خارج الجامعة . تركاً كثيراً من المحاضرات واكتشفا معاً مخابئ العشاق في القاهرة الشوارع الجانبيّة نصف المظلمة في وسط البلد . الكازينوهات المنتشرة على التهر والتي تضع مظللات مائلة يختفي خلفها المحبوون ، الزوارق النيلية التي تبيع الخلوة .
ولم تقتصر لبني أبداً الذهاب إلى أي من الفنادق الكبيرة التي كانت تلتقي فيها بانها وأبيها .

اعتادا أن يسيراً معاً بالساعات ، يدها في يده ، يجمعهما الكلام وبضمها الصوت ، ولم ينكحهَا مرة واحدة عن الحب . لم يكن أى منها خبريراً بكلمات الغزل .

وكانت تسأل نفسها أحياناً ما جدوى كل الشعر الذي قرأت وكل الأدب الذي ألمتها إن كانت لا تستطيع أن تنقل له بالكلمات كيف تحبه؟ وما جدوى ما كان يقوله أنها وأمها ومدرسوها من أنها ذكية جداً وأنها أكبر من سنها بكثير ، وما جدوى أنها قلل طوال عمرها الأولى في مدرسة اللغات وكانت تفخر هذه المدرسة ، يعرضونها على المفتشين كما يعرضون البضاعة الفاخرة . لتردد محظوظات الشعر العربي والإنجليزي . ولكن تجحب عن الاستلالة الألغاز عن عاصمة تايلاند وتاريخ ميدان هـ حسين ومعركة واترلو؟ بماذا أفادها هذا العلم وهذا الذكاء ، وهي لم تعرف السرور الحقيقي أبداً؟ من الصغر تربت نفسها وتنكشف أخطاء ، لم ترتكبها ، ثم اعتنقت أنها هي السبب في هلاق أمها وأمها وإن لم تستطع أن تحدد كيف؟ حين كانت تسمع اسمها يتتردد وهو يتشاجران في غرفتهما بصوت

هل كان هو الذي قادني إلى الكتبة أم أنا التي سجنته من يده إليها؟ سأقول لا أخرى ولكن سأقول إنني أذكر ما بعد ذلك بكل وضوح . سأقول إنه ذهب إلى باب الغرفة المقتوح وأغلقه فافتقت كمن يصحر فجأة من النوم . كنت أعرف أن أبي في العيادة وأن عم حسن الطياغ خارج البيت وأن دادة سنية في غرفتها البعيدة لا تسمع أي شيء . خفت . كنت راقدة على الكتبة فقمت وزرعت رגלי في الأرض وسانثه بصوت عال ، لكنه مذعور ، ماذما تفعل يا حيوان؟ سأقول إنه رجع ودقعنى بيده على الكتبة وهو يدخل ثيابه . قلت سأصرخ ولكن صوتي أصبح ضعيفاً جداً ، وأخلت الحصن التي كانت تذهب جسدي مكانها لبرودة كالثلج في أطرافني . كان يدقعنى بيده لأرقد وكانت أنا أدفعه لابعد عنى لكنى لم أصرخ لم أجد صوس . سأقول إنه صفعنى وإننى أصبحت خائفة منه جداً . فكرت وأنا أنظر إلى وجهه المشوه بالشهوة أنه سبقتنى وشعرت وأنا أرقد بخيال ، كالاغمام . وعندما جاء ذلك الألم أحياها وصرخت قفز فجأة ووقف فوقى وراح ينظر إلى بوجهه محظوظ وخفاف وهو يسألنى «لماذا لم تقولي إنى بنت؟ لم أكن أتصور ! ثم وجه نحوى سبابته وهو يضم ثيابه بيده الأخرى «أنا لن أتزوج ! أنا رجل متزوج» . سأقول إنني فجأة تهضب رغم الألم والإعياء . وكنت أصرخ : إيش ! اخرج يا كبك يا ابن الكلب . قذفت نحوه كتبأ وأشياء أخرى ثقلة كانت على المكتب وجريت وراءه وهو يعدل ثيابه ويجرى متفادياً سقوط الأشياء عليه إلى أن خرج من البيت ولكن ظلت أصرخ . ونادت دادة سنية من غرفتها في ذعر فجريت إليها وحكت لها كل شيء . وبيومها بكبت .

وتحتملت لبني لنفسها في المرأة . سأقول إننى بكبت ، وسأقول إننى من لحظتها كرهت الرجال . كل الرجال . إلى أن جئت أنت يا سالم . فنهل سقطهم الحقيقة كما كانت ؟ هل أنت بري ، بالفعل؟

وكانت الآن ترفع رأسها كعادتها للمنع دموعها ففاقت صورتها في المرأة .

ووجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة المتعطشين بالحماس وأحسست أنها تحتمى بهم من وحديتها ومخاوفها . شاركت في اجتماعاتهم في مدرجات الجامعة وفي كتابة المقالات لجلالات الحاضر . وعندما عرف أبوها ذات مرة أنها تكتب مقالاً عن الرجل الذي يكرهه من كل قلبه غضب بشدة واتهمها بالسذاجة وبأنها لا تفهم شيئاً عن « الطاغية » الذي ضيّع البلد ! وقال إنها تدافع عنه مجرد أنه يكرهه . ولو قرأت بما فيه الكفاية عن عقدة أوديب لكفت عن هذه البلاهة . أمرها وهو يمزق المقال بأنفعال لا تعود أبداً إلى مثل هذه القلطة ففالت وهي تبتسم « حاضر يا بابا » . كانت والثة من أنه لن يتيسر له وقت لبيان ما تعلمه أو ما تترك ، ولكنها تسأله : إن كانت عندي عقدة أوديب فما هي العقدة التي تجعل الدكتور شوكت يعتقد أنه محظوظ؟ وأن كل شيء في العالم لا يهدى أن يكون سعيداً؟ وهل طلقت أمها لهذا السبب

ظللت ليفي تشارك زملاءها ولم يفسد عليها صحبتهم إلا وجود مرتبض
يسليم: لم يكن يكتفى بالوجود معهم، بل أراد أن يكون زعيمًا لهم، وبدأ
يصف الطلبة على هواه ويستخدم مصطلحات لا يعرفون معنفيها: الطفولة
اليسارية، الهلال الخصيب، الخلاف البعضي القومي، الماركسية التروتسكية،
وكلام كثير من هذا النوع. سمعت أنه خدعها أول الأمر اعتقدت أنه أكثرهم
علمًا وحماسًا للفكرة. سمح له أن يقترب منها على أقل أن تتنظم منه. كان على
عڪسها يعرف أن يتكلم بفصاحة وبهاجم الحكومة والطبيقة الجديدة التي سرقت
الثورة، فيبهرها بكلامه وجرأاته. ووافقت للمرة الأولى منذ تجربة المدرس على أن
نقابله خارج الجامعة لكنها ظلت ترجي «ذلك الموعد باستثنار».

لم تكون المسألة مجرد انتباها لسلام الذي أسمته في سرها (أبولا) والفتنت به منذ شعرت بنظراته الحذرة الحبية، بل كان هناك تغير يتصاعد في داخلها من

مال كانت تظن أنها يتشارجان بسببها ولم تستطع أبداً أن تتغلب على ثواب الخوف الكاسحة التي تغزوها وتشل تفكيرها . وبماذا تفعها أنها الأولى والأذكى والأكابر من ستها عندما اعتصبها حمام؟ وهل كانت هذه القراءة وخلوتها بالكتاب هي طريقتها للهروب من العالم الذي يربعيها؟ تلك على كل حال هي هدية أنها الوحيدة لتخفيها من الدنيا فشكراً لها، وماذا كانت ستفعل بنفسها في ليالى الدجدة، الخوف لم تكن الكتب هناك ؟

لن تحدث سالم عن ذلك الخوف. لن تحدثه عن قرأتها فمن الواضح أنه لا يقرأ شيئاً . لن تحدثه عن حمام ولا عن مرتبض . لن تقلل أى شيء يبعد عنها . لن تحدثه عن السياسة، هي نفسها لا تعرف ما الذي ادخلها في هذه الحكاية المضحكة من الأصل! لا، لا يعني لأن تظل نفسها ليست حكاية مضحكة، هي لم تدخل تنظيمياً ثورياً سورياً كالذئب دخله الدكتور شوك . كانوا مجرد مجموعة من الطلبة والطالبات التقت بهم فور دخولها إلى الجامعة ووجدت أنهم يفكرون بطريقة أعميقتها . مغتصبهم التغيرات العجيبة التي تحدث في البلد : تجار التبريز وتجار العملة والغلا . البيشع وبذاته الأغنية، الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن وتشييان تصريحات الحرب القربيّة وظهور نساء في السياسة يستعرضن جمالهن وأزياءهن على شاشات التلفزيون ويتاجرن بظهورهن مع مشاهي الحرب على مقاومتهم المتحركة، وذلك في الوقت الذي ظهر فيه في الجامعة عشرات من الطلبة بجلابيب بيضاء، ولهم يمرقون مجلات الحائط التي تكتب هذا الكلام ويشربون زملائهم الذين يكتوبون بينما يحملهم حرس الجامعة حين يمرقون وحين يضربون . أحيث ليس زملاؤها الماضين الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شيء من ذلك، ويعانون إلى الرعيم الذي أحبّ صورته وصوته وهي طفلة . وكانت تفاصي عندما تسمع أياماً وأياماً يسبان كلما أطلت صورته من شاشة التلفزيون

وكانت تسير مع سالم في ليلة شتوية باردة في شارع الفلكي الضيق الذي تحطه الاشجار وتكسر نور مصابيحه الليلية العالية، عندما انتزعت يدها فجأة من يده وافتقت حلتها . لم يكن هناك أحد قعاد يختضن يدها وها يسيران هما معاً سالماً في نفس :

- هم تفافين يا ليلى ؟
- من كل شيء ؟

أفاقت منها العبارة دون تدبر فسألها وهو يضم يدها بقوّة : ولكن لماذا ؟
- لا أعرف . أحياناً أصبحو في الصباح فيخفقون كل شيء ، أصوات الشارع .
جدار البيت ، صوت الراديو ، ضجيجات التسالات على السلم ، كل الأصوات وكل
الألوان والروائح . أشعر أن كل شيء فيه خطأ . وحين أخرج من البيت في هذه
اللأام انتهى شيئاً فشيئاً . وبالليل أضيء النور حين أتام ، أخاف بالذات من
الظلام .

عن سالم رأسه وقال : أنا لا أخاف من الظلام ولكنني أخاف من نفسِي ،
وأضفت بعد فترة صمت : عندما كنت صغيراً اعتذر أهلني من مجني .

وهكذا حكى للبيبي ما لم يقله قبلها لأحد . اعترف أنه تائبه حالات لا يعرف
فيها هو نفسه إن كان مجنياً أو عاقلاً ، وأن الكوايس كثيراً ما تصرمه من النوم
فيصحو موجهاً وعاجزاً عن الكلام .

كان سالم يتكلم ببساطة شديدة وبهدوء ، وشعر براحة تغمره لأن تكلم أخيراً
معاً ظلل يخفيه في نفسه . ضفت لبيبي دورها على يده . وقالت :

- لا تهتم لذلك ، أنا شخصياً أعتقد أنك عائل أكثر من اللازام .
ثم أكملت وهي تضحك : أتدرى ، عندما كنت أراك في الكلية تمشي ثابتاً
كالعملاق . لا تتخصص بعيونك الجميلتين للبنات كما يفعل بقية الطلبة كنت أقول
لنفسِي في يأس لماذا لا تتعرّف على يا أبو بنت نمرة ؟

مرتضى . لاحظت الانقسامات التي بدأت في المجموعة بسيئة ، واكتشفت أن حقدَه
لا يقتصر على الحكومة وأمريكا والطبقة الجديدة بل يشمل الجميع . لم يكن الحقد
الطبقي الذي صدعوها بالحديث عنه ، بل الحقد الصافي البسيط على كل من يملك
شيئاً لا يملكونه هو ، ويفصل مرتضى استطاعت لبني أخيها أن تفهم شخصية
ياجو عند شكسبير التي ظلماً حبّرها أمرها . فهمت أنه لم يكن هناك سبب
 حقيقي لكراسيته لعطيل وسعيه لتدمير حياته غير أن المقربين كان يملك حب
 دينونة : كذلك مرتضى ! لم يكن يحتمن أن يملك أحد شيئاً لا يملك هو . سواء
 كان هذا الشيء هو المال أو المركز أو الشكل أو السمعة أو أي شيء آخر . كان
 يعتبر امتلاك غيره لهذه الأشياء إهانة شخصية له . هو الذي قال عن سالم إنه
 شاذ عندما لاحظ إعجاب البنات به . ولا يختلف فيني أنه لم يكن يطلق بالذات
 الأستانة الذين يحبيهم الطلبة . يجد في كل منهم عيوباً . فيما الاستاذ سالم
 الإقطاع ومصاص دم الفلاحين . والأخر يسرق محاضراته من كتب الدكتور
 السنوري (التي كانت لبيبي واثقة أن مرتضى لم يقرأ منها حرفاً واحداً) الدكتور
 الشاش عميل للحكومة والأجهزة . ومع ذلك فقد انتهت أمراه بالضبط لها حين
 ضبطه ذات مرة وهو يحملق هذا الاستاذ العميل ويذلله لكن يضمه إلى الأسرة
 الشبابية التي كان يكونها في الكلية . رأت يقف منكتشا أمام الاستاذ عن بعد ،
 ويدل لها أن جسده أصبح أكثر ضالة وصوته مرتعشاً وخالقاً . ولم تكن هي
 وحدها التي اكتشفت أمره وبدأت تفهّم منه ، بل عرف حقيقته بسرعة معظم
 زملائها وزميلاتها وصاروا يتجنّبون وجوده في وسطهم . لم يبق على علاقة به إلا
 من كانوا يخالفون من قدراته على جرح الآخرين وإذائهم .

ومع ذلك لا ينبع لها أن تشكر مرتضى هل كانت بدون مطارقته وفاحشه
ستعرف فرحة هذا الاقتراب الذي ملا حياتها .

- ولكن أنا أعرف أنني لست جميلة . لا يهم ! معيك حق يا سالم . أنت
لست جميلاً ولا أنا جميلة . الحب وحده هو الجميل والحب وحده يبرينا الجمال ..
انتبهت لبني إلى ظلال الأشجار الغريبة الرجراجة التي تصنعها مصابيح الطريق
العالية وقالت لنفسها نعم ! لو لم يكن سالم معه لأخافته هذه الظلال . تجر إلى
ذئني عشرات الأفكار الكثيبة التي لا تستطيع الخروج منها وتجعلني منقضة
موال الليل . أما الآن فلما أزاحتا ظلاماً لا غير . ظلاماً كبساط ناعم يفرض طريقاً
نمسي فوقه ، ويفرشه من أجلينا لأننا نحب . قالت وهي تتضعضع على يده من جديد :
معك يا سالم لاأشعر بالخوف !

انتقلت إلى سالم عدو انتقامتها ولكنه لم يكن يستطع أن يعبر عن نفسه
ميكها . خطر له أنه هو أيضاً لم يستطع في حياته أن يتكلم مع أي بنت غيرها
ولأنه مثل ملوك عمره يخاف فيمنعه الخوف من الكلام . يخاف أن يخطي ، أو أن
يقول شيئاً لا ينبعي قوله فيلزم الصمت . معها وحدها يستطيع - ولكن ليس
تماماً - إذ قال فجأة :

الآن أيضاً أخاف أن أقول شيئاً يغضبك !
- ولكن أنا مستحبيل أن أغضب منك . كيف ؟ ألم تسامحتي أنت إن أنا
أخطئت ؟

تردد قليلاً ثم قال : نعم . إلا إن تركتني .

ابسمت : الآن يا سالم أنت مجتون بالفعل ؟
تطلعت إلى جانب وجهه في الطريق المعمم وكانت تقاوم دموعها بصعوبة حين
استطاعت أن تقول لأول مرة :
- كيف ؟ إلا ترى كم أحبك ؟
ولكتها كانت سعيدة . الآن كانت خائفة من سعادتها .

- من .. من هو أبوابوا ؟
- هو إله ال .. هو شخص جميل مثلك والسلام .
تلحسن وجه سالم وابتعد عن لبني ووقفاً متواجهين في العتمة وهو يقول بصوت
خشش :
- لا أحد أن يقول أحد إليني جميل !
- لماذا ؟
- لا أحب ، البنات فقط جميلات . آنا رجل .
- وما العيب أن يكون الرجل جميلاً ؟
قال وصوته يذمر بالخفق : قلت لك لا أحب ذلك . لا تفهمين !
كانت شفتها ترتعش . كان جسدها يرتعش :
- نعم .. آنا لا أفهم .. آنا غبية .. سامحتي .
عندما يدا من صوتها أنها على وشك البكاء أصابه هو أيضاً الفزع ثم تمالك
نفسه وقال بصوت متحشرج : آنا أسف .
مد يده يمسك يدها مرة أخرى فكانت باردة كالثلج . سارا فترة دون أن يتكلم
أحدهما ، وأخيراً سألاها :

- عن أي شيء كنت تتكلمين قبل ؟
- عن الخوف !
نعم . الخوف هو الذي يعني من أن أكلمك . منذ رأيتني في الكلية لم أفكر
إلا فيك أنت . ولكنني لم أستطع ..
فقالت شاردة : ربما حديست خوفي . ربما تراسل التفوس الخائفة بإشارات
خفية . ثم هزت رأسها وقالت : لا ! لن أسمع ! لن أسمع لنفسي بأن أخاف بعد
اليوم ولن أسمع لك . ولا فما فائدة الخوب ؟ قلت إينك تفكرين . هل تجدين جميلة ؟
- بالطبع .

عاش سالم أيضا أياما وأسابيع سعيدة . كان يطوف بخاطره أحيانا ويقلّه أن ليلى تتّبع إلى حياة غير حياته ، فهى تعرف لغات ولا تجد أى مشكلة في دروس الفرنسية في الكلية . وقد سمع أن أيامها طيبة مشهورة . فهى لا بد أن تكون غنية ، لأنّي منه بالتأكيد . ولكنّه لم يفكّر في ذلك كثيرا . رضي بالقليل الذي يعرّفه عن ليلى وينعم السكينة التي وجدها معها . وكان جده يتركه في حاله . لا يلح على أن يسيرا معاً ولا على أن يستامرا فوق السطح . وعندما يتّمّن سالم في بعض الأحيان بين يديه شيشتاً عن ليلى كان يستمع إليه صامتاً وعلى شفتيه التسبيحة ثم يقول في النهاية :
ـ (لهم لا يصرّف هذا عن المذكرة .

ولم يهتم سالم أيامها كثيراً بمسألة المذكرة . نادراً ما كان هو أو ليلى يدخلان إلى المحاضرات حتى عندما يذهبان إلى الجامعة . ولكن القليل الذي كان يقرؤه في كتب القانون أو يسمعه في المحاضرات كان يثبت في ذهنه على الفور . بل وكان يشرحه للبنى عندما تطلب منه . وصار جده يدهش في بعض الأحيان من إجاباته على الألغاز القانونية التي يطرحها عليه أشخاص مراجعته لدورسه يقول مفتقراً : كنت متاكداً أنك ستتّبع في القانون . دعك رحمة الله عليه في آخر مرة رأيته فيها وأنت مفلل صغير . عرف سالم بالطبع أنه يعني أبو خطوة . كما كان يعرف كثيراً من تفاصيل هذه الزيارة الأخيرة التي تركت بنيتها الغربية بصمة لا تمحى على جده . ولم تكن لديه في هذه الأيام رغبة في استئناف قصص جده المأثولة ، ولا كان الجد أيضاً يعود راغباً في الإفادة . فعلى الفترة الأخيرة بدا الباشكانت يميل إلى الصمت والتأمل على غير عاده .

عاشت ليلى فرحاً لم تعرفه في حياتها من قبل ولم تخيل مجرد وجوده في هذه الدنيا . أن تنسى نفسها تماماً . أن تكون وحيدة في فراشها بالليل تسمع الموسيقى فلا تأبه الوساوس والمخاوف بل يحيط بها وجهه من كل جانب ، طيف عينيه الرسّابتين ، شعره الغزير المهوش الذي لا يعرف أبداً كيف يمشطه . حاجياء الكثيadan ، كل تفاصيل الوجه ، وليس أناقة الطولية . ثمرة صوته وعباراته تحيط بها وتغزوها هي والموسيقى في وقت واحد . وهي وحيدة في الليل وهو يعيش يداخلها ، لم تكن الدموع التي تتساقط دون إرادتها تكفي لتفحّف وطأة ذلك الامتلاء الذي تتشبّث به وتتمنى في الوقت نفسه وهي تتقلب في فراشها لو تتحفّف منه . تقول لنفسها لا يحمل الجسم كل ذلك الامتلاء بالفرج !
كيف كانت دون سالم ستعرف ذلك كله؟ كيف كانت مستعفف الدوان المخمور وخفاقة القلب حين تلقاه والنفف في الأرياف والخذر في الأرياف والرعنق في تلامس الشفاه ورغبتها في التحليل بعيداً لأن الأرض أصغر من أن تتسع لهذه النسوة والجسم أضيق من أن يستوعبها ؟

كيف كانت ستعرف ما يحدث لجسمها حين يضمها إليه فتصير في الجسم كله رعشة وعرق خفيف كالندى وتفتح المسام كزهور تنشر عطر روحها وجسمها . وتتعود جيداً . وتحلم مفهمسة العينين لو يفتحت هو أيضاً رحماً يحتويها فلا يقتربها إلى الأبد؟
كيف كانت ستعرف هذا كله ؟

قالت دون أن تنظر في وجه أخيها : الحمد لله . فراج رجل طيب وسلام يملا علينا البيت.

ثم سكت وهي تتساءل : هل تستطيع أن تحكم سالم عن مشاكلها الحقيقة ؟

هل يمكن أن تكلم عن فراج الذي تعرف رغم كل ما فعلت أن أنها لا يحبه ؟ هل سيفهمها ويفهمه ؟ كيف يمكن أن تحكم له عن التغير السريع الذي أصاب زوجها خلال ستة واحدة ؟ غاضت الابتسامة من وجهه وأصبح عصبياً يثور لاتهء شيء ويختلق شجاراً في البيت . وحين تحاول تهدته وتقول له إنها لا تقصرين في واجبها وإنها تخدم في البيت كالجارية يرد بأن أنه تعلم في بيتها أشياء ما تعلم فوزية دون أن تشكي ودون أن تطلق بكلمة واحدة هي تعرف مع ذلك سبب ذلك كله . فراج لم يصحح سينما لكنه يرافق نفسه في الشغل أكثر من اللازم وكل الأشياء التي توقعها لم تحدث : لا البعثة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح له بالدراسة العليا التي حلم بها . والمرتب الذي كان يمكنه تماماً قبل سنتين أحسن لأن يتاخر قبل آخر الشهر بكثير . رغم كل ما تعلمه تغير أمور المعيشة في البيت ورغم ما يعطيه لها جدها .

أخيراً رفعت فوزية رأسها وقالت لأخيها بصوت متعدد :

- أريد أن أخذ رأيك في موضوع يا سالم .

جلس إلى جوارها على الكتبة وهي تحمل طفلها على كتفها وراحت تربت على ظهره ، ثم سكت لحظة وبدأ أنها قد عدلت عمها تزيد قوله وسائل أخافها بابتسامة :

- على فكرة . هل عرفت يا سالم أين يذهب جدك يوم الخميس ؟

- لا . قلت لك إبنتي حتى لم أحاول . هل عرفت أنت ؟

ولكن فوزية ساكتة مرة بابتسامة وهي تجلس قبالته تررض طفلها سالم الصغير :

- قل لي يا سالم . من هي التي (الخيط) آخر العاقل ؟

تصرخ وجهه وراید يداعب بسياحتها الرضيع الذي ترك شدّي أمها وحوال عليه نحو خاله وقال : لا ترين أن سلوم يشبهني بالفعل ؟ أنا أشعّ أبتك يا فوزية .

لكن فوزية أصرت : هل هي واحدة أعرفها ؟ واحدة من الجيران ؟

فرد مظاهراً باللامبالاة : لماذا تسألين ؟ ومن أدرك أن هناك واحدة ؟

وضُفت سبابتها في جانب رأسها وقالت : أنتن أن أخوك لا تفهم ؟ صحيح أنت في الجامعة وأنت لم تتعلم مثلك ، ولكن لمن عطيلون ولمن هنأ مخ !

انهوك سالم في مداعبة الصغير الذي بدأ الآن يتسلّم له ولكن حين بدأه ليحمله حول رأسه فجأة وعاد يلقم شدّي أمها .

قالت فوزية وهي تربت على رأس طفلها ببطء : أنت تكون طول عمرك . لا أحد يعرف تلك الحق ولا الباطل ، ولكن لو كانت واحدة من الجيران عرفت وألقت أنها زميلة لك في الجامعة .

كان يقف أمامها وهي تجلس في الصالة على الكتبة منهكة في الإرهاص لكنها ضحكت فجأة ومدت ذراعها لفجذب سالم نحوها وقبلت في خده قبلة حارة وهي تقول :

- الفعل ما بدأ لك يا سالم . المهم أن تكون سعيداً . سأخرج لك ما دمت سعيداً .

جلس إلى جوار أخيه وساختها :

- وأنت ؟ هل أنت سعيدة يا فوزية ؟

- لماذا إذن أساك ؟

ثم أكلت بضحكه ملتفة : محببة يا سالم أن يكون جدك متزوجاً في السرا
تزحزح مبتعداً عنها وقال في ارتياح : جدي ! لا يمكن !
قالت وهي تواصل الترنيمة على الصغير : ولم لا يا صاحبي ؟ تحدث كثيراً
وتكلشف الحكاية بعد .. بعد فوات الأوان .

ثم أمسكت بابتها وأبعدت عنها قليلاً وراحت تزرجه : لكن أنت لن تكون
كذلك يا سلام ! أنت ستقول الحقيقة دائمًا . لن تتصدم أولادك عندما تكبر بأن لهم
آخرة لا يعرفونها . كما أن أمك وحات قد يكون لها أعمام وعمات لا يعرفانهم !
ابتعد سالم عن أخته لينظر في عينها مباشرة وفي صوته هلح :

- فوزية ! ليس هذا موضوعاً للمرأة ! لا جدي !
فواصلت حديثها لابتها : لا جده يا سلام ! كذلك طيب وعلى بناته لا يعلمون

أن جده رجل كيسي الرجال !

لكن فوزية شعرت أنها ذهبت بعيداً في الكلام فعادت تتحسن ملطفاً وتنقرت
في عين أخيها وهي تقول بهذه : لا تقلق يا سالم . أنا أمزج بالفعل . أنت أنت
إنسن لا أعرف شيئاً وأنا متأكدة تماماً يمكن أن أشك في كل الرجال لا جدي . أنت
ترى كم يحبينا . أنتلن لو كانت له زوجة وأولاد فسيكتفي بإن يraham يوم الخميس ؟
ثم قالت بضحكه عابرة وهي تنهض : ومع ذلك كما قلت لك . أدفع نصف
عمرى وأاعرف أين يذهب يوم الخميس !

سار سالم خلفها نحو الباب وهو يداعب الصغير بأصبعه في خده مستجدداً
منه ابتسامة أخرى . لكن فوزية توقفت لحظة . ثم بدا أنها تغلبت على ترددها :

- اسمع يا سالم ، ما رأيك في حكاية البيت ؟
قبل أن تستطرد ردده عادت تجلس على الكتبة فجلس سالم إلى جوارها وهو

يسأله :

- أى حكاية ؟

- أنت سمعت بحكاية الشرخ الذي في جانب البيت ؟
نعم وجدى يلوى أن يرمي . لكن السكان لا يريدون المشاركة في التكاليف .
فتالت فزورية وكثيراً تتزرع كلماتها : سمعت يا سالم أن الأرض في حينها
ارتفع شتمها : سمعت أنتا يمكن أن تبيع نصف الأرض بشئون كبير ثمين به عمارة
جديدة في النصف الآخر ثم تبيع شققها بالشىء الفلاطى . يمكن . قاطعها سالم
وهو يسأل يدهشة : تهدم وينهى ؟ لماذا ؟ هذا يبتنا يا فزورية ؟
ثم استدرك : لا . في الحقيقة هو بيت جدي . ولا يمكن لجدى أن يفرط فيه .
بهذه ! هل هذا معقول ؟

كان سالم الصغير قد نام على حجرها فتكلمت بصوت خافت :
ـ المفروض أنه غير معقول . وأعرف أن جدك لن يوافق .
ـ أين أختلفت معه بالفعل ؟

- لاحت له فضحة . قال مثلك : هل هذا معقول ؟ وأين تذهب تحزن وأين
تذهب الهران .
ثم أكلت بغيظ مكتوم : كان هؤلاء الجيران يذكرون قبنا ! يدقعنون مساليم
للباجار ويستخسرون حتى أن يدفعوا نور السلم ! تحزن . الذين تدفع كل شيء ..
رفع سبابتها : جدك هو الذي يدفع كل شيء .. لا تحزن . وهو ..
نظرت في عين أخيها مباشرة وقالت بلهجة بائنة دون أن ترفع صوتها : أنا
بحاجة إلى فلوس يا سالم ! مرتب فراج لا يكفى للبيت . وأنا لا أشتغل ولا أساعد
في المصارييف ..

قال متتعجبًا : ولكنكم كتمتما تعغان ذلك من قبل الزواج . كان يعرف جيداً
أنك لا تستغلين .

ثم استدرك بصوت خافت : وأعلن أن جدي يساعدك .

قالت وهي تنظر شاردة إلى طفلها الثانى : نعم .

ثم واصلت دون أن ترفع رأسها : جدى يدفع ما يقدر عليه ولكنه لا يمكن .

كيف يكون عندي هذا الكتز ونعيش فقراً؟

نهض سالم وقال وقد بدأ يتكلم القusp : هذا الكتز ليس ملك فراج ولا ملك ولا ملكي هذا بيت جدى وينا يعطيه طول العمر .

مدت فروزية يدها فامكنت بيد أخيها وجذبته ليجلس إلى جوارها حيث كان : - أهدا يا سالم . أهدا . أنا أيسنا أدعوه بطول العمر . أنا لا أحب أحداً في

الدنيا كما أحبه . ثم انحرفت عيناه بالدموع وهي تسأله :

- قل لي ماذا أفعل ؟ فراج أخترني رخيصة ، والواحدة مني يا سالم لابد أن تكون عزيزة في بيتها . كيف تكون لي قيمة وإنما لا أعمل ولا أملك شيئاً ؟ الرجل الآن بين زوجته بما تدفعه للبيت .

قال مفاجأة : والحب يا فروزية ؟ لا يزن الرجل زوجته بالحب ؟ لا تكون عزيزة لأنه يحبها ؟

قالت ودموعها تتسبّب بلا انتقطاع : في الحكايات فقط يا سالم ! عند العبط مثل وملك ، أنا لست عزيزة على فراج لأنّه لم يتعجب في زواجه ، هو يعتقد أنّي أنا التي أشتريته ولكني لم أدفع كل الثمن الذي يستحقه . ومعه حق لأن الفطة غلطتني .

أفلتت منها العبارة الأخيرة دون قصد فعادت تكرر .

- قل لي ماذا أفعل يا سالم .

نظر سالم إلى آخره البائكة في حيرة وعجز ، ثم مد يده إلى كتفها وضمها إليه برفق وهو يقول بصوت مرتجف .

- ولكن .. ولكنك عزيزة جداً يا فروزية ؟

ثم اختنق صوته وسكت .

بعد تلميحات جابر جاءت فروزية ، وسائل الباشكاب نفسه : من عليه الدور
بعدهما ؟ شعبان الذي جاء قبل أيام يشكوه من مطالبة الضرائب الباهظة ؟ أو
ربما سالم الذي وقع في حب بنت ثانية ؟ أو فراج الذي تخسر كل تناوله مع تixer
مرتبه ؟

كان الباشكاب يجلس وحيداً في شرفة في الليل ، يراقب الشارع الذي بدا
يزدحم لاقتراب مولد السيدة وأصبحت أوصافته ملئى لزار الست . كما بدا
أصحاب المصالح يعلقون أفرع المصاصب الملونة بعرض الواجهات ، ولكن أشياء
كثيرة كانت تشغل بال الباشكاب .

لم ينك عن محاسبة نفسه منذ جلسته وحيداً في المقهى ، ولاحقته أمور
متزغعة في نفسه . فاجأه أولاً اقتراب فروزية ببناء محلات في مدخل العمارة ،
ولتكن بعد تفكير قال ولم لا ؟ عزّ عليه أنه سيفقد شجرة التمر حنة التي كان
عرّها من عمره ثم تسأله : وكم يبقى من هذا العمر على أي حال ؟ .. كان يعرف
جيداً الحالة التي تعيشها فروزية وفراج ويعلم أن ما يعطيه لحفيدته خفية لا يساعد
كتيراً على تغيير هذه الحالة . ثم بدأ هو أيضاً يشعر بالغلاء الذي يتحدث عنه
الجميع . اعتاد لا يذكر أبداً في المال . كان معاشته وادخاره وإيراد قطعة الأرض
الصغيرة التي ورثها هو وشعبان عن سمية يفيض عن احتياجاتهما القليلة وبكل
للتيبة حاجة أسرته كلها . وتوقف من زمن بعيد عن الاعتماد على إيراد البيت
الذي لم تعد إيجارات مساكنه تغطي مصاريفه . والآن بدأ يسحب من مدخراته
لصرفات الشهر العادي ، واكتشف أن هذه المدخرات ستتضاعف كلها في تكاليف

الترميم الذى اعتذر السكان عن المشاركة فيه لأن «ليس ملكهم» كما قالت المست
إنصاف وكأنها تمرح قبل أن تضيف في أسرى حقيقى «من أين ونحن نقترب من
لصاريف علاج الحاج إبراهيم؟ فما العمل .. يهدى البيت بالفعل ولتكن ما يكون؟
يُفقد البيت والجيران معاً هو يصدقهم ، أن لكل واحد منهم عذر بالفعل . تربى
في هذا البيت مع أبنائهم الذين أجر لهم الحاج السعدي المساكن ، وظل الآباء
الذين خلقوهم يحفظون له الور ويسألونه النصح .

كان يعتبرهم مثل أبته شعبان . رأهم أطفالاً يكبرون ويترزجون وينجذبون .
يقولون له «يا عم» وأطفالهم يقولون «يا جدى توفيق» لم يعد يعرف أيهم هو ابن
من ولا في أي طابق يسكن لكنه يحفظ وجوههم ويفرج بهم حين يلقاهم على السلالم
أو أمام باب البيت . يقف ليسائهم عن حالة الأسرة وحالات المرضة فيرون عليه في
حجل وبدور .

احزنه أن شعبان لم يشا أن يكون له هؤلاء ، الجيران أصدقاء وأنه رفض
أيضاً أن يخالط سالم بآولادهم ويصادقهم . ليكن ، شعبان حزير ، أما هؤلاء
هؤلاء ، الجيران ستتفقد حياته طعمها . سيسئل كل سكانه حتى للست إنسان
صاحبة الصوت العالى والمشاحرات التي لا تنتهي مع الباعة .

يود أن يعيش حتى آخر عمره في البيت الذي تربى فيه ويعرف ناسه والذي
شهد أيضاً آخر أيام سمية . يشعر منذ يوم المفتي أن صفحته الأخيرة قد دلت
ويريدوها أن تطوى بسلام . لم يكتب حين قال إن صحته كالحصان . حالته مازالت
المفضل مما يطبع أي إنسان في سنته أو حتى أصغر منه . عذبه هذه الصحة
كثيراً منذ شبابه ، وما زال جسمه «المذكوك» ووجهه العريض المتناقض القسمات
والمتوردة بالدماء يوحيان بالقلوة والعلفية ورغم التجاعيد الطولية العميقية والشعر
الأشيب فهو يبدو أصغر من سنه بكثير . لم يشك في حياته من المرض باستثناء

وعكات البرد وحالات طارئة من عسر الهضم لم تكن غريبة ، وهو الذي يعترف
دائماً بعجزه عن مقاومة إغراط الطعام الجيد وباته لا يعرف متى يتغير عليه أن
يتوقف . تجاوزه حتى الم الاسنان الذى أرغم كل أصحابه في مراحل من
أعمارهم على استخدام الأطباق الصناعية وظل بيته على فتوته التي عجز عن
السيطرة عليها في شبابه وفري شيخوخته . ولكنه يعلم أيضاً بالبقاء المقابل الذى
بشره به أبو خطوة منذ مطلع الشباب . بدا له بعد موته المبكر أنه كان لأبد
من وقوع المأساة لكي يجد الطريق . غير أن رغبات جسده لم تكن وحدها هي التي
هانت طوال السنوات التي أعيقها رحيل سمية . بل ماتت تطلعات روحه أيضاً .
عاش يزدري ما عليه من (واجبيات) نحو ولده ونحو ولدته من بعده . نسى الرغبات
طوال تلك السنين ، ولكن روحه لم تطلق بعيداً .

«هذا أيامها الكتب التي أعطاها له أبو خطوة . قرأها طويلاً وأحبها كثيراً .
ووجد الفكرة في كل هذه الكتب بسيطة وجميلة : أن يتحلى بالأخلاق معينة تصل به
إلى الرشد الذي يحيي الدنيا في قلبه فتزرعه جنة في نفسه ويفيض على
المعجزات . ورأى أنه لا توجد أي مشكلة في ممارسة الحياة كما توصى الكتب .
كان يعمل بذلك الوصايا بشكل طبيعي حتى وهو في عز شبابه والطلاقه وراء ،
نزواته . بدا له أنه قد ولد بهذه الأخلاق . كان متواضعاً دون افتخار لكن هو أدنى
منه . بعيداً كل البعد عن تملق من هو أقوى منه بجاهه أو ماله . ببساطة من ماله
ووده دون من ولا استعلاء . يكره انتشار المرض للخطاء ويشعر بمحن إيسادة المس »
إليه ، ينساها لا يأن يغفرها فحسب . بل بمعنى أنه إن غضب لها في حينها فإنه
لا يذكر بعدها فيما كان غضبها . يحب من قلبه أن يساعد الناس وأن يقتصر
حوارتهم . كل تلك السجايا وغيرها مما أوصت به الكتب لم تكن غريبة عليه . غير
أن الخلوة النالية التي نصت عليها بعد ذلك لم تكن لها علاقة بالأخلاق ولا بآرائه .

وإنما ينور يحل عليه وينشرح له صدره قيسلاك طريق الصالحين وتجرى على يديه الكرامات . أبلياً على النور ولكنه لم يفقد الأمل حتى في هذا المزيع المتأخر من عمره . غير أنه أدرك عن يقين أن الرياء لن يقوده إلى الطريق . حين يحضر حلقات الذكر يدور في الحلقة أطول من غيره فینه جسمه تماماً ولكن روحه لم تكن تستيقظ . شعر بأنه يخدع نفسه ويخدع أولئك الناس الطيبين من حوله الذين تتطلّق منهم بعد طول التطروح آهات الشّوش ودموع الرجال .

ومع ذلك فقد حمل ولقاً من أن هذا لا يعني وقوعه في قبضة الشيطان . كان إيمانه بسيطاً وعميقاً مثل إيمان أبيه الحاج السعدي . وكان ندمه على خطایاه صادقاً كما شعر بذلك صديقه الصالح . وظل يذكر سينه في الوقت ما يؤذن به الوقت ، وظل قلبه يقول له إن الوقوع في الريا ، معيّنة تفرق ما سواها . أخذ يجاهد مع ذلك منذ موته سمية مقسماً بالفترى المختلة والوقت بعد أن قمع جسمه حتى نسيه ، انشغل تماماً بهموم حياته مع ولده وحفيديه ، ولم يذكر في امرأة أخرى . الأصلح أنه نجح في إخراج شهوره النساء ، التي لم تنتهي ، تماماً رغم ما حوله . ظل طوال تلك السنين يرى في عمله وفي حبره نسلاً من كل نوع بعضهن يلمحن وأخريات يرميـن بالنظارات التي يعرفها جيداً كائنة يقرآن دخيلة نفسه : لماذا تكتب يا توفيق؟ وجهك يفضح النساء ، الذي تخفيه خلف قناع الزهد وجسمك يكاد يمزق جلدك كمن ينطلق ، لماذا تكتب؟

ولكته ظل صامتاً ، ونجح عبر السنين في أن يكلّ نفسه إذا ما هو هم بشيء أكثر من النظر .

يُفمن بين جانـات تلك العاصفة المتأخرة التي اجتاحت كل سودة وملائمة؟ دهمـت في الشهور الأخيرة التي كان يعلم فيها أوراقه لكي يخرج إلى المعاش .. ليقاعد مثل عجوز طيب أدى ما عليه في العمل وفي الحياة عندها ظهرت هي لا، الأصلح أنها ظهرت بعد أن بدأ يستبد به شوق غريب إلى الحياة وحيدين جارف

إلى النساء ، كثـنـا هو في بدء حـيـاته لا في نهايتها . حـاـول أن يـتـقلب على ذلك الإغراء المتـنـثر الذي غـرـاجـمـده كالـحـمـى . كان يـؤـنـتـ نفسه على نظراته التي تـضـخـحـه لـزـيـلـاتـه في المـكـتبـاتـ والمـتـعـاملـاتـ معـهـ . راح يـسـأـلـ نفسه : ما الذي جـرـىـ لهـ؟ يـخـرـجـ منـ عـمـلـهـ وـيـمـشـيـ فيـ طـرـقـاتـ إـلـىـ آنـ يـهـدـهـ التـعبـ . ولكنـ الشـوارـعـ كـانـتـ تعـطـيـهـ النـسـاءـ أـجـمـلـ مـاـ رـأـهـ فـيـ عـرـهـ كـلـهـ . تـجـهـ عـيـنـهـ مـيـاـشـةـ بـقـوـةـ قـاـهـرـةـ نحوـ السـيـقـانـ المـلـفـوـةـ وـالـصـدـورـ النـافـرـةـ وـالـشـفـادـ المـلـثـلـةـ وـالـعـيـونـ الجـمـيلـةـ . لاـ يـفـوتـهـ أـصـغرـ تـحـصـيلـ وـهـ يـمـشـيـ مـعـ ذـلـكـ يـخـطـطـهـ المـسـرـعةـ كـانـهـ يـهـربـ .

يـقـولـ لـنـفـسـهـ وـمـاـ فـيـ ذـلـكـ كـلـهـ؟ السـيـقـانـ أـعـضـاءـ المـلـمـشـ وـالـعـيـونـ للـنـظـرـ وـالـصـدـورـ لـلـرـضـاعـةـ . لـكـلـ اـنسـانـ فـيـ النـيـاـ سـاقـانـ لـاـ يـنـتـبـهـ إـلـيـهـاـ . وـلـكـهـ إـذـ يـمـشـيـ فـيـ الـطـرـيقـ يـرـىـ اـمـرـأـ يـتـمـلـعـ إـلـىـ أـرـيـاءـ، فـيـ وـاجـهـهـ حـلـلـ . تـرـفـعـ قـدـمـهاـ تـخلـعـ نـصـفـ الـجـنـدـ، وـيـمـسـ سـاقـانـهـ اـنـتـنـاـةـ بـسـيـطـةـ فـتـحـتـمـ فـكـرـهـ رـغـمـ كـلـ مـحاـولاـتـهـ . هـاـنـانـ السـاقـانـ لـتـكـ الـرـأـةـ المـلـشوـقـةـ الـقـامـةـ . سـاقـانـ طـوـلـيـانـ تـسـابـانـ مـنـ اـمـتـلـاـهـ مـسـتـدـيرـ مـلـجـبـ عـنـ السـمـانـةـ إـلـىـ أـنـ تـسـجـبـاـ يـتـدرـجـ وـنـعـوـةـ نحوـ الـبـيـقـةـ الـلـمـسـاءـ الـلـكـمـ الـقـدـمـ .. يـرـىـ نـفـسـهـ يـكـادـ يـلـمـسـ هـذـهـ السـاقـ بـتـائـلـهـ، يـتـحـمـسـ نـعـوـمـهـاـ الـبـيـضـةـ، يـرـىـ شـفـقـتـهـ تـسـانـ لـتـكـ السـمـانـ الشـهـيـةـ . وـيـشـعـ أـنـ يـصـدـعـ بـشـفـقـتـهـ فـيـ تـلـكـ النـعـوـمـةـ، فـيـتـوقـفـ فـيـ هـلـعـ وـهـوـ يـغـمـسـ عـيـنـهـ، يـزـفـرـ وـيـسـتـفـرـ، يـدقـ الـأـرـضـ يـقـدـمـهـ غـاضـبـاـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـمـنـ نـفـسـهـ، وـيـعـاـدـ المـشـ كـانـهـ يـعـدـ دـوـنـ أـنـ يـنـتـرـ حـولـهـ، وـلـكـنـ لـأـفـانـةـ، السـاقـانـ النـاعـمـتـانـ هـنـاكـ وـهـمـاـ لـيـسـاـ عـضـوـيـنـ لـلـمـشـ وـلـكـنـ تـعـذـبـهـ وـهـلـكـ .

وـقـيـ جـوـلـهـ الـمـحـمـومـةـ تـلـكـ دـخـلـ مـحـلـاـ لـلـكـتبـ الـقـديـمةـ وـرـاحـ يـقـلـ فـيـ الـكـتبـ لـجـرـدـ أـنـ يـهـربـ مـنـ خـيـالـاتـ وـأـنـطـيـافـ . ظـلـ الـيـابـانـ يـحـومـ حـوـلـهـ دـوـنـ أـنـ يـنـتـكـمـ وـهـوـ يـتـأـلـلـهـ مـنـ بـعـدـ بـنـظـرـةـ فـاحـصـةـ، وـأـخـبـراـ اـقـرـبـ مـنـهـ وـقـالـ بـاـتـسـامـةـ مـاـكـرـةـ «ـعـنـدـيـ شـيـ»ـ لـاـ يـوـجـدـ فـوـقـ الـأـرـفـقـ، تـحـبـ أـنـ تـرـاهـ؟ـ وـعـنـدـمـاـ عـرـضـ عـلـيـهـ الـمـجـلـاتـ أـوـشـكـ أـنـ يـرـميـهاـ

في وجهه ويخرج من الحال، لكنه لم يفعل. بل وقف يقلب فيها وهو يشعر بشغف سريع في صدفه وجيبيه ويرمشة في يديه. كانت الصور الملونة تذهب إلى ما هو أبعد من خيالاته الجامحة التي يهرب منها ولم يستطع أن يتوقف عن التلقيب فيها رغم شعوره بخجل وباته يتضائل أمام نفسه. لم يخرج من المكتبة إلا بعد أن اشتري تلك المجلات ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن غيرها وغيرها وهو يفتح نفسه في تلك الشهور التي استبدت به خلالها شهرة العودة إلى النساء، لأن ما يقطعه هو الشر الأفون، لأن هذه الرلة تعصبه من رلة الزنا الحقيقية. اجتهد في جمع المجلات وأجتهد في إخفائها عن انتظار أهل البيت. ابتكر له مساحات المفاتيح مفاتيح خاصة غالبة الثمن للمكتب وقال له إنه يستحيل تلقيتها أو فتح أدراج الكتب بدونها. وظل هو يحتفظ معه بذلك المفاتيح باسمه، لا يشاركه لحظةً كان يشعر بالعار إذ يفعل شيئاً كهذا في منزله، لكنه لم ينفع أنها في التخلص من تلك الهواية التي تعلمتها في شيخوخته. لم ينقطع تائب النفس أبداً ولم يطلع في الإقلاع أبداً، يسرر لنفسه: المجلات موجودة سراً، مساحتها لا تذكرها، وأنا لا أؤذى أحداً ولا أرتكب شراً. ولكن عقله كان يقول له غير ذلك، وفي تلك الأيام ظهرت نازلى هانم. ترددت على مكتبه أياماً متعاقبة، كانت تتزعمه من استيقاء، أثراقة، واجراميات الخاصة بالمعاش لكي ينجز لها معاملاتها. كان معروفاً بأنه يخدم كل أصحاب القضايا على السواء، وأن مكتبه متفرج للأمور جميعها وإن حاول أن يتخفف من هذا العبء، قبل المعاش تاركاً تصريف الأمور لروبيه، لكن نازلى كانت تدخل مكتبه دون استئذان، تقدم أوراقاً ومستندات لقضايا عديدة لإثبات الملكية ولمنازعات قانونية مع شركاء زوجها الراحل. كانت تقترب من الخمسين من عمرها بالتأكيد لكنها تعتنى كثيراً بمظهرها وملابسها فلا تبدو سنتها الحقيقة. ومع أنها لم تكن تصبغ شعرها، أو ربما تصبغه وتتععد ترك خصلات بيضاء فقد كان جسدها قانياً.

واعتادت أن ترتدى دائماً الملابس والألوان الاهادنة، وتعرف كيف تثير أنوثتها الناضجة، كانت تتجاوز معاونيه وتدخل إلى مكتبه ثم تجلس مباشرة على المقدمة الجلد المواجه له وتقول بلهجة شديدة التهذيب، فيها شيء أمر مع ذلك «يا حضررة الباشكاب، سمادتك بالأمس ..» فيترك كل ما بيده ويسعدني من رسبيه لبيانه بنفسه ما تطلبـه . ومرة كانت تجلس أمامه واضعة ساقاً على ساق فراح دون وهي يتطلع إلى جمال وتناسق ساقيها البيضاوين، وضيـط نفسه يعربها بعينيه من ثوبها الرمادي المحبوك حول رقبتها المستديرـين المتساكسـين ويتخيـلـها في صورة من تلك الصورـ التي أدمـنـها، فـصـعدـ الدـمـ إـلـىـ وجـهـهـ، وـارتـاعـ منـ اـنـدـالـ تـقـيـرـهـ ثمـ كـانـتـاـ حدـسـتـهـ فـيـ لـهـلـتـهـ ماـ يـفـكـرـ فـيـ فـتـنـسـرـجـ وجـهـهـ وـهـيـ شـعـدـلـ فـيـ جـلـسـتـهـ وـتـنـطـرـقـ بـرـأـسـهـ عـلـىـ الـفـورـ .
ولـكـنـ وـيـمـاـنـتـرـ تـكـ الـثـوـائـ حدـتـ بـيـنـهـمـ تـقـاـمـ ماـ ، اـنـقـاـقـ مـضـمـرـ عـلـىـ أـنـ شـيـأـ أـخـمـ غـرـ الـأـرـاقـ بـدـاـ يـجـمـعـ بـيـنـهـمـ . وـجـدـ الـبـاشـكـابـ نـفـسـهـ يـنـتـظـرـ حـضـورـهـ إـلـىـ مـكـتبـهـ بـلـهـجـهـ وـصـارـتـ فـيـ الـاـنـصـرـافـ بـعـدـ اـنـتـهـاـ، أـعـمـالـهـ، وـلـاحـظـ الـبـاشـكـابـ زـيـةـ جـدـيدـةـ بـسـيـطـةـ حـولـ عـيـنـهـاـ وـحـمـرـةـ خـفـيـةـ فـوقـ شـفـقـتهاـ، لـمـ يـدـعـ الـحـدـيـثـ يـدـورـ عـنـ الـعـمـلـ وـجـهـهـ، بـلـ صـارـ يـتـطـرـقـ إـلـىـ مشـاـكـلـ الـحـيـاةـ، وـالـقـارـنـاتـ بـيـنـ أـحـوالـ الـحـاضـرـ وـالـماـضـىـ الـذـىـ كـانـ أـجـمـلـ يـكـثـرـ أيامـ الشـبابـ .
شـيـابـهـ وـشـيـابـهـ .

وـعـلـتـ ضـحـكـاتـ الـبـاشـكـابـ الـمـشـرـفـ عـلـىـ التـقـاعـدـ وـأـدـهـشـتـ مـعـاـونـهـ الـذـيـنـ لمـ يـعـتـادـواـ منهـ الـاهـتمـامـ الـخـاصـ بـاـحدـىـ الـمـتـعـاملـاتـ معـ الـمـحـكـمةـ . يـدـأـواـ يـشـامـزوـنـ وـيـهـمـسـونـ . وـلـاحـظـ الـبـاشـكـابـ قـضـوـلـ زـمـلـائـهـ لـكـهـ لـمـ يـهـمـ مـطـلـقاـ . أـخـذـتـ تـلـعـرـ فـيـ دـاخـلـهـ مـوجـةـ منـ الـاسـتـهـانـةـ بـكـلـ شـءـ، كـلـماـ اـقـتـرـبـ موـعـدـ خـروـجـهـ إـلـىـ التـقـاعـدـ .
وـكـانـ نـازـلـىـ أولـ اـمـرـأـ منـ لـهـ وـدـ تـقـنـحـ حـيـاتـهـ مـنـ رـحـيلـ سـمـيـةـ . وـعـدـمـاـ تـعـيـيـتـ

ولم يستطع توفيق أن يحسم لنفسه أيامها وهو يتذكر ويتصرف كالنوم إن كان ما يحدث قد جرى ضد إرادته أو لأنه يريد حقا . كان يعرف بالطبع من متابعة قضيابها وأوراقها في الملفات أنها امرأة شديدة الثراء ، تملك أراضي وعقارات وشركات وتسكن في فيلا في جاردن سيتي . يعرفها جميع السعادة والكثبة والمحضرين في المحكمة ويتذوقها جميعا «نازلي هات» . وعرف أيضا أنها أم لشابين أحدهما وكيل للنيابة والأخر طبيب كما أن لها ابنة متزوجة ولديها أحفاد . وأنهشة قليلا أنها تعرف عنه المعلومات المهمة : أسرته والبيت الذي يملكون وال محل الذي يديره ابته والأرض التي ورثتها هو وشعيان عن سمية والأماكن التي عمل فيها قبل أن يأتي إلى هذه المحكمة . وكل التفاصيل الأخرى في حياته .

ولكن ما أنهشة حقا هو شروطها : سيرتزوجان عرقيا حتى لا ترثه ولا يرثها . إن تقيم معه ابنته في بيته وإن تقيم معها في الفيلا ولكنهما سيسكنان شقة صغيرة في وسط البلد ، وإن يلتقيا كل يوم وإنما في الأيام التي يحدداها .

اعتبر الباشكتاب على الفور على فكرة الزواج العرفي . فقالت نازلي لماذا ؟ مسألة الإشهار يعني ؟ عن نفسك أنا بالطبع ستقول لأولادي وستستطيع أنت إن شئت أن تقول لأسرتك . نحن لا نفعل شيئا محظيا .
وهل سيفعل أولادها هذا الوضع ؟

ضحكت وهي تقول : سيرفضون فقط لو عرفوا أن الزواج يمكن أن يحررهم من الميراث أو أنه يمكن أن يضيع أموال أمهم . ولكن قلت لك إنني سأكتب عنك وإنما أعرفك .

ثم أكملت بصوتها الخافت : وأظن أن هذا الترتيب يناسبك أنت أيضا يا أستاذ توفيق يناسبك تماما !

كانت نازلي هات تعرف كل شيء وتحسب كل شيء . فهل عرفت أنه سيفطر يرجى « الإشهار » لأسرته ولغير أسرته باستثناء الشاهدين اللذين جلبتهمما هي ؟

يومين أو ثلاثة عن الحضور إلى مكتبه أصبح قلقا وعصبيا . ومنع نفسه بالكاد من أن يتصل بها ليسأل « ما الأخبار » قال لنفسه « أثبت يا حضرة الباشكتاب . لم تصيغ مراهقين إلى هذا الحد ! .
ولما أهلت عليه في اليوم الثالث أو الرابع وجد نفسه يقوم من مكتبه ليستقبلها عند الباب مرحبا بعبارات كثيرة لا معنى لها وهو يصافحها بيده الإثنين ويغض النظر على يدها . وكانت هي أيضا تتسم متوردة الوجه والتمناعة في عينيها . قادها عبر الحجرة الواسعة إلى مقعدها المأكوف أمام المكتب وهو يقول « أوحشتني » فقالت بصوتها الناعم الهاوس موائمه أيضا . فاكمل ضاحكا وهو يتجه إلى مقعده خلف المكتب « أذن لماذا لا تجمع الشمل » .

لم يكن في ذيته أن يقول شيئا من هذا النوع . لا يجري في الحقيقة كذلك أفللت منه العبارة . لكن نازلي قالت وهي تتأمله دون رهبة « بهذه السرعة ؟ أنت لا تصيغ وقت يا حضرة الباشكتاب .
وعندما وجدها ينظر إليها متغيرا وقد فاجأه ردّها الذي يعني إيجاد الموقف

بسريعة ضحكت بدورها ضحكة خافتة وقالت :
ـ أنت أربكتني كنت قد أعددت كلاما في رأسى ولكنه طار .

سألكها وصوتها يرتجف قليلا : إنما فات توافقين ؟
رقطت إليه وجهها يابسا وهي تقول : أين ذاكاك يا حضرة الباشكتاب ؟ لو لم تتكلم أنت اليوم لتكلمت أنا . لماذا يتبقى أن يبدأ الرجال دائما ؟
عقدت الدهشة لسانه وراحت هي تردد إليها بعينيها الخضراوين الضيقين وقد

ارسم على وجهها تعبر جاد تماما وأكملت بقدرة وائلة :
ـ سأكتب عنك وعرفت كل شيء . أنت أرمل متى .
ـ ثم قالت ببساطة بصوتها الهدادى : ولكن لي شروطى .

خلاصة كل نساء الأرض ، في تمهل وتلذذ تارة ، وفي اجتياح عاصف ثارة أخرى .

انتفقا في بدء الزواج على أن يلتقيا مرتين في الأسبوع في الظفيرة ليقضيا الوقت معاً حتى النساء ، ولكن في الشهور الأولى التي سبقت خروجه إلى المعاش والتي أعيقته كان ذلك اللقاء يتم أربع أو خمس مرات في الأسبوع لم تستك الأرض الجرداً من نقص الرى ولا انتهت العاشق الذى طال حرماته من اكتشافه لأعماقهها . أيامها كان اللقاء الذى انتفقا على إنهائه فى النساء يمتد أحياناً إلى عمق الليل . وذلك قبل أن تتنظم أمورهما بالشريح ، قبل أن تهدا الثورة وبينك كل منها الآخر بما يتガزو قدرة جسديهما ، حتى ولو كانا جسمين عذيبين ومشوقين للعشيق انتهت المسألة إلى هذا اللقاء ، الأسبوعى الواحد يوم الخميس . وظل كلاهما يغوص في غياهب.

بعد كل لقاء ، كانت نازلى الجارية تأخذ وقتاً طويلاً أمام المرأة لتضع زيتها المسائية المرسومة مع ذلك بكل رقة . لكن ترجع قبل الخروج نازلى هانم بكل كبرياتها وشموخها . ولفت نظر الباشكتاب ، ولكن فيما بعد ، أنه لم يكن يدور بينه وبين نازلى ، خارج العشق ، أي حدث له معناه . أحياناً حين كانا يجلسان معاً في هذه قبل الخروج من شقهما يشربا الشاي ولباكلا الحلوى ، كانت تسأله عن رأيه في بعض قضایاها التي لا تنتهي ، أو تحسب بدقة أرقام إيرادات ستحصلها أو مصاريف ستدفعها وترجوه أن يراجعها معها ، أو تشکوهه أحياناً من أن أولادها يتركون كل العباء عليها وكل ما يهمهم أن يجعلوا الفقد جاهزة في النهاية . أحياناً أيضاً كانت تعتقد زوجها الراحل لأنه قبل أن يموت لم يرتب أمور الثروة والترك ترتيباً مناسباً .

لم يستطع أن يقول حتى لا يبو خطوة ولكنه أدرك من نظرة وجه صديقه الصالح أنه يعرف ، تحدث نفسه : زواج شرعى وشهود فلماذا إذن لو كان مقتنعاً بذلك حقاً في قراره قلبه يتصرف كمن يخفى ما سرق ؟ ولماذا لم يشعر طوال هذه السنين بطمأنينة النفس التي عرفها مع سمية؟ سمية . أى مجال للمقارنة ؟ ولكن فليقل الأán ما يقول ، في حينها كان الترتيب مناسباً وكان العلاج ناجحاً . لن يجدية الآن الانتكاري ولن ينفعه الرباء .

لم يعرف نازلى هانم على حقيقتها إلا في تلك الشقة الصغيرة التي استأجرها بناءً على تصريحها في عماره مزدحمة بعيادات الأطباء . ولم يكن ذلك متفقاً تماماً مع الإشهار ولكنه كان ترتيبها المناسب بالفعل . ولا فرق أى مكان آخر . غير تلك العمارة المليئة بالضوضاء ، في السالم والعيادات . وكانت نازلى سعيدة لنفسها بذلك الأصوات والصراخات التي أذاحت في لفائفها الأول في فراش الزوجية . لكن تلك المرأة الخافتة الصوت ، الناعمة والهادئة ، التي توقع أن يقودها ويعملها من فتوته المكتسبة منذ الشباب كانت تحمل ساعتها دون فاصل ، وبكل الأهان والصرخات من أميرة متحكمة تطلب إلى جارية خاضعة تبدل ومن يتسلل إلى المأوى إلى الحب ، والتمفع ومن نمرة إلى شاة . غير أنها كانت تتلاقى بالذات في دور الجارية الخاضعة التي تحب أن تؤمر وأن يعاقبها سيدها وأن تستجيب في الحال فنيستثير ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده . وقالت له مرة بصوت مختنق وهي في حضنه : هذه الأرض هلت جرداً ، طويلاً وترى أن ترتوى . لم تكن وحدها . فليعترف ، كان السيد أيضاً يريد أن يعرض كل ما غافه في السنين الطويلة التي قمع فيها جسده ويريد أن يشفى من الحمى التي اجتاحته في الشهور الأخيرة .

راح يتعامل مع كل ذرة في جسمها ، وكأنه يريد أن يستقطر منها كل ما يمكن للجسم أن يعطيه . كانه يريد أن يرثى مرة وإلى الأبد خلاصة المرأة .

وحين كان توفيق يحدثها عن فلقة أو عن ندمة لأنه يعيش حياة مزدوجة فـ لأنه يخون ثقة أسرته التي تحبه كانت تقول له بصوتها التاum وكتها لم تسمع ما قاله يا توفيق . نحن كبرنا على هذه الأشياء !

ولفت نظره أن نازلى التي كانت تمارس العشق يجذون لم تتحدث مرة واحدة عن الحب ، ولا هو أيضا .

ولفت نظره أنه لم يحدثها مرة واحدة عن سمية ولا عن أبو خطوة .

لكنه استمر مع ذلك في الترتيب ، لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسبه .

وعاد الباشكتان يسأل نفسه ، المرة الآلف أيضا ، وهو جالس في شرفته هل كانت نازلى هي التي أخذت روحه أم أنه وقع عليها لأن روحه خامدة بالفعل ولا أمل له ؟

هل يجب عليه أن يسلم بأنه انتهى ؟

أغلقت الدكتورة صفاء عياراتها مبكرة عن موعدها في الظهيرة وتوجهت إلى فندق (شبرد) لتقابل لبني التي طلبتها وقالت إنها تريد أن تراها اليوم . افترجت صفاء أن تتنقلها في العبادة أو عندها في البيت ولكن لبني أصرت على أن يكون اللقاء في الخارج .

جلسنا في الحالة التي نطل على النيل ، على مقعدين مقابلين بجوار الحاجز الزجاجي ، ولم يكن هناك غير بضعة رواد متاثرين في المكان . راحت صفاء تتأمل ابنتها بابتسامة ونظرة مستفهمة قبل تساها «خيرأ يا لبني . ما الذي ذكرت بينك وبيني بعد تبؤها لعبارة أنها الملاوقة وقالت «أشئت لك وأريد أن أحدثك عنه في رسالة» .

كانت الدكتورة صفاء ، كما دعها تترك شعرها الأسود الطويل مسترسلًا ومرجلًا بعبابة حلي منتصف ظهرها ، وتستخدم زينة كالكحل حول عينيها الواسعتين وتصبغ شفتيها الجميلتين برقعة إدحاماً . وكانت تلبس (تابير) أزرق (بلوزة) سماوية اللون . كان كل شيء فيها جميلًا . وارتدى لبني بلوزتها البيضاء العادية وفوقها (بلوفر) من الصوف الأزرق أيضا . راحت تتأمل أمها وتذكر بأن مجرد النظر إليها متعة .

عندما طال الصمت بدأت صفاء الكلام : كيف حال دادة سنينة ؟

هزت لبني رأسها وقالت: بخير ، ثم أطربت وعادت إلى الصمت .

شعرت صفاء بشوق حقيقي إلى مريبيتها القديمة ولكنها شعرت أيضًا برج من النطر للحديث عنها . يقارنها مع لبني جزء من اتفاق الطلاق . تعلقت بها منذ

- وأنتِ هل وجدتِ السعادة؟

سكتت صحفاً، وهي تفكّر: هل هذا فعّ؟ ربما تكون لبني قد جات الانتحابيّها. لم تعد الطفولة التي اقتصرت علاقتها بها على أن تغمرها بالهدايا، وعلى التربة الفارغة في لقائهما التقليديّة. الآن جاء وقت الأسئلة الصعبة: ومن يدرى؟ ربما يكون شوكت قد ملا رأسها بكلام عنها فنالت صحفاً متهيّبة من الرد: هل تعرّفين كلمة دادة سنية التقليدية، الرضا؟ أن يرضي الإنسان بما يجده، هي مثلاً لم تجد في حياتها سوى القليل. فرمّلت في شبابها دون أن تنجب ولكتها رضبت بي وبك أحياناً وأحياناً.

وفكّرت لحظة قبل أن تقول: وربما أياضًا أن يرضي الإنسان بنفسه . إلا يطلب من نفسه غير ما يمكن أن تعطيه . أن يرضي حتى يضعه الذي لا يستطيع

قالت ليس معتبرة يا أمي يا حبيبتي أنا لم أطلبك اليوم لاستمع إلى حكم
ومواهظ ، أنا أريد أن تكتفي عن حياتك . هل وجدت السعادة وكيف ؟
دخلت حلماً إلى ساعتها وتكلمت بهدوء ، لتختفي انتقامها : لا أستطيع بعد عمل
كذا ساعة في العيادة أن أدخل امتحاناً في .. ولكن عموماً ما السبب في هذه
الأسئلة ؟

قالت ليلى وهي لا تزال مطرقة : لأنني أحب .

أشرق وجه صفاء، ويداً فنية فرح حقيقى: أخيراً ! مبروك ! كنت أهلن أنك أنت .. ثم وضعت يدها على يد ابنته وقالت: أترىين ؟ الآن أنا سعيدة بحق ، سعيدة يك ومن أهلك .

لم تهتز لبني لانفعال أمها وفالت وهي تحول وجهها نحو زجاج الواجهة
فلمانيا أنا لست سعيدة ؟

السفر أكثر من تعلقها بيتها . ومع أنها تعرف أن شوك لا يحبها . إلا أنه لهم أن يقاومها ضروري مع لبني بعد خروج أنها من البيت . واعتادت الدادة سنينة أن تزور صفاً مرة في الأسبوع وأن تبيت عندها أحياناً بعد أن تستأنف لبني . لم تكن الريبة كثيرة الكلام . في الواقع أنها نادراً ما تتكلم . لكنها تسمع لصافاً وكانت هذا يكفيها . لم تخسحها أو تؤتيها بل كانت تسمع فقط وكانت تحبها . لكن تتفقدناها الآن بعد أن أصبحت عاجزة عن الخروج والحركة ! صوتها المرتعش في التليفون يزيد شوقها إليها وخوفها عليها . أحياناً تفكّر فيها بالليل وتحلم بها ثم تصحو وهي شبكى . هل ستلتف حتى صوتها مما قرب ؟ ما علاقتها الآن ببني ؟ هل تحكم لها هي الأخرى أسرارها ؟ وهل مازالت الدادة قادرة على أن تسمع وفهم أين لها كل تلك الطاقة على العنان والحب وهي التي تلهمها الدين ؟

نظرت صفاً شاردة عبر الواجهة الزجاجية إلى النيل . كانت صحف بيضاء
كتبها في السماء . وكان النهر رمادي .

- لا أريد إنجابات الكتب . أريد أن أسمع ملك آمنت .
- أنا بليدة في الأسللة النظرية ؟ ربما لكل إنسان سعادته التي تختلف عن سعادتك غيره .

- ولكنني أريد أن أكون سعيدة .
ابتسمت صفاء : الإنسان لا يريد أن يكون سعيداً يا حبيبي . هو إما أن
يكون سعيداً أو لا يكون . إرادته لا تدخل لها بال موضوع .

بالبنى من قراراتك أن الإنسان لا يعيش بمخاوف المفرولة ولا حتى بالمشاكل
الحقيقة التي يدر بها في طقوته وشبابه. وكل إنسان يصنف نفسه بالبني ، وفي
الغالب يصنف نفسه ضد ماضيه ..

لوجت لبني بيدها وهي تقول : لا داعي لهذا الكلام يا أمي. قلت لك من البدء
أني لا أحتاج إلى مواعظ. أريد أن أسمع كلاماً مفيداً. قوله مثلاً ماذا أفعل في
حكاية الاستاذ حمام ؟

بدأت تحكى لأمها بهمس محابيد تماماً، دون انفعال ودون تهدج، ولكن حين
انتهت كانت ترفع رأسها كعادتها لتقاوم الدموع التي تريد أن تطفو، أما صفاء،
فتركض دموعها تتسابق في صمت. لم تسألها هذه المرة لماذا لم تقول لي من قبل.
كانت تذكر أنها لم تقترب أبداً حقيقة من ابنتها وأنها مسؤولة بشكل ما عما
أصابها.

استمكت بيدي لبني الموضوعتين على المنضدة دون أن تقول أي شيء، ثم
سألتها فائضة أيضاً :

- هل حدثت أحدا غيري عن ذلك ؟
- دادة سنية .

- أقصد حدثت أحدا غيرها ؟
- لا ، ولكن لا بد أن أقول لسالم. من حقه أن يعرف .

فقالت صفاء، ببطء، وببررة حاسمة دون أن ترفع صوتها: ولا كلمة ! لا هو ولا
أي إنسان غيره. هذا شيء يمكن علاجه .

- بالخداع ؟

تركض صفاء، يد ابنتها وسائلها : هل تريدين أن تقدبيه ؟

وبين أبيك غير أنتا تحن الاشرين تحبك ! .. كيف يختظر بيال !
وحول صفاء وجهها أيضا نحو النهر وهي تفكـر : بالفعل ، كيف يختظر بيال

ليس شيء كهذا ! وما الذي يمكن أن تقوله لهذه الظللة ، التي ما زالت طفلة رغم
ذكائها وقراراتها ، عن أيها العظيم ؟ غلطتها الأولى والكبرى بالطبع أنها لم

تكتشف على حقيقته قبل الزواج . لم تكتشف أن ثقتك بنفسك التي أعتبرتها
وجذبتيها إليه لم تكن سوى غرور أعمى يجعله يرى نفسه محور الكون - غرور

بعده ، وبتجاهه ، وبوسامتها ، وبعاصبي الشوري . ثم يتذكر للثورة وبشكله

العملية الجديدة . يجد في كل ما فعله أو يفعله في حياته مصدرًا للتباهي ودرساً
يجب أن يتعلم منه الآخرون . غرور يجعله لا يرى من أمامه ولا حتى من شاركه

فراشه ! في البدء، كانت تتذمّر في صمت . تضجّل أن تقول له شيئاً وهي تراه
يتصحرف عنها فور أن يررضي رغبتها . تتفكر في نفسها إذ تحيط إلى أن تتحقق

نوتيرها بنفسها خفية، ولما لم تعد تحتمل صارحه . وجدت صعوبة في القطب على
خجلها وتكلمت بتردد، ياتصاف جمل وبümühمات مبهمة . وكانت تتنتظر منه بعدها

أي شيء، غير ما سمعته منها . قال شوكت وهو ينظر إليها مبتسماً ذلك الذي
الفعال إن يفهم مؤامرتها لتجطيمه ! قال إنه ينبع مع كل النساء غيرها ألمانياً

تتعذر هي إلا تضيّط نفسها معه ؟ هي بالطبع تغار منه ومن تجاهه ومن تقوّه في
الطب وتعجز عن اللحاق به ولهذا تريد إذلاله بهذه الحكاية : لكنه لن يسمح لها
بيان تهزّ ثقته في نفسها أو أن تعطله . إن كان عندها بروز فل تعالج نفسها دون أن
تحمله مشاكلها ! أضف إلى عذاب التوتر إشعارها بالذنب دون أن تهتز فيه

شعرة .

ياه ! كل تلك السنين من التفاسة التي عاشتها مع هذا الجنون !
التففت إلى لبني الصامتة وقالت لها : حدث الطلاق كما يحدث أي طلاق . لم

تنقل ولا ذنب لك فيما حدث بالطبع ، بل الذنب ثمنينا . نحن أخطئنا في حبك ، أنا
أشعر الآن بالذنب لأنني لم أعرف بحكاية مخاوف طفولتك ولكن أنت تعرفي

فأدارت لبني رأسها مرة أخرى: لا يريد أن أعيش في الكتاب.

قالت صفاء، دون أن تنظر في وجه ابنتها: لا أنت ولا غيرك . لا أحد يريد أن يعيش في الكتاب ولكن ما العمل وحياتنا نفسها كتابة كبيرة ؟

ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت مراة صغيرة وراحت تصلح زينتها التي أفسدتها الدموع، استقررت وقتاً طويلاً لأنها كانت تقتنش في رأسها عن كلام آخر قوله للبنى الغارقة في الصمت ، ولكنها شعرت أن ابنتها قد انسحب داخل نفسها من جديد ، وأنها قد أصبحت الآن بعيدة عنها تماماً.

ومع ذلك لم تترك صفاء، لبني إلا بعد أن انتزعت منها وعداً بلا تبaggio لأحد بقية المدرس قبل أن تتكلما مرة أخرى، وعدت أن تتحملها في الليل بعد أن تفكري جيداً في الموضوع ثم تلتقي بها وتناولها الكلام .

لم تتبع لبني أمها بتركيز، أخذت تهز رأسها وتقول نعم - بالطبع - غداً ، ولكنها كانت تفكير في شيء آخر كانت تقول لنفسها : إذن لا حلسوبي الاتصال أو أن أترك سالم، ولكنها كانت تعرف أنها آجنب من أن تفعل هذا أو ذلك

وخارج الفندق كان الجو بارداً، عرضت الدكتورة صفاء على لبني أن توصلها بسيارتها إلى أي مكان تريده لكنها قالت إنها تحب أن تمشي، سالتها أمها تمشين في هذا الجو؟ فهزت رأسها وقالت صفاء، بابتسامة متكلفة وهي تصعد إلى سيارتها «مجنونة مثل أمك ! لا تنسى موعدنا غداً» .

هزت لبني رأسها مرة أخرى وتنكريت وهي تلوح لأمها بالتحية : لم أقل لها حتى لماذا أردت حقيقة مقابلتها اليوم ؟

★ ★

سارت لبني على شاطئ النيل في اتجاه جزيرة الروضة لكي تقابل سالم في الموعد، كان الجو بارداً بالفعل فضحت (البلوفور) على جسدها وأسرعت خطواتها،

لكنها توقفت فجأة أمام حاجز الكورنيش الحجري، فكانت وهي تنظر إلى الأمواج الرملادية المتواهبة : ومع ذلك فسوف أفقدكِ ثمنَ أو أبيتْ فسوف أفقده، رأت في الصباح مرتضى فتشامت ولم تكن مخطئة.

شُعُوكَ يديها أيام صدرها وراحت تنقل بصرها بين السحب البيضاء، في السماء، وشارع مركب كبير ممتد بالهبوء يتوجه نحو الجنوب، كان الشارع مشدوداً ومتوتراً فليداً (الراكبية) يتسلقون المصاري ويطعون الشارع، راقبتهم وهي تحاول كالعادة أن تمنع الدموع من عينيها وفكرة واحدة تتكرر في رأسها ، كل شيء إذن سينتهي، كل ذلك الفرح القصيري العابر، كل تلك الشهور من الأحلام، كلها ستفسخ .

بدأت تشعر ببطء، في اتجاه الكازينيو الذي ستقابل فيه، سترجع إذن إلى الحياة القديمة، سترجع إلى التلتفت للوراء في خوف واحتقان الصوت والهروب في القراءة والرعب من الناس والأشياء . سترجع إلى الوقت الذي يقبل الوقت ويعيشه معه .

ولتفرض أنها سكتت له عن قصتها مع حمام وأنه فهم وغفر، (كيف؟ بآية معجزة؟ لا تدرك!) فهل سيفغر لها أنها أخلفت عنه حكاية المقالات والمنشورات والمظاهرات؟ هل سيففهم أنها كذبت عليه لكن لا تفتقده؟ هل سيفصدق؟ هل سيفهم؟

ولتفرض أنها سكت وأن المسألة هرت بسلام فهو سيفوت مرتضى الفرصة؟ عرف رغم كل محاولاتها للتخفي أن هناك شيئاً بينها وبين سالم، وبين يتصادف أن يراهما معاً يرمي بها بابتسامة بقبيحة ونظرة كارهة، لديه سبب للحدق أكثر من (ياجو) على أي حال ! يعتبر أن سالم سرقها منه؛ تعمدت المجموعة إلا تشرك في أي شئ، لا في الاجتماعات ولا في تحرير المقالات لكنه جاها مع ذلك في

قدارة أجسامهم؛ لكنها لم تفعل. لم تقل رأيها في أي شيء، بل كانت تشعر بالذنب حين تاتيها هذه الأفكار، وإن لم تستطع التخلص منها أبداً.

أعم من ذلك أنها كان يجب أن تعرف بان حبها لسالم يشغّل كل حياتها، لكنها لم تفعل. تركت نفسها لعمل لا تستطيع تحمله وأخفت أمره عن سالم. أقنعت نفسها ببيت من الشعر لش الكبير يقول «لا تدخل معركة ولكن إذا دخلت فاشت»، برافو؛ ولكن ماذا وهي لا تستطيع أن تثبت حقائق لا تستطيع بدأ رذاذ خفيق في السقوط. فانسربت لبني خطواتها ولكن ساقيها عارتاً ترتجحان أكثر من المعاند.

ستذهب إلى الكازينو تتجدد أن سالم عرف كل شيء، من مرافقه، سيمتهمها بياتها تخونه. تخلف عنده أفعالها، سيكون قد عرف بحكاية الاستاذ حمام، ليس بعيداً عن تكون قد وصلته بطريقة ما. سيسألها، سيعبر عنها، ستندفع إلى الابد! الأفضل لا تقابله، الأفضل أن تموت الآن حالاً، لماذا لا يأتي الموت عندما يقتضاه

الإنسان

لكنها وجدت نفسها رغم كل شيء في الكازينو، لم تكن ساقها وحدهما ترتعشان بل شفتها وتليتها.

وحين رأها سالم مقابلة عليه وقف وقال متزعاً: ماذا يك يالبني؟
فجلست قياله دون أن تنطق بكلمة.

قال لها: تحبين أن تدخل في الصالة؟ الدنيا برد وشفتكا زرقاوان.
هزت رأسها وتشتمت: لا ياس.

لكنها ظلت في مكانها، وكرر سالم في فلق: ماذا حدث؟
فريدت شاردة: قايلت أمي.

ثم استجمعت نفسها بجهد خارق وقالت: معك حق، فلندخل إلى الصالة.

السياح بابتسامته التي تتفقها وقال لها سنة حلوة يا جميل! إذن ستحتفظ غداً ونفسه، المنشورات؟ ندا ١٥ يناير؟ أليس كذلك؟

ابتعدت عنه وجاءها الدوار على الفور. خافت منه وكانت خائفة من الأصل. نادا لم تقل لهم الحقيقة وهم يوزعون المهام؟ لماذا لم تقل على الأقل أنا جبانة وأرجوكم أن تغفوني من هذا العمل؟ خافت حتى أن تقول ذلك. جاء غثيان الخوف والعرق البارد لكنها لم تتنطلق، وشعرت بالعار وهي ترى زملائها وزميلاتها يقبلون المطلوب منهم ببساطة وحتى بحماس. كان يجب أن تتسحب، لا في تلك اللحظة وإنما قبلها بكثير، كان يجب أن تعرف نفسها بيان هذه اللعبة ليست لعبتها.

ستعرف بهذا لسالم، ستكون أصرح مع نفسها، ستفعل إنها حسنه وهي في قلب اللعبة لم تفتن تماماً بما تفعله، حدتها نفسها بيان هؤلاء الطلبة الفقراء بدافعهم بالفعل عن مصالحهم، أما هي فعن أي شيء تدافع؟ الدكتور شوكت شوكت معه كل الأموال ويعطيها كل ما تطلب.

هل أراحت ضميرها عندما امتنعت عن أن يوصلها سائقها بسيارته إلى الجامعة؟ عندما صممت لا تلبس الثياب الغالية مثل الدكتور صفا؟ أبداً، هي ليست منهم. أكثر من ذلك، تعرف بياتها كانت في وسط اجتماعاتهم تشعر بغيره وتقرز من روايهم؛ أحياناً تبعد خطوات عن يقترب منها ليكلمهها ورائحة فمه وجسمه وثيابه تصيبها بالدوار. تسأل نفسها لماذا لا يستخدمون ياربي؟ لا يوجد في مصر أكثر من الماء ولا أرخص منه، لماذا لا يغسلون ملابسهم ليزيلوا رائحة العرق على الأقل؟ كيف لا يشعرون بقدرتهم؟ كيف لا يتقرزون من رونق أحساسهم وهم طلة جامعة؟ المفترض أن يكون أحد قد علمهم شيئاً عن النظافة وأنهم يفهمون هذه الكلمة، قلماذا ياربي كل هذا الاستهثار؟ لو كانت لديها ذرة من الشجاعة لصرخت فيهم أنهم قبل أن يثوروا على السياسة يجب أن يثوروا على

نظرت لبني إلى وجهه المذهب ، تابعت محاولاته لكن ينتزع الكلمات بصعوبة فقرها إحساس جارف أنها كل شيء آخر غير أن سالم يتالم . وأنه يتكلم من أجلها مطالب بثيرة فيها شيء من الاستسلام :

- وكيف يمكن لي أنا أن أتركك؟ ألم أقل لك أكثر من مرة إني أحسن شيء
حدث في حياتي؟ ثم إننى لست جميلة ولا ذكية. لست أذكى منه. أنت أذكى
أنت الذى تشرح لي مسائل القانون المصعبة التي لا أفهمها؟ وأنا أحبك لأنك أنت
كما أنت. أحب جدك الذى لم أقابله وأحب اختك وابنها عندما تتحدث عنهم لا ت
أنت تجيئها. ولو كنت تحبني فلأت تحبني لأننى أنا كما أنا ..

سرى وب سالم قليلًا وهو يذكر شيئاً جدي أيضًا يقول ذلك، عندما حدثه عذ قال لي إن الحب الحقيقي النقاء، روحين والأرواح لا تتنافس في الجمال ولا في الشكاء لأن كل الأرواح جليلة وذكية.

فلا يكفي أن يكون جدك معنا لقيته لأنك تقول هذا الكلام :

وتحتها ابسمت لنفسها حين طرأ على ذهنها ما يمكن أن يحدث لو سمع المكتوبر شوك أو الدكتورة صفاء هذا الكلام عن الأزواج، ليس علمياً على الأطلاق.

وقالت لسالم في دهشة حقيقية: لو ثبقي معا ياسالم هكذا إلى الأبد! فقط هكذا! ولو في هذا المكان، في هذا البرد! عندما جئت قلت لي إن هناك شيئا يحزنني، نعم، هناك أشياء تحزنني ولكنني معك أنساها، وأرجوكم لا تمسكوا بي اليوم عن الحزن.

وأكملت لنفسها سيناريو موعدة فدعنا على الأقل نتساءل في هذه اللحظة، ثم حكت جسنتها سدها وقالت:

- 178 -

فأمد وتبعها، كانت المسالة الزوجية للكاريون التي يخطوتها في الشتاء، أشد
برودة من المكان المفتوح. يتسرّب إليها هواء بارد من فرجات الزوج. لم يكن
هناك غيرهما في المكان وعدد من الجرسونات في سترات بيضاء، لاحظت أنهن
جميعاً يركّزون أنظارهم عليها فقالت لسالم: شرب الشاي ونمسي .
ولكنها استرخت قليلاً وهي تشرب الشاي الساخن وسالم ينظر إليها صامتاً.
راحت تتطلع إلى هاتين العينين الحبيبين وكأنها تريد أن تحفظهما في ذهنهما
كائنها لن تراهما مرة أخرى. وراح هو أيضاً ينظر إلى وجهها متسللاً ثم قال:
يمين خلص

یہ صورت خلائق پر

- هناك شيء يحرّكك .

≈ 0.85

سكت مرة أخرى قبل أن يقول في شيء من الحزن: ثم ثبت من أجلك يا بني لو
كنت أحسن مما أنا .

ساخته فی تلق : هاذا تقصید؟

ساخته في قلق : مادا تعتقد
- من هذه الفكرة .. أحاول أن أنسى ولكنني لا أستطيع . أنت ذكية وتفدين كثيـراـ
لا أعرفها بلغات لا أعرقها، وأنت جميلة وغنية وأنا .. كان يمكن أن تجدي إنساناـ
أفضل منه بكثير.

قالت ليثي لها ياس: أنت تزيد أن تذكرني.. هل هذا ما تقصده؟
- لا.. كييف تذكرين في ذلك؟ أنا أريد فقط أن تعرفي .. ربما تعتقدين أنتي
الآن أو لاتقني كنت .. لأنك كانت تذكريني الحالة التي جعلت أبي يعتقد إنتي مجنون..
ربما تعتقدين أنتي لا أعرف .. ولكن أنا أعرف الفرق .. أعرف أنتي لا أستحقك ..
ولكن لو تذكرتني .. أظلك أنتي .. ربما بالفعل ..

عندما دخل العمارة توقف لحظة في المدخل . كان فسيحاً ، من رخام أبيض على جانبيه رسوم فسيفسائية ملونة لغزلان ترعن وسط حشائش . وتحف به من التاجين أصص نباتات أوراقها خضراء لامعة ، ومن السقف تتدلى ثريات فضة باهرة الفضـوـ من الكريستال . وفـور دخـولـهـمـاـ هـبـ واحدـ منـ حـراسـ الـامـنـ الحـالـسـينـ إـلـىـ مـكـتبـ فـيـ الرـكـنـ بـأـرـيـاتـهـمـ الزـرقـاءـ ، وـحـيـاـ لـبـنـ فـيـ أـنـبـ شـدـيدـ ثمـ أـسـرـ قـبـلـهـاـ لـيـقـتـلـ يـابـ المـصـدـعـ وـاتـيـهـ سـالـمـ إـلـىـ أـنـ لـبـنـ لمـ تـنـظـرـ نحوـ الـحـارـسـ وـأـنـهـ لـمـ تـشـكـرـ .

انتبه أيضاً إلى فخامة الشقة عندما واجهته المسالة الواسعة التي تشكك أن تكون في مساحة شققهم كلها . بهـرـهـ كـلـ شـيـ . قـطـعـ الـاثـاثـ وـطـرـيقـ تـرـتـيـبـ والمـكـتـبـ الجـيـلـةـ www.jilas.com/vb3 الزـرـفـ فـقـالـ وـهـوـ يـنـظـرـ حـولـهـ :
ـ يـقـدـمـ جـيـلـلـيـاـ فـيـ .
ـ شـكـراـ . هـوـ بـيـتـ أـبـيـ .

أـوـادـ أـنـ سـائـلـهـاـ وـهـلـ هـنـاكـ فـرـقـ ؟ وـلـكـهـ لـزـ الصـمتـ . مـنـ رـأـهـاـ هـذـاـ المـساـ . وـلـنـ شـرـدـ كـثـيرـ وـلـيـدـ عـلـيـهـاـ أـنـهـ تـسـمـعـ مـاـ يـقـولـهـ . تـيـداـ كـلـامـاـ وـيـسـتـرـقـ قـبـلـ أـنـ تـكـلـهـ . يـمـتـعـ وـجـهـهـ أـحـيـانـاـ وـتـضـحـكـ ضـحـكـاتـ عـصـبـيـةـ فـيـ أـحـيـانـ أـخـرىـ . وـعـنـدـماـ عـرـضـتـ عـلـيـهـ أـنـ يـاتـيـ مـعـهـاـ لـمـ تـرـكـ لـهـ فـرـصـةـ لـلـتـفـكـيرـ .

فـقـالتـ : مـاـ دـمـتـ تـرـيدـ أـنـ تـرـعـفـ كـيـفـ أـعـيـشـ مـاـذـاـ لـأـنـاـ وـتـرـىـ بـنـفـسـكـ ؟
سـأـعـرـفـكـ عـلـيـ دـادـةـ سـنـيـةـ وـلـوـ أـسـعـدـنـاـ الـحـظـ فـسـأـعـرـفـكـ عـلـيـ الـدـكـتـورـ شـوـكـ ؟
هـيـاـ !

قـامـتـ وـجـذـبـتـهـ مـنـ يـدـهـ ، وـفـيـ الطـرـيقـ أـشـارتـ إـلـىـ تـاـكـسـىـ ثـمـ خـلـالـ دـقـائقـ كـانـاـ
أـمـامـ الـعـمـارـةـ الشـافـعـةـ الـتـيـ تـنـلـلـ عـلـيـ نـيلـ الـجـيـزةـ فـيـ الـفـصـةـ الـآخـرىـ .
ضـفـقـتـ عـلـيـ الـجـرـسـ قـبـلـ أـنـ تـفـتـحـ الـبـابـ بـمـفـاتـحـهـ فـاستـقـبـلـهـاـ فـيـ الـرـدـهـ

ـ وـلـكـنـ أـنـاـ أـحـدـكـ مـنـ كـلـ شـيـ ، وـلـاـ أـعـرـفـ عـلـىـ إـلـاـ الـقـلـيلـ .

سـأـكـلـ فـيـ تـوـجـسـ وـقـدـ عـاـوـدـهـ مـاـ تـهـرـبـ مـنـهـ : مـاـ الـذـيـ تـرـيدـ أـنـ تـعـرـفـ ؟

ـ عـنـدـمـ سـأـكـلـ قـلـتـ إـنـ قـابـلـهـ أـمـكـ . هـلـ حـدـثـ شـيـ ، عـنـدـمـ قـابـلـهـ ؟

تـقـهـدـتـ يـشـيـ منـ الـإـرـتـيـاحـ وـهـيـ تـقـوـلـ . تـعـمـ قـلـتـ لـكـ مـنـ قـبـلـ أـنـ لـكـ جـدـ تـحـبـهـ
وـأـسـرـةـ تـحـبـهـاـ وـأـنـاـ لـيـسـ لـيـ أـحـدـ أـيـدـاـ . أـرـىـ أـمـيـ قـلـلاـ . أـمـاـ أـبـيـ الـذـيـ أـعـيـشـ مـعـهـ
فـرـبـيـاـ آرـاهـ أـقـلـ مـاـ أـرـىـ أـمـيـ . هـوـ طـوـلـ الـوقـتـ فـيـ الـعـيـادـةـ أوـ فـيـ الـمـسـتـشـفـيـ . لـوـلـ
رـادـةـ سـنـيـةـ لـأـنـتـحـرـ ؟

قـالـ فـيـ اـنـزـاعـ شـدـيدـ : سـتـحـرـينـ ! كـيـفـ تـكـرـبـينـ فـيـ ذـاكـ ؟

أـبـسـمـتـ بـالـرـغـمـ مـنـهـ : لـاـ تـخـفـ هـكـذاـ ! أـنـاـ أـجـبـ مـنـ أـنـ تـنـفـرـ !

سـكـتـ لـحـظـةـ قـبـلـ أـنـ يـسـأـلـهـ : هـلـ تـحـبـنـ وـالـدـكـ ؟

رـجـعـتـ فـيـ كـرـسـيـهـ وـرـفـعـتـ رـأـسـهـ وـهـيـ تـقـوـلـ . لـاـ تـقـضـيـنـعـمـ . تـعـمـ بـالـسـمـعـ
أـحـبـهـ . هـوـ أـبـيـ . وـلـكـنـ لـسـناـ صـاحـبـيـنـ . لـمـاـ بـدـأـتـ هـذـهـ الـحـكاـيـةـ مـنـ الـأـصـلـ . مـاـ

الـسـبـبـ فـيـ كـلـ هـذـهـ الـأـسـلـةـ ؟

ـ كـنـتـ أـقـولـ .. كـنـتـ أـرـيدـ .. أـرـدـتـ أـنـ تـرـعـفـ عـلـيـكـ . عـلـىـ حـيـاتـكـ وـعـلـىـ أـسـرـكـ .

فـقـالـتـ دـونـ تـفـكـيرـ : هـذـاـ سـهـلـ جـداـ يـاسـالـمـ !

خادم يليس سترة بيضاء مثل الجرسونات، ساكله قور دخلوها

- الدكتور هنا؟

- لا، الدكتور اتصل وقال إنه لن يأتي العشاء.

وأشار بيده سالم في اتجاه المصالون المختلف في آخر الصالة الشاسعة وهو يقول: تفضل يا أستاذ.

لكن لبني جذبت سالم من يده قائلة: تعال، أنت تحب النيل فاحتمل البرد! جلسا في الشرفة العالية على مقعدين مبطعين بقماش أسفلجي، وكانت الشمس القارية قد بدت بعض السحب وصيغتها بلون وردي ينعكس على سطح النهر أطيافا ذهبية متقطعة، تبتلعها الأمواج ثم تطفو على السطح في التأطيس.

استغرق سالم في متابعة تلك الالتفاءات الوجrage في الماء، قبل أن تحجب الشمس سحابة كبيرة فتحتني هذه الأطياف وتتحول النهر إلى شجرى رمادي داكن مستطيل يشق كتل المبانى على جانبيه ويجذب الجسور التي تؤمجهما العربات. لم يسمق له أن رأى السيارات من هذا الارتفاع صفيحة الحجم وضجتها تائش من بعيد خافتة كالصدى، لكن النهر المتد أماه يصرمه كأنه هو الشىء الوحيد الهدى، الذى يوحى بالسكون حين يركز نظره عليه.

التفت إلى لبني التي كانت تنتظر منه صامتة إلى النيل وقال: معك حق، عندما تنظر إلى النيل من بعيد ..

ثم سكت فاختلت هي: يكون النيل وحده هو الجميل، أليس كذلك؟

- هذا ما أردت أن أقوله.

طلت تنظر نحو النهر وقالت بصوت خافت: أحب أيضا قصيدة النهر الحالى، مليئة بالصور الجميلة - مسافر زاده الخيال، - وظمان والكتان فى يديه .. ولم يزال ينشد الديارا ويسأل الليل والنهار، أحب بالذات البيت الذى يقول بالبيتش موجة فاحكمى إلى لياليك ما شجاني وأعندى للرياح جبارا، أى هروب أجمل من

هذا الهروب؟ أن تصيح موجة فى النيل وأن تهمس للريح بشكواك، لا مشاكل على الإطلاق!

قال وفي صوت نبرة من الآسى: أنا لا أقرأ الشعر مثلك يا لبني، ضحكت ضحكة خافتة وهي تحول وجهها نحوه: أى قراءة يا سالم؟ هذه أغنية يذيعها الراديو كل يوم تقريباً، ألم تسمعها أبداً؟

- سمعتها ولكنها لم تطرأ الآن على بالي ولم أفكر فيها كما فكرت أنت، أنت فكرت هكذا لأنك تقرئين كثيراً، ليتني استطع أن أصبح مثلها، قالت متقطعاً بالابتسامة، نعم قبل أن أغفر لك أقرأ، عندي وقت كثير لا أعرف ما أفعله به، قلت لك أنت عندك أسرة تحبها وتشغل، أما أنا، فليس لي أحد، أعطنى هذه الأسرة يا سيدى وهذه كل القراءة التي قرأتها!

شم إنفاسه وهي تذكر نفسها: ليتنا يا سالم لانتحدث الآن بالذات عما يفرق بيننا بالظاهر لكنه يعنى ولكن يعنى ما لك نحوه فجأة وهي فى مقعدها وجذبت ذراعه ثم قبّلته قبلة سريعة فى حينه وابتعدت عنه بالسرعة نفسها.

فى تلك اللحظة سمعا صوت خطوات بطيئة تقترب، ثم ظهرت بالباب سيدة عجوز تستند إلى الجدار وهي تنقل خطواتها بمحضه، لم يتمحссن سالم من ملامحها جيداً فى عناء الغروب التى حلّت، رأى فقط أنها تلبس جلباباً من قماش مشجر وتنضع على رأسها طرحة بيضاء، تحيط بوجهها كله.

هبت لبني من مكانها وقالت وفي صوتها اتزاع: دادة! لماذا تركت غرفتك؟ ما الذى جعلك تقومن وتخرجين إلى هنا فى هذا البرد؟ متى تظلين ذلك؟

احتضنتها لبني وهي تنسى، تور الغرفة فرأى سالم وجهها المتغضبة بالتجعيد مثل إسفنجية متکورة تظل منه عينان كايباشان، لم يجد أنها رأت سالم لأنها قالت بصوت ضعيف: متى رجعت يا لبني؟ وماذا تأخرت؟ فلما يأكلنى عليك طول النهار.

دادة سنية ، تعال ددخل ..

ظل يقف مكانه وسائلها دون أن يحول وجهه تجاهها : مادا قلت لدادة سنية عن؟

فرد ببساطة : كل شيء ، أنا لا أخفي عنها أي شيء ..

فقال وببرة التوتر تتضاعف في صوته : ولكن مادا تلك لها بالضبط ، نحن فقراء ، ولكننا لا نسكن في حرارة ؟

قالت في دهشة : وماذا لو كنت تسكن في حرارة ؟ ما أهمية ذلك يا سالم ؟ ألم يقول جدك ..

ثم توقفت فجأة وراحت تربت على ذراعه برفق وهي تقول : لا يا سالم . لم أقل لها عند أي شيء ، غير أنت رميلي وأنتي أحبك وكانت هي سعيدة لأنها تعيني ، واليوج رأيت بنفسك أنها تحبك أنت أيضا .. تعال .. تعال ددخل ..

كانت غرفة المكتب واسعة ودافئة تحف بحوانطها كلها مكتبة من خشب أبيض صفتلى رفوفها كتب ومجلدات مختلفة ، ويتصدرها مكتب من الخشب نفسه ، وكل شيء على النظير . وفي ركن من الغرفة منضدة صغيرة حولها مقعدان وبالقرب منها كتبة من الجلد الفاتح اللون .

قال سالم وهو يجول وسط المكتب : هذه معظمها كتب علمية وكتب في التاريخ . قلت لي إنك تقرئين روايات ولكن لا أرى أي روايات هنا .

ـ فقلت ليبي التي كانت تسير وراء متابعة خطواته : هذه كتب أبي وبعض كتب أم التي تركتها ، مكتبة الصغيرة في غرفتي . ثم أضافت وهي تتساءل : ولا تقلق ، كلها روايات ويمكن أن أعيدها لك إن عدك وقت القراءة الروايات .

ـ فقال بانفعال : نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفين . أريد أن أصبح مثلك . فهزت ليبي رأسها وهي تقول لنفسها : ليبي لا تصبح مثلك !

قالت ليبي وهي تقبليها : مساء ، الغير يا دادة ، أنا ، أنا جئت منذ قليل وكتبت سأله عليك الآن في غرفتك ..

ـ ثم أشارت بيدها إلى الشرفة وهي مازالت تحضر مريضتها : هذا زميلي سالم الذي كلمتك عنه . سذاكر الأن معها .

ـ راحت العجوز تتلفصه من بعيد بعينيها الكليتين وهي تسد يدها إلى باب الشرفة قالت : مساء ، الغير يا ليبي ، بالنجاح إن شاء الله .

ـ تهض من مكانه ورد عليهما من بعيد بارتياح فقالت وهي لازال تتلفصه :

ـ أنت إنسان طيب .

ـ أشرق وجه ليبي حين سمعت هذا وقالت لسالم ببرة ظافرة : أرأيت ؟

ـ فقالت المربي بصوت يدا لسالم حزيناً : وانت أيضا طيبة يا ليبي و ..

ـ غير أن ليبي قاطعتها وهي تضع يدها حلو كتفها وتذكرها بسم ، مبعثقة عن الشرفة : تكلى هذه ، الشفاعة ، يادادة ، الآن ترجع إلى غرفتها وتأخذ النوم ..

ـ قالت العجوز وهي تبتعد مستندة إلى ليبي ، ولكن مادا تجلسان في الهواء .. سيسبيكما البرد ..

ـ قررت ليبي : لاتقلقني أنت يا دادة . سأقول لعم حسن أن يدخل له طفلان هن الشاي ، وستشربهم في غرفة المكتب وتحنن سذاكر ..

ـ عادت ليبي بعد فتره فوجدت سالم يقف مستندا إلى سياج الشرفة وهو ينطلق إلى الشهر . كانت أنوار الشوارع والإعلانات الملونة قد أضيئت وانعكست على صفحة النيل . وفقت ليبي إلى جانب سالم وكان إعلان في أعلى عمارة بالضفة المقابلة يتوجه بنور أحمر ينطق ، ويبيس ، بانتظام ، وكان يلقى على النيل أشعة حمراء متوازية ورجراحة . وقالت لسالم إنها تكره هذا الإعلان لأنه يعطي للنيل لونا كانها مثل وجه هرقل السيرير .

ـ لم يرد سالم . شعرت به يقف متورتا رغم أنه كان يرتدي ارتجاجة طفيفة . مدد يدها وأمسكت بيده : وقالت يدك باردة بالفعل وستصاب بالبرد كما قال

جلسا متوجهاً بِرِشْفَان الشَّاي الساخن في صمتٍ . كان ينظر لها بعيون
تموج فيها غشاوة رقيقة كالندع ويتصفح وجهه كلاماً ثقيلة عيونهما . وكانت هي
مستغرقة في التفكير . تتحرك في مقعدها ببطءٍ ، يرتعش فتجان الشاي في يدها
ويحدث صلصة في الطبق كلما رفعته إلى شفتيها أو أعادته إلى مكانه . ويدأب أنها
مثله تزيد الصمت أن يستمر ، لكن عم حسن العجوز ظهر بالباب . كان يمشي دون
أن ينقل قدماه كأنه يزحف وقال وهو يحمل التليفون بيده والسماعة بيده أخرى
ويجرجر وراءه السلك الطويل :

- مكالمة لك يا نسمة لبني ،

امسكت بالسماعة وراجحت ترد على المتكلم بصوت خافت : نعم .. نعم .. ثم
امتع وجهها فجأة وقامت من مكانها وابتعدت عن خطوات وهي تقول :

- نعم ، قابلت هذا الكارتة في الصباح وأعرف ذات معروفة ..

ثم ارتفع صوتها فجأة وهي تقول : أنت تتكلّم .. بالطبع هو عزف على
الاسماء .. نعم .. وما العمل الآن ؟ فلأت الوقت ! مع السلامة .. نعم ..
سانخلص منها ..

كان عم حسن يقف في انتظار أن تنهي المكالمة ولكنها ظلت تمسك السماعة
مطرقة الرأس قبل أن تتناولها له بيده شاردة وهي تقول :

- لا أريد أي مكالمات أخرى .

ساكيها وهو يمسك التليفون ك طفل رضيع : هل أجهز العشاء ، لك وللأستاذة
لو جدت بيدها لا ، أنا لن أتعش . يمكنك أن تتصرف إذا شئت .

قال دون حماس : ولكن يمكن أن أبقى يا نسمة ..
قاطعته بعناد صبر : إفعل ما تشاء يا عم حسن . ولكن أنا لن أتعش .
إذن بعد إذنك .

وعندما انصرفت الخادمة بخطواتها الزاحفة قالت وهي تنظر نحو سالم دون
وعين ما القائمة ؟

- ما القائمة من ماذ؟
فلوحـت بيدهـا دون أن تـرـد .
قال سـالمـ وـهـوـ يـنـهـضـ مـنـ كـرـسيـهـ : هـنـاكـ شـيـ مـهمـ تـخـفـيـهـ عـنـ الـليلـةـ .
أـنـتـ لـستـ طـبـيعـيـهـ مـنـ قـاـبـلـكـ وـتـخـفـيـنـ شـيـناـ . أـنـ قـلـتـ لـكـ مـاـ لـأـقـولـهـ لـأـيـ إـنـسـانـ ..
حـتـىـ الـحـالـةـ الـتـيـ .. حـتـىـ الطـبـيبـ الـذـيـ .. حـتـىـ أـبـيـ .. وـأـنـتـ رـبـاـ ..
أـضـافـ اـضـطـرـابـ وـاحـتـقـانـ وجـهـهـ وـهـوـ يـتـحـركـ فـيـ الـغـرـفـةـ بـعـصـبـيـةـ إـلـىـ
خـوفـهـ فـعـادـتـ تـجـلسـ مـكـانـهـ وـتـنـصـعـ بـيـدـهـاـ أـمـامـ وجـهـهـ كـلـثـمـاـ تـحـمـيـ نـفـسـهـاـ مـنـ
خـطـرـ ماـ :

- نـعـمـ يـاـ سـالمـ .. نـعـمـ .. أـنـ أـخـفـيـ عـنـكـ شـيـناـ لـأـنـ لـوـ عـرـفـتـهـ فـقـدـ أـخـسـرـكـ . وـأـنـاـ
لـأـرـدـ أـنـ أـخـسـرـكـ .. لـوـ وـعـدـتـنـيـ ..

قال وجهـهـ عـزـفـ الـخـطـرـ : المسـالـةـ مـفـهـومـةـ . هـنـاكـ رـجـلـ أـخـرـ :
وـلـفـتـ وجـهـهـ بـيـدـهـاـ وـمـالـتـ عـلـىـ الـمـنـضـدـةـ وـهـيـ تـكـلـمـ بـصـوـتـ مـهـدـجـ : أـيـ
رـجـلـ أـخـرـ ؟ أـيـ رـجـلـ وـأـنـ قـبـلـ أـنـ أـعـرـفـ كـلـ أـكـرـهـ كـلـ الرـجـالـ . كـلـهـمـ بلاـ استـنـاءـ .
عـقـولـهـ لـلـنـادـاـ وـلـكـنـ لـيـسـ الـآنـ .. أـعـدـكـ . الـمـسـكـةـ أـنـتـ لـأـرـدـ أـنـ أـدـخـلـكـ فـيـ ..
لـأـنـتـ أـرـدـ وـيـدـهـاـ وـيـجـبـ لـأـتـخـلـلـ فـيـ .. أـنـاـ أـخـانـهـ ؟

انصرـفـ الـآنـ يـاـ سـالمـ مـنـ فـضـلـكـ ، أـرـجـوكـ ، الـلـيـلـةـ لـنـ تـسـتـعـيـعـ أـنـ تـسـاعـدـنـيـ .
سـمعـ سـالمـ صـوـتـ إـغـلاقـ الـبـابـ الـخـارـجـيـ فـانـتـهـيـ فـجـاءـ وـقـالـ :

- أـنـاـ أـيـضاـ سـاـنـصـرـ .

قالـتـ وهيـ لـاـنـزالـ مـنـكـتـةـ عـلـىـ وجـهـهـ وـجـسـدـهـ كـلـهـ بـرـيـثـجـ :

- نـعـمـ يـاـ سـالمـ قـلـتـ لـكـ لـأـقـاءـهـ . انـصـرـفـ الـآنـ ! حـتـىـ هـذـاـ كـذـبـ ؛ لـأـمـدـ
يـحـسـ أـحـدـاـ مـنـ خـوفـهـ .

لـكـ سـالمـ تـلـكـاـ فـيـ مـكـانـهـ . ظـلـ وـاقـفـاـ يـتـطـلـعـ إـلـىـ الـجـسـدـ الـمـقـوسـ الـمـرـجـفـ
يـسـعـ كـلـامـهـ . يـدورـ رـاسـهـ وـيـكـادـ يـترـنـجـ وـهـوـ يـتـقدـمـ تـحـوـهـ .
يـضـعـ بـيـدـهـ الـكـبـيرـتـيـنـ عـلـىـ كـتـفيـهـاـ الـمـرـتـدـتـيـنـ وـيـسـدـهـاـ بـيـانـاهـ بـرـفـقـ كـنـ

كانت تجلس وحيدة على الأرض في المكان نفسه، تحد ساقيها وتسند ظهرها
ومرفقها إلى الكتيبة الجلدية. لا يريد أن تذكر في شيء: تعمى فقط ما تمنته منذ
البدء، أن تمام، أن يستحبيل الهسوب الذي حل بها إلى نوم طوويل تنسى فيه كل
شيء، لكنها فجأة خبطت جبينها بيدها وهمست لنفسها وهي تعدل في جلسها:
ـ ياربي! كل هذه المصححة عن الحب تنتهي هذه النهاية؟

كل أفراح الأسابيع والشهر لم تكون سوى أكاذيب! كل حياتنا كذب كما قال
الدكتورة صفاء، أوهام، تضليلها بأنفسنا لأنفسنا وفي النهاية لا فرق بين سالم
والخطب، والاستحمام والاغتصاب؟

لا أمل إذن أبداً في أن يخرج الجسم من حصار جلد؛ لا أمل في الحب
الظفيري ولا في تلك المرات الموعودة التي كتب بها عليها الشعراء والموسيقيين؟
لا يوجد لتلك المرات؟

موجودة ولكن لا يمكن الحصول عليها!
بعض يصلون إليها ولهم تستمر الحياة?
كيف يمكن أن تعرف؟

فهتم بأن تقوم من مكانها وهي تسند يدها إلى الكتيبة الجلدية لكنها شعرت
بتعب شديد ونقل في أطرافها فخلقت جالسة كما هي، كان رأسها محموماً ولكن
جسمها ظل خائراً، راحت تهز رأسها وهي تقول لنفسها نعم، لا فرق بين سالم
وحمام.

ها هي مرة أخرى لا تعرف إن كانت هي التي قادته أم هو الذي قادها، هل
يخونها حتى جسدها؟ ولكن النتيجة هي نفسها: تحور وجهه وتشوه وهو يعدل

يساعد طفلها على النوم، ولم يكن يدرك تماماً ما الذي يفعله ولا ما الذي يريده.
لكن ليس كفت عن ارتعادها بعد فترة ورقت رأسها فاسندتها إلى ذراعها
الموضوعة على المنضدة ونظرت له بعينيها المحتقنتين وقالت في نفس لا يكاد ي بين
كائناً لتلمسها، كائناً تحاول أن تفهم: وكل هذا لأنني قابلتك أنت ..

فانسكت ذراعيها برفق وساعدتها على أن تنهض وتتفق على قدميها واحتضنها
إليه واستمر يمسك برفق على كتفيها وذراعيها وهي مستسلمة له كائناً هو الذي
يرفعها بيديه القويتين من أن تسقط في الأرض ووضع رأسها في صدره وهي
هامدة تماماً، وظلا واقفين في سكون كامل وهو يضمها إليه فتمتنع وهي ملائكة
العينين تستمع إلى نبض قلبها المنظم: لو ياتي النوم هكذا! لو ياتي النوم هكذا!

ونسبان!

ولكنها أحست وهي في حضنه بصدره يطغى ويسكب على ساقيه بمحظوظة
وباصابعه التي تتحسسها برفق متزداد سرعة وهي تهبط من كتفيها إلى ذراعيها
و Rogardت نفسها قبل صدره قبلاً صغيراً متقطعة وهي تقول بهمس معترض أريد
أن أنسك، وكانت تضع يدها تحت البلوفر السميكة الذي يلمسه وتحل إكرار
قميصه بيد أخرى مرتبكة وتتسدل للناس صدره باصابعها الرعنوية وتجذب برفق
شعيرات ناعمة وجدتها هناك ثم تزيح البلوفر والقميص كثلة واحدة إلى أعلى
وتغوص بوجهها كله في صدره وهي تستنشق بعمق رائحة جسمه وتصدر
هميمات متقطعة وسط أنفاسها اللاحقة: نعم هذا هو أنت! هذا سالم .. هذا
جسدك وهذه راحتك.

وكان هو يتنفس بصوت مسموع كآهات متقطعة بينما يدفع بيديه الكبارتين من
كم يلوزتها الذين تمزقاً وصدرها يرتجف في صدره وكان يقول بصوت
متلحرج وهو ينزلقان معاً فوق السجادة: هذا لا يجب .. لا يجب ..

ولكن كل شيء كان يقول غير ذلك.

المبيت . ظلت في مكانها على الأرض منكشة على نفسها وهو يعمل عليها بوجهه الذي فقد كل جماله فجأة وهو يهدى بعيارات لم تفهمها على الفور إلى أن فهمت أنه يشنمنها ويشنمن أيها وأمها ودادة سنية وعم حسن بعيارات فاحشة . ويقول كلاماً غريباً آخر عن أبيه وعن أخيه لم تفهمه أيضاً وقد أصابها الخرس والشلل . كان ينظر نحوها بكراسية وتقرّز وهي تنظر إليه ضارعة لا تجرس حتى أن تطلب منه أن يشنمنها بعيارات خافت . ومع ذلك كانت تقطّع لحظات في قلب ذلك الظاهر يحتاجها فيها إشفاق غريب عليه . تود لو تقول سالم هذا ليس أنت ! هذا ليس صحيحاً ! هو كابوس ستفيق منه لتتجدد مرة أخرى إلى جوارها تحتمي به من خوفها ووحيمها من نفسها . ولكنها لم تستطع أن تخرج صوتاً أو أن ترفع إصبعاً إلى أن يذهب من طفلها نفسه وخارج كنه يترنح .

لأنها حاملة لذئب لا تستطيع أن تفقد نفسها من حالاتها !
من يمكن أن يشرح لها ما يحدث ؟ من يمكن أن يساعدها ؟

شعرت بسعادة وبدأت تتحرك ببطء . ووقفت لحظة أمام مراة جانبية فوجدت شعرها مهوشًا وثابتها مهوشة وممزقة الأكمام . ورأت وجهها شاحباً ومتقدعاً . حاولت أن ترتب نفسها قليلاً . بدأ تزور يلوزتها ثم عدت عن ذلك وسارت نحو الباب ببطء . قطعت المسافة وانحرفت إلى اليسار وهي تنسى في طريقها كل الأنوار في البيت وطرقت الباب وهي تقول في همس :
ـ دادة سنية ، أنت صاحبة ؟

فجأها الصوت المتعس : ادخلني يا ليثي . أنا أنتظرك .

توجهت نحو العجوز الجالسة على فراشها وهي تستند إلى وسادة وجلست إلى جوارها وهي تقول : دادة ، أريد أن أحكي لك ..

لمدت المربية يدها المتغضنة تبحث عن يدها وقالت :

شباب ويفقد لوقها . ولكن هناك فرق مع ذلك . حمام كان مذعوراً . استطاعت أن تشنمنه وإن تضرره . أما سالم فتركته يشنمنها دون أي رد . من أين يمكن أن يائس بكل هذه الشتائم؟ أين كان يختزن كل هذه الإذمات التي لم تحلم حتى بأنه يمكن أن يعرفها ؟

نتهدت وهي تفكّر : لم يكن ينقص شيء ليكون مثل حمام سوى أن يسألها وهو يقف لوقها : لماذا لم تقولي إنك لست بيتك؟ غريب أنه لم يذكر ذلك . هل أكتفي إذن بالشتائم ليغير عن رأيه ؟

وهل تكون هذه هي (الحالة) التي حدثها عنها؟ الجنون الذي يائس ويخافه؟ وما الفرق . للتعترف . كان هناك شيء مختلف . مع حمام لم يكن شيء غير الظاهر والشمنزار والآن . هنا حل عليها في البدء سلام من كائن لم تعرفهها من عدوها وهي في حضنه تحلم لو يستمر هذا الهدوء إلى الأبد . كان الحد أخر ما يذكر فيه . ذعنها كان مشوشًا بعد مكالمة دعاء . مشغولاً بالمشاكل التي يجهو أن تحلها والأشياء التي لا بد أن تتخلص منها . ولكن كل شيء انحس من رأسها الجداً ولم يبق غير أنها هنا مع سالم . بدا جسدها يتصرف وحده . بدأها تلمسه وشققاً ما تقبّل وهي تلتصق به أكثر فما كل ما كانها تزيد أن تصبح وإياه جسداً واحداً . ثم بدأت دون فاصل تخلق معه في نشوة أخذتها بعيداً عن الأرض وهي ترى مخففة العينين نجوماً لم تر مثل بريقها وأنواراً لم تحلم بمثل جمالها وجسدها يتقلب في ذلك القضاء التور إلى أن أطلقت أفعى المرض وهي ترفع ذراعها ويدها وتقبس أخيراً . أخيراً ، على تلك النجوم المستحيلة وتدور معها في عاصفة دوامتها الآبدية .

وفي اللحظة التي تفجر فيها كل ذلك الفرج وهي تخلق عاليًا ويعيداً أموري سالم على رأسها بمطرقة تعيدها إلى الأرض . إلى باطن الأرض . إلى الظاهر .

لابدك سالم كيف رجع إلى البيت.
لابدك إن كان قد ركب أو مشى
لبيت وحده يقول في شعره: من المفزع

- مازا حدث يا ولدي؟ وجهك كالبيضة! هل حدث شئ؟ شكلك..
ظل سالم واقفا ينظر إلى جده في صمت وتكلم مجدها: حدث شئ.. أريد أن
أتكلم معك يا جدي حدث شئ.. أنا لا أذكر.. لا أعرف.. ولكن ربنا.. يا جدي تكون
قد رجعت الحالة.. أنا.. سأسترحم أولا ثم نتكلم.. يجب أن تساعدني.. يجب أن
تتكلم..

قال اليشكائيل متوجهاً : كُنْتِ مَعَنِي ؟

نعم، سمع كثيرون لها، ولكن أين كانت بعدها؟ أنا خائف، يجب أن تتذكر، قاتل الجدد من متقددة هي بطء، وقال يهدو وهو يحيى رأسه:-
أنت متعب الآن، وأنا كذلك، ستأدخل لاثام،
لكن يجب... .

فُتَّال جده في حِسْم وهو يتجه إلى غرفته: في الصباح يا سالم . حاول الان
أن تسامِع.

ولكن بعد الحمام، بعد أن دعك سالما جسمه تحت الماء، حتى كاد يدمعه، كان يرقد في غرفة وعيادة مفتوحة وهو يتساءل: ماذا حدث؟
كانا يشاهنان، يذكّر هذا جيداً، يذكّر تماماً بيرى نفسه يقبل وجهها وشفتيها ورقبتها وكل قبالة تبعث في جسده رجلة لم يعرفها من قبل، ولا حتى حين كان يقبلها خلسة في الكاريبي أو وهما يسبحان في طريق مختلف. كانت نشوة ترج جسده كله، ولبني أيضاً ترجف وهي تقبل صدره وتنفس بصوت مسموع ومتززع يده بعنف لتقبل راحته بلطفة وعمق كما لو كانت ترتشف منها ثم تمسّ بها وجهها

- لا تحكى شيئاً يا ليث..
- مالت على صدر مربيتها فر
- لا تحكى شيئاً يا بنت ص
- وكان النعاس يغسل إلى ع

وقالت دادة سنية لنفسها قلبي حدثني منذ الصباح - لم يكتب على أحداً.
أصحو من قبضه فاعرف أن شيئاً سيحدث لصفاء أو لابنتها. أقول ليت ظني يخيب
فلا يخيب ، ياحسرتي! وهذا تصعيبي من الدنيا ، لو كانت واحدة منها بنت بطئي
لما أحبيبها أكثر مما أحببها . حكمتك يارب! صفاء كانت كالقطة المخطبة العينين
حتى تزوجت . دكتوره قد الدنيا ولا تعرف شيئاً عن هذه الدنيا أكثر ما تعرفه
طلقة. كنت أضحك على عيدها وهي شائى لتبكي في حضن لأن واحدة صاحت بها
خاصمتها أو لأن واحدة في كتاب تقرؤه ماتص أضحيت في سرى على عيدها
وأقول لها (معلش) ياصفاء! ولا أتركها حتى تهدأ . ولكن شوكت عندها . وعندما
كانت شائى لتبكي أو تشكو لم أكن أعرف ماذا أقول؟ ماذَا كان ليتمكن أن أقول لو
كان شوكت يكلمني مثل صفاء لتصحّه . ولكن لم يكن ينظر حسنى لجيء . هو
حتى الآن لا ينظر في وجهي ولا يكلمني . لولا لبني تشركت له اليمى من زمن .
تزوجت صفاء من سعيد . ورضي ربنا عنها . ولكن هل سيغفر لها ربنا ما فعلته؟
يارب! هذه الأسيرة بنت الناس ! لماذا يقع أولاد الناس على أولاد الحرام؟ لماذا
وتحت صفاء ، في شوكت ووقيعت لبني في المدرس؟ ليس أطيب حتى من أنها ولها
ياكلنى قلبى عليها أكثر أنا لا أخالف الآن على صفاء . ولكنني أخالف على لبني . هذا
التمليد الذى تحيى ابن حرام ثان؟ يارب! تجها يارب!
كانت لبني قد تأمت فراحت العجوز تعدل وضعها في الفراش بجهد شديد . لم
تشأ أن توقفها للنوع إلى غرفتها قالت لنفسها النوم رحمة .

☆ ☆ ☆

لا ان تصدق شيئاً مما يقول . هل يأخذها إلى الطبيب الذي كان يعالجه ؟
يطلعها على حجاب جدها؟ يستشهد بفورية وباية؟ وماذا ستقول لو صدقتها ؟
ستقول أنا وقعت في مجنون حقيقي ويجب أن أهرب منه . لا فائدة خسرها
وانتهي الأمر .

ولماذا قالت في أول الليل سأخسرك؟ لماذا لم تقل ستخسرني ؟ الا تعرف أنه
لن يحصل أن يخسرها ؟ هذا بالفعل هو الشيء الأسوأ من الجنون ومن الموت نفسه
هو يعرف بالطبع أن ما فعله معها خطيئة عظيمة . ولكن سيفكر عنها على الفور .
سيقول لجده وسبيوانق على أن يزوجها له . سيعترض لايها وسيقبل أي عذاب
ينزله به وبينما .

سمع سالم لحظتها هوت الجرس ، ثم سمع بعده صوت المفتاح وفتح الباب
ووجه صوت ابنته وهو يدور في ردهمة : لماذا الشقة كلها مظلمة ؟

ثم نادى : يا سالم ! وخفت صوته وهو يتساءل : هل نام الجميع ؟
قام سالم وأخذ يطلع شابه مرة أخرى دون أن يحدث صوتاً ثم وجد في فراشه .
لشكل الأسطلة التي تتداعف في رأسه مكانها الخوا ، كامل وكانت كلمة واحدة تتذكر
في ذهنه سأخسرها ... سأخسرها .. ثم جاءت صحراء ، واسعة بأمتداد البصر
وكان ظمان وراح ينتفت حوله في ذعر وهو يبحث عن شيء ما يعرف أنه شاع منه
تجاهه غزالة تدعى وناثيث ولفت إلى جانبها وراح تنسحب به وتكلمت بصوت يعرفه
ولا يستطيع أن يحدد وقالت لو فككت سحرى سأعطيك ما تبحث عنه . فقال أنا
أخاف من الساحرة التي رمتني في الصحراء ، وأخذت البيت من جدي وسحرت
فوريزة . ثم أخذ يجري والقرالة تدعى خلله وهو ي يريد أن يهرب منها ولكنه يقع على
الارض فتفقد القرالة فرقه ودموع تزل من عينيها الواسعتين مثل مطر غزير ثم
ترفع ساقها وفيسهل من قلقها ما ، غير وجهه ولكنه خافت أن يشرب من هذا الماء

الذى لم يره أحداً مثل هذا الاختمار من قبل . وينظر كيف هيطاً معاً على السجاد
وهما يتتمان بكلمات غير مسموعة وينظر كيف كانت هناك يد جباره تطوح به
بعيداً في الفضاء ، وتدور به وتغوص به في باطن الأرض في اللحظة ذاتها . وينظر
الصيحة التي أفلتت منه وكيف وضعت لبني يدها على قده لتكلمتها . كل ذلك يذكره
ولكن ماذا بعد ؟

ينظر أنه كان سعيداً جداً ، ثم ماذا ؟
كيف تركها وكيف خرج من الشقة ؟ أجهد ذهنه للمل يكن هناك سوى ظلام
كامل . هل طلبت منه مرة ثانية أن يخرج كما طلبت من قبل ؟ هل خرج من تلقائه
نفسه ؟ هل قبلته وأوصلته بنفسها حتى الباب ؟ هل نزل السلم على قدميه أم ركب
المصعد ؟ عاد مشياً على قدميه أو ركب الأتوبيس ؟ كل تلك التفاصيل ثلاثـةـ
ذهنه تماماً ، انتهى ، فيما معنى ذلك يا سالم ؟
لا تحاول أن تهرب . ليس له سوى معنى واحد . رجعت الحالة . لماذا فعلت
أشـاثـهاـ وماذا قلت ؟
جلس على الفراش ومسدغه يتبخر . ولكن الحالة انتهت من زمن . منذ سنين
لم أخطئ معها ولا أخطئ في البيت مرة واحدة . أراقب كلـاسـ جيداً وأراقب ما
أفعله . ألزم الصمت عندـماـ أخطـأـ في الكلام ولكن ماذا إنـلوـ
كانت الحالـةـ التي جلـعـتهمـ يـعـتـرـوـشـ مـجـنـونـاـ قدـرجـعـتـ هلـشـقـمـتـ لـبنيـ ؟ـ هلـ
ضرـيتـهاـ ؟ـ

نزل من سريره وبدأ يرتدى ثيابه بسرعة سيفكـلـهاـ في التليفون لأبداً لا يـدـ .
ولكن ماذا سيقول لها ؟ هل سيقول من لفظك أنا مجنون ذكرـيـنىـ ماـ الذىـ
حدثـ بينـناـ ؟ـ وهـلـ سـتصـدقـهـ لوـ كانـ بالـفـعلـ قدـ أـسـاءـ الـبـهاـ ؟ـ
عاد يجلس على فراشه بعد أن ارتدى القميص والبنطلون .

كان يعرف أنها لن تذهب إلى الجامعة في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، فطلبتها في التليفون من كشك للمسجاني قرب البيت. وب مجرد رفع السماعة قال في لهفة: لبني؟ فرد الصوت: لا أنا، الشغالة، المست لبني.. ثم ترددت وسكت.

قال بشيء من الارتياح: يمكن أن أكملها؟ أنا سالم. أنا زميلها.. فكررت الشغالة يترددتها نفسه: المست لبني.. (ثم سمع صوتا بجوارها يقول شيئا لم يتبينه)، أكملت الشغالة بعده في حسم: غير موجودة، ثم وضعت السماعة.

لم ينجح سالم في دخول الجامعة عندما وصلها. رأى مظاهرات وهنافات في داخلها ورأى البوليس يحاصر الطلبة المتظاهرين داخل الجامعة ويمنع الموجورين خارجها عن الدخول. فوجئ سالم بما يحدث لكن فكره كان في مكان آخر. وقف أمام حدائق (الأورمان) قبالة الجامعة ينتظر.. قال لنفسه لا يمكن أن تكون لبني داخل الجامعة. ستصعد بعد قليل وساكنون هنا وسأشرح لها كل شيء.

كان الطلبة المحتشدون بالقرب منه يتناقشون مع الجنود والضباط بصوت عال ويستاجرون معهم وهم يتذمرون ليعبروا الحصار ويدخلوا الجامعة.. وكان الضباط الذين يلبسون نظارات شمس سوداء يكتفون بكلمة واحدة «منوع» دون أن يتلفتوا بوجههم للطلبة وراح الجنود المترافقون يدفعون الطلبة والطالبات بعصيهم إلى الخلف.

ظل سالم بعيدا عنهم وهو يتطلع في كل اتجاه بحثا عن لبني لم يجدوها وسط هؤلاء المتادعين لعبور الحصار. وبينما كان واقفا يقترب ببصره بين القادمين من

أو هذه الدموع الماتفاق فمه وسده بيده ثم قام وأخذ يجري من جديد والغزاله وراً وشب حريق في مكان ما وكانت السنة كبيرة جدا من الهيب تقترب منه فلابد في عدوه وصار في جبل في أعلى خصبة ورأى الغزاله فرسا بيضاء لم يخف منها فراح يمسح شعر رقبتها ويفعلها وراح الفرس تقبله أيضا وقالت يا سلام إن صعدت الجبل يمكن أن تقل السحر للحال ولكنني عطشان... وكانت شفتها جافة ولسانه في فيه كلطعة من الخشب عندما صحا وهو يلهث نظام وشرب ، لكن أشباحه لم تفارقه طول الليل.

★★★

في الصباح لم يذكر سالم جده بالليل وكانت ولم يطلب منه أن يتكلما كما ألح عليه بالليل..

نظر جده إلى وجهه المكروه وعينيه الخايتين بعد ليلة الارق وعدم قدرته على إكمال سأله:

- عندي محاضرات اليوم في الصباح؟ فقال نعم.
سأله مرة أخرى بلهجة عابرة دون أن ينظر في وجهه: الحجاج الذي أعطيته لك يا سالم.. أما زال معك؟

- نعم يا جدي.
- أين هو؟
- في جبي في المحفظة باستمرار.

فقال جده بلهجة حزينة: قلت لك يا سالم أن يكون دائمًا في رقبتك وأن يلمس قلبك قلم تنفس؟

فرد سالم شاردا : حاضرا يا جدي

★★★

- وفي أي سجن هي؟

- وماذا يفديك أن تعرف؟ إن تزورها، لست زوجها ولا قريبها.

لم يفهم سالم ما قاله.. ظل مطروقاً وهو يقف في مكانه مشلولاً القدمين وقد غابت كل الأصوات من حوله وبدأ طنين غريب في أذنيه، وحين رفع رأسه أخيراً لم يجد دعاء إلى جانبها، بدأ يجرئ هنا وهناك بحثاً عنها وسط تجمعات الطلبة، لكنه لم يستطع أن يعثر عليها.

وواصل الجرئ بعيداً عن الجامعة وكان يكلم نفسه: يجب أن أسألاها يجب أن أراها، يجب أن أعرف لماذا قبضوا عليها، يجب أن أفهم ما حدث ليلة أمس، لماذا كانت تخفي عنّي، وما الذي أخفيت عنّي، وما معنى أنت ضد الناصريين؟ وما هو الدليل الذي تكلمت عنه دعاء؟ دليل على ماذ؟ ما الذي تفعله بالضبط وما الذي كانت تؤديه متى؟

وجد سالم نفسه في عيادة الدكتور شوكت الذي استقبله في غضب وكان سالم يجد مرة أخرى صعوبة في الكلام.

كان الدكتور شوكت أشقر، شعره ناعم ومرجل، أخذته منه لبني لون العينين العسليتين الفاتحتين والأنف المستقيم. وكان يتكلّم ببرخاؤة رغم غضبه، بصوت يكاد يخرج من أنفه، وفي وجهه الآبيض الناعم البشرة تعبر عن الاستعلاء، تفرّ منه سالم أكثر من نظرة من غضبه وهو يتكلّم بيبرته الرخوة:

- ما معنى زميلها؟..، وامدعت زميلها وأنت بهذه الطول والعرض فلماذا لم تطبع آنت المنشورات وتوزعها بدلاً من أن ترك بنتاً تحفظ بمنشورات؟

- منشورات؟ أي منشورات؟ آنت لا أعرف أي.. آنا..

- آنت مازاً؟ من أدخل في عقولكم لعب العيال الذي تعلمونه الآن؟ كنتم ت يريدون العرب والحمد لله حارينا وانتصرنا، البلد بالكاد شتم نفسها وأنت ت يريدون أن ترجع إلى أيام الخراب...

ناجحة تمثال النهضة اقتربت منه فتاة سمراء، كثيراً ما رأها مع لبني وحيثه بهزة من رأسها ثم وقفت إلى جواره وقالت في همس:

- أنا دعاء، صديقة لبني..

قال بارتباك: أهلاً.. هل تعرفين أين هي؟ هي ليست في البيت...

- أعرف .. (ثم أكملت في همس وهي تلتفت حولها) قبضوا عليها في المجر مثل الآخرين..

ظل سالم واقفاً يتطلع إليها دون فهم كاته لم يسمع شيئاً ثالثاً وهي تحول وجهها عنه:

- أعرف أنت لا تعرف أي شيء.. كانت لبني حرية على الاعتراف.. تختلف من أكثر مما تختلف من البوليس..

- تختلف من البوليس ومني أنا؟ من كانت تختلف أنا؟ فربت دعاء وهي تحني رأسها نحو الأرض.. كانت تختلف أن تعرف أعمدتها في السياسة..

قالت لي لو عرف سالم فتسأله.. لم أفهم أبداً مع ذلك لماذا كانت تختلف إلى هذا الحد.. هل أنت ضد الناصريين؟.. كانت واقفة تتأمل أنها ستختسر لو عرفت.. (ثم تطلعت إليه وهي تبتسم) شكلك إقطاعي على كل حال..

- آنا.. آنا ضد من؟ ثم احتسبت الكلمات في حلقه ووقف ينتظر إلى دعاء عاجزاً عن النطق..

- سيسيرها مع ذلك أن المظاهرة تجحت (ولوحت بيدها) يعني؟

أخيراً وجد سالم صوته فقال لدعاء، يهمن شديد الخفوت: ولكن مازاً؟ مازاً قبضوا على لبني؟

أجابه وهي صوتها غضب مرتفع الكتب أبلغ عن الجميع، ولكن من المؤكد أنهم سيفرجون عنها، لا يوجد أي دليل ضدها.. أنا حضرتها في الوقت المناسب لفوات إنها ستخلف من.. من الدليل..

ولكن سالم كان قد استدار وخرج من القرفة بخطوات الواسعة وهو مستمر في التلوّي بجانب آذنه ووقف الدكتور شوكت خلف مكتبه ينظر في اتجاه الباب فكر أن يخرج وراءه ويطلب منه العودة ليحدثه عما بينه وبين لبني ، لكنه لم يتحرك من مكانه . وبعد فترة استدعى المعرضة وطلب لا يدخل عليه أحد.

جلس وهو يفكّر: إنّ فهو أيضاً لها قصة؟ لا تكفي حكاية السجن ولكن هناك غرام أيضاً؟ لا يمكن الغرام ولكن هناك سجن؟ كان يجب أن يتوجّع كل شيء من بنت صفاء فاجأته حين عرف أنها تهتمّ بالسياسة. كانت تبدو قانعة بالدراسة والتفوق وقراءة كتب الأدب الفارغة مثل أمها. لم يلاحظ أبداً أنها تهتمّ بشيء آخر، لم يستطعها إثناء عن السياسة لكنه يشرح لها ما يجعلها تفهم قليلاً . وتحنّ أيضاً للأيام السوداء تكتب الرجل الذي لم يكره في حياته أحداً كما كرهه؟ وتدخل من أجله السجن رغم تحذيراته لها؟ صباح التبرير يا عم فرويد؟ هي تتحداه لا أكثر. تقرّد عليه . سيعرف كيف يعيدها عائلها . ولكن لماذا لا تتردّد أيضاً على أمها؟ لماذا لا تذكرها وهي التي تستحقّ بفضحها. على العموم لحسنحظتها هنا . عندما كلم صديقه الكبير في الداخلية بعد أن جاؤوا إلى البيت وقيضوا عليهما في الفجر قال له لا يهتم . قال إنه مجرد «قرصان» إنّ وإنهم سيفرجون عنها خلال أيام . ولكن أيّ سذاجة وفجأة يليقان تماماً بأفكارها السياسية؟ تحظّ بالنشرورات في القرفة اللوم! لو كان يمثل هذا الغباء أيام عمله في السياسة لظلّ في السجن حتى الآن! نعم، من حسن حظ لبني أنه هنا وأنه يستطيع أن يكلم أحداً في الداخلية وأن يطمئنّ عليها. عندما قبضوا عليه في أول أيام ثورتهم لم يستطع أحد أن يعرف حتى مكانه . والآن فإنّ الآنسة لبني تحنّ إلى هذه الحرية ! تحنّ إلى الرعيم الحال الذي لا يأتينا من وراءه إلا السجن حباً وعيناً! خالد قعلا!

- يادكتور أنا لا أفهمك ... أنا لا علاقة لي بهذا كله ، أنا لست زميلها في السياسة ولا أعرف أى شيء في السياسة...
ظلّ الدكتور شوكت صامتاً لفترة وهو ينظر نحو وجهه المحتقن ، ثم قال:
- إذن من تكون؟
- أنا زميلها في الكلية.

- وماذا تزيد الأن؟ لماذا جئت إلى هنا؟
تردد سالم لحظة ثم قال باندفاع:

- أريد أن أراها ، أريد أن أتعذر لها عن شيء حدث بالأمس ...
ظلّ الدكتور شوكت ينظر نحوه في دهشة ويفارق صير قبل أن يقول:
- تزبد أن تعتذر لها الآن وهي في السجن عن شيء حدث بالأمس؟ هل هذا
كلام عاقل؟ إذهب إلى مأمور السجن واطلب مقابلتها لتعذر «لماذا جئت إلى هنا»
- لأنّ أحبّها!

افتلت منه العبارة فانتبه الدكتور شوكت ، كان قد قرر أن يطرده ولكنه بدأ
ينظر نحوه بتركيز شديد متمنياً أن يكمل كلامه ... ولما وجده ساكتاً ومطرقاً قال:
- ما شاء الله؟ وهل جئت الآن لتخطبها؟

لم يتكلّم سالم ووقف أيام الدكتور ينقل كتاباً يحملها من يد إلى أخرى وقد بدأ
عرق ينتصد من جبينه وراح ينظر حوله دون تركيز ثم بدأ يلوح بيده بجوار آذنه
كماء لو كان يهirsch ذباباً . فقال الدكتور شوكت بنبرة أهداً ليشجعه على الكلام:

- ولبني .. هل هي تحبك؟
- هي تحب دادة سنينة؟
ضحك الدكتور شوكت شحنة عصبية بالرغم منه:
- إذن فاتت تعرّفها حقاً! انتظّر ... أنت؟ .. ما اسمك؟ تعال...

وما الذي تزدهد بالضيبي ؟ تزيد مع مجموعة من العيال أن يغروا التاريخ
فليعترف أنه كان ساذجا مثلها في شبابه . ولكن عقله عاد إليه منذ زمن طويلاً
أصحابه وزملاؤه الذين ظلوا يعيشون بالمبادئ لا يعترفون غير السجن والفقير .
يخرجون من السجون ليدخلوها من جديد . أما الفقر الوطني العام الذي كانوا
يحلمون بتغييره فمازال كما هو . هكذا كانت الدنيا وهكذا مروف
تبقى . لم يفهم هذا جيداً في شبابه . كان يصدق خرافية المساواة بين الناس .
ولكنه فكر كثيراً وهو في السجن واكتشف الحقيقة . الناس يتقاولون في الزكاء
ومن الطبيعي أن تقناوت قدرتهم فيما يحصلون عليه من الدنيا . بعد ذلك عندما
سافر للخارج أدرك في رحلاته أن الفقر موجود في كل مكان . في البلاد التي
ترفع الشعارات والبلاد التي تعيش بلا شعارات . الفقر هنا وهناك على السواء
والفرق في الدرجة لا أكثر . ومع ذلك فقد استقر هو نفسه يكرر الشعارات
القديمة للمرة حتى بعد أن ترك التنظيم . كانت هذه مانعه الاستمرارية تنتهي
بأفكارها المختلفة . لكنه كف عن ذلك مع الوقت أيضاً . بعد أن ركز كل جهده على
عمله . العاقل من يدرك أنه إذا استطاع أن ينفذ نفسه فيفعل .
لن ينفع فقراء العالم أن يضاف إليهم فقير آخر . ولكن الآنسة التي
وامضاتها يربين الآن أن يستمر الفقر للجميع . من حسن الحظ أنه لم يستمر
كل شيء في البلد . قد تستجيب الحكومة لظهورات هؤلاء العيال وتزعم المصالح من
جديد . من حسن الحظ أن لديه ميلاً لا يائس به في الخارج وأنه يرسل الدخرات
إلى هناك أولاً بذل . ولكن من يخاف ؟ لا يمس أحد المستفيدين . طالما يلقى
الإنسان فسيتفق الأمراض وستتحقق الحاجة للمستشفيات . ومع ذلك ياصاحب
الخارج أضمن !

نعم ، الخارج

ظل يتطلع قشرة إلى صورة لبني في إطارها على المكتب وقال هذه أحسن
فكرة !

ساقكم سيارة اللوا ، وأنظر عليه الفكرة . من السجن إلى المطار ! كف فاته
هذه الفكرة ؟ تبقى في السجن يومين ليرجع لها عقلها ويكون هو خالها مما قد اتفق
مع اللوا وأعد الجواز والتثبيط . وبعدها تذهب إلى إيطاليا وتقيم هناك مع عمتها .
ثم إن من يريد أن يدرس القانون عليه أن يدرس في إيطاليا . تدرس هناك
القانون الروماني . نعم ، الطبع في إنجلترا والقانون في إيطاليا هذا هو الصياغة
يصربي عصافورين بعدها عن لعب العيال في السياسة وفي الحب . لأن من هو
في النهاية هذا الأبله الذي يحبها ؟

ما الذي يدرسه أنه أبله ؟ قد يكون أحياناً ما يظهر عليه وربما يطبع في أوائل
لبن . في أوائل هو ! وشكراً بصراحة . جذاب قليلاً حقه . أكثر من ذلك قليلاً يا
دكتور ! هو جميل بالفعل . عندها ذوق لبني !

إن كان عندها ذوق لغيره فمثـر و لم ترث عن أمها التي تقع على الخنازير
 أصحاب الكروش . ولكن هل ورثت من أمها شيئاً آخر ؟ هل هذه الأشياء تورث
أيضاً ؟ أظن . هي لم ترث لحسن الحظ جسد أمها العيوني . بل ورثت عقلها
ذلك وجعلها يكاد يكون غلاماً . ولكن ما الذي يحتويه هذا الجسد وهذا العقل ؟ هل
شككت أنها لحظة واحدة في صفا ؟ اعتبرتها سازجة مذلة عرفتها في الكلية . وبعد
الزواج كانت تبدو متهمة طول الوقت في البيت وفي العيادة وفي القراءة النهمة
حتى في الفراش كانت تقرأ وتنام والكتاب في يدها . الهائم مثقفة ؟ لم يكن
سيعرف شيئاً أبداً لولا ذلك الطبيب الصديق الذي همس له . شتهـه وطرده لكنه
كان يجن . أراد مع ذلك أن يقطع الشك باليقين . عمل كالآفلام البوليسية . تابع
سيارتها بسيارته . رأها تدخل العمارة فانتظر قليلاً ثم دخل وزادها أرجاح بيده
البروب الذي جرى وراء ليقول له إن حدثني بك ليس في شقتـه . الخنزير كان
صديقه . لا ، بل مجرد معرفة . مع ذلك فلتـ سمع له بدخول بيته وبين ينـ عـ على

صفاء ، عندما فتح له الباب نظر إليه في ذهول وتمس في ارتياك : تفضل ..

تفضل يا دكتور .

تكلم بهدوء دون أن يدخل من الباب : قل لها إلا ترجع إلى البيت . ثم اتصرف .

ولكن هل هذا يكفي ؟ ألم يكن من الواجب أن يصره ويصرها بالرصاص مثل أولاد البلد ؟

ويضيف من أجل ساقطة وخنزير ؟ لا . هكذا أفضل للفضائح . بل ولا كلمة من أجل لبني ومن أجل نفسه أيضا تفوق ؟ ربما يقتلها صدق الخنزير نفسه ذات يوم . في راهية هي وهو ؟ لم تجادل بالطبع في مسألة حضانة لبني ولكن لم يستطع أن يمنعها من رؤيتها . كيف كان سبقو المسألة للبنين المطلقة ؟ كيف يستطيع أن يفسرها لها حتى الآن ؟ لم يستطع أيضا أن يمنع لبني من شتمها بهذه الدارة الملعونة . مجرد وجودها في البيت يذكره بمسأله الساقطة . أنها الآن ثلاثة عصافير ؟ لا ، بل أربعة ؟ شافر لبني . تبعد عن السياسة وعن هذا الولد وعن صفاء وعن الدارة . بعد سفرها تأخذ صفاء لو شات مذمة الدارة البنت وتريخه من بقائها في بيته .

نعم ، عملية ناجحة !

رجح سالم في المساء ، فرأى جده حalte أسوأ من البارحة ، وجهه الشاحب والنظرة المنقطة في عينيه وخطاء البطيئة وهو يقطع المسافة من باب الشقة إلى غرفته . سأله الباشكابن مشتفقاً : لماذا تأخرت يا ولدي ؟ أين كنت يا سالم ؟

فهز رأسه وغمض عينيه ثم يبيحه جده وهو يدخل إلى غرفته .

ظل الباشكابن متربدا أمام غرفة سالم بعد أن يلقى فيها فترة طويلة دون أن يند عنه صوت ولا حركة . وأخيرا طرق الباب برققة ثم دخل ليجد سالم مستلقيا على لمرأة بشباب الكمال وهو يحدق في السقف . تاداه وهو يهزه برفق فالتفت نحوه . نظر إلى جده لكنه لا يراه وقال بصوت عميق : رأيتم بعیني . كانوا يركبون الآتوبيس معن ويعشون في الشارع معن وصعدوا السلم معن ..

قال جده بطلق : من هم ؟

وأدرك سالم رفع إصبعه إلى سقف الغرفة وراح يدور بعينيه من العين إلى العين . ورفع الجد رأسه أيضا بصورة ثقانية وراح ينظر إلى حيث يشير حفيده وهو يغمض :

- لا يا سالم . بيتنا ظاهر لا تدخله الشياطين . أهذا يا ولدي ، لماذا لا تقوم الآن فنتوضأ ونشسل ما ركبتي ؟

أخذ يمسح بيده على رأس حفيده وهو يتو قى سره أدعية بينما كان سالم يضحك خشحشات خافتة متقطعة وهو يحمل رأسه ببطء من العين إلى العين وبالعكس يتابع حركة دور هناك . ثم نظر إلى جده وقال :

- أتعرف ؟ أنا لا يهمني ؟ أنا كشفتهم ؟ لا أخالف الأن منهم ...

قال الياسكاتب بلهجة مشجعة : بالطبع يا سالم أنت لا تخاف لأن لا يوجد ما تخاف منه .
فأكمل سالم دون أن يتحرك من مكانه : ياتون أحياناً كالآراجوزات وأحياناً يليسين فساتين وعساكر بوليس ومعاطف بيضاء، وأحياناً يكونون غزلاناً وخيولاً ولكن اكتفيهم حتى لو كانوا أشجاراً أو أحجاراً . يعرفون أشياء اكتشفهم ولهم لذة يتركوني اليوم لحظة ، وركبوا معى الأنابيب ويعملون ضجة كبيرة جداً ، حتى هنا .

هنا .
أشار ياصبيحة للسقف ثم أمسك رأسه يكلتا يديه ليشد آذنيه وهو يقول : لو
توقف هذه الصجة ، رأسي يوجعني ، يكاد يتضجر .. رأى جده جبجهة ينتدبي
بالعرق وعندما مسحه وجده عرقاً بارداً يقطب سالم على حضرة وراوح يرتعش
ارتفاعة هيبة ومنتظمة . وكان جفناه يرتعبان على قببينه المابلين وهو يقول
بصوت خافت متبع : لا تخف منهم يا جدي . في الصباح ستاتصرف معهم
ولكنني الان أريد أن أثأم .
نقال الجد : نعم يا سالم ، نم ، اهدا ، كل شئ سيتغير في الصباح ابشر ،
الله .

وكان يتكلّم وهو يضع يده على صدر سالم ويقتضي ملابسه لم تبدر عن
حفيده أى مقاومة ولم يجد أنه يشعر بما ينفعه جدًا .
لكن الباشكاتب تمنّ أخيراً لهي يناس : أين ذهب يا سالم ؟ رميته ؟ ضاع ؟ لا
تعرف أنت إن تركتك تركنا ؟
غير أن سالم كان قد أفلل عينيه وراح في النوم دون أن تدرك انتفاضة
الله .
جسده .

جلس الياسكيات وحيدة في المسالة المظلمة دون أن يضيّن المصباح دراً
يتسائل مهموماً ما الذي يحدث لهذه الأسرة؟ لماذا وقع سالم في هذه المحن
ولماذا لم تسعده فوزية في زواجهما ولماذا لا يفلح ابني في تجارةه؟
أن تكون الخلطة مرة أخرى غلطني أنا وحدي؟ قال شعبان ابن أفسوس
حياته ولكنه لم يشرح لي كيف أفسستها، ولكن فلبيك أني قصرت مع شعبان
فما هي غلطني مع فوزية وسالم؟ ما الذي كنت أستطيعه لفوزية مثلاً؟ لم أعرف
بسرها إلا بعد أن وقعت الفاتس في الرئيس فلماً كانت أملأ لها غير أن أحارو
النقاوا؟

كان يجب أن تعرف ! قبل أن تشجع على البداليات كان يجب أن تفهم أنك لا تستطيع أن ترسم النهايات . كان يجب أن تتصفح تماماً . أن تفهم من تجربة حيلات أنك لست أهلاً لأن تتضخغ غيرك بعد أن عجزت عن تضخغ نفسك . لكن خلقت على سالم أن يصبح مثل أبيه ! ما عبيه أبوه ؟ شعبان أفضل منه بكثير يا حضرة البشكـاتـب ! على الأقل هو لا يخفي أسراراً مشينة في حياته .

ثم يقول لك أبو خطوة إنك تكابر وإن المكافحة مستندك !

أى شئ إكابده أنا الآن سوى الكتاب ؟

حتى في شبابك لم أكن بهذا السوء . لم أكتب على الناس ولا على نفسك كنت أخطئ فاعتذر بذلك وأعزم في كل مرة على التوبة وعلى أن تكون هذه آخر مرة لكنني لا أتظاهر بالتقى ، لا أمام أبي ولا حتى أمام أبو خطوة . وعندما أحبيب سمية لم يكن هناك عش في حي لها ولم أختها ولا حتى يفكري . ولما وفدت وقتها وحياتي بعد ذلك لشعبان وأولاده لم يصرفني شئ . فكيف إذن قاد كل هذا الصدق إلى كذبة نازلى ؟

أعرف أنى لم أكن ملائكا في أي يوم . ظلت عمري كله أغمر بغير الدنيا وبغير للآخرة دون أن استقر على حال . ولكن لماذا نزليت إلى هذا الحال ؟ أخفى عن الجميع سرى مثل لعن يخفي ما سرق . لمن شهدت الراية نجح سيدن طوله ليس أن يخلف سرقة . عمر طويل آخر وأنا أكتب على الناس وعلى نفس . وتساءل بعد ذلك لماذا يحدث لسالم ولأسرتك ما يحدث ؟ لا يمكن لثلك بالطبع إلا أن يفسد حياة من حوله . شعبان على حق ! والآن تأخرت التوبة . وتأخرت شيئاً يا سيد توفيق .

اجتاحت الباشكتاب ، من جديد ، موجة من القذب على نفسه وقال لا . فمن هذه المرة إن لم يأت التغيير حالاً فهو الهلاك إلى الأبد . حالاً ! سمع الباشكتاب المفتاح يدور في الباب . وجين دخل شعبان وأضاء النور فوجي بوجود والده فقال في دهشة :

- لماذا تجلس في الظلام يا حضرة الباشكتاب ؟ مازا حدث ؟

نظر إلى والده نظرة مذينة وهو يعمتم - لاشـ - ، ولاحظ أن وجه شعبان مشرق على غير العادة . جاء فجلس قبالة والده وهو يقول :

- ١٥٦ -

- عندي أخبار جيدة يا حضرة الباشكتاب !

غير وجه توقيف المستفرق في أفكاره نظرة استفهام وهو يتطلع إلى شعبان الذي أكمل . كنت قد حدث حضرتك عن مطالبة الضرائب . الحمد لله استطعت أن أخلصها كثيراً جداً .

قال الباشكتاب وهو يرث عينيه : وكيف حدث ذلك يا شعبان ؟

بدا على شعبان بعض الإحراج وهو يتفادى نظرة والده قائلاً :

- لي صاحب في السوق يفهم في هذه الأشياء ساعدى على شوية المسألة .

- كيف ؟ نحن يا شعبان منذ أيام جدد المرحوم نسوى كل أمورنا بالأمانة

والقانون . وأعلم يا ولدي أنى لو اخترت طريقاً آخر لكان عندي بدل هذه العمارة التي بناها جدد عمارات كثيرة . بعض الموظفين كانوا يعتقدوننى ساذجاً أو أبله لأننى لم أصدّقنى إلى مليم خارج مربين ولهذا يبارك لنا الله فيما نملك ويعيش مستورين رغم كل شئ . فقلل إلى كيف سوى صاحبك هذه المسألة مع الضرائب ؟

ترأجع شعبان قليلاً في مقعده وقال : بالقانون طبعاً يا حضرة الباشكتاب . بالقانون زارجينا بما دفاتر الحسابات وخصينا من الإيرادات مصروفات لم تكن مخصوصة . بالقانون . ولكن كنت أريد رأى حضرتك في موضوع آخر . صاحبى هذا يتاجر في السجائر المستوردة ويريد أن لأجر له زاوية من محل ليبيع سجائره ستكلب فى شهر واحد من الإيجار أكثر من مكاسبنا الصالحة فى شهور . فما رأى حضرتك ؟

- وهذه السجائر مستوردة فعلًا أو مهرية ؟ إن تكون ..

ثم عدل الباشكتاب عن إكمال ما بدأ : وقال وهو يحك جببته : اسمع يا شعبان ! الفعل ما يدا لك . أنت تصلح وتعرف ربنا وأنت أدرى بمصلحتك . أنت أدرى مني . تنهى شعبان بارتياح وهو يقول : على خيرة الله !

أراد أن يقوم ولكن والده استيقاه بإشارة من بدء :

- مجلس يا شعبان . تمنت أن تكون عندي أنا أيضاً أخبار طيبة ولكن ..
بدأ القلق في وجه الآباء وهو ينظر إلى أبيه الذي كان من الواضح أنه لا يعرف
من أين يبدأ ، وأخيراً ، حكم الولد بكلمات موجزة حالة سالم والوساوس التي
حلت به وسأله في تلك "ما العمل؟" .

قال شعبان بلهجة محاباة وكأنه يخطي مسؤوليته :

- رأي من زمان أن هذا الولد غير طيعي وأنه يحتاج إلى علاج .

قال الباشكاتب دون افتتاح : فلستظر حتى الصباح ، قد ياذن الله بالفرج كما
حدث من قبل .

- كينا نشاء يا والدى .

ثم قام شعبان ودخل إلى غرفته .

ولكن في الصباح عندما وصلت لفوازية تحمل ابنها الرضيع لم يكن سالم قد
خرج من غرفته . ورأت جدما ، الذي ترك ثقته الثابتة دون حلاوة على غير عاليه
يجلس متهدلا على مقعد في الصالة . وقد بدا أنه شاخ فجأة . حكم لحبيبه
بعبارات متغيرة ما حدث لسالم . طرقت لفوازية باب غرفة أخيها برقق . ثم طرقت
بشدة فلم تسمع آى رد . ففتحت الباب بيد وهي تحمل ابنها باليد الأخرى . لم تبق
هناك طويلا .. صرخت وهي وجهها فزع وهي تمسك جدما :

- ما الذى جرى له ؟ كنه لا يعرفنى . كانه لا يعرف سلام ..

ثم قالت ودموعها تنساب دون إرادتها : انخل يا جدji وانظر بنفسك .

قام الباشكاتب بجرجر قدميه متربدا نحو غرفة حفيده . لم يكن يريد أن
يعرف ما الذى جرى . وحين دخل فاجأه منظر سالم وهو يجلس بكتاب الأسر
ويكتب بسرعة فائقة أشياء على ورقه فولسكاب وأمامه على المكتب أ��ام أخرى

من الورق وأجزاء ملكرة من جهاز الراديو الترانزistor . كانت هناك أيضاً أوراق
مبعثرة على الأرض فوق السرير . ورفع الجد ورقه من الأرض فوجدها ممزوجة
بازقام كثيرة ومعادات رياضية مكتوبة بخط صغير .

سأل الباشكاتب حفيده بهذه مبالغ فيه : ماذَا تفعل يا سالم ؟
نظر سالم إلى جده وعلى شفته ابتسامة غريبة وقال : أشكك أن انتهى .

- تفهـى مـا مـاذا يـا ولـى ؟

- من حساب النـذـيبـات ! هـم يـعـمـلـونـ ذـذـيبـاتـ فـيـ الجوـ وـيـحـدـثـونـ بـهـاـ هـذـهـ
الـضـجـةـ الشـدـيـدـةـ .

قال سالم وهو يضع يدا على أذنه دون أن يتوقف عن الكتابة : سأتوصل
بالصياغ المـوجـاتـ هـذـهـ النـذـيبـاتـ . هيـ مـعـادـلـةـ بـسيـطـةـ جداـ . سـينـ وـصـارـ لهمـ
أـيـنـ النـذـيبـ وـأـيـنـ الصـازـ ؟ عـدـمـاـ أـعـرـفـ سـيـسـكـتـونـ تـامـاـ . سـتـصـبـعـ أـفـهـاءـ
وـسـتـعـبـشـ فـيـ بـيـتـ كـبـيرـ لـأـنـ اـكـتـشـافـيـ سـيـرـيـعـ العـالـمـ مـنـهـ . لـنـ تـسـمـعـ لـهـمـ أـيـ
صـوتـ مـثـلـ هـذـاـ . هلـ تـسـمـعـ صـوـتـهـ ؟

وأشار سالم بيده إلى الأجزاء المبعثرة من جهاز الراديو الذي نكله إلى قطع
صغيرة .

وقفت فوازية بالباب وهي تحمل طفلها وقالت وهي صوتها أثر الكاءـ
- هل أكلت شيئاً يا سالم ؟

رد جده ثانية عنه : لا ، لم يأكل شيئاً منذ الأمس .

- سـاعـدـلـ كـوـيـاـ مـنـ الشـايـ وـأـيـ لـقـمـ .

فصاح سالم في لفسب : اخرجوا من فضلكم . أنتم تعطلونى ؟
وانكب ثانية على أوراقه ينبعش فيها بسرعة وعصبية ويلقط بين الحين والآخر
قطعة من بقايا الراديو يقربها من أذنه ويضمض باهتمام .

أن يعترض حتى لو أراد ، لأن المرة الأولى لزم هو أيضا الفراش دون أن تكون هناك وعكة برد أو أزمة معدة ، فاجأه وفاجات الأسرة إغماءة طويلة حلث به . وأمر الطبيب الذي استدعوه إلى البيت على عجل بأن يلزم الراحة التامة وينظم في العلاج . وبقي الباشكتاب رغمما منه أياما في الفراش لأن الدوار كان يعاوده كلما حاول التبرهن .

لهذا أيضا انحفلوا عن الباشكتاب خبر جلستي الكهرباء اللتين عالج بهما الطبيب الكبير حفيده .

كانت تلك أيام مولد السيدة زينب الذي اعتاد الباشكتاب أن يتبعها من شرفته ويشارك فيه بنفسه كل عام . في هذه المرة أجهزة المرض فكان يتبع بازته كل شئ لا يقدر في فراشه ويقاد بري الصور من خلال الأصوات . لاحظ الضجة وهي تزداد يوما بعد يوم مع وفود الآلاف الجديدة من الزوار من كل مكان والذين يعلم لهم احتلوا الآن كل الأوصاف في الميدان والشوارع المتفرعة منه وأنهم حفرو حتى جنينة البيت . ميررت أنت ، إلى جانب النداءات وصيحات المسبيبة وضجيج الميكروفونات ، تلك الوشوشة الجماعية الموحدة لآلاف الأصوات . تلك التقطة المهمة التي تتسوّج وجدها فوق كل الطينين بين مد وجزر ، والتي كان يسمّيها لنفسه «روح الأصوات» . يُتعرّف مع ذلك على كل التفاصيل المفردة في الفسحة الآتية من الطريق ومن الطعام والاكشاك المنصوبة في شارعه للمواود . يسمع صوت ربابه وإنشداد مداهين ، وقرقعات ينادق التنسين ، وأزيز (المراجيح) ، وندامات باعة الأطعمة ، وباعة العطور وباعة كتب الأدعية الدينية ، وخشكشة ميكروفون الساحر الذي يشتهر أنته بالانتشار إلى تصفين أمام أعين المترجين والدخول بقرش صاغ واحد . يقاد بraham جميعا ويلسمهم ولكنه يتضرر

- ١٦١ -

تبادل الباشكتاب النظر مع قوزية التي بدأت دموعها تسيل من جديد ، ثم خرجا من الغرفة . عاد الجد إلى مقعده في المصالحة بينما ثابت قوزية لتعمل الشاي .

في مساء اليوم نفسه ذهب شعبان لاستشارة الطبيب النفسي المشهور في باب اللوق .

ذهب بمفردته وبده يشرح للطبيب حالة ولده وحكاية العارلات والكلام الذي يقوله عن النبذيات والأصوات . قال له إنه لا يكاد الآن يتكل أو يتكلم .

سأله الطبيب : هل تعرضت أبكى لصدمة قبل أن تأتيه هذه الحالة ؟

- لست متذكر ، نستطيع أن نسأل جده ولكن على العموم هو ليس طبيعيا من زمان ، كما قد عرضناه على حضورتك قبل سوانح .

- تعم قرأت ملفه عندي قبل أن أقابلك . ولكن تلك الحالة لا تتثنى إلى هذه التصرفات . لابد وأن يكون أبكى قد تعرض لصدمة حدبة .

كرر شعبان : ربما ، سأسأل إن كان أحد في البيت يعرف كان الدكتور قد بدأ يكتب (روشتة) طويلة من الحقن والأنواع الأخرى وقال

شعبان :
- ستجد صعوبة في إعطائه هذه الأدوية . هم عادة يرفضون العلاج في هذه الحالة ولكن لابد منه . وعندما يهدأ قليلا أحضره لي لازاه . هذا علاج مؤقت وإذا لم يفع فقد ينطر إلى أشياء أقوى . ربما يحتاج حتى إلى الكهرباء . قد تعالج الصدمة بصدمة .

في هذه المرة لم يعترض الباشكتاب على شئ . لا على العلاج بالحقن ولا بالعقاقير ولا على عودة سالم إلى النوم الطويل بالليل والنهر . لم يكن يستطيع

- ١٦٠ -

الشخلين للفرجة على النجع بتردد الصلاة على النبي ودعا المدد من حقيبة الطاهرة ، ثم علت بعد ذلك من مكبر الصوت الموضوع فوق البيت آيات القرآن الكريم يتذمرون المقرونون الذين يختهون المصحف الشريف .

وفي المساء أصر شعبان على أن يرثى والده بذلك وعياته واصطحب سالم المخذل وهو يستنه من تحت إبطيه بينما يستند بيده الأخرى ذراع والده المعتمد على عصاه وصعد بهما معا إلى السطح . أجلسهما متاجوريين في الصف الأول في مقعدين كباريين مقطعين بالقماش ، إلى جوار الحاج إبراهيم المشلول الذي صعدوا به محمولا على المقد .

وكان المكان قد امتلا حتى آخره بالجيران من العماره ومن البيوت المجاورة الذين لم تكتفهم كل المقاعد فظل البعض واقفين . وكان شعبان يطوف على الموجودين وفي هذه فارورة عطر معدنية كبيرة ينشر منها على اكتافهم المبسوطة قطرات فيمسحون وجوههم وهم يدعون له . وكان غيره يطوف بالكواب ما معطر بالزفير يعود إلى إرساله الحاج مراعي العطار من شقته في الدور الرابع في أباريق ساحسة كبيرة .

وتناول الباشكتاب فرقة المنشدين كانوا خمسة يرتدون جلابيب صوفية رمادية اللون وعمائم . ويوضع كبيرهم شالا من حرير أبيض يتدلى من على كتفيه وتلف أمام الميكروفون واصطف الأربعة الآخرين خلفه ، وكان الباشكتاب يعرف من تجاريه أي مقاطع سيلتها وحده ، وأية آيات سترددها وراءه الفرقة . وارتاح قلبه عندما وجده جميل الصوت منه بدأ ينشد مع فرقته مدائح قصيرة لصاحبة المولد والمقام .

وأخيرا جاءت اللحظة التي انتظرها الجميع ، حين علت من فوق سطح البيت بعد انقطاع طويل أبيات البردة التي اعتنوا على سماعها منذ الصغر ، تقللها

مع ذلك في كل مساء ، في آخر الليل ، صوتا شجيا لا يخطئه أحدا رغم كل الضجيج ، يعبر من أنفه إلى قلبه على الفور وهو يكرر بذاته المنغم « وكلت على الله ربِّي وخالقِي ... » يمزج في سعنه باللغة الجماعية المتواترة كمحوج البحر وهو ينادي رحمة الرحمن ملجا المؤمن فيتم الباشكتاب الرائد في فراته « يا ربِّي ... » .

★★★

ولما جاء يوم المولد قرر شعبان أن يحتفل به كما كان جده السعدى يفعل وكما ظلل الباشكتاب بخيبه لستوات طويلة . فكر أن هذه هي الطريقة التي يمكن أن تعود بها البركة إلى البيت ويرفع بها الدعاء إلى الله ليشفي أبوه وأبيه . أراد أيضا أن يشكر الله على المال الذي بدأ يجرى في بيته من تجارة الزاوية لبيان السجائر وبعد أن راحت مبيعات الأقمشة هذه السنة زوار المولد . استأجر شعبان يومها عشرات من المقاعد الخيزران ورصها فوق السطح . وشارك السكان أيضا بإضافة مقاعد من بيوبتهم حتى امتلا المكان وشمل الجميع العسارة كلها ، فتنقشع كل واحد بما يقدر عليه . ركب حميد الكهربائي الميكروفونات ومكبرات الصوت . ووضع أنفر المصايد الملونة في مدخل البيت فوق لتساًء في النساء ، ونصب أبو عزوز النجار أعمدة خشبية فوق السطح وعلق فيها ثوباً من قماش الخيام المزخرف كأعلام مطبوعة لمجرد الزينة . وشاركت بنات البيت منذ الصباح بمسح السالم في أبوارهن ، واستطاع أبو زيد أن يكتس المدخل .

وفي الظهيرة ضحن شعبان بجعل كبير زوجه أمام باب البيت وزرع لحومه على زوار أم هاشم . وفي لحظة النجع هلل أبو زيد وكثير بصوته المرتعش متلما كان يفعل في الزمن القديم ، وارتفاعت أدعية أطفال البيت وأطفال الجيران - ١٦٢ -

احشائه وظوي». ويرى بعيتية معجزات العمار في هجرته «ظلوا الحمام وقطوا
العنكبوت على خير البرية لم تُمسِّج ولم تُسْخِم». ويسرى معه من «حرم إلى حرم»
كما سرى البدر في «داج من النظم». ويعيش أيام جهاده وغزواته «وسل حنيناً وسل
بدراً وسل أحداً». ثم يطّو صوته مع المشتدين ومع جيرانه:
يارب بالملصقين بلع مقاصدنا واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر الهوى لكل المسلمين بما يتلون في المسجد الأقصى وفي الحرمين
بجاه من بيته في طيبة حرمن واسعة قسم من أعظم القسم
ولم يعد الباشكتات الآن ينتبه إلى الدسوع التي غلط وجهه ووجوهاً كثيرة
حوله. وكان يقف على قدميه عندما أنهى الداخون البردة وهو يرفع يديه ويستو
الفاتحة معهم. وعاد شعبان إلى الظهور وهو يحمل مبخرة راح يطوحها أمام أبيه
وأمام سالم الذي كان يقطن وبخور، ثم بدأ يطوف بها بين صفوف المقادع وبين
الويران والوقارين وهو يصيح باعلى صوته «مداداً»! فيفمر المكان كله الهتاف
صل على التبر».

وكان قبل يتقى وأصوات الزحمة صاحبة في الطريق مثلاً كانت متى مطلع
النهار ، تغدو من هناك ومن فوق السطح أصوات التهليل والتكبير والدعا ، الصاحبة
ليلة الحبّيبيّة السيدة زينب ، السيدة الطاهرة ، أم حاشم ، بنت بنت النبي ، اخت
الحسن والحسين ، أم العواجز وجارة المنكر بن .

مكيرات الصوت للحنى كهـ . واغرورقت عيناً الياشكـاتب بالدـمـوع وـهـو يـسـعـ
الآبيـات الأولى التي يـهـنـزـ لها قـلـيـهـ :

أـمـنـ مـذـكـرـ جـيـرـانـ بـذـيـ سـلـمـ مـزـجـتـ دـمـعاـ جـرـيـ منـ مـلـقـتـ يـدـمـنـ ؟

لـوـلاـ الـهـوـيـ لـمـ تـرـقـ دـمـعاـ عـلـىـ طـلـلـ وـلـاـ أـرـقـتـ لـذـكـرـيـ الـبـاـنـ وـالـعـلـمـ

فـكـيـفـ تـنـكـرـ حـيـاـ بـعـدـ ماـ شـهـدـتـ بـهـ عـلـيـكـ عـنـدـولـ الدـمـسـعـ وـالـسـقـمـ ؟

وـكـانـتـ شـفـتاـ اليـاشـكـاتـبـ تـسـبـقـانـ المـشـدـيـنـ ، وـوـضـعـ وجـهـ بـيـنـ يـدـيـهـ مـخـافـةـ أـنـ

يـجـهـشـ بـالـبـيـكـاءـ وـهـوـ يـرـتـمـ فـيـ سـرـهـ .

مـحـضـتـيـ النـصـحـ لـكـ لـسـتـ أـسـمـعـ إـنـ المـحـبـ عـنـ العـدـالـ فـيـ صـمـمـ

فـانـ أـمـارـتـيـ بـالـسـوـءـ مـاـ اـعـنـظـتـ مـنـ جـهـلـاـ بـنـذـيرـ الشـيـبـ وـالـهـرـمـ

وـتـسـأـلـ اليـاشـكـاتـبـ هـلـ يـتـحدـثـ الـبـوـصـيـرـيـ عـنـ فـقـيـهـ أـوـعـنـهـ ؟ إـنـ يـكـنـ هـنـاكـ

مـنـ لـمـ يـرـدـعـهـ الشـيـبـ فـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـكـونـ ذـكـرـ الشـاعـرـ التـقـيـ وـأـيـهاـ هـوـ مـنـ هـنـاكـ

أـمـادـهـ وـقـلـتـ أـسـدـاهـ ، وـلـكـهـ اـنـتـيـ مـنـ خـواـطـرـهـ إـلـىـ المـشـدـيـنـ يـكـرـرـونـ مـرـةـ بـعـدـ مـرـةـ

محمد سيد الكوئين والشطرين
نبينا الامير الناهي فلا احد
لكل هنول من الاموال مفتاح
ازاح البشكاتب يده عن وجهه وبدأ يردد مع الجميع بصوت خافت مجده أول
الامر تلك الصراعة الواحدة للحبيب الذي ترجى شفاعته ، ثم نسي نفسه بعد ذلك
 تماماً ، وانطلق يتشدد في سره حيثياً متابعاً المداحين ، ويجهر حينما أختر مع
 الجميع وكان نقل السنين وثقل المرض قد ازاحا بالفعل عن كاهله وعدة مرة
 أخرى إلى شباثه وهو يردد أبيات البردة عن مولد المصطفى عليه السلام وعما
 قاساه في حياته وأثناء دعوه ، وقد اشتكت قدماء من ورم وشد من سعف

القسم الثالث
(الباحثات)

jilas.com/vb3
ola_mfs

يقول إنه لا يثق في هذه النتائج أبداً ولا يمكنه الاعتماد عليها في كتابة العلاج. فيضطر الباشكاتب إلى إعادة التحليل في المعامل الفالية، ولم يعد يستطيع، حتى لو أراد، أن يدفع لفورية ما كان يعطيه لها من قبل، لكنه على الأقل لم يطالب فراج أبداً بسداد ما اعتبره ديناً عليه، وكف فراج أيضاً عن الاعتذار لعدم سداد هذا الدين.

ما كانت تشغله الباشكاتب قبل كل شيء آخر في هذه الأيام هي حالة سالم، ظل مرضه على حاله رغم العقاقير المنومة والمخدرة، وكان «براهم» كلما أفاق ويشير إلى أبيه أو أخته طالباً بصوت مجده إيعادهم عنه، اعتادوا أن يأتوا إليه في معظم الوقت في معاطف بيضاء، وأن يحدوهما ضحيجاً يسبب له مداعماً مؤلماً فيسيد أذنه بكتفه، ويقصر جبيته دون جدوى، لكنه كف بعد العلاج عن محاولة اكتشاف العيادات التي ستطردهم ثم انقطع ظهورهم تماماً بعد جلستي الصدمات الكهربائية، طرد هاتان الجليستان الأشباح الماكوفة واستبدلها بهما أشباحاً أشد شراسة، إذ ظل سالم يقوم مفترضاً في الليل وبصيص صيحات أقرب إلى العرو، وهو يلوح بيديه محاولاً أن يطرد الخلفاني والصقرور التي تتنفس على رأسه وتنهشه.

بكث فوريّة وهي تقبل يدها خارعة إليه، مرة أخرى، أن يرحم أحاجاً من هذا العذاب - سائله هل يمكن أن يحدث لسالم ضرر أكبر مما هو فيه الآن لو تركوه دون علاج؟

أراد شعبان أن يستمر مع ذلك حتى تنتهي الجلسات التي حددتها الطبيب لتظهر النتيجة، لكن الباشكاتب الذي غادر فراشه بمجرد أن عاد له شيء من نشاطه، فزع عندما رأى حالة حفيده، لم يستطع أن يأمر شعبان كما فعل من قبل بأن يوقف العلاج على الفور، اكتفى مثل فوريّة بالإشارة إلى ما جرى لحفيده

عرف الباشكاتب متى بدأت عملية ترميم البيت لكنه لم يعرف أبداً متى سنتهي.

اصر المقاول على الحصول على الجزء الأكبر من أتعابه مقدماً لشراء المواد وانتقل على إناء العمل في خلال شهر أو شهرين على الأكثر، لكن شهوراً كثيرة مضت وبمانع كبيرة أخرى ضاعت دون أن يحدث شيء، إذ فجأة يختفي المقاول وعماله بعد أن يتركوا البيت مصلوباً بالأعمدة الخشبية ومن حوله أكياس المغير والأسمنت وأسياخ الحديد، وتحفي قدماً الباشكاتب وزانه برقلاً يرجع إلا بعد أن ينقضى مبلغاً جديداً غير الذي اتفقا عليه، ويداً آلة لن يشهي إلا مع انتهاء آخر فرش يملأه صاحب البيت..

وفي هذه اللحظة اضطر الباشكاتب أيضاً إلى استشارة أكثر من طفل بعد أن تكررت ثوبات الدوار وأصابة هزال مفاجئ، كان الطبيب الذي زاره بعد إقامة الأولي قد أثبته وسأله كيف سكت على نفسه حتى ارتفع ضغط دمه إلى هذا الحد وأضطررت نبضات قلبه؟ ومع أنه التزم بالعلاج الذي وصفه له الطبيب حتى استطاع أن يقف على قدميه، إلا أنه بدا بعد ذلك يفقد الكثير من وزنه بالتدريج فانتقض أنه أصبح يمرض السكري، أصبح من الضروري أن يعالج بحقن يومية وأن يتعاطي أدوية كثيرة أخرى، وبالكلاد كان المعاش والإيراد الضئيل الذي يائى من أرض سمية يكتفيان لسداد أثمان هذه الأدوية ولزيارات الطبيب الكبير الدورية، والتحليلات المستمرة التي يطلبها في معامل يحددها بنفسه، كان يغضب إذا ما أجرى الباشكاتب التحليل في مستوصف شعبي أو في معامل رخيصة.

كانت تلازم أخاها ليل نهار، تعلمه بيدها القيميات القليلة التي يقبلها مثلاً اعتناد أن تفعل وهو صغير، تأخذه في حضنها وتهدهد عنهما تهجم عليه الوحش التي تنبع رأسه، تلتف حكايات كثيرة وتحكيمها سلوك الذي كان يتعلم المشي دون أن تفارق عندها أخاه الرائد في الفراش. إن لاحظت أنه قد شرد أو كف عن متابعتها تبدأ في اختراع شئ جديد لتبيّنه صاحبها ومستحبها، وصارحت جدها بأنها تدعى لأبيها، أنها تعطى السالم الألوية في مواعيدها لكنها في الحقيقة تستقيه بدلًا منها البنسون أو التيليو، ولم تلاحظ أى فرق يحدث في حالته حين تعطيه الألوية أو حسن شمعها.

لذا الباشكات بعد أن سمع ذلك إلى الحاج مرعي العطار، ذهب إلى جاره في
دكانه القريب الذي تفوق منه من بعيد رونان البخور والأعشاب والمكتوب على
واجهة مكتبه سنة ١٩٢٦م . كان يشبه والده الراحل صديق الباشكات في كل
شيء، يرسم على وجهه تعبرير الجد والانشغال طول الوقت، ويلبس مثله الجلباب
البلدي وطربوشًا تقليقاً ومكميناً باستمرار، وكان ذلك يحير الباشكات بسبب
الظروف محلات كثي العرابيش من الحى ومن البلد . استقبله مرعي بترحيب كبير
وأدخله مكتبه الواقع في عمق محله الواسع الذى وجده الباشكات مزدحماً
بإكdas من الكتب القديمة المجلدة، وفوارير زجاجية صغيرة مرصوصة فوق
أرائك خنافسها تضم الأعشاب الشائنة.

وقدماً عرف مرعى ما يطلب الباشكارات تحول تعبير وجهه الجاد إلى ما يشبه الصراوة وهو يسألها بدقه أدهشته عن كل تفاصيل حاله سالم. ما الذي يحدث له بالضيغط في ثوبه وفي قطفته، وهل يستقر الطعام في بطنه أو يرجعه، وهل ترتفع درجة حرارته أحياناً؟ سال أيضاً عن لون البيول وما إذا كان يشعر بجفاف في الحلق، وهل يسبيل لعابه حين شائئه الحالة؟ وما هي، بلا مأخذة، حالة «الطبعية»، هذه؟ كم مرة؟ وهل تميل إلى الإمساك أو العكس؟

قال اليشكابط لولده متناظراً بالهدوء: يا شعبان، هذا الولد سيموت لو استمر على هذا الحال. لنعطيه على الأقل فترة راحة من الجلسات، فلابد سأتم حالي أكثر يمكننا أن نفكّر فيها من جديد.

رد شعبان على والده بهدوء، أيضاً لم يخل من ثيجة تأثيب: ربما يا حضرة الياشكاب لوكنا أكملنا علاجه من البداية لما اضطربتنا الأن إلى هذه المصعدات - معلم حق يا شعبان، أنا كل ما أهليبه الأن معلم هوا فترة راحة لسالم نرجع

بعدها إلى هذه الجلسات إن شئت.

الله ما الذي فعله ذاير تجاهي هذه..؟..
أوشك الباشكتاب أن يقول: لهذا هو ما يشغلك يا شعبان؟ حالته مهالما كانت
أن تقضى على..، تكاد حتى الآن أن تقضى على وأنت تحسبها بالتكلف..، أليس
ذلك..؟.. لكن لا..؟.. لكن لا..؟.. لكن لا..؟.. لكن لا..؟.. لكن لا..؟..

يدور في قلب شعبان أو في عقله؟
الم تتفق على أنك لست أهلاً لتحكم عليه أو على غيره؟ تواضع؟ تواضع؟ ثم
أنت تجزئ على أن تلوم شعبان؟ هل هو السبب فيما حل بسالم أم أنت؟ من الذي
يشجعه من الأصل؟

قال الباشكاب بلهجة كثيرة لا تشبه لهجته في شيء لا تقلق يا ولدي سينجو
سالم من هذه الأزمة باذن الله
طافت بذلك لحظتها نبوة أبو خطورة القامضة لحفيده فيبحث عن الحجاب

وأعاد تعليقه من جديد في صدره، لكن فوزية دفعته إلى التفكير في شئ آخر.

ابتسم الياشكانت وهو يقول: لا أعرف يا حاج مرعى إيجابيات كل هذه الأسئلة، حتى الطبيب لا يسأل عن كل هذه التفاصيل! أزاح مرعى طريوشة قليلاً إلى الخلف وقال دون أن يبتسّم: ما لدينا يا حضرة الياشكانت هو أبو الطيب، ليتك جئت لي منذ البدء! أراد الياشكانت أن يداعمه «خفها حية» لكنه فُسرَ على الفور أن مرعى ليس من النوع الذي يقبل المراح، فتهضم وهو يقول: - ناتك ساجدة لك! أسلئتك إن شاء الله.

قام مرمي بيوره وهو يضيئ ملربوشة فوق رأسه فاندلا. في أسرع وقت! كانت فزوعة تعرف كل الأجوة التي يطلبها العطار دونها الياشكائب في ورقة عاد بها إلى مرمي الذي راجعوا يكل لقة ثم طلب من الياشكائب أن يعطيه مهلة يومين بالضبط. وعندما ذهب في الموعد كان العطار قد أتم الوعاء أكياس تضم أعشاباً مختلفة مكتوب عليها خط رقعة باللغة الجمال وبالقلم البسيط إرشادات مفصلة «ينتع في المساء ويشرب بارداً على الريق...» يعلق جيداً ويشرب ساخنا أربع مرات في اليوم... «قبل النوم بساعة»، ملعقة صغيرة سفوف بعد الأكل... وعندما مد الياشكائب يده ليأخذ الأكياس سحبها مرمي بشيء من الترد وهو يقول: سهرت ليالين يا حضرة الياشكائب ورجعت إلى كل ما عندي من الكتب لأنك غال عذنا، الشافعي هو الله، ولكن إن أعطيت سالم هذه الأعشاب فيجب الآيات معها أي دواء آخر. وأرجوك أن تخبرني كيف تتطور حالته لأننا قد نغير بعض الجرعات أو الأعشاب وقد تتغيفها كلها إن لم تنفع. الشي الوحيد الذي يمكنني أن قوله لك باطمئنان انه سيسترد شهيته إن شاء الله..

وأخيراً أطعاه الأكياس في حرص شديد وهو يقول: وذكره يا حضرة
الياشكاتي بالدعاء، وذكرتني معه، وربنا يقبل بحاجة المست..
فقال، اليشكات وهو يتناول الأكياس بالحرص نفسه: أمين.

حفيده، أخذت الوحوش تتسلب التدريب، وبدأ سالم يعود ببطء، من العالم الذي غاب فيه طويلاً. يتحدث أحياناً بجمل قصيرة إلى جده والي فوزية، ويطلب الطعام بنفسه، ويوم تعرف على سلوك الصغير وبدأ يداعبه فهمست فوزية لجدها بثمرة قاتلة «أرأيت البركة في عم مراع؟»، فقال جدها وهو يقبل رأسها «وفيك أنت يا فوزية!».

يقيت بعد ذلك فقط حين رجع لهم سالم تلك النظرة المطلقة في عينيه وبسمة ثانية على شفتيه وعاد إلى صمته الطويل، غير أن ذلك كان شيئاً الفوه منذ زمن طويلاً.

وكان الباشكاب قد فعل شيئاً آخر يوم ذهب إلى الجامعة بعثاً عن ليبني.. إذ قدم شهادة مرخصة لإعفاء سالم من الامتحان في هذه السنة، لم تكن حالته تسمح بذلك ولكن في السنة التالية كانت هذه الحالة تسمح بأن ينزل سالم للعمل..

★★★

ويسلياً كان الباشكاب يتبع مع فوزية حالة سالم وجد الوقت أيضاً ليفعل شيئاً آخر مؤجلة، كان عزمه قد استقر منذ ليلة المولد، حلث به ليلتها سكينة افتقدوها طويلاً وهو يتصهر مع جبرانه في تلك الليلة من المحبة الخالصة، لم يكن يردد أحياناً من الشعر ويسمعها فحسب، ولكنه كان يسترد عافية نفسه، في أول خميس استطاع فيه الخروج ذهب للقاء، نازلى وجلاساً معاً كصديقين غاباً عن بعضهما لفترة، أعلمه تاراً نصائح بشأن صحته وزروته باسم الطبيب الكبير الذي أصبح بعد ذلك يتابع حالته، قال بلهجة جازمة: - هو أحسن طبيب في البلد فاسمع كلامه يا توفيق.. وحاسب على نفسك، لم تعد صغيراً!.

حفيده بني شكل، ولو عن طريق رسالة أو زيارة، ذكر الدكتور شوكت كل شيء عن الشاب الذي زاره يوم سجلت ليبني وقال لنفسه يجب أن تضع نهاية حاسمة لهذه الحكاية.

قال بلهجة الرخوة مخاطباً الباشكاب: تساندي إن كان يمكنني مساعدة حفيديك يمكنني بالطبع، أتصفح بيان تضمنه في مصحة للأمراض النفسية أو العقلية ثم لا تجعلني أراه أو أسمع عنه أو عنك بعد اليوم! ليس عندي وقت لهذا العبث.

قال الباشكاب في ذهول: على أيامك كما تكلم من هم أكبر مما سنا بطريقة مختلفة، أنا في سن والدك يا دكتور؟

قال شوكت وهو ينهمك: أنت لست مثل والدى، ولدى كاتى يعرف.. استنشاط الباشكاب غضباً وهو يقول: أحمر الله أهلى سموبل والدك على الأقل أنا استطعت أن أربى أولادى!

واستدار خارجاً وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف وقال شوكت لنفسه يذهب أن يهتز، أظن أنتا غرفنا من هذه المسألة، تهانينا!

غير أن سالم لم يعد بحاجة إلى المستشفى التي تصح بها الدكتور شوكت، استرد شهيتها بالفعل كما تنبأ الحاج مراع وأصبح الطعام يستقر في بطنه، وشيئاً فشيئاً أخذ يستعيد بعض الوزن فقده وأصبح نومه أهداً مما كان، ظلل مراع يمر على بيت الباشكاب كل يوم تقريباً في منزله وصعوره، يسأل عنتطور الحالة، وغير أحياناً خلطة الأعشاب معتمداً الصراخ مع الوحوش التي تشتبث برأس سالم معركة تخمسه هو بالذات، وإن ظل يتعثب على الباشكاب، برونته المعمودة: لو جتنى منذ البدء يا والدى لما استغرق العلاج كل هذا الوقت؟

وكان الباشكاب يبالغ في الاعتذار عن هذا التقصير، مجاملة لمراع في بعض الأحيان، وصادقاً في أحياناً أخرى حين لاحظ التحسن الذي بدأ يطرأ على حالة

وكان «شروطها» بسيطة هذه المرة، أن يتم الطلاق كتابياً أيضاً وأمام شهود وأن يسجل فيه أنه ليس لاي منهما حقوق لدى الآخر.

لم يملك الباشكابات نفسه فقال ضاحكاً: يا نازلى هاتم هذا ليس طلاقاً، هذا رد كبياباً ومحالصة؛

فرد دون أن تضحك: لصلحتك ومصلحتي يا توفيق.

وبعد أن اتفقا على موعد الطلاق والشهود، قالت نازلى وهي تنظر حولها:

- على فكرة، يمكنك أن تطلب «خلوا»، كييرا لهذه الشقة، الموقع مطلوب.

ستسرد الإيجار الذي دفعته طول هذه السنين، وربما أكثر.

جال الباشكابات بشرارة في الشقة ولم يرد، ظل ينظر إلى نازلى وهو يذكر: هل يعقل العرض المكتيد على الحال الأزواج أم أن الأزواج لم يتبنوا من الأصل هي التي تتکالب على المال بهذا الحرص؟ وهل موات الأزواج يعدي؟.. لا، هي لم تفرض نفسها على بل أنها التي سعيت وراءها، فهل تتاجر الأزواج عن عدم كما تتاجر الأحساء؟ ولماذا؟ كأنى كنت أبحث عنها لكن أهرب في الوقت ومن الوقت، ألم أسمع من أبو خطوة أن العاقل من يصر على الأوقات لا الذي شر به الأوقات؟ من يحکمها لا من تحكمه؟ وأنا لم تمر بي الأوقات فحسب، بل تركتها تزحف بي عمراً انسعى أصاده وانعدمت أمداته، حتى أعدادي الوجيهة لم تكون في الحق وجيهة، لقت لن أنا فوق - سأنتظر لا أشتفي الدنيا لا توجه بعده تقبا خالساً، ولكن كيف توقيع أن يائى هذا النقاء؟ لماذا لم تكن تصبر أبداً على ظلم جسدك واستطلاع صدرك على ظلم روحك؟ ولماذا مثلاً لا تظلم روح نازلى؟ وهل هي تعرف أصلاً أن هناك ظلم للروح؟

وكان هو يعرف أنه قد أصبح كبيراً جداً في السنين الأخيرتين ظل يحافظ على موعد الخميس بحكم العادة لا أكثر، واعتماداً أن يقضى الوقت في الترثة عن قصایداً ومشاكلتها مع المحامين ومع أبنائهما. فإذا جاء العشق بعد ذلك أو قبله، ثم يصغوية وفتور، لا شيء فيه من حرارة الزمن القديم، كاد لفترة الخميس أن يقتصر على الترثة حتى لو كانت لدى الباشكابات الرغبة، وحتى لو توافرت القدرة التي أصبحت تزداد صغرية أسبوعاً بعد الآخر.

لزم الباشكابات المصمت فترة وهو يتأمل وجه نازلى الذي أجرت له عملية شد جلد فأصبحت عيناه الخضراءان الصغيرتان كخنزيرين لا تطرمان، ثم قال بهدوء وهو يبتسم:

- وما رأيك يا بنت الناس...
لم يكمل كلامه لكن نازلى قالت بلهفة: عمرك أطول من عمري

- أنت تعرفي ما كنت أريد أن أقوله؟
فايُبَشِّمْتَ وعادت تتكلم بنبرتها الباردة الهاستة:
طبعاً يا توفيق! من مدة أعرف أنك تريد أن تقولها.. وأنا أيضاً..

ثم هزت رأسها وقالت باسفة أصبحنا عجوزينا
ورجعت تبتسّم وهي تخضع يدها فوق يده: ولكن لي شروطني
فاجاءه ردها بالفعل، كان قد فكر قبلها كثيراً كيف يصارحها.. شعر يكتئب من الإيجار والارتباط مخالفة أن يخرج مشاعرها بعد «عشرة» هذه السنين الطويلة، لكن نازلى أنهت المسألة بكلمتين وايتسامة. لم ير في وجهها أى حزن حقيقي، تصرفت كأنها ستفرق عن شخص قابلته بالصادفة. ليست غلطتها على أى حال

توقف يا حضرة الباشكابي! ها هو ضلال آخر! هل اكتشفت نازلى الان فجأة؟ قد تكون أفضل منك على الأقل هي لم تفعل شيئاً معتقد في قرارة نفسها أنه خطأ، ألم تصمم هي على أن يكون هناك زواج واشهار؟ إن كنت أنت تطمع في الرحمة رغم كل خطاياك فلماذا نفسن بها على نازلى؟ لا، إن أردت أن أطوي هذه الصفحة فيجب ألا تلوم نازلى على شيء، أبداً، بل ربما كان يجب أن أطلب منها الصفع.

ساخته نازلى حين طال صمتها:

- لماذا تنظر إلى كائناً لا تراني؟ فيم تفكير يا توفيق؟

فقال بهدوء: في الطلاق.

عندما كان عاطف - أو سلوم - في الرابعة من عمره تقريراً رجعت فوزية إلى بيت الأسرة بصحبة ولدها . لم تكن تلك هي المرة الأولى في الفترة الأخيرة . تكرر مجيئهما وبياتهما ليلة أو ليلتين أو أكثر ، في اليد ، كانت تقول إنها اشتاقت لهم أو إنها تزيد أن تزعم « رجالها ، قليلاً لأنها لا تطمئن تماماً إلى عمل الشفالة التي أصبحت تناصي مرة واحدة كل أسبوع . ولكن فوزية لم تكن ترجع إلى بيتهما إلا بعد أن يأتى فراج لاصطحابها . وفهم الجميع ما يجري دون حاجة إلى كلام ، ولكنهم سكتوا لأن فوزية لم تستأذن تقول شيئاً .

كان فراج يائماً في العادة متوجهها ، يجلس فترة مع الجد ، ومع شعبان أو سالم إن كان أحدهما موجوداً ، بينما تخنقني فوزية في غرفتها ، في تلك الأحوال يجلس محرقاً ويزم الصمت معظم الوقت مكتفياً بتبادل التحيات والجمالات ، وأحياناً يشكو من ظروف العمل . يقول إن كل « الشغل » فوق رأسه ولكن لا أحد يقدر . وإن من يحصلون على المكافآت والعلاوات هم محاسبين رئيس مجلس الإدارة الذين « يعطّلون الإنتاج » لأنهم لا يغطّلون شيئاً للشركة ويقومون بأعمال خارجها . ساخته الباشكابي مرة كيـف يـغطّـون ذـاك وـهـو مـنـوع بـحـكم قـوانـين الـعـمل؛ فـتـنـظـر فـراجـ تـحـورـهـ يـاشـفـاقـ وـشـرـحـ لهـ أـنـ الدـنـيـاـ تـقـيـرـتـ ، وـأـنـ هـؤـلـاءـ الـمـوـظـفـينـ يـدـبـرـونـ أـمـرـهـمـ . يـدـفـعـونـ «ـالـعـلـوـمـ»ـ وـيـقـدـمـونـ الـهـدـيـاـيـاـ الرـؤـسـاءـ لـيـسـمـحـوـاـ لـهـمـ بـالـتـفـرـغـ لـأـعـالـمـ الـخـارـجـيـةـ وـإـرـسـالـهـمـ أـيـضاـ فـيـ إـعـارـاتـ لـبـلـادـ الـعـرـبـيـةـ . وـاعـتـادـواـ أـنـ يـتـرـكـواـ فـراجـ يـتـكـمـ أـوـ يـصـمـ كـمـ يـشـاءـ وـهـمـ يـعـرـفـونـ كـيـفـ سـيـتـهـيـ ذـاكـ كـهـ . فـيـعـدـ أـنـ يـشـرـبـ الشـايـ يـسـأـلـ «ـأـيـنـ فـرـوـزـيـةـ؟ـ وـيـنـادـيـ عـلـيـهـاـ جـدـهـاـ أـوـ يـخـرـجـ أـخـوـهـاـ أـوـ

تعليمات المدير التي يزجر بها زملاءه طول الوقت للتزام الصمت الكامل والتذكر على العمل لهذا أنها سالم وحده من الطرد خلال ستة أشهر . على عكس بقية زملائه الذين التحقوا معه بالعمل في وقت واحد . لم يكن المدير يحب التعامل مع مكتب العمل ، ولكنه أدرك حاجته إلى سالم الذي بدا أيضاً أنه لا يعرف أي شيء عن هذا المكتب .

كانت المسالمة قريبة من البيت إلى المطعم مما وفر مصاريف المواصلات ولم يكن سالم يدخن أو يحتاج إلى صرف أي نقود فاعتاد أن يساهم بمرباته كه تقريباً في البيت . بعد أن يقطع جزءاً من هذا المرتب الصغير يعطيه لفروزية .

حکت له أخته بعد شفافه كل شيء عن حمومتها مع فراج - قالت له إنه كلما سات حالت في العمل بسبب مكانه زملاء الذين يلقون عليه عبء العمل كله ليحصلون على العائدات والمكافآت . كلما تذكر عليها عيشتها في البيت . قالت إنها طلبت من فراج أن يمسك بنفسه مصروف البيت ليرى كيف يمكن تدبير العبة بالذات حتى آخر الشهر قرر بأن هذا «شفل المستات» ، أمّة اعتادت أن تكبر بيها وتؤثر مصاريف تعليمه بأقل من المبلغ الذي يعطيه لها .

وصارحت فروزية أخاهما بمخاوفها ، هي تعتقد أن فراج يفتعل كل هذه المشاجرات لأن يريد أن يتزوج من موظفة لها مرتب . لم يعد مرباته وحده يكره للمعيشة . وبعد أن كان متشدداً في أن زوجته يجب أن تبقى في البيت ل التربية الأولاد أصبح يغيرها باذ شهادتها الإعدادية لا تنفع لأن تشتمل في أي وظيفة .

قالت لأخيها في مرارة : بدلاً من أن يشد حبله ويبحث عن عمل على تأكير بعد النهر أو أي شغل إضافي مثل شفط ومثل بقية خلق الله فهو يدفن نفسه ليل نهار في الوظيفة (الهياكل) ويعبرني يأتي لا أعمل ..

ابوها لاستدعائهما ، فتلقى وتفقد بباب الغرفة مطرقة وهي تشبك يديها أمام حجرها أو وهي تدفع أمامها طفلها الصغير الذي يجري نحو حضن أبيه في ضجة كبيرة ي مجرد أن يراه ، ويقول فراج عابسا دون أن ينظر نحوها كلمة واحدة «ليس» .

ويع أن فروزية لم تحدث أحداً عن أسباب خلافاتها مع زوجها فقد كان مفهوماً أن مربته لم يعد يكفي مصاريف البيت حتى منتصف الشهر . وأن الديون التي تراكته عليه كانت سبباً مستمراً في انهاء زوجته بالإسراف وعدم التدبير . كانت في كل مرة تحسبيها له بالورقة والقطم وهي تبكي . ولم يكن يقتضي وفني هذه المرة طال يقا ، فروزية مع ابنتها في البيت . لم يأت فراج لاصطحابها بعد يومين أو ثلاثة ولا أسبوعين أو ثلاثة . ولم يذكر هنا ذلك وإنما جعلها من يستطعم مساعدتها .

اعتقد (شعبان) أن المبلغ الكبير الذي حصل عليه مقابل تاجر الزاوية لبانع السجائر سيكتفى إلى جانب القليل الذي يدره محل القماش ليسعى لحياة مجهولة وتنقل كثيراً ما اعتقد بإمكانه عودة أيام الرخاء القديم . غير أنه اكتشف بعد قليل أن الفداء يسبق أي مبلغ يمكن له تعبيره ، وبعد أن ضاعت مدخرات الباشكتات وأصبح ذهنه يكتفى بالكاد لعلاجـه . نشأت مشكلة حقيقة في تغطية مصاريف البيت . وهكذا لقد اضطر أن يجد وظيفة لسالم في مطعم أمريكي للدجاج لمنع بالقرب من ميدان السيدة بعد شهر من شفافه .

عمل سالم كاتب حسابات في المطعم ، وأعفاء هذا من ليس الطلاقية البيضاء المنقوفة التي يلبسها بقية زملائه مع سترة زرقـاء ، إذ كان يعمل في ركن داخل المطعم صغير ، يكتفى بالضيـط مقعده والمكتب الذي يشتغل عليه ، وارتفاع إليه مدير المطعم كثيراً . كانت حساباته في غاية الدقة والأمانة ، كما أنه لم يكن بحاجة إلى

اعتماد أن يصحو في النجر ليصل إلى ثم يقضى بعد ذلك وقتا طويلا في قراءة الكتب . كان يقرأها بتركيز وتنعم حتى كاد أن يحفظها كلها ، لم يترك وصية من وصايتها في العبادة أو السلوك إلا ونقذها بكل دقة . أدرك أنه يطلب شيئا كبيرا . يهون في سبيل كل ما يبذل ، وسلم بأنه أيا كان ما يبذله الآن فهو قليل بعد أن بدء عمره في التراخي والمعاصي ولكن صديقه قال له يوما إنه حتى المخصية تستغفر لصاحبها إن أتى طانعا وغضبا . فهل يقبل منه بعد كل ما سلف؟ ثم ما هو ذلك الذي يطلب بالضبط؟ ماهي تلك البشرى الموعودة؟ إلا يكفي أن يطلب من رب المفقرة؟ يكفي ويزيد . يل هي في حالي فضل ونعمه من الله . وفك ساخرًا من نفسه: ألم تزد حظا يا توفيق يا ابن السعدى بعد كل ما فعلت في حياتك أن تكون مثل الأولياء، الصالحين؟ ولكن لا بد مع ذلك من حكمة في تشخيص تلك البشرى الغامضة التي حدثنا عنها صديقه . الحكمة هي أن تتواضع! أن تتعلم ما قاله لك «أن تزيد إلا تزيد» ولكن كيف؟

كان مجلس ممكنا بعضاه بيده الآشين ومستندًا عليهما يدقق وهو يتطلع إلى المحيط . سرح بذكره وهو ينظر إلى السبيل المغلق الذي يواجهه وابتسم لنفسه لأن ظل طول عمره يحاول قراءة أبيات الشعر الطبوسية المحفورة في أعلى واجهة السبيل دون أن يتنجح ! استطاع بعد جهد على مر السنين أن يجعل البيت الأول «سبيل الله يا عطشان فأشرب» . هنئنا صافيا بشفف العليلاء . لكنه توقف بعد مطلع البيت الثاني «أنا ظمان فارون...» وظل ما يعدد حروفها مبعثرة كالطلاسم . لكنه يجب النظر إلى هذا السبيل . يتخيل زمانا لم يكن فيه هذا البناء، المهجور الرمادي اللون وكانت تحف بنيات الشعر على الواجهة الزخارف من أفرع أوراق الشجر وتشكيلات الزهور والتقوش الملونة كلها تحبس كل قائد للسبيل .

أصبح سالم ، بعد العلاج ، يحسن الاستماع دون أي تعليق . تتساعد صحته القديم وأصبح يتحقق بتركيز قيم يحده فيعتقد أنه يصنف إلى كل حرف . لهذا أحبه زملاؤه في العمل وصار موضع أسرارهم جميعا . كان ينسى هذه الأسرار بسرعة بعد الاستماع إليها ولا يلمع إليها حتى لصاحبها فيعتقد أن هذه مبالغة في الكتمان ، ولكن في هذه المرة بعد أن استمع إلى شكوى فوزية قال بهدوء وبالسمة الثانية على شفتيه :

- كان رأيي منذ البداية أن هذا الزواج غلطة يا فوزية . لماذا وافقت عليه؟
تحول وجهها عن أخيها وأنهكت في ترتيب ملابس سلوم .

لا تستطيع أن تقول لسالم ، هي نفسها لا تعرف كفاح حدث ما حدث . كانت تزور صاحبة لها في البيت الذي يسكنه فراج (زارتها قبل ذلك مرات كثيرة دون أن يخطر ببالها أي شيء) . اهتمت هي وهو أن يلتقيا خارج الحي ، في أماكن بعيدة عن الأنظار . وفي هذه المرة وهي تنزل من عند صاحبتهما وجدته يطلق بالصادقة أيام باب شقته المفتوح وكان السلم خاليا فابتسمت وابتسمت هي لا تعرف ولا تذكر بالضبط ما بعد . تذكر فقط أن ذعره كان يفوق تعرها وأنه راح يلطم خده .

التفتت مع ذلك نحو سالم وقالت بلهجة هادئة ، تكاد تكون مستسلمة :
- لأنني أحببته ، لأنني أحبه .

جلس الباشكاب في مقهاه القديم بعد أن أدى صلاة الظهر في مسجد السيدية . أصبح يمر على المقهى كل يوم في هذا الموعد الذي يكون فيه شعبان وسالم في العمل وتكون فوزية مشغولة بإعداد الطعام .

هو يحبه حتى على حاله الان . يحب كل شيء في هذا المكان . يذكر فرحة عندما كان يهل على الميدان بعد غيبة أشأه عمله في أسيوط أو المنصورة . فرحة عندما يرى من بعيد القبة والمنارة السماقة بشرفاتها المتعددة ، رحمة الناس حول المقام الظاهر . يخفق قلبه ويود لو يصافح كل إنسان دون تمييز . المارة في الشوارع ، وأصحاب المحلات ، والباعة الجالسين على الأرضفة . وحتى عمال الترام في الكشك الذي يتوسط الميدان والواقفين حوله . يريد أن يقول للجميع « أنا رجعت » . وما زال حتى الآن ، بعد أن أصبح بالفعل يتوكأ على العصا التي كان يمسكها من قبل على سبيل الأنفاسة ، لا يستطيع أن يتحمل يوما دون ضوضاء ، هذا المكان وناسه ، لا يشعر أنه يعيش حقا إلا حين يراهم ، لو أمكن أن يدقنه بعد موته تحت أسفلت هذا المكان !

توقف الباشكات ليسأل نفسه : كيف وهو ممثل يا الدنيا إلى هذا الحد سيحصل إلى العزلة والخلوة اللتين تقول الكتب لا وصول بدونهما ؟ ولكن أي خطوة قال له خذ من هذه الكتب ما يوافقك . ستعلم وحدك ما الذي تأخذ منه وما الذي تترك لأن طريقك لم يبعده لك غيرك . لا ترهق نفسك بالتفكير فسيأتي كل شيء في حبيه .

وضع جابر فنجان القهوة أمام الباشكات المستغرق في أفكاره وهو يسأله مبتسمـا .

ـ مازلت غاصبا على يا حضرة الباشكات ؟

ـ فابتسم بدوره وهو يرد عليه : قلت لك يا جابر مائة مرة سمسارك زبحني والقاول الذي جاء به ليرم الbeit أكمل المهمة . وعده بآن ينهي العمل في شهرين فاستمر أكثر من سنتين . ولكن ماذا أفعل ؟ ربنا يسامحك !

قال جابر متظاهرا بالأسى : والله يا حضرة الباشكات أنا أردت أن أخدم ولكن ما العمل ؟ أنت رجل طيب والناس في هذه الدنيا إما أكل أو مأكل .. رفع الباشكات فنجان القهوة بيده المرتعشة وهو يسأله وأنت يا جابر ، أكل أو مأكل ؟

ـ وأشار جابر إلى جليبه ومئزره (الدمور) المزق وهو يقول :
ـ انظر بنفسك حضرتك واحكم !

ـ وأشار الباشكات بدوره إلى فم جابر الذي كان يستحلب شيئاً وساها :
ـ لماذا إذن يا جابر تصرف قرشك على هذا ؟ رد جابر دون أن يهتز : أنا يا أستاذ في النهار الواحد ألف هذا الميدان الواسع على رحلتي عشر ساعات دون أن أترك المقهي . أظل بالنهر والتليل كالملك وذا حلبات الزريان حتى ترميك قدمي كما ترى ، فماذا أفعل لاحتمال هذا العذاب ؟

ـ وما الذي رماك على هذا العذاب ؟
ـ ثانية أولاد وأمهـم .

ـ ألم يكتر أحد من أولادك حتى الآن ليريحك من العمل ؟
ـ كلام كبروا يا أستاذ . منهم من تعلم وأفلح واشتغل ، ومنهم من خاب ولكنهم جميعاً مازلوا يعودون أيديهم إلى جابر الغبار .

ـ تذكر الباشكات عبوات الكيف اللثفوفة في ورق السيلوفان وحكاية الدولارات والسمسار الذي أهلك فقلال ساحقاـ :

ـ أنت غلبان يا رجل يا ضلالـي ؟ مـاذا ستقول لربـنا يوم يلقـاك ؟ فـكر لـأن حـكـيـتنا أـنـا وـأـنـت قـرـيتـ ؟

ـ وفاجأـه رد جابر حين قال باذبـ شـدـيدـ وهو يمسـحـ الطـاـوـلـةـ بـمـشـقـتـ :

- سارد مثلث يا حضرة الياشكابي !

ثم قال وهو يرفع الفنجان متاهيا للانصراف :

- أنا في هذا العمل يا أستاذ منذ أن كنت صبيا صغيرا ، ورد على هنا كل أصناف الناس ، رأيت الكبار والشبان والنسابين والفجوار والناس الطيبين الذين يعلمون الخير في السر ، والذين يظاهرون أنهم طيبون ويأكلون مال الشبي ، فإذا كنت أنا جابر القلبان أستطيع أن أمير بينهم فما بالك ؟

ورفع يده الخالية نحو السماء ، ثم أكمل بضحكة وهو يبريش بحقفيه :

- ولكن صدقني يا أستاذ ، أنا بالفعل غلبان !

وأنصرف عن الياشكابي وهو يضحك .

قال توفيق لنفسه بعد أن ابتعد جابر : تستغله ، موعضة بموعضة ! ولكن موعضة جابر أقوى بالفعل يا حضرة الياشكابي ! قيل يعترف القلوب حقق غمز مولاك ومسلاه ؟ هل أزدراك الكبير لأنك دخلت في طاعة قريبة بعد طول معصية ؟ إن يكن ذلك فقد هلكت يا أخ توفيق ! مائة مرة قلت لك تواضع ! تواضع !

نادي جابر ليدفع له الحساب وعندما جاء ، قال له بقلب مثقل :

- سامحتي يا جابر على ما قلته لك .

تراجع جابر خطوة وقال : استغفر الله يا حضرة الياشكابي ! أنا أسامحك !

أنا لم أقتل لك إبني وإلي ! قلت لك أنا غلبان !

ثم راح يضحك فقال الياشكابي : إبن فسامحني يا غلبان !

رفع جابر يديه معا وهو يقول : ربنا يسامحنا نحن الاثنين لأن حكايتنا قربت !

وضحك من جديد ، فضحكت له الياشكابي ولكن قلبه ظل مثقل .

فروزية ، وكان الباشكانت شاحباً أكثر من المعتاد ولكنه قطع الصمت فجأة وهو يقول لشعبان : -

- رأيت اليوم محلك في المنام ، رأيت زحاماً كثيراً ورأيت مشغولاً جداً في تلبية طلبات زينتك .

قال شعبان دون أن يرفع رأسه عن طبلة : يسمع منه ربنا يا والدى . الحال واقف تماماً هذه الأيام ، لو لا إيجار محل السجائر لأفلستنا من زمن .
قالت فروزية وهي صوتها نبرة خفيفة من المزاج : ألم تعلم شيئاً أيضاً عن زوجي الجنون يا جدي ؟

فهز رأسه وقال بعد لحظة صمت : ربما ياتي يوم الخميس ..
ثم انتقت نحو حقيقته مكحلاً : وبحسن النية يا فروزية أن تعطى شعرك .
رأيته في الطريق قبل أيام وقد أطلق لحيته ، ربما لا يحب أن تكونى
شعرك .

غمضت فروزية دون اقتناع : لم يشتك قبل اليوم من شعرى بالوجه ، الشكلة
الآن أنه يريد زوجة بمرتب ، ولكن غريبة حكاية أنه ربي ذقت !

★★★

مع ذلك عندما خرجمت فروزية في اليوم التالي لتشترى لوازم البيت وضفت
قططاً على شعرها .

وفي المساء عاد شعبان إلى البيت متلهلاً . قبل بد والده في حرارة وامتنان
وهو يقول : جاشر اليوم يا أبي طليان كبيران لأنعمشت أزياء ، مدارس في العصى .

طليان لا طلب واحد يا أبي ؟
وقال لأبيه في حماس : أحلمك أحلام الصالحين يا والدى . أنت رجل ميرور !

ثم إنه في يوم الخميس التالي زارهم فراج بعد غيبة شهور .

- ١٨٨ -

لم يكن هناك تمهد لحيته ففوجئت به فروزية وهي تفتح الباب ، تعلق سلو
يعنق والده وهو يصبح صيحات عالية ، وأشارت فروزية صامتة إلى غرفة الجلوس
ثم انسحب إلى غرفتها .

جلس الرجال معاً دون أن يبدأ أيهم الكلام . كان شعبان وسامي ينظران إلى
فراج بينما تذكر هذا الموقف كثيراً من قبل ، أما الباشكانت فقال وهي صوتها نبرة
من العتاب الرقيق : مرحباً يا فراج ، لم تترك منذ مدة .

لم يرد فراج على الفور . أخذ يعيث قليلاً بحبيبة الجديدة قبل أن يقول :
- في الواقع أنا كنت أفكراً في حالي أنا وفروزية . لا يمكن يا حضرة
الباشكانت أن تستمر الأمور على هذا الحال .

قال شعبان بسلوى من الضيق : إذن يا ابنى كما دخلنا بالمعروف نخرج
بالغير ونستعين بغيرنا ..

قاطعه الباشكانت : انتظر لحظة يا شعبان . هل هذا هو ما تريده يا فراج ؟
التحجن فراج وقال : لا ، كيف ؟ واعطف هذا ؟

ثم أنزل الصغير من على حجره وقال : هل يمكن أن نتكلم على راحتنا ؟
حمل شعبان حفيده رغم صراخه وبكته وأعطاه لامه وجيئ رجع كان

الباشكانت يقول : .. هذا مفهوم يا ابنى ولكن ما باليد حيلة . أنت ترى حالتنا
الآن .. ثم تطلع إلى والده وأكمل : يقول فراج إنه ظلم فروزية بالفعل عندما اتهمها
بالتبذير ، وإن مرتبه لا يكفى بالفعل ليغطي مصاريف الشهر .

قال شعبان : وماذا يبيتنا نحن أن نفعله يا سيد فراج ؟ هذا حال كل الناس .
ربما لو بحثت عن عمل آخر ..

قال سالم ، الذي كان صامتاً طول الوقت ، بصوت هادئ : ما هو المبلغ
الطلوب يا أستاذ فراج ؟

- ١٨٩ -

رد زوج اخته محتاجا وقد أحمر وجهه : أنا لم أتأنسول يا أستاذ
سالم !

وتدخل الياشكاب قائلًا : سالم لا يقصد هذا بالطبع .

لكن فراج أكمل شعره المحتاجة : مع ذلك لا يصح الكلام بهذه الطريقة ! يعني
هذه حالة طارئة . ستحسن الأمور قريباً بإذن الله ، أنا تقدمت لإعارة إلى
السعوية وسيوفقني ربنا هذه المرة إن شاء الله ، وأي مساعدة حتى تأتى الإعارة
ستكون ديننا على بالطبع .

قال سالم بالهدوء نفسه : ليست دينا . بما أن فوزية لاتشتعل فليتعين أن يكون
لها دخل كل شهر . أنا ساعطيها نصف مرتين ..

نظر الجميع نحوه في دهشة ، يمن قيهم فراج ، وقال شعبان محتاجاً
ـ وكيف ستنصرف نحن في البيت ؟ أنت تعرف أنك مرتاح بمنزل ..

لكن الياشكاب رفع يده يسكن ولده وهو يقول : بارك الله فيك يا سالم .
نحن نستطيع أن تحتمل يا شعبان . سندبر أمورنا بإذن الله ،

وقال فراج مؤكداً : ومع ذلك فسأغتيره دينا حتى الإعارة .

قال شعبان : مفهوم ، ولكن أرجو يا أستاذ فراج من أجل ابنك الصغير لا
تتكرر هذه الحكاية .

فرد فراج : إن شاء الله لن تتكرر . لم يكن بيدي ،
وقال الياشكاب وهو يتطلع إلى السقف :

ـ لا تحمل هماً يا شعبان . هذه الحكاية لن تتكرر .
وكان يتكلم بلهجة واحدة تماماً .

وعندما رأى فراج فوزية وقد غطت شعرها استعداداً للخروج معه ، قال وهو
يشير إلى رأسها في إعجاب ورضى :

جلس الدكتور شوكت لمي (كافتيريا) المطار ينتظر الطائرة القادمة من روما التي تأخرت كعادتها . فكر أنه لن يستطيع الآن أن يذهب إلى عيادته ويرجع إلى المطار لأنها لن تتأخر، كما قبل . غير ساعة ونصف . ضاعت النية وعندما تحصل الطائرة ويصحب لبني حتى البيت سيكون الوقت تأخر جداً . قال للمرضة على أبيه حال إنه سيتأخر عن موعده ، وتستطيع المربيات الانتظار أو الاتصال . عودهن على احترام النظام والوقت . لا يستقبل أي مريضه تأخر عن موعدها دقيقة واحدة . لايد من شيء من الشدة في هذا البلد ولكن المسالة ليست بهذه المرة . إن كن عاقلات فسيقطرن ، لا داعي حتى لأن ينكح المرضة ثم ابن يمكن أن يجد التليفون في هذه القوسي الشاملة في المطار؟ جرب ذات مرة أن يجده حين عاد من إحدى رحلاته فلم يفلح . كل شيء فوضى في هذا البلد بما كان يجب أن يسافر هو إلى روما بدلاً من لبني ، لديه ما يكفي ليعيش هناك . و إلى لندن بالطبع : لن يجد مشكلة في أن يعمل هناك ولكن ماذا عن لبني؟ إن كانت لم تتبع في روما فهو تحتل الحياة في لندن؟

لم يكن هناك كثير من الزبائن في الكافيتيريا . معهم حق قهوة مقرفة؟ رأى الواجهة الزجاجية المستقبليين يتكلسون في حالة الانتظار . معظمهم يلبسون الجلابيب وينتظرون أقاربهم العائدين من الخليج . يا عمال العالم اتحدوا! أهلاً وسهلاً ! ترى كيف يتحدد عمال الخليج مع إخوانهم من الفلاحين والصعايدة؟ بالصرم القديمة ! وأهم بعيته هناك . في أحد المطارات رأهم يقرفصون على الأرض في صلوف وأمامهم شرطي يمسك عصاً ليمنع أي واحد من النهوض أو الحركة !

لم يأت الأخ ماركس إلى هنا ليرى ويتعلم؟ كان سيقول شيئاً مختلفاً بالتأكيد . مثلاً مثلاً يا عمال العالم انتحرروا : هذا هو الحل الناجع بالفعل . الطريقة الوحيدة للقضاء على الفقر هي القضاء على الفقراء . لا مشكلة لأنه يدمنك ماذا في معيشة هؤلاء النساء يستدعى التمسك بالحياة بالطبع الرملاء ، الذين يدخلون السجن وبخرون منه كالملوك يعتبرونني خاتماً لو سمعوا هذا الكلام . هم يعتبرونني خاتماً دون أن يسمعوه؟ يكن : أترك لهم بكل ارتياح السجن والفقر وتغيير التاريخ بدوني !

ولكن انتظر لحظة يا شوكت أنت لست استقراطياً مثل صفا ، هاتم . ربما بعض هؤلاء العمال الواقعين هناك من أقربائك الذين لا تعرفهم ، ليس مجرد أن أباك الخولي الملائج تزوج من أمك التركية أصبحت أنت من جنس آخر ، ثم إنك لا تعرف أي شيء عن أمك التركية هذه . ليس لك أخوال أو خالات ، فهل صحيح ما سمعته أنها كانت خادمة جلبواها من استانبول لبيت صاحب العزبة؟ يقولون (කაფტერია) كان هذا شيء أرقى ! لايم . المهم أنها وررت أختك الشعر الأصفر والعيون اللامعة والجمال الإبكي الذي يحبه أبناء هذا البلد فتسارجها أحد дبلوماسيين . يتنعم كثيراً زوجها في متابعة حساباته في الخارج . أما أباً فقط كل صلة له بأخوه وأقربائه عند ما نزح إلى القاهرة وعمل في سمسرة العقارات . لا أعرف لي أي أقرباء ، ولكن أنا لا يمكنني من يكون أبي أو أمي أو أقربائي . أنا شوكت ابن شوكت ! أنا الذي صفت نفسى ولا فضل لأحد على لم أرث أرضاً ولا مالاً ولم يساعدنى حال ولا عم ! لا فضل لخليق على فيما وصلت إليه . أنا بالفعل شوكت ابن شوكت ومن حقن أن أفترخ بذلك !

ولكنها هو شئ جديد في الكافيتيريا امرأة جميلة وأنيقة وتحمل في يدها ياقنة ورد تابعها بنظره إلى أن جلس قبالتها على منضدة بعيدة ثم تجمدت عضلان وجهه فجأة وهو يتأنثها بالطبع . نعم . هي صفات هاتم ، لا أحد غيرها !

ظل يعتمد بيده على المنضدة وقد نهض بجذعه وهو يتطلع نحوها ثم عاد إلى الجلوس وهو يقول بهجة جافة :

- مساء التور - خير؟
- لنأخذ من وقتك دقيقة، هل يمكن أن أجلس؟

وأشارت إلى منضدتها التي تركت فوقها كتابها وباقي الزهور ليقطم أنها سترجع إلى مكانها. لم يردد شوكت ولكنها كانت قد سحبت كرسيراً وجاءت بحركتها الرشيقية متباينة قليلاً عن المنضدة وبدأت تتحدث بهجة عملية جداً :

- كنت أريد أن أقترح عليك شيئاً. إذا وافق يمكن أن تستقبل ليتنى معاً بدلاً من أن تقابليها بالدور. أعرف أن هذا سيسعدها، لا، هذه كلبة كبيرة، أقصد على الأقل سندقها عن الإخراج والارتباط.
- لا توجد تجاهيد في وجهها بنت الحرام! أبد وأن التجاهيد موجودة أيضاً في صورة دوريان جراري. هذه شيطانة؛ لا يمكن أن يكون هذا الجمال والبشرة لللهم إلا في هذه السن أدرياً!

أقال ولقي صوت الرخوة نبرة عصبية: ملادمت ليتنى تهمك وتحرصين على مشاعرها إلى هذا الحد فما زلت أشك كان يجب أن تفكري فيها منذ زمن طويل.. عندما..

نهضت صفاء، وقد احتقن وجهها وهي تقول: أخطئت بالفعل حين تصورت أنك يمكن أن تفهم أي شيء! كان يجب أن أعرف أنك لا تتغير.. حلق على! ثم قاتت وعادت إلى مكانها بخطوات مسرعة.

فتحت الكتاب وراحت تنتظر فيه دون أن تستcken من قراءة أي شيء قال ل نفسها حلق على أنت يا صفاء لا يهم.. فعلت ذلك من أجل ليتنى.. نعم كانت غلطة.. أعرف.. كانت غلطة وما أهمية ذلك على أي حال؟ تراهما ليتنى معاً أو تراه اولًا ثم

حول وجهه بسرعة إلى ناحية أخرى.. هو لم يرها ولا حتى بالصادقة منه الطلاق.. لحسن الحظ.. تعمد كالهما أن يتتجنب الآخر.. حتى في روما كان ينسق زياراته مع ليتشي لكن لا يلتقيا هناك.. ولكن كان يجب مع ذلك أن يتوقع أنها ستاتي الليلة كيف غاب عن ذهنه هذا الاحتمال.. وما الأهمية؟ هي في حالها وهو في حاله.. يمكن حتى أن يخرج من الكافيتيريا إكراماً لخاطرها!

مع ذلك تلخصت بنظره نحوها في حذر شديد.. كانت تفتح كتابها وتقرؤه باتهماك شديد وعلى المائدة باقة الورد..

فذكر: طبعاً الهائم لا تقوتها الأصول؛ بنت الأصول تعرف الأصول؛ ولكن هل تدخل الخيانة الزوجية ضمن هذه الأصول؟ منظرها بربة جداً وهي تجلس هناك منهكمة في القراءة.. بربة جداً وجميلة جداً مثلثاً كانت طول عمرها.. مثل حكاية دوريان جراري.. لأبد أن لديها مثل صورة في البيت يرسم عليها بشاعرها.. وإنخلالها بينما تحفظ هي بقاعة هذا الوجه البريء؟ ولا فهناك قلم في أن يظل وجهها بهذه النصاعة والجمال حتى هذه السن؛ ولكنني لا أزاحتها عن قurb.. ربما..

كانت هناك تجاهيد في الوجه.. لا يمكن أن تهرب من الزمن..

في هذه اللحظة رفعت صفاء وجهها والتقت عيناها بعيته.. لم يجد أنها فوجئت..

ظلت تنظر نحوه ثم هزت رأسها بابياءة خفيفة.. أو ما.. هو برأسه بعصبية ثم حول وجهه على الفور.. الهائم مهنية أيضاً الكلبة.. يجب أن أترك لها هذا المكان على الفور.. أترك هذه الكافيتيريا البشعة واتحد هناك مع عمال العالم؛ يمكن احتفال روانحهم وأوصواتهم المزعجة أكثر من الوجود مع هذه الهائم في مكان واحد..

وكأن يهم بأن يقوم عندما وجد صفاء تتفق آمامه وهي تقول بابتسامة صفيرة:

- مساء الخير..

لا . هي ليست نادمة . صدقني هو أفضل شئ حدث في حياتها بعد ليني .
 وكان عزماها قد استقر على الطلاق وانتفت عليه مع صدقني من قبل تمثيلية
 شوكت . وفر عليها بهذه التمثيلية أشياء كثيرة ، لكنه حرمتها من ليني . إن تكون هي
 قد تركت جرحا في نفس ابنتها فهو لم تعرف عمق الجرح الذي خلفه غياب ليني
 عنها إلا بعد أن سافرت إلى روما ولحقت هي بها على الفور هناك لترى ابنتها
 المريضة . أصابها الانهيار العصبي في السجن ونقلتها شوكت من هناك إلى
 المصح . شاهدت عذاب ابنتها في هيستيريا الانهيار التي تعرفها جيدا من
 دراستها وتعرف أنه ما من إنسان يستطيع أن يساعد غيره على الخروج منها .
 ظلت مع الطبيب دقيقة بحقيقة تتبع العلاج وتتابع ابنتها دون نوم ولا راحة حتى
 كانت هي نفسها أن تسقط . ولازمت ليني بعد ذلك أسابيع في تقاعتها . لم
 تكتشف كل الحب الذي كانت تخترنه لابنتها وتنكبه إلا هناك وهي تراها ضعيفة
 ومرضية إلى تلك النهاية أيضا ، واقفة على فراشها في المستشفى . لكم تعبها ،
 ولكن هى نادمة على كل الوقت الذى ضاع منها :

لم يتبته الدكتورة صفاء إلى الدموع التي كانت تتساقط على الكتاب المفتوح
 لكنها انتبهت فجأة إلى شوكت يقف أمامها فمسحت دموعها بسرعة ونظرت إليه
 بشيء من التحدي .

قال لها وهو يضع يده على المنضدة : أنا أسف لما قاطعتك ولكنهم أعلموا عن
 وصول الطائرة . إن كنت مازلت ترددرين ، فليانا .. من أجل ليني
 هزت رأسها وقالت دون أن تنظر نحوه وهي تشيز ياصبعها إلى باب

الكافيريا : ساكون عند بواية الاستقبال .
 ابتعد عنها ورأتها تخرج من حقيبتها على الر Beste ، وقال لنفسه وهو يخرج
 دموع التماسك ! جرحت مشاعر الهاشم بكلمتين . كاتما لديها بالفعل

مشاعر ..

نراها يعدد . هي تعرف أن كل شئ ينتهي إلى الأيد ، مع ذلك تمنيت لو أتوف
 عليها هذه الدقات من الإخراج وهي ترى أنها وأياها متبعدين وتنظر إلى أن
 تحببها بالدور . أنا أعرف الآن كل جروح ليني . لو أمكن أن أعيقها من جرح
 واحد جديد ! مع ذلك فهم لم تعرفها كابنة ولم تعرف نفسها كأم إلا في روما . لا
 تستطيع أن تغفر لنفسها ابتعادها عنها هذه السنين الطويلة . لا تستطيع حتى أن
 تفهم السبب . هل كانت تهرب منها لأنها بنت شوكت ؟ وما زنتها ؟ هي في النهاية
 كما كانت تقول دادة سنية « بنت بطني » البت الوحيدة . صدقني إنقدنا بالفعل من
 تعرف لبني الحقيقة ؟ ما الجريمة في هذه الحقيقة ؟ صدقني إنقدنا بالفعل من
 الجنون مع شوكت . إنقدنا من الانتحار . فليات شوكت على ملاته من أجل ليني
 ولكن أحال حياتها جحيمها منذ أن صارت بحالها معه . لا تدري هل كان يعاقبها
 أو يعاقب نفسه لفشله بتلك المشاجرات والاتهامات المستمرة يوماً بعد يوم . ماذا
 كانت ستفعل لو لا صدقني ؟ ظهر في الوقت المناسب بالضبط . عندما استول علىها
 فكرة الانتحار للهروب من جحيم الحياة مع شوكت .

رأته في البيت لأنه كان يستوره معدات المستشفى من أجل شوكت . وكثيراً ما
 كان يأتي قبل وصول الدكتور لفجلس معه في انتظاره . وليتنا كانت تتكلم كان
 يميل قليلاً بجسمه الضخم وينتصت لها وعلى وجهه تعبر اهتمام واحترام مبالغ
 فيه فتوشك أن تضحك . هذا قبل أن تكتشف أنه لا يتكلف هذا الاهتمام ، وأنه
 يعطي كل نفسه بالفعل لن يحدثه . سواء كانت هي أو شوكت أو أي إنسان آخر .
 لم تعرف في حياتها قليلاً محبًا للناس مثل هذا القلب . وبידأت تفقد هذه حين يغيب
 وتنقلب بلهفة حين يأتي . وبهذا هو أيضًا يهرب بنظراته منها ويختنق وجهه
 الأحمر من الأصل حين يتواجهان . وسأله مرة وفما في انتظار شوكت : لماذا لم
 تتزوج حتى الآن يا صدقني بك ؟ ف وأشار إلى صعلته ووضع يده على كرشه وقال
 ومن التي ترضي بي يا دكتورة صفاء ؟ فقال دون تفكير : أنا

وقفا متحاورين عند بوابة الخروج من المطار دون أن يتباين لا كلمة . كانت صفاء تتطلع بلهفة إلى وجهه الخارجين وتشرب بعشقها حين ترى زحاما من عربات الحقائب التي يدفعها القائمون . ولكن لبني تأخرت كثيرا داخل المطار عن بقية الركاب في طائرة روما . وكان الدكتور شوكت يلتفت بعينيه أيضا عن لبني وينظر في ساعته كل دقيقة . غير أنه كان يتلخص بنظره بين حين وأخر إلى صفاء الواقفة إلى جواره والتي لم توجه له كلمة ولم تنظر نحوه مرة واحدة . وقال لنفسه : «تجاهلتني ! كانها لم تكون هي التي طلبت أن أصحبها ! ولكنها تخجل بالطبع أن تنظر في وجهي ...»

بعد أن انقطع زحام ركاب الطائرة ، ظهرت لبني وحدها وهي تدفع أمامها عربتها ، بدا في وجهها شيء من الدهشة وهي ترى أنها وأباها يقفان معا . عانقت أنهاها بعد خروجهما ، وكانت الدكتورة صفاء ترددت تقريراً ومن تحفظ ابنتها ثم نازلتها ياقبة الورد واستدارت تمسك بحقيبتها . وفجلت لبني أيام في وجنتي .

ابتعدت لبني عنهما قليلاً . وساقت بهدوء : «إادة سنية؟» تبادل صفاء وشوكت نظرة سريعة ثم نظرا نحو لبني دون فهم . قالت لبني بهدوئها نفسه : «كنت أعرف (ثم نظرت نحو أنها) منذ انقطعت عن الحديث عنها في الرسائل والتلقيون ففهمت . ولكن بقى عندي مع ذلك شيء من الأمل ..»

أطربت لبني وقد ندللي نراعها الذي يحمل ياقبة الورد . همت صفاء أن تحضنها من جديد ولكنها فدرت أنها تستطيع أن تشاركها حزنها ولكنها لن تستطيع أن تحمله يدلا منها في هذه اللحظة . فامسكت بذراع ابنتها وهي تقول : «سأتركك ترتاحين الليلة يا لبني وستعودين غدا ..»

ثم قالت بلهجة عادية وهي تتصرف : «سلام يا دكتور شوكت .

★★★

في السيارة كان شوكت يختلس النظر إلى لبني التي جلس إلى جواره صامتة تتطلع للطريق . تغيرت كثيرا في هذه السنوات الثلاث . لم تعد الطلة التي سافرت هي الان امراة جميلة ، أكثر امتلاء . وقد أصبح وجهها أميل للاستدارة ، والزينة التي تضعها تبرز جمال ملامحها . كل هذا حسن ، ولكن لانا صبغت شعرها باللون الأسود ولانا تركت يسترسل؟ تتشبه بإنها؟ أتمنى أن يقتصر هذا على الشعر ! أتمنى أن تكون قد أصبحت أتعلل يجب أن تخرجها من هذه الحالة التي استولت عليها منذ سمعت عن مريميتها ويجب أن أطمئن عليها على كل حال .

حاول أن يجعل لهجته عادية وهو يقول : هل تعرفين يا لبني أن القضية التي أخنوكم من أجلها مازالت في المحكمة؟ أفرجوا عن زملائك ولكن القضية مازالت . . . المثلثة تغزو والآن أنا أغرقك . وكانت تصسلني كل الأخبار في روما .. (ولكن لدت الآن) كـ علاقة كـ بهذه المسائل بالطبع؟ قلت هذا السيادة الوراء وأوصي بنفسه في المطار لكن لا تواجهي أي مشاكل في الدخول .

ابتسمت هي ابتسامة صغيرة . ولكن المشاكل حدثت مع ذلك يا أمي؟ أخذنا جوار سفرى . وفتحوا كل حقائبنا وأخذوا كل الأوراق التي معنـى قبل أن يسمحوا لي بالخروج .

افتفضل الدكتور شوكت في مكانه وقال : كيف؟ سيدة الوراء . وعدهي بنفسه . - لا يهم يا بابا . خرجت في النهاية وهذا هو المهم .

قال فيما يشبه الغضب : ولكنه وعدنى . المفروض أنه مدین لي . عالجت له زوجته .

رفعت لبني يديها وهي تقول : كما ترى ! لكن الدكتور أكمل غاضباً : كان المفروض أن ياتي بنفسه ليتلقاك ويسهل خروجك . أنت لا تعرفين كم هو مدین لي . زوجته كانت في حالة ميؤوس منها لولا ما فعلته لعلاجها ..

أنه ربما يجمع معلومات أو شيئاً من هذا القبيل، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه شريك ، ويتبادل المصالح معهم.

لهم كل الحق هؤلاء الطلبة، حتى ولو كانوا لا يستحقون ! ولكنها الآن تعرف حدودها، تمنى لهم حظاً طيباً ولكن من بعيد!

جلس الدكتور شوكت إلى جوارها مستترفاً في التفكير هو أيضاً، بدا عصبياً وهو يعطي أوامره للسائق طول الوقت أن يسرع ، بدا متعجلاً ولكن كان يفكر في الحقيقة في شئ آخر: الآن يجب أن يتلقى النصائح من ساقطة وطلقة هرزل بالفعل... ثم إن هناك شيئاً يذيننا في أن تكون امرأة في هذه السن بمثل هذا الجمال.

في البيت تلتفت لبعض حوالها وقالت لنفسها رجعنا إلى بيت خال ، لا راداة سنينة ولا عم حسن، ربما يكون الله قد رحمهما بالموت. كيف كانت سيعيشان في هذا العصر السعيد؟ دادة سنينة كانت أمها سترعاها بالتأكيد ولكن عم حسن؟ حسني قيل أن تتسافر إلى روما كان يوسطها لدى الدكتور لزيادة مرتبه لأن المرتب لم يعد يكفي لصاريف البيت وتعليم الأولاد. هل سأل الدكتور شوكت عن هذه الأسرة بعد وفاته؟ يجب أن تعرف.

ذهبت إلى غرفة دادة سنينة، لم يكن هناك سريرها ولا (الكتبه) التي كانت تتربى فوقها . حولها الدكتور شوكت إلى مخزن لخطة الجديدة، في وسط الغرفة كان تمثال خشبي فوق حامل لرجل طويلاً نحيل محظي الرأس، كان يفلد أسلوب (جياكوميتي) الذي تحبه، ولكن بدلاً من الرشاقة والتوازن والشموخ في تماثيله كان هذا يشبه تمثالاً لرجل مريض . كان تمثالاً مريضاً، حولت بصريها عنه، ورأت الدادة تجلس فوق الكتبة يطربحتها البيضاء، ورأت البسمة التي كانت تثير وجهها المتغضض حين تراها: أهلاً يا بنتي يا حبيبتي . لا ! ذلك انتهى . لا الكتبة ولا دادة

ظللت ابتسامة لبني على شفتيها ولكنها ثالت بشيء من تقاد المصير:

- لماذا لا تتغير يا أمي؟

قال متعجباً: أنتغير؟ كيف؟

- أنت الأدرى . سامحي.

فكر شوكت : أنتغير! هذه الكلمة أنها ابنه هي لم تصميم شعرها فقط ولكنها صيغت أفكارها أيضاً.

قال : بالطبع . لا توجد عذر مشكلة لأنغير ، ولكن أنت ؟ هل غيرت أفكارك التي انتهت بك إلى السجن؟ هل سترجعين مرة أخرى إلى هذا اللعب؟

- لا، لن أرجع.

نهض الدكتور شوكت في ارتياح: عين العقل.

- أو عين الجبن؟ لكنني لن أرجع.

لم تقل له إيتها في روما الفتنت تاماً ما يقوله زملاؤها في مقالاتهم ومتشاروئتهم أقل من الحقيقة . رأت في بيت زوج عمتها дипломاسي تغازل الافتتاح الذين كانت سمع عنهم . اعتاد أن يدعوهم للعشاء ، وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من ال威سكي يطلب عيارهم وتطلق السليم . يتداولون الخبرات عن كيفية تهريب الشخصيات من الجمرك، وعن أماكن شراء البصانع (المضروبة) من إيطاليا وتمريرها على أنها بضائع صالحة ، وعن أضمن الطريق لتهريب العملات، ومن الذي يجب أن يدعوا له في البلد..! كانوا يتباكون أيهم (أشطر) من غيره ويتكلمون بصراحة تدهشها لا يشعرون بخجل مما يقولون ولا يفهمون حتى مدى اليدزة والإجرام فيما يقولون.

ولكن ما أدهشها أكثر أن زوج عمتها дипломاسي المثقف يصر على سماع أحاديث هؤلاء، اللصوص الذين كانوا بلا استثناء حفنة من الجهلة، وأنه يصحح على نياتهم الفجة وينبأ المزاج معهم، في البدء اعتقدت أن هذا جزء من عمله.

لن يذهب إلى العيادة في هذه الليلة وعلى المريضات الاتصال غداً لتحديد مواعيد جديدة.

جلس إلى مكتبه وأخرج زجاجة الويسكي من مخفيتها الذي وضعها فيه قبل مجيئ ليلى . لا ، لم أخطئ ليس هذا تماماً يجب أن تهتز صورة أيهما أمامها . أنا لست سكيراً على أية حال . أشرب فقط لازرع أعصابي من إجهاد العمل . حب لنفسه كأساً وجلس إلى مكتبه .. ولكن أني إجهاد يريد أن يرثى منه الليلة بالذات وهو لم يعمل أبداً ! إذن فلنعمل !

اتجه الدكتور إلى مكتبه وأخذ منها أحد مجلدات مجلة طبية متخصصة في طب النساء . وصلته من لندن ثم رجع إلى مكانه وبدأ بشرب من الكأس في جرعتان كبيرة على غير عادته .
فتح الجهة بأفراز قاتمة المواد ثم اختار الموضوع الذي يهمه . انتهت الكأس فصب لنفسه كأساً جديدة ، راح يشتمل المصورة الموجودة في صدر الموضوع بالألوان .

وغير دراسته وعمله وكل من عرف من النساء فهو لم يستطع أبداً أن يتغلب على شفاعة من هذا الشكل . هذا الجرح المستطيل الذي لا يندمل . هل يكون تقرزه القديم العهد من أيام الدراسة هو السبب في ...

ـ لا ! لا داعي لهذه الأفكار التي لا تؤدي إلى شيء ، فلنعمل .
ـ لكن العمل لا يأتى . كان يقرأ وبعد قراءة ما سبق دون أن يستوعب شيئاً . وانتهت الكأس الثالثة بسرعة أيضاً . أغلق المجلة بحركة عصبية . ربما الأفضل لو خرج ، يذهب إلى مكان يلتقي فيه بناس آخرين ويشرب وسط رحام . أحسن من ذلك أن يلتقي بآني واحدة من صاحبات ويقضى معها الليل . ها هو التليفون . يمكن أن يجرب لكنه راج ينظر إلى التليفون دون أن يمد يده إليه . وحب لنفسه الكأس الرابعة بيد ترتعش .

ولا حتى ليلى التي انتهت من زهرن . متى متى ؟ متى السجن ؟ متى الصحة ؟ قبل ذلك في الليلة التي سبقت السجن ؟ المهم أنها انتهت .

ذهبت إلى غرفتها . هناك وجدت كل شيء في مكانه . رأت سريرها ومراتتها ومكتبتها الصغيرة . لا . حتى هذه الأشياء ماتت في داخلها . هي لا تستيقن إلى شيء حقاً . عالجوها جيداً في مصحة روما . عليها الطبيب الذي رافقها شهوراً ولم يكن يكفي عن الكلام أن تنسى التخوف وتتنسى معه كل شيء آخر عالجها بالبقاء في حمامات السباحة ساعات كل يوم . ولم يدع يائتها غثيان المعدة ولا الدوار ولا ارتعاش الساقين . لم تعد هناك وساوس ولا هلاوس . قال لها الطبيب شيئاً قريراً مما قالته أمها : إن الإنسان ينضج ويصلح نفسه بالصراع ضد ماضيه . لكنها لم تصلح نفسها أبداً . ولم تصارع أي شيء . صارت في التقبيل نهاية عنها ولهم عنها ضد ماضيها ومستقبلها معاً ! لأن لا خوف ولا طسلة لا لحزن ولا درج . لا حب ولا كره . لا إفراط ولا تفريط ! ستعيش في الوسط المريح ، مثلها مثل كل الناس .

ـ سالم كان عيناً وانتهى . كان كايوسا وانتهى . كان ما كان وانتهى . والدكتورة صفاء ؟ تعرف الآن كم تحبها . تشفع ليلى عليها أو هي تشفع عواطفها الجارفة وترى كل ما تفعله تسترد أمورها . وهي أيضاً تحبها . ولكن الطبيبة وصلت مع الاسم بعد وفاة المريضة !

ـ جلست ليلى على السرير ونظرت إلى صورتها في المرآة مثلاً اعتادت أن تفعل في القديم . وقالت لنفسها بابتسامة صغيرة . والآن ماذا ستفعل في كل هذه

ـ البهجة ؟

ـ صرف الدكتور شوكت الطياخ الجديد عندما قالت ليلى إن تتعشى وإنها مجاهدة من السفر وتود أن تنام . دخل هو بدوره إلى غرفة مكتبها واتصل بالمرضة .

ما زلت يادكتور شوكت؟ ما زلت كل هذا لهم في داخلك؟ طبعاً لأنني رأيت صفاء؛ ولكن ما زلت؟ أنت تعرف أنها موجودة طول الوقت وتعيش معك في نفس المدينة. كان يمكن أن تراها في أي لحظة. نعم ولكنها أعادت لي ذكري ذلك اليوم التعبس. أنت لم تتسه أبداً على كل حال. الساقطة!.. نعم أعرف، أعرف ساقطة وجميلة. جميلة جداً وساقطة. كانت ملك يدك على أي حال. أنت استمتعت فعلاً بأمتلاك هذا الجسد الخارق فترة من العمر. ولكن هل استمتعت كما يجب؟ وهل استمتعت هي؟

ساقطة، صفاء، قالت ولبس قالت.

يغير! ضحك لنفسه بصوت خافت وهو يرشق الآن من الكنس الجديدة بيده. وقد بدأ الوار، ظظ فيها وفي بيتها! أنا شوكت ابن شوكت!

ضحك مرة أخرى ولرضا يده على قمه. ظظ في شوكت ابن شوكت! ما زلت تهتز هكذا يا دكتور مجرد ذلك رأيتها؟ تعال نقل الحقيقة. هل عازتك تحبها؟ إن يكن ذلك كذلك فعليك العرض يا شوكت يا ابن شوكت! عليك أن تذهب إلى مصحة ليني في روما، الأسهل أن تتخر، هذا أيضاً تغير يا دكتور!

وما الذي تغير؟ يجب أن تعرف، نعم أنت كنت تعرف نفسك من زمن طوبل تعرف. حاولت أن تعالج نفسك بادوية من مصر وبادوية من اللدن ومن فرنسا ومن واق الواقع، وكانت تسمع متظاهراً بعدم الالتفات إلى النصائح والتجارب التي كان يتباراها أصدقاؤك في جلسات الرجال، وإلى أقوال هؤلاء الكتابين «بالامن طول الليل..»! الكتابين!.

ضحك لنفسه مرة أخرى بصوت مسموع. أنا لم أكن أريد طول الليل عشر الليل، واحد على عشرين من الليل! عشر دقائق من الليل! خمس، لا يائس! ولكن لا قاعدة! البداية هي النهاية!

ولكن ماذا عن الآخريات؟ لم يكن يشتكين، قبله على حاله.
على من تكتب يا دكتور؟! كنت تجدهن يوم سامت وشهرتك ودعاياك الفالية
فلمانأ لم تبق أى واحدة منها معك أكثر من أسبوع؟
ظل: أنا لم أكن أريدهن أيضاً! ماذا كنت تريد إذن؟ نعم?
أنا لم أرد واحدة غير صفاء! لو أنها ساعدتني بدلاً من أن تخوشت، فربما..
مسح دموعاً من خده وهو يقول لنفسه أنت سكرت يا دكتور شوكت يا ابن.. يا
ابن الـ ..

مد يده إلى التليفون وطلب الرقم، يجرب معها العلاج الأميركي الجديد!
طول الليل! ما ها ها! وماذا لورد عليه صدقى الخنزير؟ لكنها هي! هذا هو صوتها:

هذا أنا.. أنا شوكت ابن ..

ثم سكت واحتبس صوتها.

نصف صوتها هي: نعم، ماذا حدث؟ ليني بخير؟
ليني؟ نعم، نعم، لا، أنا أين ليني، أنا لست بخير، إسمعني، من فضلك هل يمكن أن أراك؟ يعني.. من فضلك!

قالت بهدوء: أنت سكران يا شوكت، صوتك يقول إنك سكران جداً فلا تتكلم الآن.

نعم؟ ماذا من فضلك؟.. على الأقل مررة؟ على الأقل أنا كنت زوجك عندما ذهبت إلى صدقى! ماذا صدقى من فضلك وأنا لا؟ على الأقل مررة؟
كررت: أنت سكران ولا تعرف ما تقوله يا شوكت..
على الأقل...
احتدى صوتها فجأة: يا مجنون! لو انظرت صنف الرجال كله من العالم!

على الأقل احترم أنت ابنته في ليلة عودتها، يا مجنون!

- من فضلك تسك يا أبي .. أنت لا تعرف الان ما تقول . أرجوك أن تذهب إلى غرفتك أريد أن أنام.

- لحظة من فضلك . أنت لا تفهمين . من فضلك .. مجنون ، عاقل ، قاتل، أنا أنساك هل تحببوني؟.. أقصد ما الذي يمتنع يعني؟ إن كان الحب يحتمل الخيانة لماذا لا يحتمل الجنون؟ الشئ الوحيد المهم في الموضوع يا لبني .. أبي .. جدك يعني ، كان عنده مثل يحبه .. كلب أبيض وكلب أسود الاثنين ولاد كلب .. هي؟ .. يعني كلب دكتور وكلب مجنون ما الفرق ؟ أقصد يا لبني .. من فضلك ..! ازاحت لبني أياماً من الباب بعنف وهي تقول في غضب : من فضلك أنت ؛ اذهب إلى غرفتك الان . أنا أريد أن أنام !

ثم صافقت الباب وأطلقت من الداخل بالفتح . أفاق شوكت قليلاً مع ضجة إغلاق الباب ووقف يتساءل في ذعر : ماذا حدث بالضبط ؟ يجب أن أذهب إلى الحمام !

في الصباح كان الدكتور شوكت وليني على مائدة الإفطار في المعد ، كان وجهه شاحباً قليلاً ويشعر بصداع .

سأله ابنته: هل نمت جيداً يا لبني ؟ هل ارتحت من السفر؟
تأملته قليلاً وهي تقول: نعم، شكرًا .

- هل ستخرجين اليوم؟

- لا أعرف . اسمع يا أبي : لماذا لم تقل لي من قبل ان سالم مر عليك في العيادة ..

- من هو سالم؟

- زميلي، الذي قلت إنه جاء وجاء جده أيضاً إليك في العيادة .

- ابنتي ؟ ملعون أبو ابنتي ! أنا أقول على الأقل مرة ... من فضلك ! لكن صفا ، كانت قد وضعت السماعة في غضب ولم يكن هناك على الطرف الآخر غير صفاره ومد شوكت يده المخمورة في استمناته إلى التليفون ليطلب الرقم من جديد فسقط الجهاز على الأرض في ضجة ورثين وحين نهض ليقطقه وجد نفسه يتربم ويتعثر فظل والقا لحظة وهو يمسك رأسه بين يديه وبعصر جبهته . ظل يقف فترة محاولاً أن يتماكل نفسه وهو يقول: ابنتي، ابنتي؟ هناك شئ قالته عن لبني، ما الذي قالت بالضبط؟ يجب أن أرى لبني .. طرق باب ابنته ففتحت له وكانت بثياب النوم .

وقف متمنحاً بالباب فقالت يائز عاج : بابا ؟ هل حدث شئ؟
نعم ، ولكنني لا أذكر بالضبط ما هو !

وقف مستنداً بيده إلى الحائط وقال : أنت الآن تشبهين أمي لا أرين لهاها .. ثم هربت منه الفكرة التي كانت تتشكل في رأسه فقال فجأة :

- إسمعني يا لبني .. هل أنت تحبين الولد .. الولد المحبوب الذي يحسـاـءـ إلى عيادتي يوم قيضاـواـ عليه ..

- أى ولد؟
- الولد .. الولد (الحلبيـةـ) الذي .. الذي كان يريد أن يعتذر لك وأنت في السجنـاـ هي .. هي ..

- سالم؟ هل جاء إلى العيادة .. لماذا لم تقل لي؟
لم يسمع فناكمـلـ: جاء جده أيضاً بعد سفرـكـ وقال إنـ الـولـدـ جاءـهـ حالةـ نفسـيةـ، لاـ حـالـةـ ولاـ يـحـرـزـونـ . أظـنـ أـنـ مـجـنـونـ مـنـ الأـصـلـ لـكـ مـنـ فـضـلـكـ أـنـ أـنسـاكـ هلـ أـنـ تـحـبـبـيـ بـالـفـعـلـ؟ـ هوـ مـنـ أـسـرـةـ مـجـانـينـ بـالـطـبعـ جـدـهـ أـيـضاـ مـجـنـونـ،ـ جاءـ إـلـىـ وـشـمـنـشـ فـيـ العـيـادـةـ أـنـاـ شـوـكـتـ أـبـنـيـ ..

قال بشئ من الدهشة : أنا قلت ذلك ؟ أه ، بالفعل جاشي يوم القبض عليك ولد

مخبل قال كلاما غريبا ، لا أظن أن أمره يهمك في شيء . أقصد لا يستحق أن تهتمي به . ربما أكون قد قلت لك لا حذرك منه ومن جده الجنون ولكن متى حدثت عنهما ؟

لزعت لبني الصمت ثم انفجرت فجأة بالضحك وقالت :

- أنت لا تتغير يا بابا إلا إذا

- إلا إذا ماذا ؟

- إنس ! المهم ، هل جددت اشتراك النادي هذه السنة يا سمي ؟

- ما العلاقة بين هذا و .. بالطبع أرسل من يجدد الاشتراك كل سنة ، لماذا تسألين الأن ؟

- لأنني يجب أن أواصل السياحة ؟ وربما يجب أن تسألي أيضا يا بابا
لماذا ؟

- لأنني أينك ولذلك أبي !

قال الدكتور لنفسه وهو يرثثف الفهوة : لولا أنك تشبهيني لما صدقت !

(٤) alldas.com/vb3_mfs
النقد البشكاب صحبة سالم الذي أصبح الآن مثل شعبان يقضى النهار كله
في العمل ويستيقظ في المطعم أيضا جزءا من الليل ، وطلب من حفيده ولكن دون
الإحراج أن يوفر وقتنا المذاكرة ليدخل امتحان الكلية . غير أن سالم لم يجد أي
حماس لذلك ، فاقصر البشكاب أن يقدم من جديد شهادة مرضية لإعفاء من
الامتحان سنة أخرى . وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي خرج فيها بعد عودة
فوريّة إلى بيتهما ، اعتادت حفيديثه أن تأتى كل ظهيرة تبعد له الغدا ، وتبقى معه
حتى يدخل ليروتاج قبيلاته ، وفي المساء يقضى وقتا قليلا مع سالم وشعبان ،
وقدما بهدايا ذلك كان يقضى معظم وقته في غرفته .

النصح البشكاب يجد صعوبة في صعود السلالم ، مع أن الجيران كانوا حين
يسمعون إيقاع عصاه يخرجون له مقعدا في كل دور ليروتاج قليلا على (البسطة)
قبل أن يواهيل صعوبته . قلل خروجه من البيت . وقل أيضا حاجته إلى التويم
فاصبح تعاشه متقطعا وصار يقضى وقته كله في العبادة والقراءة . يؤدى
الفرائض والتواكل ، ويكرر الفرض الواحد أكثر من مرة ليغوص ما فاته في
الستين الشانعة .

وانهمك البشكاب أيضا في قراءة الكتب التي أعطاها له أبو خطوة مرة بعد
آخر حتى كاد يحفظها . وكان يلوم نفسه لأنه مع حرصه على التزام وضعيتها
ظل يهمل أهمها جميعا . وبذكر أحيانا : الذئب ذئب يا سيد إن كانت البشرى
ترونك ! كيف تريد الوصول وأنت تعطى نفسك رخصة واجازة من التقاد بالعزلة
اللازمة للتنفسة روحك وتصفيتها من كل كدر ؟ يقول لنفسه في الواقع أنا أعيش

قال الباشكابي وكيف آرأه في قلب الظلم؟ فرد صاحبه: سعيد ضوء ظلمة الليل والنهار . سأله: وفي النهار ظلمة؟ فرد: أشد حلقة من الليل .

بعد كل مرة كان الباشكابي يخرج فيها ويعود وهو يلهم مجدها من السير ومن صعود السلم كان يلزم البيت متسائلاً مما يدعوه إلى الخروج واحتلال هذا العذاب ، ولكنه بعد أن يقضى في البيت عدة أيام ، كان يتوجول قلقاً في البيت الشالي متسلقاً من غرفة إلى غرفة ، يذكر نفسه بحالته وبما قاساه في المرة الماضية وبيان الأفضل أن يبقى مكانه لينفذ تصريحه الطيب بعدم التعرض للإجهاض ، ولكن صورة الميدان والمسجد والناس الذين يلقاهم هناك لا تفارق ذهنه رغم كل ما يحاوله ، فيعود إلى غرفته فجأة ويرتدي ثيابه وينزل وقلبه يخنق في انفعال يظلل مغيّر ذاته فينبع .

ولكن كثاجاً ، الجروح والمعطش اجباريين للباشكابي فذلك جائع العزنة الكاملة التي طال تهربه منها .

فأثنى بحدي هرات خروجه القليلة كان يصعد السلم في الطابق الثاني مبطنا كعادته ومارقاً في التفكير كعادته ، وكان يزور نفسه الآن لخروجه وهو يذكر فيما يبقى له من درجات السلم ، حين انزلقت العصا من يده فجأة وهوت في الفراغ بين درجتين فانزلق هو أيضاً وتدرج على السلم . ظل رارداً على ظهره على (البسطة) وهو يتذوه ، وحين حاول التهوض مرة أخرى مستعبداً على يديه . لم يستطع أن يحرك ساقه فصرخ يطلب التجدة .

حمله الجيران إلى البيت وظللت ساقه في الجبس عدة أسابيع وقالت فوزية نفسها في حزن وهي تنظر إليه يتمدد شاحباً في فراشه: كائناً لا يكفي السكر والضغط والنوار وقلة الأكل . لأنها ساق مكسورة أيضاً !

- ٢١٦ -

نصف عزلة ولكنها إجبارية؟ لا فضل لي فيها من أصبح الخروج من البيت مشقة لا تحتمل ، والتعود على الجوع والعطش اللازم في العزلة لقهر الجسم جاء إجبارياً أيضاً . أملاه المرض لا العزم! ثم إنك لم تقو على أن تهجّر الناس الذين تسميهم الكتب «السوى» لكنك تفرّغ لنفسك ووحدها فتتأملها وتصل إلى حقيقتها .

ثم كيف تدخل بالفعل هذا العالم من السكينة وعقلك لا يكف عن التفكير وعن المسؤول؟ أنت تلميذ خائب يا حضرة الباشكابي! تزيد أن تذاكر الدروس السهلة وتتجول الصعبية! تلميذ عجوز جداً وخائب جداً لم يبق لديه وقت لتجليل الامتحان! وتكلّشت أحلام الباشكابي وسط نومه المتقطع واختلطت بأحلام يقظة كان يخاطب أثاثها أحياه بصوت مسموع . وفي فترات مصحوحة كان يحاول أن يفهم مغزى تلك الرؤى وائتاً من أن الأحلام رسائل . ألم يكن لهذه الأحلام في الترسانة ضاعفت أمله بعد أن تحققت رؤياه لوالده وخطيبه؟

زارته سمية وزاره أبو خطوة عدة مرات . اعتادت سمية أن تأتيه مبتسمة كما لو كانت في صحراء أو في خلاء واسع ثم تستدير مشيرة بيدها إلى ذلك الفضاء الذي لا يرى نهاية ولا أنه ينطهر فيه وجوده كاته يعرفها وإن لم يستطع أن يعيّن أصحابها . ويسأل توفيق نفسه هل تشير سمية بهذا الفضاء إلى الأجل؟ إلى اقتراب النهاية؟ هذا يفهمه جيداً ولا يحتاج إلى سمية لتدلي عليه . فتأنى رسالة أخرى تزيد أن تبلطفها له وماذا لا تتكلّم؟

أبو خطوة ، على العكس ، كان يتكلّم كثيراً حين يزوره . يأتيه كما رأه آخر مرة بشعره الأشيب وعيونه التنانين وابتسماته المرحة . يذكر جيداً حين جاءه مؤذنها ذات ليلة وكرر عبارة سمعها منه من قبل «ليس بعقلك ولا حتى يقلبك ولا ينفعك ، وإنما عندما تنسى ذلك كلّه يا توفيق . حين تزيد لا تزيد فترى نفسك وترى النور في قلب الظلم». سأله الباشكابي صاحبه في لحظة: إذن فما هي العلامة؟ فكرر عليه: أن ترى النور في قلب الظلم .

- ٢١٧ -

أصبح من الضروري بعد ذلك أن تقيم فوزية مع جدها لترعاه ، فكان فراج ياتي إلى البيت ويتناول وجباته هناك إلى أن يرجع شعبان أو سالم في المساء فيصطحب زوجته وولده إلى بيتهما القريب . غير أن فوزية كثيرة ما كانت تصير على أن يقضى الليل معهم في بيت جدها ليستجيب لطلباتها .

وطلب سالم أن يعمل في وردة المسا ، ليقى مع جده أطول وقت ممكן . كانت حالة الجد تقلقه بعد أن تكررت نوبات الدوار عندما تحررت ساقه من الجبس . جاء الطبيب إلى البيت فخاضع جرعة الإنسولين التي يتعاطاها الباشكاب ، ووصف أدوية جديدة لغضف الدم ثم تنصح بالالتزام الراحة والتقييد الدقيق بتنظيم الغذاء .

وقالت فوزية لسالم : انتص جدك يا سالم يا ياكلا . تعيق مده من الكام لكنه لا يكاد يتذوق الطعام . أعرف أن لا يحب الملوّق ولكن هذا ما أصر به الطبيب . كللت عم مرعي ليعطيها وصفة لفتح شوتيه على الأقل فقال لهم يا ينت في حالة جدك يجب الانتظام بأدواء الطبيب . خلط العلاج لا يفيد . انحدل يا سالم غير أن ياكلا ما هو موصوف له . انتظر كيف صار جدًا على عظم !

اشتت هزاز الباشكاب بالفعل . وتبهد جد وجهه الذي كان عريضاً لاحظ تدلّى في ظبيات كالرزاوند إلى جوار ذقنه . لكن عندما حذله سالم عن ضرورة أن ياكلا كما يتنبئ وهو يشير إلى تحوله رد عليه جده ردًا لم يفهمه .

إذ قال :

- هل أصاب التحول إن هذا الجسم وحلت به الأمراض ؟ تلك عطالي يا سالم . كيف أعرف بدونها أني أتلقي ما استحق من العقاب ؟ كيف أعرف التي ربما استحق الرحمة ؟

قال سالم محتجاً : ولماذا تستحق العطاب يا جدي ؟

أغزرت عيناً الباشكاب بالدموع : بسبب ما فعلته بنفسه بسبب ما فعلته بك وبشعبان وبفوزية .

ولكن يا جدي أنت .. أنت لم تفعل غير كل خير . كيف تقول هذا الكلام ؟ نحن كلنا نحب وندعوك .

إن فلا تدع لي بسالم بالصحة ، بل ادع لي بالقرب النور .

أي نور يا جدي ؟

فقال جده وهو يتطلع إلى نقطة ثانية في الغرفة . النور العلامة .. ولم يكمل .

سؤال سالم وجبرته تشتت : عالمة على ماذا ؟

ستكشف أثوابك يا بطن ظهر . ربما يا سالم حين تزيد في هذا الجسم العطالية . تم خططه وأنت يقبحه وهو يقول : وحين يكت هذه التعيس عن طرد النور !

بعد ذلك صار الباشكاب يقضى كل وقته في غرفته . كان يطلق النور بالليل ويغلق الشيش بالحكم في النهار وترتفع صلواته وأدعيمه يصوّر المتهدج . وكان يجلس في الظلمة ينتظر . ولكن أبو خطوة قلل يائمه مؤذنًا دون أن يفهم السبب .

لم يعد الباشكاب يقرب الطعام إلا حين ترجممه فوزية وتضمه بالقوة في فمه . وكان ذلك ضروريًا على أي حال لأن يده المرتعشة صارت عاجزة عن حمل الطعام والشراب . كان يلوث ثيابه إن حاول أن يأكل بيده .

لزم الباشكاب غرفته بزارته وبغير إرادته بعد أن صار يعرج على ساقه الصابحة وينتمك من السير عليها بضع خطوات . لم يعد يستطيع الفروج ولا حتى

لصرف معاشه الشهري الذي كانت الأسرة بحاجة إليه لتكليف علاجه والمساعدة في مصاريف البيت . فاضطر شعبان أن يحصل من والده على توكيل شامل للتصريف نيابة عنه . وجاء موظف من الشهر العقاري إلى البيت ليحصل على توقيع الباشكاب على التوكيل . وافق على ما طلب شعبان دون نقاش . كل ما كان يعنيه هو أن ينهوا إجراءاتهم بسرعة وأن يتركوه لخلوته .

الوحيد الذي لم يكن الباشكاب يضيق بمحبته هو سالم . كان يجلس مع جده في أوقات فراغه من العمل . يراقبه في صحته ويليه له ما يطلب . يستدعي الحمام ويقف إلى جواره ليساعده حين يتوضأ . يفرش له سجادة الصلاة ويضع له مقعداً ليصللي عليه بعد أن تغدر عليه الركوع والسجود ويصللي سالم وراءه . ويستمع إلى الأدعية التي يرددوها جده ويكره ما يهدى .

غير أنه في معظم الوقت كان يجلس صامتاً على عارضه حارقاً . حاولت فوزية أن تجعله يتكلم بعد أن استرد نفسه . حتى لها جوها القليل الذي يعرفه عن لبني ومن علاقة سالم بها . وفكرت أنها لو جعلته يروح بما في صدره فسيساعد ذلك على اكتمال شفائه ، لكنها حين فتحت معه الموضوع بصورة عابرة ابتسمت ابتسامته المحاذدة وقال :

- هذه حكاية وانتهت يا فوزية .

فقالت فوزية بلهجة مازحة : كيف انتهت يا سالم ؟ يقول جدي إن الحب القاء أرواح وانا اعرف هذه الأرواح . أعرفها تماماً . هي أرواح (الزقة) ! إن جات فيهن لا ترحل ، فكيف استطعت أنت أن تهرب منها ؟ أنا لا أصدقك !

فقط يبتسم في وجهها دون أن يرد .

ولم يكن يكتب على آخره . كانت لبني تنظر على باله أحياها وينظر الأشياء الكثيرة التي سبقت مرضه : ليلته الأخيرة معها ، وزيارة لبيتها وما جرى هناك ،

وسماعه بسجنها . ثم تلف ذكرياته عند ذهابه إلى غيادة أبيها وبلغها بعد ذلك القلام . ولكن تلك كانت تبدو له أشياء بعيدة جداً . لا يفعل لها حين يذكرها . كانت مثلها مثل كل شيء آخر في الحياة بالنسبة له : صوراً يراها من وراء حاجز رحاجي ويراقبها كمترجع دون أن يشارك فيها . لم يعد حياً وقوياً في نفسه بعد أزمات حياته وصدمات الكهرباء . غير جده فلوريزية .

وأصبحت الجامدة أيضاً ذكري بعيدة لا تعنى سالم في شيء . لكن مدير المطعم الأمريكي الذي أعجب به كثيراً شجعه على أن يحوال أوراقه إلى كلية التجارة . قال إنه يمثل ثقانيه في العمل ومواهبه في الحسابات يمكن أن يكون له مستقبل كبير في «البيزنيس» ومن يدرى ؟ فقد يأتي يوم يصبح فيه مديرًا لمطعم منه . المهم أن يستقل وقت فراغه من العمل الدراسة .

فهي تلك الأيام التي كان الباشكاب معنكاً فيها . وبعد مقتضف الليل بكثير والجمع ينام . ارتجت العمارة على صوت دوى هائل كالانفجار . علا الصراخ والبكاء من كل الشقق وأخذ الجميع يتذمرون على السلم بملابس القوم والصيحات تتلاطم من كل مكان «الزلزال ؟ الملح يارد ؟ ..

وجرى سالم وشعبان أيضاً بطياب النوم إلى غرفة الباشكاب يحاولون حمله للتزلق معهم ، لكن الجد كان يقف في وسط الغرفة تحيلاً وشاحباً في جلبابه الأبيض الذي أصبح واسعاً جداً عليه وقال بصوت متدهج :

- رأيت ذلك في المنام ! رأيت سمية تجري وكتم لكم تجرؤون وراها . أين فلوريزية ؟ هنا .. التزلوا .. التزلوا بسرعة !

راح يدقهما على بنيه التالحين نحو الباب لكنه رفض وهو يصرخ أن يخرج معهما أو أن يترك غرفته .

قال في عناد : في هذه القرفة سأبقى إلى أن يتحقق الوعد أو أموت !

فقال سالم : إن بقيت هنا يا جدي فانا أيضا باق .

راح جده يدفعه بيديه الضعيفتين ليترك القرفة لكنه لم يفلح في زحزحته
فكىهما شعيان معا ونزل هرولا .

وجد شعيان كل السكان وجيران البيوت المجاورة في الشارع وهم يضربون
كلما ينكب ، ويسلعون وسط سباحة من الغبار تلف البيت والمكان ! لم يقع زلزال
ولكن شرفة الست إنصاف تصدمت فجأة وهوت بسحارتها في الشارع ، تحطمته
الشرفة وتثارت حجارتها في المكان ولكن السحارة الهائلة خللت ملقاها على
الأرض كتلة واحدة مقلقة ومتمسكة لم يصبه شئ .

وقال واحد من السكان : الحمد لله أن ذلك حصلت بالليل ، لو سقطت بالنهار
لراحت فيها أرواح .

وريد آخر وهو يصلع : هذه بركة الباشكانت الطيب . لا يريد الله له البهدلة
وعلاء صرخ الست إنصاف : وأنا ماذا ستفعل ؟ والجاج إبراهيم الرائد فعل ؟

يا مصيبي !

وسأل عزوز ابن النجار أباه في قلق : معنى ذلك يا أبي أنتا سترجل الفرج ؟
فلم أبوه يده وجذبه إليه وصفعه بكل قوته .

لكن صوت شعيان علا فوق كل الأصوات وهو يصبح بلهجة أمراء :
اسكتنا !

كان يسمع صوتا بدأ الجميع أيضا ينتبهون إليه ، وصمتوا جميعا وهم
يسمعون تعلقة سقوط كتلة من الطلا ، والأسمنت في جانب البيت الذي سقطت
منه الشرفة . جرى السكان متعددين معتقدين أن البيت كله سينهار فوقهم وارتفاع
من جديد صوت الصراخ والبكاء والدعاء .

- ٢١٦ -

ثم انصرف عن ولده دون أن يكمل وهو يذكر : والآن اثنان في البيت ؟ على العلوم لدينا أشياء أهم ،

لم يكن الباشكاب وحده هو الذي رفض إخلاص البيت ، تمسك كل السكان بالبقاء رغم الإنذار الذي قال بوضوح إن العمارة على وشك الانهيار . توجهوا إلى شعبان وسألهون أين يذهبون وكل أشغالهم ومحالهم قرب البيت ، ولم تجد في الحي مساكن خالية ؟ عرضوا بعد فوات الأوان أن يرمموا البيت على حسابهم ، فرد شعبان بأن الأمر ليس في يده وعليهم الآن أن يتلقوا مع الإداره الهندسية في الحي المسؤولة عن قرار الإخلاء ، وسينفذ ما يتفقون عليه . وعلق بعضهم منتقدين خراب الذمم وتديليس المقاول الذي استغل طيبة قلب الباشكاب وغضبه في الترميم . قالوا إن هذه آخر الأيام وإن القيامة أوشكت أن تقوم مادام العرش قد وصل حتى إلى جوار المسئط الظاهرية

تركهم شعبان يحاولون مع إدارة الحي . كان بحاجة إلى وقت لينظم تفكيره ولبيبر أموره .

الآن الباشكاب قلم بعد يقادر غرفته المعتنة إلا حين يصحبه سالم وهو يكاد يحمله حملًا إلى الحمام . ولم يعد يكف عن عبادته وأيتهااته بالليل أو النهار . إلا في لحظات غفوته القصيرة . فيبعد أن استغنى عن الأكل واستغنى عن النوم ، وكانت فوزية تستطيع إرغامه على أن يزدرد بعض الطعام الذي تضعه له بيدها في فمه . وإن رفضت أحيانًا في عداد أن يفتح فمه . تتخلل فوزية والله أمامه وبiederها طريق الأكل وتقول إنها تعلم أن يكرهها ولا يطبق أن يراها ولكنها لن تنزع حرج وترى أنه من وجودها إلا إذا أكل شيئاً . ومع ذلك قلم يكن يأكل إلا لقيمات كما أن فوزية لم تكن تستطيع إرغامه على النوم فتدورت حالته بسرعة وأصبح يعجز عن الوقوف على قدميه إلا إن ساعدته أحد . وحين كانت فوزية ترى الجباب الأبيض

عاين المستولون في الحي العمارة . وبعد أن حرروا محضرًا لمالكها والسيد إبراهيم المشلو . صدر قرار بإخلانها على الفور قبل انهيارها على من فيها . قال الباشكاب الذي تعود عمره كله على احترام القانون إنه لن ينتقل من مكانه . تشتبث بأصابعه العظامية المرتعشة بذراع شعبان وهو يبكي ويتشنج كظلل صغير متضررها إلى ابنه أن يتصرف . أراد أن يقبل يد ولده وهو يرجوه بصوته الباكى أن يتركوه في غرفته حتى يموت . قال ابنه حلم باقتراح العلامة : انتزع شعبان يده من قبضة والده وقبل رأسه وهو يبكي أنه يطول عمر قاتلا له إلا يشغل باله وأنه سيتصرف بإبن الله .

سؤال سالم والده بصوت هامس بعد خروجهما من الغرفة المعتنة :

- ما هي هذه العلامة يا أبي ؟
فرد شعبان وهو يبكي أيضًا : لا أعرف يا ابنى . ولكن أشن أن جدك ينتظر كرامات من الكرامات ، هذا ما قيمته .

قال سالم باقتناع كامل : هو يستحقها .
نظر له أبوه مليا وهو يقول بشئ من التردد : بالطبع . ولكن الكرامات كما أعلم يا سالم تهرب ولا تطلب . يكفي الإنسان أن يطلب من رب المقدرة لاسيسها إن كان خلال عمره ..

قامته سالم وصوته يذرف بالغضب : هو يستحقها ! ألم تقل أنت بنفسك إن أحلامه أحلام الصالحين ؟
نعم قلت وأنا أدعوك ، المهم الآن هل الوقت ..

يتباهى على جسمه الهزيل كأنه يخوض فيه كانت تحول وجهها لكن لا يرى
ديمها ، رغم ثقتها بأنه لن يرى شيئاً في ظلمة الغرفة .

واعتاد سالم أن يحلق لجده ذقنه في ظهيرة كل يوم قبل أن يصحبه إلى الحمام للوضوء . وكان في هذه الحالة يضطجع على زر التور في الغرفة المعتمه بمجرد دخوله ، ولكنك دخل ذات يوم فوجد الضوء يغمر الغرفة . رأى جده يجلس فوق سريره وهو يشى ساقا تحته بينما تเคลل ساقه المصابة من السرير ، وقد فتح شيش الغرفة على أخره . ظل يقف مائخذا عند الباب ، محاولاً أن يفهم ما حدث ، فقال جده بصوت هادئ وابتسامة تغير وجهه التاحل المنخفض - ادخل يا سالم وأجلس :

تُقدِّم سالم وقيل رأس جده على عادته ، فمد الجد ذراعيه الضعيتين واحتضن
سالم إليه ياقصى ما يستطيع من قوة . ظل يحتضنه طويلاً قيل أن لعله ينفث
حفيده ليجلس على الكتبة المواجهة للسرير وهو يطلع إلى الشرفة المترفة وإلى
جده بنظرة مستقطمة .

كان الباشكتاب يبدو ضليلاً في جلسته على فراشه وكان وجهه شاحباً جداً
في ضوء النهار الذي لم يدخل الغرفة منذ مدة طويلة ، غير أن صوته لم يكن
مرتعشاً ولا متهجاً . رُن في آذن سالم كصوت الباشكتاب المرح القديم وهو يردد
الله ميسماً ويقول :

- أوحشتني جلسات سمرنا القديم يا سالم وأوحشتني كلامك . قل لي ما
أحملك الآن في العمل ؟

لم تقدر الدهشة سالم وهو يرد على جده :
- شغلتني فيه حديداً أبداً ، حسابات وأرقام .

- وإنْ فلَمْ أَيْ شَيْءٍ أَخْرَى تَفَكَّرْ بِهِ سَالِمٌ ؟

- أفکر فیک انت یا جدی .
صحت لکٹک لا تسمع کلامی .

- ألم أقل لك من قبيل إنك مع كل جزء يموت من هذا الجسم يصحيو جزء من
الروح؟ وإنما الآن كما ترايني يا ولدي، وأحب أن القول

قال سالم منفعل وهو يمد يده نحو جهة كائناً لبعده من الكتب

- لا نقل هذا الكلام يا جدي . سيسألك الله من المرض وسيعطيك العلامة
التي تطلبها . الا تعرف أنه لا حماة لم يهون .

قال اليشكابط متحيرًا : ولكن لماذا يا ولدي ؟ ما الذي فعلته أنا طول حياتي لاستحق أن يكافئني الله بك في نهايتها ؟ وهل تلك هي النبوة ، أن تكون أنت أباً حذك ؟

دأب الماشكينات يتأمل سالم وهو يفكّر : أم أنت أبي لائني يجب أن أتعلم منه ؟
كيف مررت يا سالم كل ما قاسيته في جسمك وفي عقلك دون أن ينكر حضور
نفسك ؟ كيف تظل تعطى كل شيء لأخيك ولا ينك ولي . ماك ووتشت وحيك دون أن
تطلب شيئاً لنفسك أبداً ؟ أيمكن أن يكون المرض هو الذي يهب كل تلك الطاقة
على طلب أم أنها نحن المرضى ؟ ما الذي يدور في عقلك حقاً ؟ وما الذي يجب أن
تتعلم منه يا أبي ؟

قال البشكابي فجأة بشيء من الانتفاح: قلل لي يا سالم. هل مازلت تفكّر في زميلتك لينا؟

تهض سالم بجذعه وهو يجلس وقال الجده يشى من الذهول :
- اين هنتت شفقة انت

ما الذي أعرفه؟

- ٣٠- ممداداً مسائى؟ اليوم ، لأن ، كانت معنٍ وكانت أنت أيضاً معنٍ ..
ظل جده ينتظر تحوه متسائلاً . فاعتذر سالم في جلسته من جديد وقال :

- إنما لم أفك فيها أبداً من زمان ، إن خطرت على ذهني فقد كنت استغفر الله للذين ، ولكنها اليوم .. نمت متأخراً في الليل بعد رجوعي من العمل ، تمت قرب الصباح فجأته في المنام ، ربما هذه أول مرة أحلم بها . لابد أنك تعلم ماتم تسألكني ..

قال الباشكاش بهدوء : لا يا ولدي ، أنا لا أعرف . لكن أحلامنا تقول لنا الحقيقة أكثر من مسحونا ، فماذا قالت لك ؟

حول سالم وجهه عن جده وقال بصوت خفيض : لم تقل شيئاً . كذا أنا وهي في زورق على النيل وهناك غناة لا أعرف من أين يأتي . هل كان ملاحاً في زورق أو هل كان الغاناً ، أصوات طيور في السماء ، ولكنك كذا سعيدين ثم جاء ظلام وأخذ الزورق يهتز بنا وعدت ليسي يدها نحوى وعدت لها يدي فانقض فرقنا طيار أبيض ضخم له مخالب كبيرة ووقفنا خائفين كان أحدهنا يمسك الألبار ولكننا بعد ذلك في مصر طوبل مظلوم كان سجن وكنا نجري معاً ، تعرف أن شحضاً يمارينا ونريد أن نصل إلى آخر هذا المر لا أن هناك نوراً في نهاية ، صحوت بعدد أيام ووجهك أنت آخر شيء في العالم أو أول شيء فتحت عليه عيني . فما سمعت ولدك يا جدي ؟ هذه أول مرة تزورنى هي في الحلم وأول مرة تسألى عنها من زمان . فلماذا ؟

رفع سالم إلى جده عينين ملهمتين فقال الجد بلهجة فاطمة :

- لا أحد يفسر حلمك غيرك يا سالم ، أنا أعرف الآن أن الانضيل لا انطق بما لا أعلم ، لكنك أعرف أيضاً أنك تستحق النور الذي رأيته في حلمك ، المهم يا سالم لا تخطئ النور حين يجيء .

- لا أفهم يا جدي .

- ربما تفهم معاً يا ولدي ، ربما لا يكون الوقت قد فات ، اليوم أنا أيضاً أريد أن أفهم ..

أطرق الجد قليلاً ثم رفع رأسه بعد فترة ، كان يبدو عليه الإجهاد لكن صوته قلل وأضاحى تماماً وهو يتكلم .

- أنا لم أقل لك يا سالم كل ما سمعته من أبو خطوة عندما رأيته آخر مرة .

هل تذكر أني حكت لك عن بشري حلم بها لي ولم يفصح عنها ؟ يومها أيضاً أعطاني الصحاب الذي أوصى بأن يظل دائماً قرب قلبك وذهب في اليوم التالي وكان يوم الخميس لأودعه قبل السفر ، جلست إلى جواره وتفسى تراودني أن أسأله : ماهي تلك البشرى ومتي تتحقق ؟

سامحنى الله لأنى ساعتها كنت أشك فيما سمعته منه وقالت لي نفسى إننى حتى لم أر أياً من كراماته التي يتحدثون عنها وأنى كلام سالته كان يتهرب من الجواب . استجمعت شعاعتي وقررت أن أسأله لكنى رأيت وجهه يشبح فجأة وأصبحت سقطت بوسوه في ثم غامت عيناه ، أصابيسى الذعر أنا وكل من في الكتب ويدأتنا نجرى هنا وهناك ، فتحت له أزرار قميصه وأحضر أحدهم ما رشه على وجهه وحين صرخت أين الطبيب ؟ جرى البعض يستدعون طبيباً ، لكن ذلك كله لم يستغرق غير دقائق قليلة أفاق أبو خطوة بعدها كذا كان في ستة من التوم ونظر إلى بنى حولي وقال بهدوء واستغраб : كيف يسبق جنائزى موكب وشربة وانا لست من الحكام ؟ وما حاجتى إلى التشريفة وأنا يكلفين قلب واحد ظاهر يصحيضى إلى مثواى ؟ علا صوتي وأصوات الجميع في المكتب ونحن نكرر بعد عمر طويل يا حضرة الباشمحضار .. إنك الله فينا يا رجل .. أنت أغلظ عندي من كل حكام الدنيا .. هل تستدعى الطبيب ؟ فرد علينا وهو يسوى ثيابه وبمحض : لماذا خفتم هكذا ؟ أنا كنت أمثل عليكم دوراً ، أريد اليوم أن أزوج قليلاً من العمل ثم عاد بعد ذلك يمرح معى ومع الجميع . لم أره في حياته يا سالم أكثر مرحاً مما كان في ذلك اليوم . وعندما قلت له إننى جئت لأودعه قبل سفرى قال

ستحدث في ذلك مما ، ثم أمسك يذراعي وهو يقول : ألم أصارحكم بأنني أريد أن أزوج اليوم ؟ وقال لزملائه وهو يتجه نحو الباب : أراكم غداً إن شاء الله . فرد أكثر من واحد بعد قد إن شاء الله يا حضرة الياسمحقر . غداً الجمعة . فقال لهم نعم ، يوم مبارك .

وعندما خرجنا من باب المحكمة قال وهو يتوكل على رزاعي كائناً تستأذن حدبياً بدأناه : سأقتني يا أخي توفيق عن الكرامات ، ما الذي يشغل بالك عنها ؟ هل سمعتني أنت أتحدث عنها مرة ؟ ردت وأنا أكاد ارجف لأنه حدس ما أفكر فيه « لا » فقال : وصدقني أنت ما تحدثت عنها مع غيرك . كل ما يحدث خارج نفسك لا وزن له . المهم هو ما تطبق . الحق في داخلك أنت ، والكرامة الحقيقية هي أنت . حتى السحرجة والجواة يتلذذون الأشياء ، من مكان إلى مكان ويفعلون الظاهر ويظهرون الخفي فهل يقرئهم هذا من رحمة الله تعالى ؟ فردت ولكن الكراهة علامة ، قال وقد تكون فتنة وقد تكون امتحانا ، ربما يفتر إنسان في شبابه بما وحصل إليه ولكنه إن لم يرجع ثانية عن التلذذ فسيظل دائماً عبداً للظهور وسيطغى في الفتنة . فلما حصلت عليه ولكن الكرامة علامة على الوصول : أليس كذلك قال أنت وما تؤمن به يا أخي توفيق . الوصول الحق هو أن ترى النور في قلب الظلمة وقد يكون أقرب إليك مما تظن . لكنك لن تراه قبل أن ترى نفسك . قلت ضاحكاً صارحتك من قبيل يا مولانا أنه من الصعب أن أحب نفسي ! فرد أبو خطوة بما يشبه نداء الصبر فانتظر إذن حتى تحبها ! ولا ترجع ثانية إلى ذكر ذوبك فتذنب بتذكران الرحمة . حين تصعد التويبة فاعلم أنه لا صغيرة إلا في قابلك عدل ربك ولا كثيرة إن قابلتك فضلك وأحسن الظن بفضل خالقك . ثم سكت أبو خطوة بعد ذلك لحظة رزق ضئوله وهو يسأل عنك : حفيديك اسمه سالم . أليس كذلك ؟ ولم ينتظر ردك . بل قال : هو ما هو يابن الله . وأنت منه معه لأن نوره سبصحب عمله .

ثم وضع يده على كتفي وقال ستصل يا أخي إلى ما تطلب بفضل مولاك وستعلم وحدك أن المكافحة والانتظار باب للرحمة واسع . لكن لا تتجل الوقت كما قلت لك فالوقت مختلف مثلك ومسير مثلك ، أما أنا فسأبتلوك غداً لشكيل ما بداهاته فلا تساور اليوم .

ودعني بتلك الكلمات ولم أكن أعرف ولا كان أحد من في المكتب يعرف أنها في اللد ، في يوم الجمعة المبارك . مستكون شحن وأسيوط كلها تترقباً في جنازة أبو خطوة ، وأن ستكون هناك جنازة تسقبها للوا ، في الشرطة متقدمها الموسيقي والطبلول وصفوف الجنود . قيدت كلها كما لو كانت (تشريفة) لجنازة أبو خطوة . وشاركت في حمل نعشها يا سالم فكان خليفها كالريشة . فهل أكمل بذلك ما بداهاته ؟ قل إنك يا سالم

قال سالم الذي كان ملتبها لكل حرف من كلام جده : ألم يقل يا جدي إنه يريد قليباً ظاهراً يصبحه إلى متواه ؟

فقط أبا الكتاب وقد بدأ الإجهاد يتسلل إلى صورته : ولكن خاطئي ! لم يزرمي النور .

سكت سالم قليلاً ثم قال : عندما كنت أخاف وأنا طفل صغير من عقاب أبي أو من المرض كنت أتني هنا إلى غرفتك ، حتى ولو لم تكن أنت فيها . فكنت أطمئن . كنت أعرف أنك تحبني وأنك ستشادعني . وفورية أيضاً .. فورية لا تدب أحداً مثلها لأنها تعرف أنك تحبها ، أقصد يا جدي ..

ثم سكت مرة أخرى وبدأ في وجهه الألم وهو يقول : أنا لا أفهم كثيراً من الأشياء ، ولا أعرف أن أنكلم ولكن قرأت معك في كتبك أن النور نور لأن ضوء يهدى ظلمة النفس ويجلو البصيرة وأنت يا جدي ..

ثم سكت مرة ثالثة و قال في يأس : ليتنى أستطيع أن أتكلم : أنت الذى
تستحق يا جدى . أنا لا أستحق .
ظل جده ينظر إليه وقد انسع عيناه وبدأ صدره يعلو ويهدى ثم قال : ولكن
الآن أراك يا سالم : نعم ، أنا أراك !

ثم نزل من فراشه فجأة و تقدم من سالم وهو يخرج على رجله المريضة
ويخوض في جلابه الأبيض الواسع . مد يديه الاشتثن نحو حفيده و راح يشير
ياصبع مرتعش وهو يقول : أنا أرى ! أرى يا سالم !
التفت سالم خلله لينظر حيث يشير جده . ولكنه ترعن فجأة في مكانه فاستدار
ليجد جده قد ارتفع عليه يريد أن يتثبت به . ثم أخذ ينزلق بيته . وقد ارتحت
ذراعاه فهمس في ذعر وهو يرفعه ليمنعه من السقوط : لا ! لف يا جدى ! اقف !
قبل أن يصرخ يانعلى صوته مناديا : يا فوزية !

(٦)

انقطع سالم عن الذهاب إلى عمله .
أرسل المدير إلى البيت من يسأل عنه فلم يخرج من غرفة جده . وقال شعبان
الرسول إن سالم يلزم جده الرئيس .
لم يترك جده لحظة مدة سقط بين ذراعيه ، ومنذ أن قال الطبيب إنه شلل
كامل . كان شعبان قد قرر أن ينقل والده إلى المستشفى لكن الطبيب العجوز الذي
كان يعالج الحاج إبراهيم قال له : كما تشاء ، ولكن رب البيت هو رب المستشفى ،
ولعل أسرته تهتم به أكثر من المرضيات هناك . وتشتبث سالم بإن يبقى جده في
البيت . فاتحتي المدير في هر الطبيب على البيت مرتين في الأسبوع . وأن يأتى
المرض كل يوم لإعطاءه حقنة وتغيير المحاليل التي علقوها في عمود السرير .
 الجميع أنه ظل يهوى في ظهيرة كل يوم . فقد تعلم سالم بسرعة كيف يقوم بهذا
العمل ، وبعد أن يفرغ منه كان يجلس على كرسي إلى جوار فراش جده ويمسك
الكتاب التي تعود أن يقرأها ويردد بصوته عال الأدبية التي كان يسمعها منه .
لم تكون عين الياشكاتب تطرف ولكن حقيقة كان واثقاً من أنه يسمعه .
وكان سالم يؤدي كل صلاة مرتين . مرة لنفسه ومرة لجده . وباستثناء فترات
القراءة كان يطفي نور الغرفة أو يغلق الشيش .
وفي ذلك الوقت وصل إنذار ثان للسكان بضرورة إخلاء العمارة الآيلة للسقوط
والا تم إجلاؤهم بالقوة . فلم يتحرك أحد . قالوا أين تذهب ؟ غير أن شعبان كان
قد اتفق بالفعل ، بواسطة يائى السجان المستوردة . مع أحد الملائكة على أن يبيعه
نصف أرض البيت بعد هدمه . وقيض جزءاً من مقدم الثمن . أجر شقة في

قال متخيلاً : نعم أذكر وحتى الان لا أعرف لماذا فتحت يومها ، ولا أفهم ما حدث .

- لأنه كان يحب دانساً أن يبقى في النور . أحب جدي الظلمة فقط وهو مريض ، وله أحسن بما سيحدث له فراراً أن يودعنا في النور . لم يسمع سالم كلمة يودعنا ، كان مستغرقاً في انكاره وحياته فاكتفى لشبيطه :

- لم أفهم كل ما قاله لي يومها وهذا يعذبني يا فوزية ، كان يريد مني شيئاً لكنني لم أعرف ما هو وسألته عن .. عن أشياء لم تتحدث عنها من زمن طويل . وتكلم أيضاً عن النور .

قالت بائسة : لو كنت سعكتها لحظتها .. لكنني أعرف أن جدي يحبك الخير .

ثم قالت في هذه : افتح الشيش يا سالم من أجلك لامن أجده . فهو الان لا يفرق بين نور وظلمة .

لم تر فوزية النظرة الغاضبة في عيني سالم ولكنها شعرت بها في صوته وهو يسألها :

- من يدرك ؟

فردت عليه بالهدوء ، نفسها : هذا كلام الطيب .

قال سالم وقد ازداد غضبه : وما الذي يعرفه الطيب ؟ جدك من الصالحين وسيشفيه الله ويقوم سالماً بإذن الله ..

- حتى الرجال الصالحون يا سالم ..

ثم سكتت قبل أن تقول بلهجة مختلفة : لم ألتكم معك في هذا الموضوع . كنت أريدك في شيء آخر . أردت أن أسألك : هل وقعت على توكييل لوالدى ؟

هي الميرة القريب واستعد للانتقال إليها مع الأسرة . وقال له السكان الذين شعروا بهفته على إخلاق العماره في أقرب وقت إن الياشكاتب ما كان ليتصرف هكذا .

فرد عليهم : وأنا ماذا بيدي أن أفعل ؟ هل استطيع أن أمنع البيت من الوقوع أو أن أقف أمام الحكومة ؟

لكن بعض السكان المقدرين الذين فهموا أن المسألة متشعبة بالفعل دفعوا لشعبان في السر مبالغ كمقدم لإيجار إسكانهم في العمارة التي سبببها في الجرء ، الذي يخصه من الأرض . وحدها البنت إنصاف كانت لا تتكل عن البكاء وتزور شعبان كل يوم وتتوسط فوزية لديه فيعدها خيراً إن شاء الله . ولكنه يؤنبها بصورة عابرة : هل كانت ضرورة هذه المساحرة التي جلبت كل المصائب ؟ فندى وسط بيتها : نعم وكانت ضرورة ليكتفل في الدنيا ويعذرها .

لم يكن سالم يعرف شيئاً عمما يدور أو عن قرب انتقالهم إلى البيت الجديد . اعتنقت في الغرفة التي أصبحت لها رائحة المستشفيات . غير أن فوزيةدخلت عليه مرة بعد أن انتهت من تحميم جده في طست بالغرفة وأرقدة في قرابة بعيدة كان يلتف حوله القطا ، بإحكام عندما دخلت فوزية فصرخ فيها :

- إغلقلي الباب بسرعة !

أغلقت الباب كما أمرها . وكان من الصعب عليها أن ترى شيئاً في الغرفة المظلمة ، فراحت تتجمس طريقها نحو فراش جدها وسجحت سالم من يده وأجلسه بجوارها على الكتبة المواجهة للفراش وقال له :

- لماذا تبقى في الظلالم يا سالم ؟ لماذا لا تفتح الشيش على الأقل ؟

- جدك لم يكن يريد نوراً في الغرفة في الفترة الأخيرة .

- ومع ذلك فقد كان الشيش مقنعوا يوم سقط . لا تذكر ؟

قد وضعت من زعن . وتقول لي إنه كان يتمنى نورا ؟ أنا أراه هناك وهو مدد على السرير في القلام كالفنلة وكله نورا ! ولكنك كان يحبنا يا سالم ويحب لنا أنا نعيش .

هذا فوزية يدها وضمت أخاها إليها وهي تقول : معد حق يا سالم .
أنا لا أعرف وأغلق الطبيب أيضا لا يعرف . لعله بالفعل يسمعك وأنت تكلم وتقرأ له ولكن من أدرك أنه لا يتعذر إن كان يسمع ولا ينطق ؟ لا تعذر جدك يا سالم . أنت تعرف كم يحبك .

قال سالم : وهو يعرف أيضا كم أحبه .

- إذن فلا تعذر . جدي لا يحب ذلك له ولاك .

هذا سالم : لماذا تعذريني أنت بكلامك يا فوزية ؟

- أنت سالتي عملا كان جدي يريد أن يقوله لك يوم مرضه .

لهم سالم يا فوزية طفولي : وماذا كان يريد يا فوزية ؟ ليتني أعرف ؟

- يريد ما قلت لك . ويريد أن أشارك في رعايته لأنني أستطيع أن أفعل مثل ذلك بالبسيط . لا يريدك معه طول الوقت .

ساخت فزرم سالم الصمت بدوره . ثم قاتل فوزية ومشت حتى سرير جدها انحنت فوقه وقبلت جبينه برقة . ثم توجهت نحو الباب وقالت لأخيها بهدوء قبل أن تخرج :

- افتح النور يا سالم . جدي يحب النور .

وقالت لنفسها في أنس وهي تخرج : ولكن هذا لن يستمر طويلا !

★ ★ ★

حدد شعبان موعد إنتقالهم من البيت إلى شقة الميرية الجديدة .
 جاء عمال فكروا قطع الأثاث وكوموها في أركان الغرف . كان قد قرر أن يبيع بعضًا من الأثاث وأن ينقل بعضه الآخر إلى المسكن الجديد وأصبحت الشقة

- ٢٢٦ -

رد سالم دون مبالاة : نعم ، أعطاني ورقة وقفت عليها . لا أذكر ماهي .
- كيف لا تذكر ؟ هذا شيء مهم . وأنت لا تعرف بالطبع أن أبيك باع جزءا من البيت ؟

كان يجهل ذلك لكن فوزية شرحت له في حرم من أنها لم توقع على التوكيل لأنها تريد أن تعرف رأسها من رجلها . وبكلماتها سالم مشكورا من أجلها حتى الآن . إن كان والدها قد قبض مبلغها من المال فهي تريد أنه تأخذ نصيتها منه وأن تعرف كيف ستصير الأمور بعد ذلك . عليها الآن أن تحمى مستقبلها ومستقبل سلوب . لم ثات الإعارة التي انتظرها فراج ولا تظن أنها سباتها وهي لا تزيد أن تكون تحت رحمته أو تحت رحمة أبي مخلوق .

كان سالم شارداً وهي تتكلم وسالها : ولكن لماذا يابني الأرض ؟
نظرت فوزية إلى وجه أخيها في العنة التي انتسب إليها قرأت أنه يذكر نظره على سرير جده . فأنسكت بوجهه وحولته نحوها وهي تقول :
- اسمعني يا سالم من فضلك لو طالبت أبي بضمير من المال الذي قضي
فيه تساعدني ؟

حاول سالم أن يستجمع تفكيره وقال لأخته :
- بالطبع سأساعدك يا فوزية . أي شيء تطلبينه سوف أفعله . تنهدت فوزية ثم قالت بعد فترة :
- وكيف ستساعد نفسك يا سالم ؟

ـ أنا .. أنا لا أحتاج إلى أي مال . عندما يشغله الله جدي سائز للعمل .
قالت ببطء : لو كنت تحب جدك حقاً فادع له أن ...
ـ ثم توقيفت وهي تتسائل : ما الذي يمكن أن أقوله لسالم ؟ أخاف عليه أن يمرض من جديد أو أن يسوء مرضه . لو بيدي أن أجعله يسلم بالحقيقة ؟ أنت تقول لي يا سالم إن جدك من الصالحين ؟ لو تعلم كم أحبه ! لولا ربيما لكت أنا

- ٢٢٧ -

وكانت لبني تنتظر وحيدة في الصالون الخالي الذي لم تبق فيه سوى أربعة مقاعد متباينة . كانت تليس من جديد بلوزة بيضاء ينصف كم (جونلة) واسعة كما اعتادت منذ سنتين . قالت لنفسها وهي تتلفت حولها : لماذا أنا هنا إنما الذي جعلني أتي الآن ؟ قد تكون غلطة . لا يهم . كل شيء غلطة . أنا نفسي غلطة لا فائدة منها . تجاهلت طويلاً ما قاله أبي في ليلة سكره . ليكن . جاء سالم إلى عيادته قبل سنتين فيما جدوى أن أراه الآن ؟ لو كان سالم مريضاً حقاً فلن أستطيع أن أساعده . لن أستطيع حتى أن أتصفح بيان يذهب إلى المصححة في روما ! رفض أبي أن يقول شيئاً حين سأله عنه فلم أفتح معه الموضوع مرة أخرى . الدكتور غارق في عوالمه العظيمة ولا وقت لديه لأمثالنا . لا يكفي الإن عن العمل ليل نهار حتى الويسكي انقطع عنه بعد ليلة سكره الكبير . أظن أنه كان مفعلاً لتنفسها لأنها قاتل الدكتور صفاء . لم أفهم كل كلامه لكنه تحدث على أي حال عن الكتب . لعله شارأ إلهياً يجهها حتى الان وإن كانت هي شقة ملماً ؟ عمال أنا وذلك الان ؟ تذكره أو تحبه المهم أن لكل منها حياته فماذا عن حياتي أنا ؟ أين صرامة بعد أن عولجت في روما وتحسن الأحوال ؟ واظببت على الآلوية والعلاج . غطست في حمام بارد وحمام ساخن وحمام فاتر وشقيقت تمامًا ! وقبل أيام عندما غطست في حمام السباحة في النادي قررت لا أطفو من جديد . قال عقلني هذه هي النهاية المنطقية الجيدة لواحدة مثلي شقيقت من كل شيء حتى من الرغبة في الحياة ! تمنيت أن يتنهى كل شيء ، في تلك اللعنة الوجراحة في قاع الحمام . لكن عندما نفذ الهواء من الصدرى خانش جسمى . راحت ذراعى تضربان الماء بجنون ونها ووصلت إلى السطح كنت أشقيق وأصرخ وأطرد من جوفى باستماته ما ، الحمام وطعم الكلور . تذكرت أن جبني غريبى لا علاقة له بما يقرره عقلى . لا علاقة لعقلى بشىء . قرر لا أرى سالم وهو أنا هنا أنتظره . لماذا ؟ حكايتها انتهت

خالية باستثناء غرفة الباشكتاب التي أرجاحتها شعبان حتى اللحظة الأخيرة . بدأ الشقة الخالية واسعة جداً ، أصبحت الأصوات والخطوات ترن فيها وتتردد في صدى ضخم كتيب . سمع سالم من أبيه أن هذا هو الحل الوحيد لأن العمارة على وشك الانهيار فسأل عما سيفعلون بالنسبة لجده وطمهاته شعبان : إنفقت بالطبع مع عربة إسعاف وستنزل غرفته كما هي . سريره ومكتب وكل كتبه . سنكرم حضرة الباشكتاب حتى ...
ولم يكمل عبارته .

وكانت فوزية مشغولة مع أبيها في الترتيب للانتقال من البيت . انفقو أيضاً أن تنتقل هي وفراج وسلم إلى شقة الميرة لتشارك في تنظيم المسكن الجديد وفي رعاية جدها . ولتبيقي هناك إلى أن تجد الشقة المناسبة التي كانت تبحث عنها لنفسها . حصلت من أبيها على جزء من تبعيتها من بيع الأرض وحصلت مع فراج أن الشقة الجديدة التي ستضع فيها فرجاً من المبلغ ستكون باسعارها هي .

وأنشاء الاستعدادات الأخيرة دخلت فوزية غرفة جدها . كان سالم يفتح جزءاً صغيراً من الشيش وجلس على الكتبة معتمداً رأسه بيده . يستريح من جهد حمل ما دار بيته وبين جده يوم سقوطه ويحاول أن يفسر ويعرف الواقع راسخاً دخلت فوزية فقالت له :

- هناك واحدة تزيد أن تراك يا سالم .

ظل ينظر إلى آخره مست聆هما فقالت بهدوء شديد : هي لبني .
هي سالم واقفاً حين سمع الاسم وقال : «جدي» ثم قفز من مكانه واندفع نحو الباب ، لكن فوزية سدت طريقه يذراعيها وقالت :

- لا . لن تخرج بالبيجاما : ارتدي ملابسك .
وابتسمت فوزية لنفسها وهي تطلق الباب ورائها : كنت متاكدة أنني أعرف هذه الأرواح ! يارب !

شعرها ! لكنه بدلاً من ذلك كله كرر سؤاله :

- لماذا تبكين ؟ .. هل قلت شيئاً ؟

مسحت لبضي دموعها براحتيها وقالت بعد لحظة :

- لا ياسالم . أنت لم تقل شيئاً . تمنيت أن تقول شيئاً !

سألهما في حيرة : مازا أقول ؟

فأبتسامت ابتسامة صغيرة وهي تقول : حدثني مازا يقول جدك عن الأرواح ؟

- يقول كل الأرواح جميلة وكلها طيبة .

- وهل قال لك ياسالم ما الذي ينفذ هذه الأرواح ؟

- نعم . قال الحب .

النهاية

وها هو الجواب : أنت هنا من أجله ! تعرفين في قلبك منه حمّت ومن قبل أن تأتى أنت هنا من أجله ، حتى ولو كان قد فقد كل عقله ، فهو نفسه سالم . سالم الذي كان يفاجئك وجهه في روما وفي مصر وقبل السفر وبعد أن رجعت . سالم الذي فعلت كل شيء لنطركيه من حياتك لكنه ظل يظهر لك دون توقع فيحيسك بذلك وأنت تعيشين هناك على شاطئه النهر في روما أو ياتي ليجلس أمامك على رصيف المقهى أو ينام إلى جوارك في الفراش . هو نفسه . سالم ، الذي تمر أسابيع وشهور لا تذكره وإذا به فجأة يحيط بك كفالة ترين كل شيء من خلالها ولكنك لا ترين غيره . ما هنك إن كان مرضاً ؟ لماذا طوال تلك السنين ظل الأصحاء والأقواء الذين رأيتمهم أشباعاً عابرة وبقي هو يغيب ثم يعود بلا انقطاع ؟ لو ترجع يا سالم أيام خوفنا معاً ! لو يرجع للدنيا طعم حقيقي غير طعم الكلور في حمام السباحة ! لحظة واحدة من ارتعاشه اليد ودققها حين تمسك بها ، من هناك قلبك ، من رائحة جسدك وهي تنفذ إلى مسام الجلد ! لحظة واحدة من الخوف الحقيقي والحب الحقيقي بدلاً من هذه الحياة الكتب ، من المشي بلا هدف والكلام بلا معنى وفتح الأبواب وغلق الأدراج وطلوع السلم والردة على التليفون وانتظار السيارات وت鹺اع كاذب للحزن وقناع أذكي للضحك لمقابلة أقنعة الآخرين ! لحظة واحدة تبعث فيها الأرواح الميتة لتنفس كما قال جدك ! ولكن كيف تبعث هذه الأرواح ؟

سألهما سالم في ازعاج : لماذا تبكين بالبني ؟
لم ترد . وراح يراقبها بعينين تلقين ودموعها تنساب دون أن تتشنج أو يصدر عنها أي صوت . وكانت أفكار كثيرة تتدافع في ذهنه وتطارد بعضها دون أن ينطق ، أراد أن يسألها كيف خرج من بينها في ليلتها الأخيرة معاً . وأن يتلو لها سائكلفر عن ذنبي بعد أن يشفى الله جدي ، وأن يسألها لماذا غابت لون

تنويه

رجعت أثناء كتابة هذه الرواية إلى بعض الدراسات والكتب الصوفية . وأخص بالذكر - بين كتب أخرى - «المواقف والمخاطبات للنفرى» ، وكتاب «الكنز في المسائل الصوفية» للاستاذ صلاح الدين التجانى .

بهاء طاهر

lilas.com/vb3
ola_mfs

رقم الاداع: ١٨٨٩٥ / ٢٠٠٠
I - S - B - N
977 - 07 - 0749 - X

رواية ثالث

بهاء طاهر



تعطى الورا

الإهداء

في ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير
يحيى حقي .. رحمة الله
أنتسم عطر الأحباب !

بهاء طاهر

٧ يناير ٢٠٠١

قال أستاذنا الحكيم :

- الناس أجناس والنفوس لباس ، ومن تلبس نفسها
من غير جنسه وقع في الالتباس .

فسألناه :

- يا معلمـنا ، فهل النفس قناع نرتديه إن أحـبـناه
وانـ كـرـهـناـ نـبـذـنـاهـ ؟

فرد مؤنـباـ :

- أو لم أقل لكم من تقـنـعـ هـلـكـ ؟
قـلـنـاـ :

- فمن ينجـوـ يا مـعـلـمـناـ ؟

أطـرـقـ مـتـأـمـلاـ ثـمـ رـفـعـ رـأـسـهـ يـجـولـ فـيـ بـيـصـرـهـ
وـقـالـ فـيـ بـطـءـ :

- يا أـبـنـائـيـ وأـحـبـائـيـ ، أـفـنـيـتـ الـعـمـرـ فـيـ الـبـحـثـ
وـالـتـرـحالـ ، فـمـاـ عـرـفـتـ إـلـاـ أـنـ الـجـوابـ هـوـ السـؤـالـ .

الغلاف رسم

وتصميم الفنان :

محمد أبو طالب

القسم الأول

سالم

بناء الحاج السعدي والد الباشكاب في مطلع القرن ، تشغل الأسرة طابقه الثالث وتسكن الشقق الأخرى الموجزة مذ بنا ، البيت أسر من أصحاب محلات القرية ورث أبناؤهم منهم ومساكنهم وهم نجار ومنجد وعطار وكهربائي ومتاجر أحذية ، كان الباشكاب هو الموظف الوحيد من سكان البيت ، وكانت جميعاً يحترمونه ويحبونه .

لا يعرف سالم لون البيت أو طلاء الخارجى الأصل ، فقد دعي عليه بلون الحال الجامع بين الرمادى والبني ، والذى يشبه لون المساجد والتکايا والأسبلة الائرة المنتشرة فى الحى ، ولكن من الواضح أن اليد الأكبر اعنى بزخرفة بيته عندما بناه . فالبيت جوار الشرقين الحجرتين فى كل طابق ، كانت هناك شرفتان أصفر ، إفريزهما من حديد مشغول على شكل أفرع كروم مقوسه تتدلى منها عناقيد غبار ، وتتوسط الشرفات بامتداد طول العمارة من تاجرين متقابلتين زخرفة منقوشة فى الحجر كضفائر مجدهلة تحفل برقاعاتها زهر حجرية مدورة الأزرق ، وكان هناك أيضاً سور حديدى واطي ، يحيط بمدخل البيت وبمحضن الممر الصغير الذى يسميه بعض السكان (الجنبية) لأن يضم إلى جانب شجرة التمر جنة اثنين من شجيرات (الفيكىكس) ذات الأوراق اللامعة المقليحة المسماة (ودن القبيل) ، والمزروعة فى كثير من بيوت الحى . غير أن أبو زيد بواب العمارة العجوز لم يعد يستطيع العناية بهاتين الشجرتين كما كان يفعل من قبل ، أصبح لم يشيخوخته شبه مقيد فى غرفته الموجودة أسفل السلم وأهل الرى المتقطم ، فاخصفرت بعض الأوراق وتهافت ، ولكن الأشجار هلت سليمة فى مجلها تهوى للبيت مدخلها زاهى الخضراء .

كانت تلك هي واجهة العمارة التى تطل على الشارع الرئيسى المتفرع من ميدان السيدة زينب . أما جانب البيت المطل على ناحية الحارة والجانب الآخر فتشغلهما مواقد خشبية مستطيلة متوازية .

عاش سالم منذ طفولته فى رعاية جده الباشكاب .

لم يكن يعرف وهو صغير معنى هذا اللقب ولا تلك الوظيفة ، لكنه كان يسمع آياه يرد على استفسارات بعض الجيران بعبارة «سائبان الوالد حضرة الباشكاب» ، فلهم أنها وظيفة مهمة .

وعن سالم على الدنيا وجده على المعاش . كانت الجد أحسن غرفة فى البيت ، تطل على البحرى وتفتح على الشرفة الواسعة المعروفة فى البيت باسم (التراسينة) ، والتي تعلو قاعدتها المكتونة من اسطوانات حجرية صغيرة متباورة ، شبابيك خشبية مشغولة مثل المشربيات ، تكسر حدة الشمس فى النهار وتفتح على مصاريعها للهواء فى المساء . واعتاد الباشكاب أن يقضى وقتاً طويلاً فى هذه الشرفة كل ليلة قبيل أن ينام ، يجلس على مقعد أمام نافذة مفتوحة ويتتابع ما يحدث فى الشارع المردم بالقادمين من ميدان السيدة زينب والمتوجهين إليه ، يحمل النسيم إليه فى موسم الزهر عطر شجرة «التمر حنة» المزروعة فى الممر الصغير أسفل البيت .

أما غرفة الباشكاب نفسها فكانت تضم سريره النحاسى الكبير بأعمدته الأربع المعلقة فيها التاموسية ، والمكتب ذو الأدراج العديدة المغلقة باستمار ، والذي تعلوه أكواخ من الكتب الجلدية فى ناحية ، وفي الناحية الأخرى ملقات قديمة باهتمام الخضراء ومصفحة الأظراف .

وعندما كبر سالم قليلاً عرف أن الشقة التى يقيمون فيها هي شقة جده . وأنه هو أيضاً مالك البيت الذى يضم ست شقق موجزة ، كان بيته من أربعة طوابق

ولد سالم في ذلك البيت وعاش هو وأخته الأكبر فوزية والدتها شعبان الذي نظر بقيمته على أخيه الباشكاتب بعد زواجه وإنجابه . ولا يذكر سالم أنه التي ماتت بعد مولده بستين . ولكن رأها في الصور جميلة جداً، مثل اخته فوزية، لها وجه مستدير وشعر كستانى غزير يسترسل بعيداً وراء، الكتفين، وعينان ملوشان كريزيتين لامعتين ورثهما هو وأخته .

واعتماد الباشكاتب ترقيق أن يصبح معه حفيده من الصغر لكن يصلها الجمعة في مسجد السيدة زينب، وعلمه من وقتها أشياء : أن يذهب إلى المسجد من طريق وأن يرجعاً من طريق آخر لأن هذا يزيد الثواب . وأن يشترياً أشياء صغيرة بعد الصلاة ، ليسمونا أو بعض الماكحة أو البخور . وكانت فوزية تمنع أحياناً وتقول إن البيت أصبح مكتساً بالليون والبخور ، فيرد الباشكاتب ميسما وهو يربت على خدتها : أهدي الزيارة للجيران . ثم يشير بإصبعه للسماء، وهو يقول شرعاً بعد صلاة الجمعة ثوابه هناك .

كان الباشكاتب يحب حفيديثه كثيراً . هي الوحيدة المسنوح لها بإن تنطف غرفته حتى في حالة وجود شغاله في البيت ، ترتيب الملفات القديمة والكتب التي تعلو المكتب وتختبئ التراب . ولكن لم يكن من حقها أن تغير ترتيب هذه الملفات أو أن تفتح الأدراج التي يحتفظ هو وحده بمقاييسها .

واعتماد أيضاً أن يدخل معها الطبخ ، يعطيها تصانع وينوّق الطعام . يقتصر زيارة اللح أو الاكتفاء عند هذا الحد في تحمير البصل . ويردد أشعاراً وأمثالاً عن معظم أنواع الطعام . فعلى يوم طبخ القلقاس يضع يده على صدره ويردد «إذا سألك عن قلب قلبي فقل قاسي وقل قاسي» . وعندما تطليق فوزية الرجل الضarser ، يتناظر يائاه يعرج وهو يقول «العاقل لا يأكل رجله» . أما في يوم الملوخية التي

كان يحبها كثيراً فكان يفرد يده على اتساعها ويقول بلهجة فخمة «طعم الملوك يا ملوكة» . وكانت عنده عبارات كثيرة من هذا النوع تجعل فوزية وسامي يضحكان دائماً مع أن العبارات ، والحركات أيضاً ، لم تكن تتغير في أغلب الأحيان . ولكن كانت هناك أشياء اختص بها الباشكاتب حفيدهه منذ الصغر ولا تشارك فيها اخته ، كانا يجلسان معاً فوق السطح ويتسامران ، في الشمس شتاءً، وفي الأسيمات صيفاً . يكلف الجد حفيدهه بشراء كتبات كبيرة من الترسن توضع بيتهما في طبق . ويعصر الباشكاتب عليها كثيراً من الليمون فنانلاً لحفيدهه فيما يشبه الأمر «كل .. هذا ينفي الدم» ثم يكل بضحكته الطلقة «لكي لا يصفر وجهك مثل أبيك» .

في يوم الخميس وجده من كل أسبوع تتقطع هذه الجلسات ، إذ يخرج الباشكاتب قبل الظهر ويرجع متاخرًا في الليل . يرتدى في الغالب (جاكتة) واسعة قديمة من الكتان الأبيض ، لكنها نظيفة ومكونة باستمرار ويضع فوقها - في الشتاء فقط - عباءة من الصوف البنى ، ولم يكن أحد في الأسرة يعرف أين يذهب .

وكان خروجه - ياستثناء ذلك - نادراً في الليل ، حين يذهب في أسيمات متباينة وغالباً في المواسم الدينية ، إلى حلقات للذكور .

وحافظ الباشكاتب على عادات ورثها عن المرحوم والده ، فكان هناك فارىٰ ضرير يأتى صباح كل يوم جمعة ليمرتل آيات من القرآن الكريم متربعاً على (كتبة) في المسالة الواسعة ، بينما تطوف فوزية بالبخور في حجرات البيت الخمس ، وواصل لسنوات طويلة التقليد الذى استنه الحاج السعدى بتغريق ذبيحة في المولد النبوى الشريف واستضافة منشدين يرثتون بربدة البوصيري فوق سطح البيت مع دعوة الجيران والأصدقاء إلى الوليمة والاستمتاع للبردة .

ولكن بعد إحالة الباشكاتب إلى المعاش لم تعد امكانياته تسمح بذلك، فاكتفى في هذه المناسبة وغیرها باستئجار عدد محدود من القارئين يختتمون المصحف بتناوب قراءة أرباع أجزاء القرآن الكريم فوق السطح أو في صالة البيت الكبيرة . وكان يحضر هذه (الرابعة) ويتطوع بالمشاركة فيها من شاء من الجيران . وفي ذلك اليوم كان سالم يتوجه مع أبيزيد الباب محملين بالأرغفة المشوية بالفول الناب لتوزيعها على المسؤولين والمحاججين المتخلقين حول مسجد أم العواجز .

(٤)

في جلسات السطح شبه اليومية استمع سالم منذ صغره إلى كثير من قصص جده وذكرياته ، وكان كثير من هذه القصص يدور حول معلمه وصديق شبابه، الباشمحضر السيد السناني . الذي غلب عليه لقب «أبوخطوة» . وكان الباشكاتب المحب للطشك والمرح يشهد صوته وتقيم عيناه عندما يتحدث عن صديقه، الذي لم يكن في العادة يذكره أمام أحد رغم أنه لا يغيب عن باله، ولكنه بسبب ما اعتاد أن يحكى عنه لسالم منذ طفولته . ففي الوقت الذي كان فيه الجد كاتباً حديث التعيين في محكمة (أسبيوط) في مطلع العشرينات من القرن العشرين - سمع عن الكثير من كرامات هذا الرجل المبارك ، بل وشاهد بعضها . لكنه لم يشهد بالطبع الكراهة الرئيسية التي أعطاها لقبه : أي أن السناني قد شوهد في وقت واحد ذات يوم وهو يؤدى صلاة العصر في مسجد سيدنا الحسين في القاهرة وبعشي متمهلاً في سوق أسبيوط يصافح أصدقاً ويتحدث إلى غيرهم . أقسم على ذلك أناس صالحون لا يرقى إلى شهادتهم أى شك : رأه بعضهم في العاصمة وكلمه البعض الآخر في أسبيوط وجرزواه بأن ذلك كان في الساعة الرابعة .

سأل سالم - الذي كان وقتها في التاسعة من عمره - في شئ من الانبهار والده : كيف يمكن أن يحدث ذلك يا جدي؟

فرد جده في خسوع : يمكن يا ولدي، يمكن لمن صفت نفسه وتنظرت روحه أن يفعل ذلك وأكثر منه بأمر ربِّه .

قال سالم وحيرته تزداد : ولكن كيف يصبح شخصين في الوقت نفسه ، واحد في أسيوط واحد في القاهرة ؟

ان فعل الباشكاب قليلا وهو يقول : وإن فما الفرق بين أبو خطوة وبقية الناس ؟ أنت الآن مقلل ولكن عندما تكبر ستفهم .

سكت سالم ولكن جده شرد لحظة واستغرق في التفكير ثم قال في شيء من التردد : معك حق مع ذلك . لا يمكن أن يصبح شخصين . المقصود بالطبع أنهقطع المسافة من أسيوط للقاهرة في خطوة وصل إلى هناك ثم خطف رجله عائدا إلى أسيوط في وقت صلاة العصر أيضا .

ويعد ذلك ضم الباشكاب حفيده إليه وقال بشيء من الغدر : كيف انتهيت إلى هذا في مثل ستك ؟ أنا نفسى لم أفك في المسألة أبدا بهذه الطريقة . بالعقل طبعا لا بد يكون قد ذهب ورجع . أنت ذكي ولك مستقبل كبير يا ولدي ما دامت ستستخدم عقلك .

فرح سالم لذلك كثيرا ، ولكن الباشكاب أصبح بعدها حريصا على لا يحير حفيده المطلل بالحديث عن الكرامات الكبرى المشهورة التي لا يستوعبها عقله . لم يحك مثلا قصة إيقاف القطار المتحرك من أسيوط إلى القاهرة الذي كان يقل فاقضايا أراد إيهذا أبو خطوة ، وأهم من ذلك أنه عرف أن الوقت لم يحن بعد ليحدث حفيده عما يخصهما معا من قصص أبو خطوة ، فاقتصر في تلك الفترة على حكايات صغيرة كانت تعجب سالم وبخبط لها في كل مرة . منها عندما طلب أحد المحضرين لنجانا من القهوة في مكتبه والباشمحضر في طرف القاعة الآخر وكلاهما مستغرق في عمله ، إذ أخذ المحضر رشطة من القهوة ولكن لما مد يده ليأخذ الرشبة الثانية لم يجد النجحان أماماه . وفي طرف القاعة البعيد كان أبو خطوة يقول متذمرا والنجحان في يده « فهوئ مسكرة أكثر من اللازم يا أخياء » .

ومنها أيضا حكاية وكيل النيابة المتغطرس الذى (شخط) مرة فى أبو خطوة وحين خرج من عنده اكتشف بعد فترة أنه يسير فى أروقة المحكمة حتى القدمين . فرجع إلى أبو خطوة يقبل رأسه ويستسمحه . وكان سالم يستمتع بهذه الحكايات . ويستأ، كثيرا عندما ينتقل جده منها ليتحمّل في دروس المخطوطات والقواعد .

لم يكن الباشكاب قد رأى هذه الواقعية بعينيه ، ولكنه رأى ما هو أهم منها . كما أن الكرامات لم تكن هي التي بهرته في شبابه ، بل الرجل عجز عن أن يفهم لماذا اصطفاه هو من بين الكثير من موظفي المحكمة . عليه وهو موظف جديد كل تفاصيل العمل وأسراره . وفي أوقات الفراغ من العمل كان يجب أن يصحبه ويتحاور معه . ولم يكن السنانييرى يتذمّر سمت الأولياء ، المسيحي العيون الذين يتحدون همسا ويكلّرون في أحاديثهم من الوعظ والإرشاد . بل كان رجالا بشوشوا يجب أن يضحك وأن يمازح من حوله . ومع ذلك ظلت هناك هيبة تحفظ به ، هيبة لم تصنّعها قصص الكرامات التي تروى عنه وإنما شئ غير محدد في عينيه وفي حضوره .

وعندما منح توفيق محبته وثقته شعر الكاتب الجديد بأنه يخدع الباشمحضر عن حقيقة نفسه . وصمم ذات يوم على أن يبروّح له بالحقيقة . قال له إنه كان وحيداً لوالده الشري نشا مدللاً يجري في يده المال فلم يدخل على نفسه بآي لذة من المذاقات . واعترف لأبو خطوة بأنه حتى بعد أن بدأ العمل في الوظيفة وانتهت سنوات الفراغ والطيش لم يستطع أن يكبح نفسه .

ظل جسد العقى أقوى داشا من عزمه . قال للرجل الصالح لا تخدع بمظاهرى فانا لست أهلاً لصحبة الأنبياء .

استمع أبو خطوة إلى اعتراضاته في هذه كثيـرة قد سمع هذا الكلام من قبل وقال :

- ولكنك تندم على ما تفعل يا توفيق أفندي، أليس كذلك؟
فرد فيأسف :

- بلـ .. أندم ثم أعود كما كنت .
- الندم باب الحياة، والحياة باب التوبة .

- ولكنك قلت لك يا مولانا إنـي أندم ثم أعود !
- لا ، أنت لا تعود لأنـ الزـنـ لا يـعـود . أنت لا ترجع إلى ما نـدـمـتـ عـلـيـهـ لأنـ
انتهى ولـ يـرـجـعـ .

- إنـ فـاتـاـ أـرـجـعـ إـلـىـ ذـنـبـ جـدـيدـ ، فـماـ الفـرقـ ؟ وـمـاـ فـانـدـةـ النـدـمـ ؟ قـلـ لـيـ كـيفـ
أـجـدـ الطـرـيقـ .

سـكـتـ السـانـدـيرـ لـحـظـةـ وـيـداـ آـنـ يـفـكـرـ قـبـلـ آـنـ يـقـولـ :

- أـرـاكـ تـبـقـيـسـمـ يـاـ توـفـيقـ أـفـنـدـيـ وـأـنـتـ تـعـمـلـ . أـرـىـ زـمـلاـكـ يـحـبـوـنـكـ وـالـنـاسـ
الـذـيـنـ يـائـونـ لـلـعـملـ يـحـبـوـنـكـ . أـرـاكـ لـاـ تـنـقـرـ فـيـ قـضـاءـ مـصـالـحـ النـاسـ بـيـنـ الـقـبـيرـ
وـالـغـنـيـ . بـلـ أـرـاكـ تـجـزـ مـصـالـحـ الـقـسـيفـ قـبـلـ الـقـوىـ . كـتـ أـضـحـكـ فـيـ سـرـىـ وـأـنـاـ
أـرـاكـ تـنـتـعـ مـلـاتـ الـدـعـاوـيـ الـتـيـ يـقـدـمـهـاـ لـأـصـحـابـ الـقـضاـيـاـ لـرـفـعـ قـسـاـيـاـمـ فـقـتـ
لـهـمـ إـنـهـ نـسـواـ بـادـخـلـهـ نـقـوـدـاـ شـمـ تـرـدـهـ إـلـيـهـمـ . لـ يـخـطـرـ بـيـاـكـ حـتـىـ أـنـ هـذـهـ
رـشـاـويـ وـأـنـهـ يـدـهـشـونـ لـأـنـ تـرـدـهـاـ ثـمـ تـفـضـلـ لـهـ مـسـاحـهـ بـعـدـ ذـكـ .

- وـمـاـ عـلـاقـةـ ذـكـ بـمـاـ نـحـنـ فـيـهـ ؟ قـلـ لـكـ إـنـيـ أـنـتـلـ منـ ذـنـبـ إـلـىـ ذـنـبـ !
ـ فـكـرـ معـيـ ، إـنـ أـنـتـ أـحـبـبـتـ وـعـذـبـتـ فـيـ الـحـبـ وـصـبـرـتـ طـوـيـلـاـ عـلـىـ ذـكـ
الـعـذـابـ ثـمـ فـرـزـ بـعـدـ ذـكـ بـعـدـ تـحـبـهاـ ، أـلـاـ يـكـونـ شـعـورـكـ بـهـذـاـ الـلـوزـ أـكـبـرـ مـاـ لـوـ نـدـ
الـوـصـالـ بـسـرـعـةـ ؟

- لـ أـفـهـمـ تـامـاـ يـاـ مـوـلـاـنـاـ وـأـرـجـوـكـ أـنـ تـحـدـثـيـ عـنـ التـوـبـةـ لـاـ عـنـ الـحـبـ . فـاتـاـ لـمـ
يـشـقـتـ وـيـسـبـعـنـ غـيـرـ هـذـاـ الـحـبـ !

قال أبوخطوة وكـانـ يـزـنـهـ :
- أـخـطـاتـ هـنـاـ يـاـ توـفـيقـ . الـحـبـ يـقـرـبـ وـلـ يـبعـدـ .
- وـلـكـ متـ ؟
- سـيـاسـتـ الـوقـتـ ، وـلـكـ تـعـلـمـ يـاـ ولـدـيـ أـلـاـ تـنـطـلـ فـيـ الـوقـتـ إـلـاـ مـاـ يـاتـهـ بـهـ رـبـكـ
وـرـبـ الـوقـتـ .

عـشـراتـ السـنـينـ مـرـتـ عـلـىـ ذـكـ الـحـوارـ وـمـازـالـ توـفـيقـ يـنـتـظـرـ الـوـعـدـ .
وـمـعـ ذـكـ فـلـيـعـتـرـفـ بـاـنـ الـحـبـ أـنـقـذـهـ طـوـيـلـاـ ، وـبـاـنـ الـحـيـاـ بعدـ زـوـاجـهـ مـنـ سـمـيـةـ
لـمـ تـكـنـ تـشـبـهـ مـاـ قـبـلـهـ .

اهـتـمـ الـبـاشـكـاتـ اـهـتـمـاـ كـبـيرـاـ بـدـرـاسـةـ حـقـيـقـهـ سـالـمـ الـذـيـ تـبـاـعـهـ بـمـسـتـقـيلـ
بـاـهـرـ وـقـلـ يـسـاعـدـهـ وـبـرـاجـعـ مـعـهـ الـمـوـادـ الـتـيـ يـعـرـفـهـاـ مـنـ الـرـحـلـةـ الـاـبـدـانـيـةـ وـحـسـنـ
شـهـادـةـ الـثـانـيـوـةـ الـتـيـ وـصـلـ سـالـمـ إـلـىـ سـنـتـهـ الـاـخـيـرـةـ فـيـ عـامـ ١٩٧٥ـ . كـانـ
الـبـاشـكـاتـ الـحاـصـلـ عـلـىـ شـهـادـةـ الـكـفـاءـةـ الـقـدـيمـةـ مـتـضـلـلـاـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ .
يـعـرـفـ جـيـداـ الـتـارـيـخـ وـالـجـغرـافـيـاـ . وـلـمـ يـسـخـلـ عـلـىـ حـقـيـقـهـ بـمـدـرـسـيـنـ فـيـ الـلـغـةـ
الـاـنـجـليـزـيـةـ رـغـمـ إـلـامـهـ بـهـ يـحـكـمـ درـاستـهـ وـعـمـلـهـ فـتـرـةـ اـثـنـاءـ تـرـؤـظـهـ فـيـ إـحـدـيـ الـمـحاـكـمـ
الـمـخـلـطـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـسـتـخـدـمـ الـاـنـجـليـزـيـةـ وـالـفـرـنـسـيـةـ . وـكـانـ يـغـضـبـ إـذـاـ مـاـ رـأـهـ يـهـمـلـ
فـيـ الـاـسـتـدـارـ وـيـحـذـرـهـ : لـوـ اـهـتـمـ أـبـوـكـ بـمـذـكـرـتـهـ لـكـانـ فـيـ حـالـ غـيـرـ الـحـالـ .

وـكـانـ سـالـمـ يـعـرـفـ أـنـ آيـاهـ لـمـ يـتـقـدـمـ فـيـ الـتـعـلـيمـ بـعـدـ السـنـةـ الـاـولـىـ الـثـانـيـوـةـ مـنـ
الـنـظـامـ الـقـدـيمـ فـاـخـسـطـرـ الـجـدـ أـنـ يـوجـهـهـ لـلـتـجـارـةـ . وـسـاعـدـهـ فـيـ إـعادـةـ فـتـحـ مـسـحلـ
الـسـعـدـيـ لـتـجـارـةـ الـأـقـمـشـةـ وـلـكـنـ تـجـارـةـ شـعـبـانـ الـسـعـدـيـ لـمـ تـزـدـهـرـ مـثـلـ تـجـارـةـ
وـالـمـزـحـمـ بـمـحـلـاتـ الـأـقـمـشـةـ وـلـكـنـ تـجـارـةـ شـعـبـانـ الـسـعـدـيـ لـمـ تـزـدـهـرـ مـثـلـ تـجـارـةـ
جـدـهـ . كـانـ الـحـلـ يـدـرـ دـخـلـ مـعـقـلـاـ فـيـ أـوـقـاتـ حـصـصـ التـموـيـلـ الـتـيـ يـرـوجـ فـيـهـاـ
الـبـيعـ وـأـثـنـاءـ مـولـدـ الـسـتـ الـطـاهـرـةـ الـذـيـ تـكـثـرـ فـيـ الـرـجـلـ فـيـ الـحـىـ . وـلـكـهـ كـانـ يـغـمـلـ

وكان سالم يطبعه يكره الشجار والعنف بالحركات أو الكلام ، لهذا استجاب لأمر والده .

وهكذا فقد شب دون أن يكون له أصدقاء من سنه، سواء من جيرانه أو من زملاء دراسته. قلت صديقته الوحيدة الحقيقة القريبة من قلبها هي اخته فوزية. فمع أنها لم تكن تكبره إلا باربع سنوات، إلا أنها حتى وهي طفلة في الثامنة من عمرها كانت تعامله كمن بعد وفاة والدتها. اعتادت أن تلعمه بيدها وأن تغير له ثيابه وتاخذه إلى الحمام. وعندما يبدأ يذهب إلى المدرسة كانت تصحبه حتى يابها قبل أن تذهب هي إلى مدرستها، أما في العودة فكان أبوه أو جده هما اللذان يصطحبانه إلى أن تعلم العودة بمفرده. وبمجرد رجوع فوزية من المدرسة كانت تعله ولجدها الغدا، وتلتف معه العابها المقفلة التي علمته إياها: «الكتشيبة»، «السلم والتعابن»، وأحياناً «الاستخفالية». وكانت تسأله عما حدث في المدرسة في يومه فيبحك لها وتراجع بنفسها كرايس واجباته قبل أن يتولى جده هذه المسئولية. نادراً ما دبت بينهما الشاجرات الصغيرة الماكرة بين الاختوة، ولم يحدث أبداً أن اشتكي أحدهما من الآخر إلى والدهما أو جدهما . بل كانا يبكيان معًا في خلوة إذا ما تعرض أحدهما لأي عتاب.

وعندما بلغت فوزية سن الخامسة عشرة اضطررت إلى أن تتفرغ تماماً للبيت،
كانت قد أصبحت امراة حقيقة طولية، ذات قوام ناضج كامل الاستدارة، ووجه
صبوح تبرّه عيناها الزبونيتان وبحيطه كأنها شعر كستانى ناعم ومسترسل،
وبدأت المشاكل عندما سمع في البيت أن شبانا يلاحقونها ويعاكسوها منذ
خروجها من باب المدرسة، وجرّأ أحدهم ذات مرة أن يتبعها حتى باب البيت،
وكان من سوء حظه أن رأه سالم من الشرفة فنهيّط بسرعه اليرق وفني يده عصاً
جده الثقلة واتهال بها ضرباً على العاشق الذي اضطر إلى الهرب جرياً... وسالم

مصاريفه بخصوصية قيمها عدا ذلك . وظل البلاشكتات رغم هذا يشجع ابنه ويمساهم بالاموال ولم يقدر الامر في أن المحل سيائسي من ورائه خير كثير ذات يوم . عول على عودة بركة الوالد وأيامه القديمة ، وسافر مرة إلى أسيوط ملتحماً نصيحة السنانييري ودعاه لولده . وكانت هي آخر مرة رأى فيها أبوخطوة قبل أن ينتقل إلى رحمة الله .

ولم يكن سالم يتباين كثيراً من الحديث مع والده أو يقصى معه وقتاً كالذى يقصى مع جده . كان شعبان مختلفاً عن البيت معمظ الوقت وشبة مقيم في محل الأقبية . وبعد وفاة زوجته المبكرة ترك شتون البيت وتربية ابنه وأبنته لجدهما . ومع ذلك فإن شعبان كان صارماً مع ابنه في شيء واحد هو منعه مثناً باباً من اللعب في الحارة التي يقع البيت على ناصيتيها . ضربه ضرباً قاسياً ذات يوم عندما رأه يلعب الكرة مع الأطفال هناك . قال له : « هل هؤلاء العيسال من مستانا؟ » .

عرك أذن سالم وحذره من العودة إلى اللعب مع هؤلاء الأشخاص، وحذره أيضاً بصفة خاصة من أن يختصه أحد أو يلخص مؤخرته سواء في الحارة أو الشارع أو المدرسة قائلًا بشيءٍ من الغضب عبارة لم يفهمها سالم في وقتها «أنت جميل كالبنات فحاسب على نفسك».

ولم يأسف سالم كثيراً لامتناعه عن اللعب في الحرارة . كان يحب لعب الكرة ولكن يتضارب من مشاجرات الأولاد وسبابهم الفاحش للأب والأم أثناء الشجار ، وكانتوا هم يسخرون منه وراء ظهره ويتندرون على أبيه وإن لم يجرؤوا على إيهانه بسبب مكانة جده في الحي . ولسبب آخر أهم وهو أن سالم منذ صغره كان طويلاً وغريضاً بالنسبة لسنّه وكانتوا يحتاجون إليه داشماً كحارس مرمي لفريق العارضة عند اللعب مع فرق العارات الأخرى . ثم أنه عندما تشارج معه ولد مشاغب ذات مرة وجرب قصسته القوية لم يفكّر هو أو غيره في إعادة المحاولة .

حدث المشكلة الحقيقة ذات مساواة شتوى ، والاسرة كلها مجتمعة في البيت بعد العشاء في الصالة . وقف سالم بعيدا عنهم بجوار حائط وكان يهتز الحمن واليسار بحركة بسيطة منتظمة ويداه خلف ظهره وكانته يلعب وحيدا ثم فجأة انطلق يقول بصوت مرتفع « يا غجر ! .. يا لامة ! »

التفتوا نحوه ففي ذهول وكان هو يصوب نحو جده وأبيه وأخته نظرة ثابتة لا يطرف له فيها جفن . وبعد تلك البداية أكمل ينفس الصوت المرتفع والنظرية المركزة أنهم « حوش وتربيه حواري وأولاد ستبين » ثم راح يسبب في شتائم جنسية بذلة لا تخطر على بال أحد في هذه الأسرة .

ظلوا ينتظرون نحوه مبهوشن وهم لا يصدقون أذانهم، وعندما بدأت الشتائم الجنسية أفلقت من فوزية ضحكة عالية بالرغم منها فنظر لها أبوها نظرة قاسية ثم نهض في الحال وأنهال على ابنه بالضربات واللكلمات وهو يأمره أن يخرب قلم يلتف في إيقاف سيل الشتائم المتفرق . ثم سد فمه بيده بينما راح سالم يتملص منه وتنطلق من فمه أتصاف الشتائم كلها استطاع الإفلات من قبضة أبيه .

قامت فوزية أيضا وكانت تحاول أحيانا أن تدقّ أخاها من الضرب وتلتئم على جسمها بدلا منه ، وأحيانا أخرى تشارك في ضربه عندما تجد أن بناته قد زارت على الحمد . ولكن شيئا لم ينفع في إيقافه لا الضرب من أبيه ولا الملاينة من أخيه إلى أن هذا آخرها من تلك، نفسه وجلس على الأرض وهو يلقيث .

كان أبوه وأخته يقطنان فوق رأسه ، وظل شعبان ينتظر له في غضب هائل ثم قال بعد فترة :

- من علمك هذا الكلام الفذر يا ولد؟

فقال سالم بصوت مجده ودهشة شديدة :

- أنا يا أبي ؟ أى كلام فذر ؟

الصبي يلاحقه حتى اختفي عن الأنطـار . وبعد تلك الحادثـة أمر والدها بأن تبقى فوزية في البيت . لم تكن قد أنهت السنة الثانية الثانوية فاعتبرـت جداً فائلاً : انتظر يا شعبـان على الأقل حتى تحـصل على الشهـادة . فرد شـعبـان : الـبـيت مـصـيرـها للزـواجـ ياـ والـدـيـ، قالـ والـدـيـ: ولكنـ الشـهـادـةـ سـلاحـ فيـ يـدـهـاـ، فـقاـلـ شـعبـانـ لـنـ أـزـوجـهـاـ لـشـخـصـ تـحـتـاجـ مـعـهـ إـلـىـ أيـ سـلاحـ. ثـمـ أـسـفـ فـيـمـاـ يـشـبـهـ الـضـرـاءـ: لـاـ تـقـتـلـنـ الـشـاكـلـ يـاـ حـضـرـةـ الـبـاشـكـاتـ، الـبـنـتـ بـتـيمـةـ وـفـيـ سـنـ خـطـرـةـ.

رأـيـ الجـدـ أـنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ المـجاـلـةـ فـيـ قـرـارـ يـصـرـ عـلـيـهـ الـآـبـ . أـمـاـ فـوزـيـةـ تـقـسـمـهاـ فـلـمـ تـهـمـ قـالـتـ يـاسـتـهـانـةـ وـمـنـ الـتـيـ تـكـيـ علىـ (ـالـعـلـامـ)ـ . الـبـيـتـ أـحـسـنـ الـفـرـقـةـ.

كـانـتـ تـعـيـ تمامـاـ أـنـهـ جـمـيلـةـ وـأـنـ الزـوـاجـ لـنـ يـتـاخـرـ .

فـمـنـدـ وقتـ كـانـتـ تـبـادـلـ جـارـهـ (ـفـراجـ)ـ الطـالـبـ الصـبـ والمـاـعـيدـ دونـ أـنـ يـشـعـرـ بـذـكـ أـحـدـ فـيـ الـأـسـرـةـ . بـدـأـتـ الـعـرـفـ مـنـ شـبـاكـ المـطـبـعـ الذـيـ يـظـلـ عـلـىـ مـنـزـلـ فـراجـ فـيـ الـحـارـةـ . وـكـانـتـ تـنـتـظـرـ مـعـهـ أـنـ يـتـهـيـ مـنـ الـدـرـاسـةـ فـيـ الـجـامـعـةـ لـيـتمـ الزـوـاجـ .

وـفـيـ تـكـلـيـفـ الـفـتـرـةـ عـنـدـمـاـ كـانـ سـالـمـ فـيـ العـاـشـرـةـ أـوـ الـحادـيـ عشرـةـ مـنـ عمرـهـ حدـثـ شـيـءـ غـيرـ مـتـوقـعـ .

قـبـلـهاـ لـمـ يـكـنـ سـالـمـ يـشـيرـ أـيـ مـشـكـلـةـ فـيـ الـبـيـتـ . كـانـ طـفـلاـ عـادـياـ ، مـحـبـوباـ لـيـ أـسـرـةـ ، نـاجـحاـ فـيـ مـدـرـسـةـ ، صـدـيقـاـ مـقـرـباـ لـجـدـهـ وـلـاخـتهـ . وـإـنـ ظـلـ صـمـوـتـاـ مـعـلـمـ الـوقـتـ مـاـ لـمـ يـكـنـهـ أـحـدـ . غـيرـ أـنـ تـكـنـ مـشـكـلـةـ . بلـ اـعـتـرـهـ جـدـهـ مـيرـةـ وـأـسـمـاءـ عـبـادـةـ فـيـ الصـاصـاتـ . ثـمـاـ بـالـصـحـابـيـ الـجـلـيلـ . وـلـمـ يـكـنـ أـحـدـ فـيـ الـبـيـتـ يـعـرـفـ مـنـ هـوـ عـبـادـةـ . وـلـكـنـهـ كـانـوـاـ يـضـحـكـونـ عـنـدـمـاـ يـطـلـقـ اللـقـبـ عـلـىـ سـالـمـ الـمـزـوـيـ فـيـ صـمـتـ الـطـوـلـ . بلـ كـانـ سـالـمـ نـفـسـهـ يـشـتـرـكـ أـحـيـانـاـ فـيـ الـفـحـكـ .

وبدا واضحًا أنه لا يذكر أي شيء مما حدث .

وطوال هذا الوقت ظل الجد جالسًا في مكانه وهو يكرر بصوت متهدج «سلام قولا من رب رحيم .. سلام قولا من رب رحيم» يعلو صوته وينخفض مع إيقاعات عبارات حقيقته .

تجاهلت الأسرة ما حدث بعد ذلك ولم يتطرق إليه أحد. ظل جده يراجع له دروسه ويصاحبه إلى صلاة الجمعة كالمعتاد ، ويرقص بين الحين والأخر وهو يضع يده على رأسه ويتوالى المغونتين ثم إنه علق حجاباً قديماً في صدره وتنفسه بشدة لا ينزعه من مكانه . وعندما كانت فوزية تطوف بالمبشرة في البيت صباح الجمعة كانت تبكيه ، بشكل خاص وهي تدبرها حول رأسه وتدعوا له في سرها. ولكن هذه التوبة من الهدناني تكررت بعد شهرين أو ثلاثة بالطريقة السابقة نفسها.

كانت الأسرة مجتمعة بعد العشاء في الصالة ودار حديث عابر عن أن تاجرا ثريا في السوق تقدم إلى شعبان يطلب بد فوزية فرد عليه شعبان بما يعرفه وما أكدته فوزية أكثر من مرة وهو أنها لن تفكري في الزواج قبل أن ينتهي سالم من الثانوية العامة، وقال الجد حساحكا: وكانت تستطيع أن تزد عليه بإنك يمكن أن تدخل السجن لو زوجت فوزية قبل بلوغها السن القانونية: فقال شعبان: لا يمنع هذا من عقد الخطوبة إلى أن تبلغ السن: لوحظ فوزية بيدها وقالت مجازية ضحكت جدها: لا سجن ولا خطوبة ولا زواج قبل أن أزوجكم أنتم الثلاثة .. !! لابد أن أطمئن عليكم جميعاً أولاً في بيت العدل! ثم أكلت باللهجة جادة وحاسمة: ليس قبل أن أطمئن على سالم في الجامعة . وبعد أحاديث أخرى عابرة قاموا جميعاً لمشاهدة المسلسل الكوميدي في التليفزيون الذي اشتراه الجد حديثاً وعلت ضحكتهم، لكن سالم انتبهم وذهب إلى جوار الحائط وبدأ اهتزازه الطفيف المنظم ثم بدأ سيل الشتائم من جديد. بعد تلك المرة أصر أبوه على أن يصحبه

إلى طبيب نفسى رغم أن الجد لم يتمكنس أبداً لهذه الفكرة. كان يرى أن هذه مشكلة عابرة ستنتهي مع الوقت ومع الدعا ، المصادر يأن يكتشف الله عن سالم الكرب، لكن شعبان أصر على رأيه .

كان الطبيب النفسي الذى سمع عن مهارته عجوزاً يمدو على وجهه الإرهاق وتعجبه لفت نظر شعبان، كاته نفاد الصبر أو الاستعداد للانفجار فى أي لحظة، لكن على العكس مما تصوره فقد قضى الطبيب وقتاً طويلاً مع الآب على انفراد واهتم بإن يسمع ويبان يعرف أوضاع الأسرة والطريقة التي يقتضى بها سالم وقته ثم سال عن حاله في الدراسة .

قال الآب إن سالم تلميذ عادي لم يرسب في أي سنة وإن لم يكن أبداً من الأوائل، غير أن مدرس الحساب يقول إنه مختلف في مدارسه، وهو يحصل بالفعل على درجات مترتفعة، بل على الدرجات النهائية في بعض الأحيان، ويشتبه له مدرسه بمستقبل كبير في علوم الرياضة .
وفي اللغات؟

لا .. درجاته عادية .

سأل الطبيب إن كان مستوى الدراسي قد تغير بعد هذه التوبات فقال شعبان إن جده الذي يشرف على دراسته، لم يلاحظ أن مستوى تعليم، كما أنه لم يتلقوا أي شكرى من المدرسة.

سأله أيضاً إن كان قد لاحظ عليه آى شيء، غير عادي قبل هذه التوبات أو بعدها، هل تنصبى حالة من التشنج مثلاً أو الإغماء؟
لم يلاحظ شيئاً من ذلك ولكن أخته تتقول إنه تناهى أحلام وكوابيس في الليل .
ابتسم الطبيب : أخته تتقول وجده يذاكر لها، أنا أساكك أنت!

ثم غير الطبيب الموضع: اسمع، كنت أستطيع أن أجعلك تذهب وتحيى، إلى العيادة دون داع كما يفعل غيري، ولكنني فحصت الولد وأ jade مقللاً ذكراً من المتوسط وأنت تقول إن مستوى في المدرسة لم يتغير، وسلوكه عادي بحسبنا هذه الحالة التي لا تأتيها إلا في البيت ووسط أسرته، فما هو الخطير؟ هل تعرف؟ عندما كنت أنا في سن إينك كنت طفلًا منظوا على نفسك وكانت تأتييني حالات نزيف من الأنف وإنفاسًا متربع لها أهلى ولم يستطع الأطباء علاجها ولكنها توقفت من تلقاء نفسها بعد سن المراهقة.

لم يستطع شعبان أن يفهم العلاقة بين تزيف أنت الطبيب المفلل وحالة والده ولكنها قال وهو تخير كلماته ولكن ربما يمكن يا دكتور أن تتطور هذه الحالة وتأتيه خارج البيت أيضاً .

لم تختلف أسلحة هذا الطبيب ولا طرقه في الكشف عن الطبيب الأول إلا أنه كان أسرع منه في كل شيء، ولم يقل للأب أي عبارات مطمئنة بل طلب إجراء رسم مع سالم. كان يشك في احتمالإصابة الطفل بالصرع، ومع أن نتيجة هذا الرسم لم تكشف أي شيء غير عادي في مع سالم، مما حير الطبيب إلى حد ما، فقد كتب (روشتة) طولية فيها كثير من العقاقير، على أن يعود لرؤية الطبيب مرة أخرى بعد انتهاء من تعاطي الأدوية.

وبعد أيام قليلة من هذا العلاج أصبح سالم يقضى نهاره كله في الفراش وعندما يصحو كان يسير في البيت متزحجاً ويرتطم بالآلات ويسقط أحيااناً في الأرض، وانقطع بطبيعة الحال عن المدرسة.

هو ، لم يستطع أن يضيق شيئاً غير أنه قال إن عيسي سالم كانتا تغيمان
أثناء الغربة . ويسو أنه لا يشعر بما شئ حوله وحين تنهى بيدو عليه إرهاق
شديد ولا يذكر شيئاً مما حدث .
ولتكن تذكرة شيئاً فقال إن سالم ظل بيول في فراشه حتى سن السادسة أو
السابعة

أشاع الطيب بيده فاثالاً عادي! ألم تقل إنه فقد أمه في الثالثة من عمره؟
 فمحض الطيب العجوز سالم بعد ذلك بدقائق . أجري عليه كشفاً بالأجهزة ووجه
 إليه أنسنة وأعطاه العبايا ملائكة من الكرتون ليعيد تركيبها وعرض عليه صوراً
 غريبة الاشكال طلب منه أن يحدّثه عما يراه فيها .
 وأخيراً اختفى الطيب يالاب مرة أخرى وعاد يمسك فيما يشبه الثنائيين : ما
 هي المشكلة ؟

شرح الآب من جديد حكاية التوبيين اللتين أصابتا سالم والشمام الشر بطلتها .
قال الطيب وهو يحول وجهه المحتقن عن الآب والله أنا شخصياً أفعل ذلك
لئن سرني طوال اليوم وليسنى أبوح بهذه الشفائم مثل إيك. ما أكثر من
ستحقونها !

- الشدت دهشة الآب وبذا ذلك في نظرته فما عاجله الطبيب في حسم:
- الولد طفل عادي فاتركوه في حاله

قال شعبان مختارا

- ولكن يا دكتور الأطفال العاديون لا يشتمون أباهم !

- بل كثيراً ما يستهون بهم في سردهم.

اے ہم اسیم ابھی فی سری ایڈا۔

- آنث خر -

كان سالم في نهاية السنة الثانية الثانوية - قبل عام تقريباً من حصوله على الشهادة التي انتظرتها قرية طوبila - عندما تقدم جارهم فراج ليطلب بدءه .

استقبله رجال الأسرة الثلاثة في حجرة (الصاثون) . وتفكر سالم أنه رأى عدة مرات في الطريق خارجاً من الحارة أو داخلاً إليها، وأنه كان في بعض الأحيان يرفع له يده بالتحية فغيرها له سالم بالفشل ولكنها لم تبتداً أبداً أي كلام . جا، مررتيا قيمصاً أبيض جديداً وينظرونها رماديما، وكان شاباً وسيماً ، طويلاً ومتناول العضل، يحيط بوجهه الأسرر شعر غزير قاحم السواد يمشطه بفرق في جانبيه . وكانت عيناه السوداً وان شعاع حين يركزهما على محدثه فينبض وجهه كله بالحربوبة ، وترسم على ملامحه اتسامة طبعة دائمة .

ويعد تناول الشراب وعيارات الترحيب والمجاملة قال فراج إنه جار لهم منذ
مدة ويعرف الكثير عن سمعة أسرة حضرة الباشكاب الطيبة والدائمة في الحى
كله، وإن يشرفه كثيراً أن يتبع إلى هذه الأسرة المكرمية، كان يتكلم بلهجة
شديدة التهذيب ولكن مع ثقة واضحة في النفس.

سأله شعبان - الذى استقره أن يحضر فراج لطلب يد ابنته دون أن يكشف نفسه عنا، ارتداء بدلة كامطة - سأله بشىء من الفتور لماذا لم يتشرفوا بمقابلة السيد الوالد فى هذه المناسبة؟ فاعتذر بين والديه المقيمين فى القرية عموزان لا يتحملون مشقة السفر ولكنها سيمضيان بالتأكيد إذا ما تتم الله يخبر .

قال شعبان ، باللهجة نفسها ، عن اسم هذه القرية ومكانها . لكن الياشكانتي قاطع استرسال هذا الاستجواب وخاطب فراج مع صحفة صغيرة «أساتي أنا يا

بكث فوزية كثيرة وهي ترى سالم في هذه الحالة وقالت لجدها: دعوه يشتم كما يشاء يا جدي. لن يصوت أحد من الشتيمة ولكن أخي سيموت من هذا العلاج! كلام أمي.

ويعد ظهر أحد الأيام دخل الجد إلى غرفة سالم فلم يجده هناك . يبحث عنه في كل الغرف الأخرى وفي المطبخ والحمام دون جدوى . وأخيراً عاد الباشكاش إلى غرفته هو وفتش جيداً فوجد سالم ينام على الأرض متوكراً أسفل سرير جده . فحمله برفق إلى غرفته ووضعه على فراشه . شعر به سالم ففتح عينيه بصعوبة وقال لجده بصوت واحد : قلل لي يا جدي ، هل أنا مجنون ؟ فانحنى جده وهو يحتضنه في صدره بقوه وقال بصوت مخفق : لا يا ولدي ، يل نحر الماجانين .

ثم إنه جمع كل العقاقير والأدوية التي اشتراها الآب وألقى بها في القمامات، وفعل شيئاً نادراً ما يفعله إذ رفع صوته وقال لابنه في قصبه: أبعد يا شعبان عن الولد واتركه في حاله.

احتج الآب باسم الطيب المشهور وبالبلع الكبير الذي دفعوه في رسم الكشف والأدوية، وقال إن العلاج لم ينته بعد حتى يحكموا على قاتله، لكن غضبة الجد أكتسحت كل الاعتراضات واضطرب شعبان إلى أن يترك سالم في حاله بالفعل. تعودوا بعدها على التزام الصمت وتحويل أنظارهم بعيداً عنما تتباين تلك الحالة التي أنهشتهم، وأراهم أيضاً أنها لا تأتيه خارج البيت. وكما تنبأ الجد فقد قلت تلك التنبيات مع مر السنين وأصبحت نادرة الحدوث حتى أشك أن تختفي، ثم معاً للحمد لله بعد سن الراهنة أنها قد اختفت بالفعل.

ابنى عن مشقة السفر، حتى مشوار العتبة أصبحت أعتبره في سنى هذه سفراً بعيداً، ودهش شعبان لأن هذا لم يكن صحيحاً، إذ كان الباشكانت يخرج ويبيس كثيراً كل يوم . ومضى الحد يسأل فراج باسمه عن نوع دراسته وعمله فقال إنه تخرج في كلية التجارة قبل شهور وكان محظوظاً إذ عينته القوى العاملة في شركة قطاع عام للمعادن في حلوان، والعلقبي لآخر سالم إن شاء الله .

تدخل شعبان مرة أخرى ليسأل عن مرتبه في هذه الشركة، وعندما سمع المبلغ أصابه الذهول وسأل : وكيف تتوى يا ابنى أن تفتح بيتك بهذا المرتب؟ رد فراج بأنه والحمد لله مرتب كبير بالفعل يزيد عن مرتب زملائه الذين عينتهم القوى العاملة في الحكومة، ثم إنه عندما كان في الجامعة كان يدرس ويعيش بائقل من نصف هذا المبلغ، فكيف لا يكتفى باكمله الآن لأنك ابن؟

قال الأب : وعندما تتجه أولاداً بإذن الله؟

فرد الخاطب : سيكون المرتب قد زاد، قلت لحضرتك إن هذه الشركة جديدة ومستقبلها كبير، ستكون الترقى فيها أسرع من غيرها، بل هناك يا عصى كلام عن احتمال سفرى في بعثة إلى آسيا الشرقية، لأننا بعد أن انتصرنا في حرب أكتوبر بحمد الله ستلتقت الحكومة أكثر إلى الاقتصاد واسترتكز على الصناعة بالذات، ولو فرجها ربنا بهذه البعثة إلى آسيا قريباً فسأتمكن من ادخار مبلغ للمهر والشبكة.

سأك الجد : وب المناسبة العرب ماذا عن فترة التجنيد؟

فقال فراج : أنا معفى لأنني وحيد والدى، ليس لي سوى اخت واحدة متزوجة في البلد، ولكن كنت أتنفس مع ذلك لو شاركت في حرب أكتوبر.

إبسم الجد قائلاً : إذن فعلى هذه الفرقـة أربعة معفون من التجنيد للسبب نفسه؟

لكن هذه المقاطعة من الباشكانت للمرة الثانية لم تعجب شعبان الذي عاد يسأل :

- تعنى يا أستاذ فراج أن مبلغ المهر والشبكة غير جائز؟

فرد ببساطة : بالطبع لا، من أين؟ تعب والدى المزارع حتى دبر مصاريف تعليمى، والآن يجب ألا أطلب منه شيئاً بعد أن توفى، ببل جاه، دورى لا رد له الجميل .

مضى شعبان وهو لا يصدق نفسه : إنـ فـسـتـسـاعـدـ الأـسـرـةـ فـيـ الـبـلـدـ أـيـضـاـ منـ مـرـبـكـ؟

غاصت ابتسامة فراج لأول مرة وتصلب وجهه وهو يكرر : بالطبع، يجب أن أرد لأبى وأمى الدين.

تدخل الباشكانت مرة ثالثة في الحوار : هكذا يتصرف أولاد الأصول، مبارك عليك يترك بوالديك يا أستاذ فراج ولكن أين تتوى أن تسكن عندما تتزوج إن شاء الله؟

- في شققى .

ارتقت صيحة سالم حادة ورفيعة : في الحارة؟!

فتنظر له جده نظرة صارمة، كان قد خذله قبل زيارة فراج من أن يفتح قمه بكلمة ، قال له هذا موضوع يتكلم فيه الكبار فقط.

أحضر سالم رأسه على مضض وهو يكرز على أستاذه لكن فراج رد وهو يعاود الابتسام :

- نعم يا أخ سالم ، في البداية على الأقل، إلى أن تدخل مبلغاً يكفى للسكن في مكان أفضل، وسيحدث هذا صدقنى، ربما بعد البعثة مباشرة.

ثم استعـتـ اـبـتـسـامـ وـأـشـرـقـ وجـهـ مـرـأـةـ أـخـرىـ وـقـالـ :ـ أـنـاـ يـاـ حـضـرـةـ البـاشـكـانتـ وـيـاـ عـمـيـ شـعـبـانـ وـيـاـ أـخـ سـالـمـ إـنـسـانـ مـتـفـاقـلـ وـوـاثـقـ مـنـ الـمـسـتـقـبـ بـفـحـشـ اللـهـ شـارـكـوشـ فـيـ التـفـازـلـ وـسـتـكـونـ اـبـنـكـ فـيـ عـيـنـ.

ثم انخرط فجأة في المكان.

قامت فوزية واحتضنت أخاها بشدة وراحت تقبله وهي تتولّ:

- اسکت الان یا سالع . ارجوک انتظار ما سیقوله آیه .

وكان أبوها وقتها يردد كلاماً مشابهاً في مواجهة الباشكتاب. يكاد يلومه لأنّه لم يتمكّن له الفرصة ليرفض هذا الخطاب على الفور. كانا يجلسان على مقعدتين متقابلتين ولكن الباشكتاب ظل محتفظاً بهدوه وهو يسمع إلى ابنه الثائر يكيل الشتائم للحارِ الوجه الذي تحرّأ...

غير البشكارات مكانه وجلس على مقعد محاور لولده وتكلم بصوت خفيف

- نعم، معك حق يا شعبان، أنا أيضاً مثلك أتمنى مستقبلاً أفضل للجزائر.
أعرف أن هذا الشاب لا يملك شيئاً غير وسامته، وأعرف أن المسكن الذي يريد أن
تعيش فيه فوزية معه لا يزيد على حجرتين صغيرتين.

- بالطبع لن تعيش فيه! لن أوفق أبداً.

ثم انتبه لشيء، في حديث والده فاسندرك: ولكن كييف عرفت حضرتك أن منزلة من حجرتين؟

زياد صوت الجد خفوتا حتى كاد يهدى:

- فوزية هي التي فاتت لي .

وَمَا أَنْرَاهَا هُنَّ

فی مُتّری

کیف

سكت الجد وهو ينظر في عيني ولده . فارتاع شعبان وهب واقفا وظل ينظر

لأنه حسامتنا لفترة قبل أن يهمس بيوره

٦٣

أوشك شعيبان أن يقول لفراج إن التفاوض في هذه الظروف يكاد يكون وفاحة.

لکہ ضغط علی نفسہ و قال :

- ولكن لماذا لا تتذكر يا ايمي حتى تكون مستقبلاً قبل أن..

فاستمرت مقاطعات الائشكيات لتعياب وقال مخاطبها فراج

ثم أكمل بليهجة من ي يريد إنتهاء المقابلة : وإن فعل خيرة الله. أترك لنا فرصة للتشاور ولكنني نسأل ابنتنا عن رأيها وسهيكون الرد خيراً يا زن الله.

ثم تهض وصافع الخطاب وسط نظرات الدهشة من الآباء والحفيد . وبعد أن
وذهوره عند الباب وانصراف انفجر شعبان مدمدا :

- كف وانت العبراء؟ ماذا جرى لشبان هذه الأيام؟

ودخلوا من جديد حجرة الجلوس، أما سالم فقد توجه متقدلاً إلى حجرة أخته التي كانت تجلس على السرير مستندة بذرفيتها إلى الحاجز وتبعد ممسكتها عن التفكير، وعندما فتح سالم الباب في عنف حدست على الفور ما يدور في رأسه فواجهته بابتسامة مختصرة عندما قال:

- هدف داشت از جهتی مدل‌آور است سطحی

- لماذا تزداد أمن بطرده يا سالم؟

- فلاح و مغلب و سک في الحارة و حلم أن تسكنى فيها معه . تصورى !

سكتت فوزية فاستحثها سالم وهو يشعر بالخوف : ستر فلسطين بالطريق

احببت فوزية رأسها وقالت لست أنا التي تتقبل أو ترفض يا سالم . الرأى لا يكفي وجدك .

فهام مستكرا : ولكن رفخت أكثر من مرة ولم تسمعي كلام أبيك أو

جذك؟ فما معنى

كان شعبان يقف مستغرقا في همة لا يكاد يفقه ما يقوله أبوه أو أن يتبع ثورته . غمره إحساسه بالعار والغضب والهزيمة، فترك أبياه واقتلاع سرقة واندفع خارجا ليجد سالم وفزوة يتلقان مذعورين في الصالة لارتفاع صوت أبيهما في وجه الباشكاب لأول مرة في حياته . حدهما أبوهما بنظرة غاضبة، تكاد تكون كارهة، قبل أن يخرج من البيت ويصفق الباب وراءه .

وغير تلك الليلة غزت سالم أحلام وكوايس كثيرة ، في البدء زارت أمه، اقتربت منه واحتضنته وألقته شيئاً ترضعه، فقال أنا كبرت يا أمي ولكن مع ذلك راح يرضع فيهم شديد قبل أن تنزع شيئاً فجأة وتقول كيف؟ لم تصبح رجلاً يا سالم؟ قال ولكن يا أمي .. وهو يهد يده في يائس لشيئها الذي يشر منه الدين دون أن يبلغه فقلات إندهض يا سالم واغسل فنك ثم قابلني عند الكوبري ومعك الزيدان ولا تقل لأبيك . ظلل بجري وراها وهو ي Kendall لكن يا أمي .. لكن يا أمي فجأة شعبان ممسكاً بعصا الباشكاب التي أصبحت فجأة أطول من أبيه نفسه وراح يضرس سالم على بطنه وهو يقول اخرجه ! اخرجه يا ولد ! وهو يمسح وسط لذعات العصا ما الذي أخرجه؟ خذ كل شيء ، واتركني ، غير أن العصا صارت خجراً مشرعاً في وجهه ولم يكن الشخص الذي يحمل الخجراً أبياه فارتعد وراح يصرخ .

ولم يشعر سالم باليد التي جاءت تمسح جبينه وتهدهده وتجفف عرقه وتعديل وضعه في الفراش إلى أن هذا ارتتجافه وتشيجه .

لكن في الصباح كان مجدها وكان شاحبها، لم تعاوده نوبة الهديان كالمعتاد بعد الكوايس، بل غرق في صمت عجيب . وحدث في تلك الليلة شيء، كان قد توقف منذ فترة طويلة، إذ بال في فراشه .

- ٣٣ -

فتعاجله الجد : لا أقصد شيئاً يا شعبان!

ثم أخذ رأسه وكانت يكلم نفسه : تمنيت لو مرت هذه الليلة على خير . تمنيت على الله أن تقبل هذا الشاب لأن ابنته تريده، تمنيت لا تسائلني عن شيء ، ولكن سكت مرة أخرى ثم همس وفي صوته غصة : زوج ابنته بسرعة يا شعبان . ظل شعبان يقف في مكانه يقامت الطويلة التحيلة مطلباً على أبيه بوجه محققاً وعيدين محمرتين تحبسان الدموع، ثم قال بصوت مرتجف :

- أنت أفسدت حياتي يا أمي !

وقف الباشكاب بدوره وغضلاً وجهه ترتعش :

- أنا الذي أفسدت حياتك يا شعبان؟ كيف؟

- أخذت مني أولادي وضيعتهم كما ضيعتني !

كان جسد الباشكاب كله الآن يرتجف ويجد بصعوبة صوته الذي كان يختبئ أحياناً ويتحول إلى عنعة غير مفهومة :

- متى؟ كيف؟ تكلم .. هل تجتب يا ولد أنت كنت أعرف شيئاً؟ أنت يمكن أن أعرف شيئاً؟ هي ابنته، للماذا بعد أن صحت على أن تقطع دراستها لم تراقبها؟ أنا منعك يا شعبان؟ وكيف كان يمكن أن أعرف؟ هي بالأمس فقط كدمتني وأنت الذي حددت الشاب الوعد عندما جاءك في المحل .

كيف .. متى كان يمكن أن أكمل، وماذا كنت سأقول للد

ثم فقد القدرة على السيطرة على نفسه فارتفع صوته: خذ أولادك يا شعبان واترك هذا البيت لتربيهم كما شئت! متى، قلل لي متى منعك أنت من أن تقترب منهيمها أو من أن تربيهما؟ متى أفسدت حياتك؟ قل . لماذا لا تتكلم؟ كل شيء حاولته معك ولكن .

ماذا كنت تريديني أن أفعل؟

- ٣٤ -

لذا ياشكائب إلى شرفته ويلقى فيها طويلا. جلس يتطلع مهوما إلى الطريق الذي دانما ما تسرى عنه حركته وعابروه ولكنه ظل ينظر دون أن يرى أو يسمع. كيف استطاع شعبان أن يقول ما قاله؟ ضيعبه وضيعب ولديه مرة واحدة ماذا كان يوسعه أن يفعل لهم أكثر مما فعل؟ أعطاهم عمره وما له وجه، فهل ضيعبهم الحب؟ ماذا يقول أبوخطوة في هذا وفي الحب الذي يقرب ولا يبعد؟ هناك للحظة ما، فما هي؟

أي أب كان يستطيع أن يبذل أكثر مما بذل هو لشعبان؟ أحبه قبل أن يولد يقدر حبه لسمية، أحبه كجزء من الفالية التي ملاط حياته قبل أن يكون ولده، ولكن حتى في طفولته الباكرة وقبل أن تموت أمه كان بعيداً وياتياً. يحب أن يلعب وحده ولا يريد الاختلاط بغيره من أطفال الجيران. وبعد أن ماتت سمية عاش له أباً وأما، يطعمه ويلبسه ويداكر له دروسه ويقاد يلازمه طول الوقت ومع ذلك ظلل شعبان مصمماً ووحيداً، راوده الأمل في أن يتغير ولده بعد انتقاله إلى محكمة فى القاهرة قبيل وفاة سمية. كان شعبان وقتها فى العاشرة من عمره، وسكنى البيت كلهم يعيشون كائنة واحدة. تمنى أن يشجعه ذلك على الخروج من البيت واللعب مع أولاد الجيران لكنه لم يفعل. أراد دانما أن يبقى وحده ولم يعرف هو أبداً ما الذى يدور فى رأس ولده. أم أنه فى الحقيقة لا يوجد أى شيء يدور فى رأسه؟

يذكر دهشتة حين كان يذاكر له دروسه فى المرحلة الابتدائية، يذكر عجزه عن أن يكتب ولو سطوراً قليلة فى أي موضوع للإنشاء، اعتاد أن يشرح له الموضوع، ويزوره بالعناصر التي يمكن أن يكتب عنها، وبุงطبه ما يسمى بالجمل المقيدة لكن يستعين بها فى كتابة موضوعه، فلم يكن يفعل غير أن يعيد كتابة هذه الجمل. كان محروماً من أى خيال، وأحرزته كتاب فى آخر الأمر أن يسلم يان ولده لا يملك أى

ذكاً، لم تكن مساحة الدروس الخصوصية معروفة أيامها فى مطلع الأربعينيات ولكنه جاء له بمدرسین لكل المواد فاشتكوا جميعاً من بطء فهمه.

بالتأكيد استطاع أن يعبر به مرحلة الدراسة الابتدائية ثم تمسّر بعدها. ظل يربّب فى أول سنة من المدرسة الثانوية ويعيدها المرة بعد الأخرى إلى أن فصلوه من المدرسة الحكومية. أدخله مدرسة أهلية ظل يدفع لها والمدرسين الخصوصيين معظم مرتبه ومع ذلك لم يتفتح شئ. وأخيراً، بعد أن أصبح له شارب كث وأشرف على العشرين من عمره اضطر أن يستسلم وأن يقطع دراسته. أعاد فتح محل الحاج السعدى على أمل أن يعلم السوق ابنه ما قشتلت فيه الدراسة. لكن شعبان لم يكن هو الحاج السعدى الذى عاش عمره صديقاً لكل جيبرانه فى السوق يخدمهم ويخدمونه، يطلب لهم الزيان ويجلبون له، يحب زياته ويجبون معاملته لهم وسؤاله عن أخبارهم وعن أحوال أولادهم فيرجعون إليه باستمرار. لم يستطع شعبان أن يفعل شيئاً من ذلك. عجز عن أن يصادق أحداً فى السوق بعد أن عجز قبل ذلك فى البيت.

أين كانت غلطته إبن وain كان تقصيره؟ أو لم يستجب بعد ذلك لطلبه بالزواج بعد أن فتح له المحل؟ ليته ما فعل؛ قليستغر الله. كيف كان له أن يعرف ما يخبئه القدر؟ فعل أيضاً أقصى ما يوسعه . زوجه فتاة مهدية من قريات سمية ومن قريتها. وكانت سعاد جميلة ووديعة. تصحو مبكرة قبل أى إنسان وتقوم بمقدرها بكل الأعمال فى البيت. تحفو عليه وعلى الأسرة كلها بحب لا تختلف فيه. لم يسمعها يوماً تشكو أو تتصرّم من زوجها أو من منتاب طفليها. لعلها لهذا السبب ماتت فى صمت، دون أن تصرخ ودون أن يسمع أحد صوتها أو تطلب المساعدة. عندما لزّمت غرفتها يومين ودخل ليسأل عن صحتها هاله شحوب وجهها. ولا سمع من شعبان أنها تشكو من التزيف من يومين سائله لماذا لم ينقلها إلى

المستشفى على الفور؟ لماذا لم يخبره بحالتها من قبل؟ رد وهو يرتجف خائفًا بأنه اعتقد أن هذه الأشياء طبيعية لدى النساء، وأنها مستشفى من تلك النساء نفسها! وعندما نقلوها بعد ذلك إلى المستشفى كان الوقت قد فات. فكتلها بإهماله، بسذاجته ، أو فلقيتها : بغيته ! لا . ليسنفر الله من جديد! حان أجلها هذا كل ما في الأمر . نعم . حان ولكن على يد شعبان! متى إذن ضيع شعبان؟ حين حسم على أن يتعلم ؟ حين ساده على قتله محل جده؟ حين زوجه من سعاد؟

اهداً يا حضرة البشكابن!

نعم . كانت نيتك حسنة في كل ما فعلته ، لكن كل شيء انتقلب إلى عكس مقصودك . فلماذا إذن بدلاً من أن تلوم شعبان لا تحاول أن تفهم السبب؟ هل هي عقوبة من الله؟ إن تكون كذلك فهو يستحقها . يستحقها عن جدارة، عاش عمره كله يطبع تزويره. لا يستحق عقاباً على ذلك؟ لا يستحق عقاباً على ما يفعله لأن بحياته ؟

تواضع يا حضرة البشكابن. تواضع قليلاً قبل أن ترمي ابنك بالغيباء ربما تكون أنت أبغض منه. فكر في أن شعبان لم يفترس عادةً في أي شيء، طلب منه حتى في المدرسة لم يكن يهمل دروسه كما انتهت أيام سالم. كان يقضى ساعات طويلة في الاستذكار وحل الواجبات ولم يكن ذئبه أنه عجز عن النجاح. ثم أنت لا تستطيع أن تذكر أنه ابن بار، ربما كانت هذه أول مرة في حياته يرفع فيها صوره أمامك. له عذرنا . فلتتحمّد الله أنه لم يتهور وتحول المسألة إلى قضيحة. لا تتقدّم الفضائح! لوريه تفعل ذلك؟ أسكط شاماً. لوريه حفيديثك!

ولكن أينوها؟ يستطيع أن يتهم نفسه كما يشاء، غير أنه لا يمكن أن يتهم شعبان. هذه صغراء لم يكن يفوتها فرض ولا سنة، فهل يستطيع أن يقول إنه يحارى ابنه في ذلك؟ هو يتنظم في الصلاة فقط في شهر رمضان وفي أيام الجمع وتلوثه بعد ذلك فرائض كثيرة، فما عذرها؟

للسامي ابنه إذن على ثورته. لا ! للسامي ابنه ! للسامي ربه !
ومع ذلك يقول أبوخطوة إن التدم سببجه والحب !
فلماذا لم ينجيه هذا ولا ذاك من قبل ؟
ومتن وقد قربت ساعتها كثيراً سياتيه المرج الذي تنبأ به صديقه الصالح؟
وماناً لو عرفت أسرته ما يخفيه أو لو عاشر أبوخطوة ليعرف ما صار إليه
صديقه الغادر ؟ ومن في هذه الدنيا يتغير حقاً ؟

امتهي البشكابن على صوت فتفعة إغلاق الباب المعدني لأحد الدكاكين.
كانت محال كثيرة قد أغلقت أبوابها ومع ذلك ظل الشارع صاحباً وحيباً
بالياعة الذين يفترشون الأرضفة ويتذلون على بضائعهم ، وبازال القادمين التي لا
تقطعه من اتجاه الميدان .

هو الآن يحتاج إليهم، يختمن بأصواتهم لتتسكّن أصواته، ولكنه عرف أنه قد
حان له أن يدخل غرفته عندما سمع الصوت المنثم يقترب قادماً من الميدان . كان
يعر كل ليلة في الموعد نفسه. هل يبدأ جولته أم يختمنها؟
يعرفه جيداً، ليس دائماً جلباباً ظيفياً أبيض فوقه (جاكتة) رمادية ، تغطي
عينيه نظارة سوداء، وشcondeه فتاة ملابسها نظيفة أيضاً، وهو يردد مرة بعد أخرى
بلا انقطاع، بيضاء ، وبصوت شجي .

توكلت على الله ربِّي وخالقِي . . . وأيلنت أن الله لا شك رازقني
إن كان لي رزق فليس يفوتش . . . ورحمة الرحمن ملحاً المزمن
كان يمر بخطوطه البليطنة لا يتوقف في الطريق ولا يسأل أحداً. تأخذ الفتاة
ما يوجد به المستون وتضعه صامتة في جيب جلبابها.
ظل البشكابن يتابع الصوت الجميل وهو يتبعه ثم همس لنفسه وهو ينهره:
لو ندلى كيف تعلمن المطلوب !

حضر والدا فراج مع اخته وزوجها وأولادها، وكانوا يلبسون ثياباً ريفية من جلابيب جديدة وينجلسون متزوجين في ركن السطح، وكانوا يتمتعون كلما قدم لهم شراب أو طعام، ولا يتناولون بعد إلحاد سوى القليل، على عكس بقية المدعون القاهريين. حاول الباشكاتب أن يتغلب على إحساسهم بالغرابة بالجلوس معهم والبالغة في الترحيب بهم ولكن حباهم كان أقوى من كل محاولات الجد ومداعياته. ولم تتفق أيضاً جهود فراج الذي كان يترك مكانه إلى جوار عروسه في (الكرشة) ويقوم لجلس مع أسرته مقبلاً المرة بعد المرة يد والده ورأس أمه. ولكن الراقصة نجحت في خلق جو آخر عندما تمثلت في رقصها أمام الباشكاتب ووالد العريس وراحت تميل عليهما في دلال، فعلاً صفير الشباب وضحكهم. وأخذ الباشكاتب يصفع ويتمايل بجسمه، ولم يشاركه نسيبه في ذلك، بل أطرق رأسه مبتسمًا في ارتباك وإن لم يفت أن يضع يده في جيبه ليعطي للراقصة وطبالها (النقطة). ورحب شعبان بانتسابه في حدود الواجب ولكنه اختفى معظم الوقت معنثراً باشغاله في تنظيم الفرح (البوفيه) والترحيب ببقية المدعون. أما سالم غاحتل مقعداً أمام الكرشة لازمه طوال الفرح تقريباً، وكان الجميع يعرفون مسألة قلة كلامه فلم ينتظروا منه أكثر من التحية الموجزة قبل أن يعود إلى مكانه وصمت.

وفي نهاية الفرح قدمت والدة فراج (كردانها) هدية لفروزية وهي تقول بصوت خافت «تمتنيت يا بنتي لو كان عندي مال فارون» فقبلتها العروس التي كانت في قمة جمالها وسعادتها وقالت «يكفيني دعاوك يا أمي». وعندما شبك فراج زراعه في ذراع فروزية ورقتها الراقصة حتى سلم البيت وسط طبول عالية وزغاريد أعلى صوتاً أطلقتها جارات فروزية وحبيباتها، تبع المدعون جميعاً الزفة التي استمرت لفترة طويلة على السلم.

لم تأت بعثة المانيا الشرقية وازدهار الصناعة بعد الحرب بسرعة كما توقع فراج، ولكن زواج فروزية هو الذي تم بسرعة. قال فراج إنه لا يريد شيئاً من الأسرة لأنه لم يدفع شيئاً. كل ما يريد هو امرأته وأن تشاركه حياته كما هي، على أن يبيتها مستقبليها خطوة خطوة كلما تحصلت الأحوال، لكن الباشكاتب أصر على تجديد طلاق شقته الصغيرة وأن يفرشها من جديد على حسابه وظل فراج يعارض في عنان أن يدخل شقته شيء لا يدفع ثمنه. حاول الباشكاتب أن يشرح بأن العرف جرى على أن تجهز أسرة العروس بيتها، فرد فراج بأن المجتمع تغير وينتشر نبذ التقاليد البدائية. لكن الباشكاتب نجح في النهاية في إقناعه بأن يتقاسما التكاليف باعتبار نصف المبلغ هدية الأسرة لايتها والنصف الآخر قرضاً يرده فراج عندما يتوفر له المال. فوافقت على مخصوص بشرط أن يكتب إيصالات بالمثل لتكون التزاماً عليه برد الدين، وأجمل في مبلغ الدين (الشبكة) التي اشتراها الجد ليقدمها فراج إلى عروسه.

تم فرج فروزية حسب الأصول ودفع تكاليفه الباشكاتب الذي تطلب على ممانعة فراج هذه المرة بأن قال له ضاحكاً «يا أخي فراج لا تحضر أنت إن كان لا يعجبك». ولكن نحن نريد أن نفرح بابتنا!، وهكذا فقد علقت زينات كهرمانية ملونة في مدخل البيت وفوق السطح الذي أقيم فيه شادر ووصلت مقاعد تكفي لكل الجيران والمدعون. وعلق مكبر صوت ليصدح فيه المطرب ولتقدم الفرقة أحانها لأهل الحي.

وفي تلك الأيام وفي إحدى جلسات المطبع طلب سالم من جده أن يحكى له عن جدته التي لم يرها، فسمع منه قصة زواجه، وكان زواج حب.

كان توفيق أفندي قد انتقل من أسيوط كاتباً في محكمة المنصورة ورأى (سمية) وهي تتردد مع والدتها على المحكمة فأخبأها من أول نظرة، كانت بيضاء، وممتلئة امتناعاً، حسناً، ولم يتم بانها تصرفه كثيراً في السن أو بانها لم تتجاوز السادسة عشرة، فعلى ذلك الوقت في مطلع الثلاثينيات، كانت هذه سناً معقولة جداً لزواج الفتى، وكان مرتبه كبيراً في حينها ولديه إيراد هذا البيت الذي ورثه عن والده، أي أنه كان مستعداً ومكتمل الرجلة فلم يتردد، ثم إنه نبه سالم إلى دروس مهم جداً لينفعه في الحياة: مفتاح أي بيت في الدنيا هو أنها، وهكذا فقد سلك الطريق المباشر وكسب ثقة الأم، ساعدتها هي وابنتهما في مزاجهما مع الأعمام على الميراث، لم يكن قد يقى لها الكثير بعد توزيع الأرض بينهما وبين الأعمام ولكن حتى بالنسبة لهذا القليل الذي كان يكفيهما بالكاد، بدأ أحبابها يرتفعون قضايا ويقدمون إيمالات قديمة وتوكييلات موقعة من الآباء لافتزاع بقية الأرض، وحين راجع توفيق ملفات القضايا في المحكمة أحس بخبرته أن هناك تزويراً وتلاعباً في المستندات وساواه الشك في أن الحاسس الذي وكلته لأعمال صالح الأعمام، فنصح بتغييره وبالطعن في المستندات، وأمكن بالفعل بفضل تصريحه استئناف القليل الذي يقى لها من قيمة الأقراب، وفي تلك الفترة بدأ يتردد بنفسه على البيت ليتابع الأخبار وليرشد الأم إلى ما ينفي أن تفعله، وما كان قصده شريطاً فإنه لم يتردد أبداً زيارات تلك في استخدام لغة النظرات مع سميه، فسقطت الجدة كاثشرة الناضجة.

قال سالم: كان فرق السن بيني وبينها يزيد على خمس عشرة سنة، أتفطن أني شعرت بذلك أو أنها شعرت به؟ الحب يا ولدي الثقا، روحين والأزواج لا عمر

خلا الشابر والمطبع إلا من المصايب الملوثة المعلقة التي كانت أفرغها بهتز اهتزازاً طفيفاً.

ووسط المقاد الشاغرة والمداخلة وقف شعبان سالم متباعدين.

★★★

بعد زواج فوزية تغيرت الحياة في البيت . أصبح من الضروري الاستعاة بشغالة ، كانت نائى مرتين في الأسبوع لتنظيف البيت والطبع، ولكن الباشكائب لم يعد يشعر براحة فيدخول المطبع وإعطاء تعليماته لهذه الشغالة . غير أن فوزية هلت تتردد على البيت بالتقاطع من شقتها القريبة وتحاول تنظيم الأمور قدر الإمكان : تراجع أعمال الشغاله وتقضي وقتاً طويلاً مع سالم ومع جدها التوحي بأن شيئاً لم يتغير في علاقتها بالأسرة، كما أنها لم تفقد امتياز ترتيب غرفة جدها التي كانت محمرة على الشغاله . وكانت نائى أحياناً يفرد لها لتناول مهمم القراء أو العشاء ، ولكن فراج الذي أحبه الجد كثيراً وارتاح لصحبته لم يكن يستطيع أن يزورهم إلا في يوم الجمعة . كان يعمل في الشركة في فترتين صباحية ومسائية، ولم يعد لديه أي فراغ .

وهكذا أصبح سالم وجده يقضيان معظم الوقت بمفردיהם . لم يكن شعبان يظهر إلا عند العشاء، يعود عليه الإلهام دائمًا ويرد بالقصص وأدب على أسلمة والده عن أحوال العمل، التي لم تكن جيدة في معظم الأحيان، كان بعد ثورة الوحيدة والتقصيرية الأجل قد قبل رئيس والده طالباً الصفح قائلاً إنه لا يستطيع أن يعيش دون رضا عنه، وقال الباشكائب إنه تنسى ما حدث وإنه ربما لو كان مكانه لفعل ما فعله والده، رجعت أحوال شعبان وقيابه بما يدور في البيت مثلاً كانت من قبل، ولكنه اعتاد قبل أن يدخل غرفته ليصل إلى العشاء ويعلم أن يسأل سالم عن دراسته، فبرد الجد بانها على ما يرام، فيما عدا ذلك كان الجد والحفيد يتباادران الحديث والسمير بحربة في البيت وفوق السطح على السواه .

ولكن سالم لم يسمع هذه العبارة الأخيرة، كان هو الذي شرد الآن بعيداً ثم
قال فجأة :

- ولكن ما الذي فعله أبي لتموت أمي وأمه؟
انتقض الجد في فزع :

- استغفر الله جديتك وأمك ماتت ميتة ربنا، الله وحده يأول.
لكل أمي ماتت صغيرة جداً.
هذا أمر الله، حكمه وحكمته.

ثم بدا على الباشكالتب شيء من التوجس فقال لحفيده :
- ولكن لماذا تتساءل عن ذلك الآن؟ هل سمعت شيئاً؟ هل قال لك أحد شيئاً ما؟

فانطلق سالم في سرعة وغضب : لا تكتب يا جدي!.. لماذا يهرب أبي مني،
لماذا يهرب من كل إنسان، من فزورية ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لا يزوره
أحد ولا يزور هو أحداً؟ لماذا يحول وجهه بعيداً كلما كلامه أنا ولماذا ينתר في
الارض حين تكلمه أنت؟ ما الذي فعله أبي؟

قام الجد من مكانه وتقى من حفيده بخطوات مهددة وهو يوجه نحوه سيادته
في غضب : إياك أن تتكلم عن أبيك هكذا!
ثم تمالك نفسه وقال وهو يضع يديه على كتفى سالم : أهدا يا سالم ربنا
يهديك.

لكن سالم لم يسمع تأنيب جده ولا دعاءه، بل واصل ثورته وهو ينتقض
- أبي فعل شيئاً يخفيه هو وتخفيه أنت، أبي لا يحبينا، كان يريد أن يمسعني
منذ زمن مع المجنين، وزوج فزورية لرجل فلاح في الحارة لأنه يريد أن يتخلص
منها ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولأنه، لا تكتب يا جدي! أنت لا تحبه وأنت لا
تحبه ولا أحد يحبه ولهذا لا يائيه زبائن في الحل، ولهذا يعاقبه ربنا!

لها وحين خضنا في النهاية بيت كنت أستعجل الوقت الذي أرجع فيه من المحكمة،
أكاد أجرى في الطريق ففتحت لي الباب قبل أن أطرقه وشوقها مثل شوقي.. تلهث
كتتها هي التي صعدت السلم وثبتاً لا أنا. تادرا ما كانا نخرج من البيت، لم يكن
أخذنا يحتاج غير الآخر، الان أنسال نفسى من أين كانا منى بكل هذا الكلام؟ ولم
كان كل كلام يهجه؟ من أين كان يأتينا ذلك الفرج ونحن معاً لماذا كانت كل
 أيامنا وليلتنا يوماً واحداً ممتداً من التedium ولانا صارت الأيام بعدها طويلة
 كالدهور؟

قال الجد ود้อม في عينيه إنه عرف معها سعادة لا تغواص عنها نساء الدنيا ،
ثم شرد طويلاً وحول نظره عن حفيده في اتجاه بيوت الحارة المتلاصقة حتى
ظن سالم أنه نسيه، لكنه عاد يقول بصوت أكثر خفوتاً دون أن ينظر في اتجاه
حفيده :

- لما أتيجتنا أيام فرحنا بالطبع، أحبيتنا ورغبتنا، كنت أقول إنى أراها فيه
فتقول إنها ترواني أنا، حتى طلقتنا لم يكن ثالثنا في البيت، بل كنا كلانا فيه معاً.
لم يكن في دينانا غيرها وغيري.

ثم تنهى طويلاً وهو يلتقط من جديد إلى حفيده قائلاً :
- كنت أفكّر دائماً أنني سأموت قبلها فتحاول أن أحدثها برفق عما تملك، عن
هذا البيت وعن نقود كنت أذخرها وعن المعاش الذي ستنقبضه بعد أن أرحل.
فترد: بدونك أنت لا حياة لي ولا له، ولكن انتظ، ها إننا قد عشت كل هذه السنين
الطويلة بعد أن رحلت هي :

كانت اليوم تغطى وجه الجد وهو يتحدث عن زوجته الراحلة، غير أنه لم يكن
يطبق الحزن طويلاً فمسح خذه وقال متضاحكاً :

- هانت! قريباً تلقاها وتلقى الأحبة .

كان يعرف أنه يخاف في شبّوخته أن ينظر إلى نفسه وأن يحاسبها، يكرر لنفسه دائمًا فناء الوقت ولكن سالم أيضًا من جديد الأشياء التي يجب أن تظل دائمة.

سأله أبوخطوة في شبابه لماذا تهرب من نفسك يا توفيق أفندي؟
فرد عليه بصرارة «لأن لا أرى فيها ميّسر»، فقال له: «ولكن كيف يمكن أن أراك أنا ولا ترى أنت نفسك؟».

لم يفهم توفيق في كثير من الأحيان ما يعنيه أبوخطوة بحديثه وتجنب التعمق في السؤال، بل أخذ يهرب منه بالفعل بعد أن اعترف له بحقيقة حاله، غير أنه أمن بعد أن التقى بسمية بآن الحب قد انقضى بالفشل، لم تشبه حياته معها أي شيء، عرقه عن النساء قبيلها، كانت كما قال سالم كفاية من الدنيا، لم تكون أجمل من عرف من النساء، ولا أكثرهن فتنة كامرأة، ومع ذلك فهو لم يعرف في حياته متعة في ممارسة الحب كالتى عرفها مع سمية، كان هو الذي طالما عذبه قمّة جسده، ينسى تلك المتعة تماماً في كلّير من الأحيان، طوال حياتهما معاً لم تكن سمية زوجته فقط، فاني شيء، كان ذلك الحب؟ كان يشتتها ويشفق عليها ويريد أن يحميها من الدنيا ويريد لها هي أن تحميه في حضنها وأن ترعاه هو الكهل كملقل، فبان جاء النقاء الجسدتين فكانا هو استمرار لذاك كله، كان الحب معها استلاء ورحمة.

- سال الباشكابات نفسه وهو يشعر بلذعة البرد فوق السطح للملائكة إذن وقد عرف الحب الحقيقي لم ينفذه ذلك الحب حتى نهاية الرحلة، وأين يعثر على إجابة للأسئلة التي عذبه من مطلع العمر؟
نهض توفيق ورفع رأسه للسماء، التي ازدحمت بالنجوم وكرر لنفسه:
- هانت.

حاول الباشكابات أن يتغلب على انفعال سالم بالبالغة في الهدوء:
- لا يا ولدي أنت تخطيء، أبوك رجل طيب يا سالم ويعرف ربنا، هو أكثر صلاحاً مني ومتى فلماذا يعاقب ربنا؟، أنت لا تعرف إلا ما تقول، أبوك يحبنا وأنا لم أكرهه أبداً، ولا أنت أيضاً يا ولدي إلا ما تعرف أن حمله ثقيل، ماتت أمك وكانت سنتها أصغر مني بكثير عندما فقدت جدتك، كنت أنا رجلاً كبيراً فاحتلت أما هو مكان في بيته شبابه.. هل فهمت؟ إهدا يا سالم.

ظل الجد يربت على كتفه حفيده ويمد رأسه ويتخمس بين الحين والأخر صدره في موضع الحاجب إلى أن هذا سالم وعاد إلى صحته وإن ظل جسده يرتجف، فعاد الجد يجلس في مكانه، فجمّت عليه من جديد بكلمات سالم أشياء كثيرة يحاول أن ينساها، للزم بيوره المصمت.

كانت الشمس قد غابت، وظل طريق الترسوس بينهما دون أن يمسه أحدهما فأشعار له الجد دون حماس: كل يا سالم.

- لا أريد، عن إنفك، سأنزل إلى البيت.
قال الجد في شرود: أبق قليلاً يا سالم.

فرد بافتراض: أشعر بالبرد.
بقى الباشكابات بمقدمة فوق السطح ولم يكن يكره شيئاً قدر كراهيته للوحدة والصمت.

في شبابه لم يكن هناك مجال لها، كان مشغولاً بمقاماته وعمله ورفاقه، وفي كهولته اعتاد أن يذهب إلى مقهى قريب من البيت ليلتقي بالجيران والاصحاح، يتبارلون الأحاديث والذكريات والضحكات، ثم بدأ رفاق العمر يرحلون واحداً بعد الآخر، ولم يجد بري في المقهى حين يذهب إليه وجده من بقى منهم، وإنما صور من رحلوا، فاعتزل في بيته معظم الوقت وشفلته صحبة ولده وحفيديه.

منها: الثياب المهرة، والأحذية المزخرفة الجلد والمعوال، والمستديق الورقية والزجاجات الصغيرة الفارغة، وتفضل بصفة خاصة الأشياء العديمة: الأقفال والمرايا الصدمة، عدد موافق الكيروسين الثالثة، مقابض الأبواب المكسورة... إلخ، ويعرف الجميع أنها تخزن هذه الأشياء في «السجارة» الخشبية الضخمة التي تشغل كل مساحة شرفتها، ظل يعتقد لفترة طويلة أنها تستقيم بشكل ما من هذه الأشياء القديمة، ولكنها بعد إصابة زوجها بالشلل استدعت باائع الروبيكينا لبيع بعض مقتنياتها، فقال البائع إن الشيء الوحيد الذي يصلح للشراء من هذه التفاسيات هو (السجارة) نفسها ونزل متبعاً بشتائم السيد إنصاف حتى الدرجة الأخيرة من السلم ثم لاحظته بسيارتها من الشرفة إلى أن اختفى بغيره عن الأنظار... منذ ذلك اليوم طلب من أبيورد الباب أن يعطيها الإيمصال في أول كل شهر دون أن يأخذ منها الإيجار، قال إنه سيحصل على نفسه من الحاج إبراهيم بعد أن يقوم بالسلامة، شكرته السيد إنصاف ودعت له كثيراً وطويلاً ولكنها ظلت تدق الباب في التهيبة ولا تخرج أبداً إلا وفي يدها شيء.

انتبه منذ مدة طويلة إلى أنه كلما كانت العادات الغربية وغير مفهومة استحال التخلص منها، واعتقد لفترة أنه أخطأ في الحكم على جاره الأسطوري حميد الوحيد من السكان الذي يقاربه في السن، ظل الكهربائي بالفعل مهموماً ومهدماً بعد وفاة زوجته، كان يمشي في جناته وهو يمسنده بيده من ناحية وجار آخر يمسنده من الناحية الأخرى، وهما يحملان تقريراً بينما يجرجر بالكلاد قدميه، واعتقد في بيته أسبوعاً طويلاً يدعها، واعتقد أن يقضى معه أسبوعيات كثيرة يحيط على الرجوع إلى عمله والتسلیم بقضاء الله، وعندما فتح الكهربائي دكانه أخيراً رجع بعد قليل مثلاً كان من قبل بالضبط، يستوقفه على السلم حين يلقاء ليهمس في أنهه ياخذ النكات المكتوفة التي ظل الأسطوري حميد عمره كله يحب الاستماع إليها وروايتها

استعصم اليوم على الباشكتاب في تلك الليلة... يقع في غرفته بسبب البرد ولازمته في فراشه الألكار التي طلما حاول أن يهرب منها، ومع ذلك فقد كان يعرف، بل كان واثقاً في قراره نفسه أن ذلك الهم لن يستمر معه سوى يومين أو ثلاثة ثم يرجع بعدها إلى طبيعته، اكتشف منه زميل طوبل أن الإنسان مهما يصادف في الدنيا من مشكلات أو حتى من مأساته فهو لا يستطيع أن يكون غير نفسه، لم يصدق أبداً أن أحداً يمكن أن يتغير تغييراً حقيقياً، فهو نفسه ولا غيره، سيفي سالم هو سالم بحسبه الطويل وتوبات الهايج التي تأتي بين الحين والحين، وسيقى شعبان ذلك الكائن المصعد الذي لا يفهمه أبداً ولا يعرف ما يدور في رأسه، وسيتحقق فوزية على حنانها وحبها للضحكة أياً كان ما يحدث لها في الحياة، سمع هذه السنة أن جارهم الأسطوري حميد الكهربائي العجوز قد هدء الحزن بعد أن ماتت زوجته، وأن جارتهم السيد إنصاف قد لزمت البيت لأنفك عن البكاء، منذ أيام شلل تضيق زوجها الحاج إبراهيم المنجد، لكنه كان واثقاً في قراره نفسه أن الحنة لن تغير أياً منها، وطلب من الله أن يسامحه على ذنبه، وبالفعل فإنه بعد أسبوع من مرض زوجها رجع السيد إنصاف تساوم البايعة الجائدين كعادتها وتشاجر معهم بصوتها العالى من شرفتها في الطابق الثاني دون أن يردعها الحزن، ورجعت إلى هواياتها الأخرى التي يعرّفها تماماً، تدق الباب في التهيبة في حضور فوزية لشرب معها القهوة وتقتل لها أخبار السكان، ثم تحاول رغم مراوغات حفيديثه أن تعرف أيضاً ما يدور في بيت الباشكتاب، رجع كذلك إلى هواياتها الأخرى، إذ لم تكن تخرج أبداً خاربة اليدين، بل تطلب من فوزية ومن غيرها من الجارات وتجمع - حتى من الشارع - كل الأشياء القديمة التي لاتفعل

بعد دفع العوائد وإتارة السلم ومرتب الباب، لكنها كانت ترغم جداً على الاعتذار وهو يحتضنها ويستندها إلى أقرب مقعد في الصالة.

اعنادت أن تأتى أكثر من مرة في الأسبوع خلال النهار، ترتب غرفة جدها وتختلي به قليلاً، تحدد للشغالة أصناف الطعام التي تطبخها، وتجلس مع سالم كثيراً إن كان في البيت لتتحدث معه عن أحواله وعن دراسته، تجاول أيضاً أن تذيب نفورة من فراج الذي حدسسته منذ البدء، لم يقل لها سالم أى شيء بعد احتجاجه الأول على خطيبتها ولكن صمته كان يصبح أعمق وأطول عندما تأتى بصحبة زوجها، بل بدأ بعد الزواج يتبعاد عنها كأنه يعاقبها، وحاولت فروزية كثيراً، غمرته بحبها واهتمامها أكثر مما كانت تفعل من قبل واعنادت أن تقضي معه أوقاتاً طويلة دون أن تغترر له، كما كانت تفعل مع جدها، يائها يجب أن تنصرف لتجهز الأعمال في بيتها.

ولم تكن تتکلف هذا كله إذ كان حبها لأخيها كبيرا، اعتادت ألا تشیر كثيرا إلى فراج امام سالم في بداية زواجهما، وبدأت بعد فترة تقول بشكل عابر إنها تعتقد أن عرق (العبيط) الموجود فيها يرجع إلى أن أمها وجنتها فلاحان، وقالت إن فراج أيضا (عبيط) مثتها يصدق كل مايسمع، بضم مستقبله كله على كلمة سمعها عن أنه سيسافر إلى بيته، ولما انتهت أمر هذه البعثة جاءت في رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية فميزه مرتبه، لوحت بيديها أمام أخيها وهي تضحك «وللنبي ياسيني»، وقالت إنها تعتقد أن من أسباب عيشه أنه عندما كان طالبا في الجامعة أدخلوه في معهد اسمه المعهد الاشتراكي وهناك علموه أن كل الأمور (تمام) وهو مازال يصدق هذا الكلام، تصور يقضى في عمله ساعات أكثر عن زملائه لكن «يزيد الإنتاج» ولكن سوا زاد إنتاج المصنعين أو قلل فسيظيل مرتبه كما هو لا يزيد ولا ينخفض أليس كذلك ياسالم ؟ فلماذا لا يفعل مثل زملاته العقلاء؟

هو يضحك من قلبه في الحالتين، لم يدهش ذلك كثيرا ولم يدهشه أيضا أن الكهربائي لم يغير عادته الغريبة الأخرى، إذ ظل دائما آخر من يدفع الإيجار من السكان بعد أن ينقضى من الشهر معظمها، يقول للباب حين يحمل له الإيصال أن ينتظر بضعة أيام إلى أن يفرجها ربنا، ويشكره أبوزيد الذى لم يعد يستطيع احتمال صعود السلالم وزروله، كان الباب قد فقد أسنان كلها وأصبح يتكلم لغة غريبة لا يفهم منها غير عبارة «الاشطري حمى»، فيقول له إلا يطالبه مرة أخرى لأن سيدفع من ثقاه نفسه حين يريد، كان يعرف أن حميد لا يعاني أى مشكلة مالية، بل ويثق أنه ليس بخيلا، فهو يتطلع دائما فى المناسبات بتركيب الزينة الكهربائية فى البيت على حسابه ويصلح الاعطال لغيره بالمجان، ولكنه لسبب ما يكره أن يخرج نقودا من جيبه ويرجى، ذلك مادام يستطع، ولم تغير ملائكة شيئا من ذلك.

شيئاً من ذلك،
نعم، هو يعرف حدود أحزان البشر، ويعرف أن هذا من رحمة الله يعباده،
ولكنه يفهم أيضاً معنى ذلك، لا أحد يتغير بسبب الحزن، وأقل من ذلك بكثير
يعني بحسب شجار مع والده أو نقاش مع حفيده أو ذكريات من أيامه التي مضت!
لماذا يريد أن يكون هو الاستثناء، ستتهيئ هذه الحالة بعد يومين أو ثلاثة
أيام.

أيام. مع ذلك قضى اليشكناط معظم ليلته ممزقا، تزوره وجوه أحبائه الذين رحلوا حين تغلق عينه، ثم صحا مجدها على غير عادته في الصباح، لكن أحزانه لم تظل حتى يومين أو ثلاثة كما تبتا لنفسه.

للق صباخ كان يلتقي لوزير في أحضانه وكانت يصيحكان معا، بدأ تظهر عليها أعراض الحمل وكانت تدخل البيت لافتة من طلوع السلم وهي تضحك واسعة يدها على بطئها وتسائل: لماذا اخترت الدور الثالث ياجدي؟ ومتى تركت مصعدا للبيت؟ لستا جمعينا شبابا مثلك؟

وكانت تعرف أنه طلب مستحيل في بيت لا يكاد يتبقى من إيجار مساكنه شيء.

لما زا يهلاك نفسه في العمل، ولما زا يضم على أن يخصم من مرتبه الصغير كل شهر ليرد إلى جدها أقساط دين لم يطالبه بها، ينتمت هل يفعل هذا أحد سوى العبط؟

كانت مقاومة سالم أعمق بكثير من كل محاولات فوزية، ولكنه أراد أن يرضي اخته فحاول أن يقترب قليلاً من فراج، وعندما كان يرى سعادتها وهو يرحب بزوجها قليلاً أو يتباين معه الحديث أو يشاركه الفسح كان يرجع إلى صيغة على الفور، وفهمت فوزية ذلك أيضاً فبدأت تتجاهل وجودهما معاً، ثم إنها منذ بدأ العمل انشغلت عنهما.

وساعدت ظروف سالم في تلك الأيام فوزية، كان مستغرقاً تماماً في دراسته واستعداده للثانوية العامة، اختار أولاً قسم الرياضيات بناءً على تصريحه أستاذه الذي رأى مستقبلاً في كلية الهندسة ولكن عندما رأى في وجه جده الحزن وخيبة الأمل عدل اختياره ودخل القسم الآلي، ولم يكن الباشكابط قد قال شيئاً قد قال إنه واثق - ويكان يقسم - أن سالم سيصبح وكيل النيابة وربما قاضياً، كان يتفق في ذكراً حفيده وفي ثبوته سمعها من أبوخطوة وإن لم يدرك معناها تماماً، ومع ذلك أصر على أن يستعين سالم بمدرسین خصوصيين في التاريخ والجغرافيا واللغة الإنجليزية، وأشرف بنفسه بهمة مضايقة على مقرر اللغة العربية.

ولكن كيف إذن حدث الخصام في تلك الأيام الخامسة؟ وفي عز المذاكرة، قبليها كان الباشكابط يتبع سالم ولا يكفي عن تشجيعه ليكون منذ البدء من الأولئك في كلية الحقوق، غضب على حفيده فجأة غضباً شديداً دون سبب واضح، كان في العادة سريع الصنف إذا ما نسأله أو لغيره في نوبات الهذيان التي تصيب حفيده، أما إلى ما يسمعه من إساءة له أو لغيره في نوبات الهذيان التي تصيب حفيده، أما

في هذه المرة فلم تحدث نوبة من هذا النوع، ولم يستطع سالم أن يعرف سر تحول جده الذي ظل أياماً يكلمه بطريقة جافة وفي الأمور المهمة وحدها وامتنع عن الصعود معه إلى السطح وعن دخول غرفته، حاول مرات عديدة أن يستعرض جده وأن يستوضح سبب غضبته قلم يلقي أبداً.

لها سالم إلى أبيه وهو في غاية الحزن، وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي تحدث فيها مع أبيه عن جده أو عن أي موضوع آخر، غير أن شعبان قال لأبيه بلجة تأثير صارمة:

- أنت أغضببت حضرة الباشكابط فقبل يده ورأسه حتى يرضي عنك، لن تتوجه في الشهادة مالم يرضي عنك.

لكن سالم اكتشف أن حال أبيه كحاله وأنه لا يعرف أى شيء عن سبب انقلاب جده المفاجي، وعندما حاول مع ذلك أن يعدل بالتصويت، لم يسمع له الباشكابط أن يلمس بيده تاهيلك من أن يقبلها، نظر نحو حفيده في غضب وهو يتقدم منه مادراً بيده فتراجع سالم على الفور.

فوزية وحدها هي التي استطاعت فيما يليه أن تفعل شيئاً لمساعدة سالم في تلك الأيام الصعبة، فلقي أول زيارة لها بعد ذلك التصالح الكثيف حتى لها شقيقها عميراً يجري للفكر لحظة ثم قالت بابتسامة:

- هل حدثت شيئاً عن خروجه يوم الخميس؟ هل سالتك أين يذهب؟
- لا بالطبع، ماشتن بذلك؟

- فهو تعرف أنت إذن أين يذهب؟ هل تابعته مرةً؟

- أنت مجونة يا فوزية؟ كيف يمكن أن أتجسس على جدي؟

- أنا مستعدة أن أتجسس لو استطعت! أدفع نصف عمرى وأعترف أين يذهب يوم الخميس!

ثم أضافت وهي تضحك: مازا يفعل جدنا المكار؟

عندما كان الباشكات ينزل السلم يوم الخميس طرأ على ذهنه أن بعد أيام سبعة الخامس والسبعين، لم يتعد أن يحتفل بعيد ميلاده ولا حتى أن يذكره إلا بعد أن ينتهي بيده، غير أنه توقف لحظة عندما تذكرة وقال لنفسه:

- ها إنذا أبلغ الخامسة والسبعين ومازالت مبنية بالصحة والعافية، ولدت في أول ستة من القرن قبل سبعين على أن أحمله على كثفي حتى نهايته.

بدأ ينزل الدرجات ببطء على غير عادة، تمنى لو يقابل أحداً من الجيران ليقف معه قليلاً ويتحدث إليه، ولكن في ذلك الوقت من النهار يكون الكبار في أعمالهم والصغرى في مدارسهم، كان هناك الصمت الذي يلقى ويحاول أن يهرب منه دائماً، صمت يغلف السلم والعبارة كلها، قليلاً وسحيقاً يوحى بالفزع والوحشة، يزكده وقع خطواته وإيقاع عصاه.

توقف على بسطة السلم وحدث نفسه مرة أخرى: صمت أثقل من ذلك سيجي، عما قريب، فكيف ستواجهه؟ لا ياسيدى، لا تخدع نفسك، لانهاية القرن دربها حتى لانهاية العام.

أسرعت خطواته على الدرج الخالي كأن هناك من يطارده، وتৎفض بعمق حين خرج إلى الطريق المزدحم، اتجه كالعادة نحو محطة (الأتوبوس)، لكنه حاد فجأة عن طريقه وجلس على مقهى كان يتردد عليه من قبل في بعض الأحيان، جلس يطل على ميدان السيدة زينب الواسع، يغزو سمعه صليل عربات الترام المتتابعة ونداءات باعة السجح والبخور، وباعة الفاكهة الجائعين وصيحة مجنوب الست الطاهرة الملتحى الذي يلبس فوق الجلباب سترة صفراء، ويصبح أمام يابها «مدلاّد» وهو يلوح بعصاه الطويلة، وأشارته هذه الضجة المأكولة بالطمأنينة، ركل

قال سالم ناقد الصبر: يا فوزية ليس هذا هو موضوعنا، هو حر يفعل ما يشاء، ولكن لماذا ..

فجأة استكتئف فوزية بحركة من يدها، وبداً أن فكرة طرأت على بالها، ثم انطلقت في حركة عالية وقالت: فهمت! أظن أن جدك يعتقد أنك تسرق المجالات من الآراء، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر.

سأل سالم في حيرة: أية مجالات؟ ففقالت وهي تنظر في عين شقيقها مباشرةً واستسامة عابثة على شفتيها:

- إل م ج ل ١١١ ت الصورا.

لم يفهم أيضاً فطلت تنظر إليه من أعلى إلى أسفل، ثم حددته بنظرة فيها شيء من الإشفاق وهي تقول:

- معقول أنك لا تعرف يا سالم، مع كل هذا الطول والعرض؟ هل هذا عيب أو استعباء؟

قال ولوجهه تشن به على وشك الانفجار: عن أي شيء تتكلمين يا فوزية؟ أنا لأنفهم أي شيء، مما تقولين، أي مجالات؟ أنا لا أفكّر في أن أهدى على أوراق جدي.

فرفعت فوزية يدها مرة أخرى تسكّت أخاهما وقالت:

- إنس، سأتكلم أنا مع جدي وسأعرف منه كل شيء، لاتفاق، من لجدك غيرك في هذا البيت؟، لو صبرت قليلاً لن يستمر هذا الخصم.

ثم انصرف عنه إلى جدها المعتكف في غرفته، ولا يعرف سالم ما الذي فعلته فوزية أو ما الذي قاله لجدتها، ولكن في عصر ذلك اليوم حدث شيئاً: صمم الباشكات على طرد الشفالة الجديدة، وهن في وجه حفيده من جديد وهو يسأله:

- هل اشتريت الترس؟

ثم إنها رجعاً صاحبيها.

بصريه على قبة المسجد البيضاويه، وقال لنفسه انه ملزم الان أن يذكر في مصيره
بطريقه أخرى.

في الدقائق الخمس الأخيرة قبل جمع الأوراق تذكر أبو خطوة وزيارته الأخيرة
له قبل خمسة عشر عاما، هو واثق أنه لو أتجهد ذهنه ليفهم معنى ماحدث في هذه
الزيارة فسيجد حلا لكل مايروقه، لكن في تلك اللحظة جاء جرسون المقهى العجوز
الذى يبريش بجفونيه ورحب به بحرارة وهو يهتف: عاش من شافك يا حضرة
الباشكتاب، ثم أضاف بلهمة تمثيلية: «أين أنت وأين أيام الحلوة؟ شافت
الرؤوس وأصبحنا عجوزين».

تغلبت على الباشكتاب طبيعته: أنت الذى أصبحت عجوزاً وجداً يا جابر، أنا
المحسان هذا ليس شيئاً، هذه صبغة.

انصرف الجرسون ضاحكاً ليحضر له القهوة التي طلبها وعاد الباشكتاب
يذكر: «نعم، هو لم يكن، مازال بالفعل كالمحسان ولكن حتى متى؟».

وكييف انقضت سنوات عمره الطويلة دون أن يشعر بالزمن؟ لو كان أبوخطوة
حياناً سافر إليه مرة أخرى ليسأله عن المفرزى، بل لسافر إليه ليغاثيه لأنه لم يدله
مباشرة على الطريق بدلاً من أن يترك سادراً فيما هو فيه بكلام غامض عن الحب
وعن الندم وعن الحياة، الذي هو بباب آخر.

لم تفده كثيراً أيضاً تلك الكتب التي أعطاها له أبوخطوة الذي يقرأها، لم تكن
كتباً دينية بالضبط، بل كتبًا عن سير الصالحين وطرائق السالكين، أحب قرائتها
كثيراً كما كان يحب في شبابه قراءة الشعر، وجد فيها كلاماً جميلاً مازال يذكره.
بل مازال يحفظه: «سوابق الهم لاتخراق أسوار القراء»، ورب عمر استعثت أماته
وقلت أمداده، وإن قل مانقرح به قل مانحزن عليه».

ذكر وهو يبسم نفسه: هو يحفظ هذه العبارات لأنها تشخص حالته

بالفضيطة، ليس تماماً، فهو في الواقع طبع في الفرج الكبير، لا، ليكن صريحاً
هو مازال حتى الآن يطبع، ربما لهذا أنته الأحزان الكبيرة منذ فقد سمعية.
 جاء الجرسون بالقهوة وقال بلهجته الاستعراضية وهو يصبعها أمامه في
الفنjan:

ـ ها أنت ذا ترى يا حضرة الباشكتاب، جابر أيضاً ليس عجوزاً، لم أنس
طوال هذه المدة قهوتك، هاهي ذي: «على الريحه»،
ابتسم الباشكتاب بالرغم منه وهو يقول: فضحت نفسك يا جابر! أنا أشربها
طول عمري (زيادة).

أراد جابر أن يرفع المفنjan معترضاً: غبت هنا أطول من اللازم يا أستاذ،
لكن الباشكتاب أزاح يده قائلاً: أترك، زيادة أو نقص كلها سموء، لا تفرق،
قل لي يا جابر، كيف حال زيانتك؟

ـ انتهوا يا أستاذ، الدنيا تغيرت والزيارات تغيروا.
ـ حفاظاً قل لي كيف يتغير الناس، أحب أن أعرف.
قال بالفعال وهو يضرب كفاه على كفه: يتغيرون بسرعة؛ اليابان القدامي
اختنعوا، يائيني الآن في النساء، شباب، عواجيز لا يشحدون إلا عن السفر إلى
بيروت وتغيير البضاعة من الجمرك وتغيير التواولات، حتى زيان زمال المحترمون
مثل حضورت بعضهم الآن يا أستاذ يشققون تجاري شنطة، (يسبسون) شعورهم
ويليسون تذكريات سوداء في عز الليل ولا أعرف لماذا؟، والكل الان يشتري أرضًا
ويبني بيوتاً، مثل الأرض الذي كان يسرع التراب في حواري السيدة أصبح الآن
بياع بالشىء، الفلاني.

لم تكن هذه الأخبار لهم الباشكتاب في شيء، فقال وهو يأخذ رشقة من فنجان
قهوة:

ـ ذكرتني يا جابر فشكراً لك، جاشي خطاب قبل أيام من تنظيم الحى بنـ

هناك شرخاً في جانب البيت.

سأله جابر بلهفة وجاذبية (بيريشان) بسرعة أكبر: ستفهم البيت يا أستاذ؟

رد الباشكانت في دهشة:

ـ لماذا أهدمه يا جابر؟، سارمهه طبعاً.

ـ فنكم بلهجة المشط على زبونة القديم:

ـ غيرك يا أستاذ يدفع أموالاً ليحصل على هذا الخطاب، كل الملوك يتمتعون

الآن هدم بيوت الإيجار القديم ليكتي بينها عمارات للتمليك.

هز الباشكانت رأسه دون اكتراث وسكت لكن يفهم جابر أنه لا يريد مواصلة

الحديث، ولكن جابر قلل منكنا إلى جواره وأخيراً تفتحت وقال وهو يشيع بوجهه

قليلًا:

ـ قل لي يا حضرة الباشكانت، بالامس أخبروني أحد الزبائن أن الحكومة

تسمع الآن بتغيير الدولارات في السوق السوداء، فهل هذا صحيح؟ الزبون يريد

أن أعمل معه في تغيير الدولارات ويعطيني عمولة لكنني خائف.

ـ معك حق يا جابر، تغير العملات خارج البنوك جريمة عقوبتها السجن.

ـ يا ساتر يا رب، الله الغنى.

ولكن عندما انصرف جابر متظاهراً بالذعر تسامل الباشكانت إن كان يسمى

النصيحة بالفعل أم يعرض عليه الدولارات؟ لم يتغير جابر، من قبل كان

يعرض على زبنته المائت (الكيف) في ورق (السيلوفان)، لعله مازال يفعل ولعله

الآن يجمع بين الحسينين ، ماله هو وذاك؟، المهم الآن أن يتغير هو نفسه لو

استطاع.

ايقى حين نذكر عبارة أبو خطوة المهم لا تيأس من الاستقامة إن وقع منه

ذنب فقد يكون هو آخر ذنب كتب عليك، إن ينسى يا توفيق أفندي كنت شخص

سقط من فوق قمرس، فإن ظل ساقطاً على الأرض فمات بلوغ مقصده وإن جاد

ليركب فرسه من جديد وصل إلى غايتها.

ولكن كم مرة عاود هو امتحان الفرس دون أن يصل إلى أي مكان؟

أراوح فنجان اللثة من أمامه في شيء من الضيق وهو يزفر: لماذا يظلم نفسه؟ هو ليس إنساناً سيناً إلى هذا الحد، أكد لنفسه: أنا لم أؤذ إنساناً في حياته، أحبيت الناس جميعاً، ولم يعرف البعض طريقه إلى قلبي ضد إنسان حتى ولو أساء إلى.

وبعد أن ماتت سمينة الله أبق وأفياً لذكرها عشرات السنين نسيت هذا الجسد الذي ابتلاعني به الله وكرست حياتي لولدي ولولديه من بعده، حتى عندما زرت أبوخطوة آخر مرة لم يكن هذا من أجل نفسي، بل من أجل شعبان، ومرة أخرى حيرتني الرجل الطيب بما قال وبما فعل.

ولكن ربما تكون تلك هي اللحظة التي ستكتشف كل شيء، ربما تكون هي لحظة النداء، لليحاول الان استعادة كل شيء، كلمة كلمة، خطوة خطوة، كان قد أصبح عجوزاً جداً عندما زرت، كنت أنا نفسى قد خرجت إلى العاشر وخرج هو قليلاً بمكثير لكنه وجدته مع ذلك في مكتب القديم نفسه، تعلوا في المحكمة يأخذون دائمة لإبقاءه عليه في الخدمة، «للاستفادة من خبرته»، حتى ولو لم يفعل شيئاً على الإطلاق، أراووا فقط أن يظل معهم ليشعروا بأن (البركة) باقية في المكان، احتفظتني حين رأته وقال: كنت أعرف أنه لن تفوتك المناسبة، وأنك ستبلي الدعوة، لم أفهم معنى ذلك في حينها ولكنني اختلت به وحدثه عن شعبان، إنني استخرت الله وأعدت فتح محل جده لكن أحواله في العمل ليست على ما يرام، قلت إنني جئت للتعمس التنصح والهدا، استمع إلى بانتباها وحين انتهيت سألتها بالاهتمام: «ما اسم حفيذك الصغير يا أبا توفيق؟»، ثم أخرج مفكرة من جيبه وكتب فيها اسم سالم، خشيت أن يكون قد أساء القلم فقلت له يا مولانا ولدي اسمه

نحوى يعذين مفترر قرين بالدموع ثم رفع يدي فقبلها، هو الذى كان يائى على الآخرين أن يقبلوا يده ويرجراهم إن حاولوا ذلك، سائله فى ذهول وسط دموعى «أنت تفعل ذلك، وأنا الذى أدعوك يا مولاانا؟».

فهز رأسه وقال بصوت خافت: نعم، فكم أحتاج إلى دعاءك.

ليلتها لم أكُن أعرف النوم فى غرفة الفندق الصغير فى أسيوط، أتنوى فى المساء سمية ورأيت وجهها يشبه وجهي أبو خطوة أو ربما كان أبو خطوة يقف إلى جانبها وسط زحام كثير فاستيقظت من النوم وأنا أتشاج وارتجمف، ثم أسيبت الوسوء، وصلحت وأنا أطلب المغفرة وأدعوه لأبو خطوة طويلاً وكثيراً كان تنفيذ وصيبه تلك سيفتح لي باب النجاها:

وفي الصباح الباكر ذهبت إلى المكتب القديم، ابتسما لى أحد السعاة وقال مولانا لا يأتى فى مثل هذا الوقت المبكر.

لكن أبوخطوة أتى مبكراً فى ذلك الصباح.

احتضنتى بوجه ياش وهو يقول: «رأيت لك الليلة رؤيا وبشرى»، فقلت: «وأنا أيضاً رأيت فى المساء، ثم سألته بلهفة: «ماهى البشرى؟»، فهز رأسه دون أن تفارق الابتسامة شفتيه وقال: «لستا مانورين بالبوج، ولكن هى خير»، ثم وضع يده فى جيبه وأخرج ورقة مطوية أعطاها لي وهو يقول: «هذه لحفيتك سالم ياسيد توفيق، عندما يأتى الوقت لادتعها تفارق صدره، فلتكن دانما قرب قلبك»، أمسكت الحجاب المطوى بين يدى ورحت أقلبها وأنظر إلى قن حولت ابتسامة أبوخطوة إلى ضحكة ظلقة وهو يقول: «لانخف ياخصرة الباشكاب»، تحن لاتصنع سحراً ولاتكتب تمام ولا خرافات، هي أدعية كتبتها من قلبى وأرجو أن يقبلها الله، فخدمت أعرف ذلك بالطبع يامولاانا ولكننى أردت أن أسألك عما طلبت منه ولدوى فرد ياقتضايا: «سيكون بخير يابن الله»، سائله بالحاج «دعوت له يامولاانا أن

شعيان وهو الذى من أجله جئت، لكنه أكمل وكانت لم يسمعني «أمهلى حتى اللد يا أخي توفيق، غداً ستجد ماتطلبه حاضراً يابن الله»، ثم غام بصره قليلاً وهو يتطلع نحو السقف قبل أن يقول «معك حق يا أخي، أحياناً يكون أحظاناً أحلى بنا من أيامنا الذين هم أصلابنا، أحياناً أيضاً يكونون أيامنا دون أن تدرك»، لم أجرؤ على مراجعته لأنقول له إنه مانطق بشىء من ذلك كله، لكنى غممت «سالم صغير يامولاانا، لم يدخل المدرسة بعد، أما أبوه فيحتاج حقاً أن تدعوه»، فرد: «ومن من لا يحتاج إلى الدعا، وإلى رحمة ربنا ياخصرة الباشكاب»، غير أن الطريق طويل وخطانا التى نحسها تخسى بها على الطريق تقودنا أحياناً إلى عكس الطريق، سعيد من تهدى خطاء فلا يضل، ولا تنسى ياتوفيق أن عملك أو علىى هو المنجى وإنما هي رحمة مولانا.

لابد أن يكون قد رأى فى وجهي وقها الحزن لأنّه مد يده ووضعها على كتفى كان يغضى إليه ونظر إلى يحنو كما ينظر إلى طفل صغير وقال: «لا تخش شيئاً ياخصرة الباشكاب، أنت رجل صالح وستحل بك وستلك البركة يابن الله»، تناهشيت من أول اللقاء، أن أحدث عن نفسى ولكنه حين تكلم عن صلاحى مفترض من عين الدموع وقلت بصوت مختنق: «أنت تقول لي ذلك وأنت أدرى الناس بحياتى»، فرد: «ولأننى أدرى لئنما أتكلم، الأرواح وحدها هي التي تتلوث يا أخي توفيق وأنت روحك أصنف من البلور، من أدرك بحياتى أنا أو بذنوبي؟، أنا كنت أسوأ مما يمكن لخيالك أن يتصور، أتحسب أن الصالحين يولدون ملائكة؟ ألم تعلم أنه كان منهم الغوانى واللصوصون؟»، قلت: «ولكتهم تابوا فى الوقت صالح فاصبحوا من الصالحين، أما أنا كما شرى فقد مررت بى السنون وصررت شيخاً أشيب»، فقال: «لابدّ من الوقت إلا من يجعل أن الرحمة تسيق الوقت ولا يسيقها الوقت، وأنت كابدت وستكابد أكثر قادع لى يا أخي توفيق»، وجين قال ذلك نظر

زيارة مصفرة ومتجمدة وقدمها الياشكائب الذي نظر إليها في دفنه وهو يسأل
ما هذا يا جابر؟

- عنوان المسماط الذي حدثت عنه باحضرة الياشكائب.
- أي مسماط؟

- إن شئت حضرتك أن تهدم البيت أو بيعه؟

سأله في ذهول:

- أنا حدثك يا جابر عن هدم البيت أو بيعه؟ أنا لكت لك يا إيش إنني سارمه،
نقال وهو ما زال يضع البطاقة تحت أنفك الياشكائب.
- هو يعمل أيضاً في الترميم؟
- انقل حضرتك رقم تليفونه فقد تحتاج إليه.

ابعد الياشكائب عنه وهو يقول: إن احتجت إليه فسامعوه إيلك، شكرنا.
ثم انصرف من المقبرة وظل يلتف فتره في الطريق، فكر للحظة أن يرجع إلى
البيت، ولكن خطاه قادته إلى محطة الأنبويس وهو يقول لنفسه:
- متاخرنا على الهاشم.

عندما رجع الياشكائب إلى البيت متاخرًا في الليل كالعادة وجد سالم
مستقرضاً في الاستذكار، فجلس إلى جواره يراجع معه ما أكمل من دروس، لكن
سالم قال له:

- قبل أن أنسى، فوزية كانت هنا.
- في الليل؟ هل كانت تزيد شيئاً؟
- نعم، قالت كلاماً غريباً، ساكت إن كان من الممكن أن تبني مكان (الجنبية)

- ٦١ -

يسير له الله؟، فقال: «كتيراً يا ولدي، وادع له أنت أيضاً دون أن تفقد الأمل،
واعلم أن الامر كما قال أشياخنا، فقد يفتح للمرء باب الطاعة دون أن يفتح عليه
بالغليول، وربما يقضى عليه بالذنب فيكون سبب الوصول».

★★★

ظل الياشكائب في المقبرة مستغرقاً في التفكير، راح للمرة الالتفات يستعيد
التفاصيل والعبارات التي حفظها ليدرك معناها، وهو ما رأى في المزبور الأخير من
العمر مازال متغيراً كما كان في البد، قال لنفسه: أفهم بالطبع أنه حدس أن
سالم سيمكون في حاجة إلى المساعدة أكثر من أبيه، أما كيف حدس ذلك فلا
أدرى، وأنهم بالطبع أنه تنبأ لي بحسن الختام، ولكن متى وتحن الآن بالفعل في
الختام؟

ثم تساءل الياشكائب ساخطاً: ولماذا لا تفهم أنه كان يشجعك على أن تغير
طريقك في الحياة؟ ألم يقل إن خطانا تقدورنا أحيايانا دون أن تدرك إلى عكس
الطريق، وأن السعيد من تهتمي خطاءه، فما الذي يضل خطاء؟ أنت ياتوفيق تعرف
كل شيء وتفهم كل شيء؟ إن شئت أن تبدأ اليوم قلن يمنعك أحد، وإن شئت أن
تظل كما أنت فلن يتعذرك مائة أبوحطة ولو مروا ليجدتك من القبور؟، نعم، ولكن
شيئنا في نفسك يقول مع ذلك إن هناك رسالة خفية وراء ذلك الواضح والمفهوم
ليكن، حتى لو كان هذا صحيحاً فهو ليس عذراً للإرجاج، ولا للتمادي،
مرة أخرى زغر الياشكائب وقال وهو يستعد للنهوض: «هانت».

نادى على جابر ليدفع له الحساب فقال له: بدري يا أستاذ،
فرد الياشكائب وهو يضحك: بل متاخر جداً يا جابر،
ولكن جابر كان مشغولاً بالبحث عن شيء في جيبه وأخيراً أخرج بطالة
- ٦٠ -

بعض الدكاكين وتزجّرها بالإيجارات الجديدة.

هـ الجـ وـ اـ قـ لـ وـ هـ يـ هـ

ـ بـ دـ اـ نـ اـ

وـ مـ ضـ سـ الـ مـ يـ قـ لـ

ـ لـ آـ ظـ إـ هـ ذـ هـ الـ فـ كـ رـ ةـ السـ خـ يـ قـ ةـ مـ نـ عـ دـ هـ اـ،ـ اـ عـ تـ قـ اـنـ هـ دـ هـ مـ اـ فـ كـ اـرـ الـ أـ سـ اـ زـ

فـ رـ اـ جـ اـ،ـ لـ كـ نـ جـ دـ هـ كـ اـنـ يـ فـ كـ رـ فـيـ شـ يـ،ـ آـ خـ رـ،ـ فـ قـ الـ يـ صـ رـ اـتـ كـ لـ اـ خـ فـ حـ فـوـنـاـ

ـ اوـ رـ يـ بـ اـ نـ كـ وـ نـ اـ تـ هـ بـ اـ

عرف سالم البنات لأول مرة وهو في السنة الثانية الثانوية، كان يقف عند سور السطح وفي يده كتاب يذكر فيه بعد زواج فوزية وانتقالها من البيت فرأى بنتاً من الجيران تلکأ فوق السطح المقابل وتتعلق نحوه بين فترتين وأخرى وعلى شفتيها شبح ابتسامة، حول بصره على الفور وانبهك في كتابه، وعندما رأت البنت ذلك نادته باسمه بصوت خافت مرتين فالتفت نحوها، ابتسمت ابتسامة كبيرة وهي تستخدم بيديها لغة الإشارات وأعطته موعداً.

كانت ثريا تلميذة أيضاً في مدرسة البنات، انتظرها بعد خروجها من المدرسة وسارا معاً يحملان حطاب الكتب الثقيلة. انتهت إلى أنها أقصر منه بكثير وإلى أن هناك (نعشها) في وجهها، سارا معاً صامتتين وأخيراً انفجرت هي بالضحك وقالت «أنت صنم؟»، فازداد ارتياكه ولم يقل شيئاً، بدأ تسأله أستاذة «هل يتبع مسلسل محمد صبحي في التليفزيون؟»، هل يذكر أنها سلمت عليه يوم فرج فوزية؟، هل ينوّي أن يدخل القسم العلمي؟.

ومن كل تلك الأسئلة كان سالم يجب بضم أم لا دون زيادة، فبدأت هي تتكلم، قالت إنها تحب سعاد حسني جداً ورأت فيلمها الأخير أربع مرات، وتنتمي أن تخرج في الثانوية العامة بمجموع لكي تدخل كلية الإعلام وتشتغل بعد التخرج مذيعة في التليفزيون، والمشكلة أنهم في الإعلام يطلبون «مجمائع» كبيرة وهي لاتحب المذاكرة، وقالت إن أبيها يملك محل وورشة لصناعة المقابض والاتصال وإن صاحب جده الباشكاتب ولكن لو رأها أبوها تمشي معه الآن فسوف يقتلاها، وقالت إن لها أمّاً أصغر منها في الابتدائية (شقر) جداً وتعتمد إماضتها بعمل ضجة

الطالب الذي قال له إنه ليس رجلاً مادام لا يعرف بنات لها استجابة لوعدها من الأصل، والأأن ما العمل؟

حاول سالم من جديد، التقى مع ثريا مرتين بعد ذلك، مشياً معاً على شاطئِ القيل ناحية قصر العيني، رأى سالم أزواجاً كثيرةً من الأزواج والبنات في ذلك المكان الذي تحجب الأشجار نور مصابيحه المطلية باللون الأزرق منذ أيام الحرب، كان الحبيون يشعرون هناك بالأمن فيمسك الألأ والأد بيادي البنات ويتهامسون، لا يرتفع أي صوت وإن لم ينقطع الهمس، ولكن سالم ظل صامتاً وهو يستمع إلى حكايات ثريا، كان قد أعد كلاماً يقوله لها لكنه عندما فتش عنه في رأسه لم يوجد، حاول أن يسترق السمع ليعرف عن أي شيء يتكلم الشبان إلى صاحباتهم ووجد ذلك صعباً، فمن بعيد لم يكن يسمع غير ضحكات حافظة وكلمات متفرقة ليس فيها شيءٌ من الفرزال الذي ترافقه، قالت ثريا خالتها: «لكن أنا رفقت...»، نجم العنف في فرشاها في الإجازة... بعد ستة التجايند... الخ.. وإذا ما اقترب سالم أو تلك أكثر من اللازم كانوا يبترون أحابيthem ويقتظرون تحوه صامتين إلى أن يبتعد.

في المرة الثانية حكت له ثريا بانفعال أنها من يومين وجدت قطة وليدة أمام البيت لونها مشمشي وكانت تتوه وتتكاد تموت لأن أنها تركتها، قالت إنها أحبت القطة جداً وأخذتها وتعتقد أن القطة أيضاً أحببتها لأنها ترفض أن تشرب اللبن إلا إذا قدمته لها ثريا بنفسها، ثم سأله: ما الاسم الذي يفضل للقطة مثيمثة أو فافلى؟

قالت في غضب: «خلاص؟ هذا كل ما عندك؟

ثم طلبت في نفاذ صير وما يشبه الأمر: إحدك أنت حكاية؟

وصرخ إنما، مشاهدتها للمسلسل ولكن أنها تضرره لأنها هي أيضاً تتبع التصريحات.

ثم سأله سالم هل هو مغرور جداً أو أنها بصراحة لاتعجبه وبهذا لا يريد أن يتكلم،

فقال وهو يشعر بدور ويسأله تخلاته أنه ليس مغروراً ولكنه في العادة لا يتكلم كثيراً.

قالت ثريا: لاحظت هذا يوم فرح فوزية، ثم أضافت وهي تضحك: ومع ذلك لا تبالغ؟

لم تعرف أن معجزة هي التي جعلت سالم يذهب للقائها في الموعد، ولا شعرت بالمحنة التي يعيشها وهو يسير إلى جوارها في الطريق، كان كلامها يصل إلى سمعه مكتوماً ومنقطعاً كأنه يأتي من فوق بعيد، وعندما تسأله سؤالاً كان الدم يصعد إلى رأسه ويفجّر ريقه فلا يكاد يستطيع تحريك لسانه، ولم تعرف أنه كان يحاول باستماتة أن يبحث عن كلام يرد به على كلامها فلا يجد في رأسه غير الفراغ والنبيض الملاحق، لم تدرك أن ذلك ليس غروراً ولا حتى خجلًا، وإنما ببساطة أن الكلام قد هرب منه ملئاً اعتناد أن يهرب عندها يلتقي بالغرباء، وبعد أن الفرقا راح يسأل نفسه في غضب لماذا؟ لماذا كان خائفاً إلى هذا الحد؟ لماذا تستطيع ثريا أن تتكلم ولا يستطيع هو؟ ما الذي يشل لسانه؟ لماذا يمكنه أن يتكلم مع جده ومع فوزية عن أشياء كثيرة والأأن ضاعت كل الأفكار والالتفاظ؟، ولماذا لم يعالج الطبيب الذي أخذته أبسوه إليه قبل سنوات؟ لكن يعالجه من ماذ؟، هو ليس مجنوناً، أستاذ الرياضيات يقول إنه نابغ، يستطيع يتكلم مع ثريا؟ ولماذا كان يخاف من مقابلتها والخروج معها؟ لولا مشاجرته مع

أيضاً في حلقة وتهرب من رأسه، يبقى كل شيء فيه مثلاً سوى تلك التي ينبعش في عنف يكاد يسمع طنبته، في الزيارة الثالثة وهي تودعه عند الباب كان وجهها محققنا جداً وقالت بصوت خافت متخلص إلى حد ما:

- سأكمل الأوراق ثم أتصل بك، مع السلامة.

أغلقت الباب بشيء من العنف ولم تتصل به بعدها أبداً - ومرة أخرى شعر سالم بأنه قد نجا وعاده نفسه على أن يتتجنب أي علاقة من أي نوع مع البنات أو النساء.. وحين سأله أبوه ذات مرة عما تم بالنسبة للأوراق «الست عزيزات» أجابه بالقصاص: إن موضوعها انتهى.

كان هناك على كل حال مايشغله، إنهم تماماً في المذاكرة للثانوية العامة، ثم إن فوزية وضعت طفلها بعد أقل من سنة من زواجهما، رجعت البنت التقيمية بكل مرحها، اعتادت أن تأتى بصحبة طفلها كل يوم تقريباً بعد أن يذهب زوجها إلى عمله مبكراً جداً في الصباح، أراد فراج أن يسمى ابنه مسعود على اسم أبيه وصممت فوزية على تسميتها سالم، وأخيراً أسموه في شهادة الميلاد (عاطف) ولكن فوزية تناهيه باستمرار (سالم الصغير) أو سلوم.

كانت تأتى في الصباح قبل أن ينزل أخوها إلى مدرسته وأبواها إلى دكانه وهي تحمل الصغير الذي تعلق به الجميع، لم تكن قد ظهرت له أي ملامح غير شعر أسود غزير كشعر أبيه وبدين ضئيلتين مضمومتين يضرب بهما الهواء غير أن الجميع كانوا يتذمرون منه ويكشفون فيه جمالاً غير عادي، كانت فوزية تحسن بأن تتركه طويلاً مع أي منهم إذ تندى بيدها بسرعه وهي تقول ضاحكة: «هاته لامه الخالية!، صبح يا سلوم»، أدرك خالية قياباك أن تتطلع خاتياً مثلها، ذاكر بارك وانجح واستغل، أريد أن أراك (ياشكاتب) قد الدنيا!.

- ٦٧ -

كما لو كان يقتطع من لعنه الحى حتى لها بإيجاز شديد حكاية أبوخطوة وزميل جده الذى اختفى فنجان القهوة من أمامه، كان يريدها أن تضحك مثلكم ضحك هو عندما سمعها، لكن ثريا ظلت تتابعه بنظرة ثابتة ولما انتهت بلغت ريقها وقالت:

- إسمعوا أنا أخاف من حكايات العقارب والجن، هل تريد أن أموت من الرعب بالليل؟ ثم ضحكت فجأة وأكلت في حسيبة:
- يذمتك هذا كلام تقوله لصاحبتك؟
- سائلها فهى يائس ماذا أقول؟

لوجه بيدها في اتجاه الشبان الآخرين، كما يقول كل الناس،

وكان ذلك هو اللقاء الأخير، لم تعد تظهر على السطح، وعندما قابلتها مرة بالصادفة في الطريق تجاهله، ولم يحزن سالم لذلك أبداً، بل شعر براحة كبيرة، ولكن عرف بعد ذلك في الإجازة التي سبقت سنة الثانوية العامة أرملة من قريبات أبيه من بعيد، طلب أبوه أن يساعدها في إنها، أوراق لها في بعض المصالح الحكومية لأنها ليس لها رجل يقف بجانبها، كانت عزيزات تكبره يخمن بشرة ستة على الأقل وكانت امرأة ذات جسد ناضج وعيدين ملونتين، وكانت تقول له ضاحكة إنها عندما تنظر إلى عينيه هو تشعر كأنها تنظر إلى مرآة، أخذ أوراقها إلى مصلحة المعاشات فطلبتها أوراقاً ومستندات أخرى لاحصر لها، زارها في بيتها أكثر من مرة أيام الإجازة الصيفية، وكانت يجلسان في صالون بيتها متقابلين وهي ترتدي ثيابها البيتية الخفيفة، أحبانا كانت تأتي لتجلس إلى جواره على (الكتبة) لكي تطلعه على الأوراق التي تريد تقديمها، كان جسمه كله يلتهب حين تلمسه زراعها العارية أو حين يتلامس كتفاهما ويشعر بضغط صدرها عليه، يترهظ مبتعداً عنها وعرق غزير يطفو من جبهته، وفي لحظتها تتحبس الكلمات

- ٦٦ -

قال أبوه في يأسٍ لتخزين أي شيءٍ ياشعيان؟
 وسكت فراج لحظةً وشَاب صوته شُعْرًا من الحزن وهو يقول
 - ومع ذلك فوزية معها حق، كل الناس الآن يذكرون في طريقة تزيد من دخلهم
 أو في مشروع يجلب مالاً ما هذا الغلام يا حضرة الباشكاب؟ كيف تذكر
 المرتبات الناس مع هذا الغلام؟
 ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقاً في فكرة أخرى وقال
 ساهماً:
 - إذن ربما يكون جابر على حق.
 لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة. وقال شعبان: جانتي فكرة، يمكن أن
 تضع ثلاثة مياه غازية في الجبنة، يتولى البيع فيها عم أبو زيد البواب، هناك الآن
 كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعطى التلاjات مجانًا أو بالتقسيط.
 سال الباشكاب: وفي هذه الحالة تصبح ثلاثة أم تلاجتنا أم تلاجة أبو زيد؟
 ثم ضحك بمرارة وهو يقول:
 - أبو زيد يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجة.
 ثم سكت ولم يتكلم أحد.
 كان سالم يشعر بالخجل من نفسه فانسحب إلى صمته، وأطرقت فوزية
 برأسها في حزن، وظل الباشكاب وفراج ينظرون كل منهما إلى الآخر دون أن يجد
 ما يقوله، وما طال الصمت راحت فوزية تنقل بصرها بينهم، كانت حزينةً وغاضبةً
 لكن شعوراً أقوى من ذلك غلبها وهي تنظر نحو رجالها الغارقين في التفكير
 فسحكت وهي يقول:
 - هالكم ساكينٌ بسيطةٌ نبني الدكاكين فوق السطح.
 فلحسكوا أيضاً، ولكن بلا روح.

ترفعه نحو جدها وتتساءل: لا يبدو ذكياً ياجدي؟ لا يتفق (باشكاب)؟
 قيبر جدها ميتسمًا: (باشكابية) راحت عليهم ياقوزية حتى لقبهم لم يعد له
 الآن وجود، تمنى بدلاً من ذلك أن يصبح ابنك ضابطاً.
 فتحتسته متظاهراً بالفزع وهي تقول: لأنك ياحبيبي! جدك لا يقصد.
 أحبانا كان فراج يأتى أيضًا مع فوزية في المساء، كان يبعث على وجهه
 الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئاً من عاداته، ظل يقطن في قيلولة
 أول كل شهر مبلغًا صغيرًا ليسد دين الباشكاب، ثم اضطر للتوقف قيلولة
 فوزية وبعد إنجابها، وعده الجد بأن يعود للانتظام في السداد عندما يقبض
 مكافأة تشجيعية طلبها له رئيسه ويتناولها منه مدةً، قال له الباشكاب ألا
 يهتم فإنه لم يطالبه بشئ، من الأصل لكن فراج رد بأن الدين دين، وفاث مرأة
 في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريقة عابرة دون أن يوجه الخطاب
 لأحد:
 - تقطيم الحن وفن مشروع (الدكاكين).
 فظل فراج ينظر إليه ميتسمًا وهو يسأل في دهشة: ألي دكاكين؟
 - دكاكين الجبنة.
 لم يفهم فراج أيضًا وظل ينفل ببصره بين سالم وشعبان وزوجته والباشكاب
 ولكن فوزية نظرت إلى أخيها مقطبة الجبين وقالت بلهجة معافية:
 - فراج لا يعرف شيئاً عن الموضوع يا سالم، هذه كانت فكرتي أنا.
 وحين عرف فراج الحكاية قال بدهشة: دكاكين؟ في هذه (الزنقة) ما هو
 عرض الجبنة؟ متر ونصف أو متران؟ ألي بضاعة يمكن وضعها في هذه
 المساحة؟ وأين يقف البائع؟ على الرصيف؟
 قال شعبان: ربما يمكن أن تستعملها كمخزن.

قال أبوه في مأتم لتخزين أى شيء، ياشعبان؟
 وسكت فراج لحظة وشاب صوته شيء من الحزن وهو يقول:
 - ومع ذلك فوزية معها حق، كل الناس الآن يذكرون في طريقة تزيد من دخلهم
 أو في مشروع يجلب مالاً، ما هذا الغلام، ياحضرة الباشكتاب، كيف تكلّي
 المربيات الناس مع هذا الغلام؟
 ظل ينظر في حيرة إلى الجد الذي كان مستغرقاً في فكرة أخرى وقال
 ساهماً:
 - إذن ربما يكون جابر على حق.
 لم يبحث أحد عن تفسير لهذه العبارة، وقال شعبان: جا متني لفكرة، يمكن أن
 تنسخ ثلاثة ملايين غازية في الجنينة، يتولى البيع فيها عم أبو زيد الباب، هناك الان
 كثير من الشركات الأجنبية ويقال إنها تعطى التلقيحات مجاناً أو بالتقسيط.
 سأل الباشكتاب: وفي هذه الحالة تصبح ثلاثة أم ملايين أبو زيد؟
 ثم صاح بمرارة وهو يقول:
 - أبو زيد يمكن أن يموت وهو يفتح زجاجة.
 ثم سكت ولم يتكلم أحد.
 كان سالم يشعر بالwhel من نفسه فانتصب إلى صمت، وأطرقت فوزية
 برأسها في حزن، وظل الباشكتاب وفراج ينظرون كل منهما إلى الآخر دون أن يجد
 ما يقوله، ولما طال الصمت راحت فوزية تنقل بصرها بينهم، كانت حزينة وغاضبة
 لكن شعوراً أقوى من ذلك غليها وهي تنظر نحو رجالها الغارقين في التفكير
 فضحكوا وهي تقول:
 - مالكم ساكتين؟ سبطة نبني الدكاكين فوق السطح.
 فضحكوا أيضاً، ولكن بلا روح.

ترفعه نحو جدها وتتساءل: لا يبدو ذكياً ياجدي؟ لا يدفع (باشكتاب)؟
 قبره جداً مبتسماً: (باشكتاب) راحت عليهم بافوزية حتى لقيهم لم يعد له
 الآن وجود، تضيّع بلا من ذلك أن يصبح ابنته ضابطاً.
 فتحتسته متناظرة بالفرج وهي تقول: لا تبت ياحبيبي! جدك لا يقصد.
 أحياناً كان فراج يتأتي أيضاً مع فوزية في المساء، كان يندو على وجهه
 الإرهاق من كثرة العمل، لكنه لم يفقد شيئاً من عاداته، ظل يقطّع من مرتبه في
 أول كل شهر مبلغاً صغيراً ليسدد دين الباشكتاب، ثم اضطر للتوقف قبل ولادة
 فوزية وبعد إنجابها، وعد الجد بأن يعود للانتظام في المسداد عندما يقيمه
 مكافآت تشجيعية طلبهما له رئيسه ويتذكرها منذ مدة، قال له الباشكتاب لا
 يهتم وإن لم يطاسبه بشيء، من الأصل لكن فراج رد بأن الدين دين، وذات مرة
 في إحدى زياراته المسائية قال سالم بطريقه عابراً دون أن يوجه الخطاب
 لأحد:
 - تنظيم الحى رفض مشروع (الدكاكين).
 فظل فراج ينظر إليه مبتسماً وهو يسأل في دهشة: أي دكاكين؟
 - دكاكين الجنينة.
 لم يفهم فراج أيضاً وظل يتأمل بصره بين سالم وشعبان وزوجته والباشكتاب
 ولكن فوزية نظرت إلى أخيها مقطبة الجنين وقالت بلهجة معاناة:
 - فراج لا يعرف شيئاً عن الموضوع يا سالم، هذه كانت فكرتي أنا.
 وحين عرف فراج الحكاية قال بدفعة: دكاكين؟ في هذه (الزنقة)؟ ما هو
 عرض الجنينة؟، متمن ونصف أو متمن؟ أي بضاعة يمكن وضعها في هذه
 المساحة، وأين يقف البائع؟ على الرصيف؟
 قال شعبان: ربما يمكن أن تستعملها كمخزن.

قال الباشكاتب إنه فضى عمراً طويلاً يبحث عن سر تلك الأسباب التافهة للجريمة فلم يتوصّل إلى شيء يطمئن إليه، ثمّنـي لو يكتب كتاباً عن هذا الموضوع ولكن الوقت متاخر وسيترك سالم هذه المهمة بعد أن ينتهي من دراسته للقانون.

قال سالم: وسوسـة الشيطان هي السبب.

فرد جده: وسوسـة الشيطان دوـاء كل الجرائم يا سالم والشيطان يوـسوسـة الإنسان طوال الوقت فلـمـاـنـاـ في مـلـلـ هـذـهـ العـالـاتـ بالـذـاتـ لـاـيـسـتـجـبـ النـاسـ إـلـىـ الـوـسـوـسـةـ التـافـهـةـ.

- هنا رأيك أنت ياجدي؟

- لو كان لي رأي لما تغييرت ولوّضعت الكتاب منذ زمن طويـلـ.

ثم يـدـاـ سـالـمـ أـنـ جـدـهـ قـدـ شـرـدـ قـتـلـاـ وـهـوـ يـقـولـ ماـ الـذـيـ يـجـعـلـ خـطـطاـ نـقـودـنـاـ إـلـىـ عـكـسـ الـطـرـيقـ وـخـنـ نـعـرـفـ آنـ عـكـسـ الـطـرـيقـ؟

- لا أظنـ يـاجـديـ أـنـ مـنـ يـرـتكـبـونـ هـذـهـ جـرـمـاتـ الـتـىـ تـكـمـلـ عـنـهاـ حـضـرـتـ يـكـرـرـ بـعـقـولـهـ فـيـ الـحـلـةـ الـجـرـيمـةـ.

- بالضبطـ، مـاـذـاـ يـغـيـبـ العـقـلـ وـشـيـطـنـ الـقـافـهـ؟

- لماذا؟

- سـتـانـسـ أـنـتـ بـعـدـ أـنـ تـدـرسـ.

- وـهـذـهـ الـكـتـبـ الـقـدـيمـةـ الـتـىـ تـقـرـرـهـاـ حـضـرـتـ وـالـمـوـجـودـةـ جـبـ الـلـفـاتـ الـأـسـاعـدـ عـلـىـ فـهـمـ السـبـبـ.

تنـهـدـ الجـدـ وـسـكـتـ طـوـيلـ قـبـلـ آنـ يـرـدـ:

- هـذـهـ كـتـبـ تـقـدـمـتـ عـنـ الـنـورـ، لـاـ شـانـ لـهـ يـظـلـمـةـ النـفـسـ.

★★★

بعد أن دخل سالم الكلية، وبدأت الدراسة لم يترك جده في حاله، ظل يسائل كل يوم عن المحاضرات التي يلقاها، ويضيف - بفخر - إلى المعلومات النظرية

بالرغم من كل شيء، فقد كانت تلك أياماً سعيدة للأسرة، ملأت فوزية وسالم الصغير البيت بالحركة والضحك، وأنهمل سالم الكبير في مذاكرته ولم تعاوره الحالة في تلك الأيام الحاسمة، وانشغل الباشكاتب مع حفيده يوماً بيوم كما لو كان هو الذي يستعد لامتحان، فنسـيـ أيضاـ كـثـيرـاـ مـاـ كـانـ يـقـلـلـ، وـكـانـ فـرـحةـ عمرـهـ عـنـدـماـ اـجـتـازـ سـالـمـ الثـانـيـةـ الـعـالـمـةـ بـالـجـمـوعـ الذـيـ يـكـفـيـ لـيـحـقـقـ حـلـمـهـ وـيـلـتـحـقـ بكلـيـةـ الـحـقـوقـ بـجـامـعـةـ الـقـاهـرـةـ.

وكـافـاـ البـاشـكـاتـبـ حـفـيـدـهـ عـلـىـ نـجـاحـهـ يـاطـلـاعـهـ عـلـىـ سـرـ الـلـفـاتـ الـمـوـضـوـعـةـ فـوـقـ مـكـتبـهـ، شـرـحـ لهـ أـنـهـ تـضـمـنـ الـقـصـاصـاـ الـتـىـ حـبـرـتـ اـثـنـاءـ عـمـلـهـ فـيـ الـمـاـحـكـمـ، قـرـأـ فـيـ حـيـاتـ وـسـمـعـ الـكـثـيرـ عـنـ أـسـبـابـ الـجـرـمـاتـ وـالـأـنـهـرـاتـ، قـرـأـ عـنـ الـفـقـرـ وـيـنـكـلـ الـأـسـرـ وـالـأـمـراضـ الـفـقـسـيـةـ وـالـجـمـعـ وـالـبـلـوـلـ الـإـجـرـيمـيـةـ وـكـثـيرـ غـيـرـ ذـاكـ، وـلـكـ أـيـ شـيـءـ مـنـ هـذـهـ الدـوـافـعـ الـجـرـيمـيـةـ كـلـهاـ يـجـعـلـ رـجـلـاـ مـشـهـورـاـ لـهـ بـالـطـبـيـةـ فـيـ الـحـيـ الـذـيـ يـسـكـنـ يـقـتـلـ جـارـاـ لـهـ لـأـنـ اـبـيـهـ الـبـالـغـ خـمـسـ سـنـينـ مـنـ الـعـمـرـ تـشـاجـرـ مـعـ اـبـنـ جـارـهـ الـطـفلـ؟

ولـمـاـ يـقـدـمـ صـرـافـ مـعـرـوفـ بـالـأـمـانـةـ لـعـشـرـاتـ السـنـينـ عـلـىـ اـخـتـلاـسـ خـزـينةـ الـحـكـمـةـ لـيـقـضـيـ أـسـبـوعـاـ فـيـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ يـعـرـفـ أـنـ سـيـقـضـيـ بـعـدـ سـنـواتـ فـيـ السـجـنـ؟ـ وـلـمـاـ يـقـتـلـ رـجـلـ زـوـجـهـ الـتـىـ عـاـشـ مـعـهـ سـنـواتـ طـوـيلـةـ لـأـنـ طـعـامـ العـشـاءـ لـمـ يـعـجـبـ؟ـ

ولـمـاـ يـعـجـبـ ذـاكـ كـلـهـ مـنـ التـفـاهـاتـ الـتـىـ تـضـمـنـهـ الـلـفـاتـ؟ـ كـلـهاـ جـرـمـاتـ لـيـسـ لـأـصـحـابـهـ تـارـيـخـ سـابـقـ فـيـ الـإـجـرـامـ وـمـعـ ذـاكـ فـهـمـ جـمـيعـهـ فـيـ لـحـظـةـ مـاـ وـلـسـبـ شـدـيدـ الـتـافـهـ يـرـتكـبـونـ الـجـرـيمـةـ الـتـىـ تـضـيـعـهـمـ وـتـضـيـعـهـمـ.

ثم قام وهو ينزع عباته الصوفية وقال لحفيده بشّي، من التردد وهو يلتف عن الباب:

- لا أريد أن أعرف أسرارك ولكن تجنب العصبية يا سالم.

ثم خرج قبل أن يسمع رداً من حفيده الذي ظل ينظر نحو الباب المغلق شارداً وهو يتساءل: هل هذا صحيح؟ هل عرف جده قبل أن يعرف هو نفسه؟ ربما، ظل يقاوم طويلاً الاعتراف بأنه يحب لبني، كان لها في الكلية أصحاب واصحاب وكثيراً ما رأها وسط مجموعات من الطلبة أما هو فلم يكن له في الكلية أصدقاء، قلة من الزملاء، كان يتبادل معهم التحية في المدرج وربما أستله عابرية عن الأستانة والمحاضرات وتنتهي علاقته بهم عند هذا الحد، وعندما كانت بعض البنات ينظرن نحوه وفي عيونهن إعجاب ودهشة كان يبذل كل جهده ليبتعد وبختفي عن الأنفاس.

لم ينس سالم أبداً تجربته مع الأطباء، في صغره ولا ما كان يسمعه من فحص بين فقرة وجده عن حالته، وفهم إصرار الجد على أن يعلق الحجاب على صدره والأردية التي كان يهمس بها حين يضع يده على رأسه، عرف أنه عندما تأتيه الطالة يقول أشياء سيئة ثم ينساها وأن الأفضل له أن يلزم الصمت وينجت بـ الناس قدر الإمكان.

أحياناً كان يثور على نفسه، يود لو يصبح مثل بقية الأولاد من ستة، وعندما قال له تلميذ في المدرسة إنه ليس رجلاً مادام لا يعرف أي بنات تشاهد مع هذا التلميذ، لكنه يكثري وحيداً في البيت، وجات دعوة ثريا بعدها لشقيقة من إحساسه بالقهقهة والعجز، أراد أن يقاوم حفوة ويشتبه أنه مثل غيره، ولكن حكايتها مع جارته أقنعته بلا يكرر المحاولة.

ابتعد في الكلية عن لبني بالذات، لم تكون هي أجمل البنات لكنها لفت نظره منذ رأها.

التي تعلمها حفيده خبرات عملية مستمدّة من عمله في المحاكم، ويلقى عليه بعض الأسئلة الألغاز عن إجراءات المحاكمات أو عن دقائق القانون وحين يعجز سالم عن الرد يقول له:

- أرأيت؟ ليس كل العلم في المحاضرات ولا في الكتب، وحين يدافع سالم عن نفسه محتاجاً ولكن ياجدي أنا مازلت في أول السنة الأولى!

يرد الباشكتاب في حسم لايهم، أنت لست كبقية الطلبة، أنت يجب أن تتتفق من أول السنة الأولى.

ولكن ذات الخميس بعد أسبوعين من بدء الدراسة وبعد أن رجع الجد من جولته الأسبوعية التي لا يزور حفيده عنها شيئاً، دخل الباشكتاب إلى غرفة سالم وهو يراجع بعض المواد وجلس قبالته صامتاً، متوقع أن يساكه كعادته عن آخر المحاضرات غير أنه اكتفى هذه المرة بأن أمسك بالكتاب الذي يقرأه سالم وألقى عليه نظرة ثم وضعه جانباً.

أحكام العيادة حول جسده وظل ينطليح نحو حفيده صامتاً لفترة قبل أن يسأله بهدوء:

- قل لي يا ولدي، أنت جميل حقاً وفي عز الشباب، ألم تلتف نظرك واحدة في الحى أو في الكلية؟ أقصد ألم تحب؟

أخذني سالم رأسه وخرج صوته مبحوها بعد فترة وهو يقول:

- نعم ياجدي، أنا أحب، ظل الباشكتاب صامتاً وهو يلتفت في الكتاب دون هدف، ثم رفع وجهه إلى حفيده وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

- هل تعرف أنى رأيت ذلك في وجهك منذ مدة؟ رأيته ربما قبل أن تعرف أنت ولكن أردت أن أتأكّد.

مستنقع لا شأن الذي به، من يخوض فيه يضيع، لم يهتم الباشكاتب أبداً بالسياسة واعتاد أن يغلق الراديو أو التليفزيون عندما تبدأ نشرة الأخبار، عليه عمله في الوظيفة من صغره المذعر والتحفظ وأكملت له تطورات الأمور في البلد صواب رأيه فورث حفيده التفور من السياسة.

لكن بينما كان سالم يهم بالانصراف سمع صوتاً خللاً وحين التفت وجد ابنه ومعها طالب آخر يذكر شكله تماماً، كان متوسط الطول عريض الكتفين يترك شعره الأسود مهوساً وقبيصه مفتوحاً عند الصدر، وكانت له شفتان غليظتان معبرتان.

سمع ليث يقول بصوت خافت ضارع: ابعد عني يا مرتضى! قلت لك أن تبعد عنِّي.

فقال مرتضى في الحال: ولكن وعدت.

ردت بعصبية: رجعت في كلامي يا أخي، ارتحت؟

- لا .. لا بد أن أعرف السبب.

قالت وصوتها يرتفع قليلاً وكأنها على وشك أن تصرخ، يا أخي أنت محبسي؟
قلت لك التركتى في حالى.

توجه سالم نحوهما وكأنه سمع استغاثة ولم يقل غير كلمة واحدة:
- ممكن؟ ..

فرمته الآخر بنظره كارهة واستدار مبتعداً، أوشك هو أيضاً أن يمضى في طريقه ولكن ليث قالت له بلهجة ممتنة: أشكوك.

قال: وماذا فعلت؟

ثم أكملا بشئ من التردد: أنا أعرف هذا الطالب.
ساخته باستغراب: كيف تعرفه؟

كانت ثليس باستمرار (بلوزة) بيضاء، قصيرة الكمين (جوبلة) واسعة، تضع يدها في جيبها وتمشى وسط ممرات الكلية كما لو كانت مسرعاً إلى هدف ما، لكنها تتوقف بين حين وآخر وتستلف حولها وبيدو عليها أنها غير واثقة من وجهتها، أو تميل بمنصف جسمها إلى الخلف دقعة واحدة كأنها مستعدة أدرجها بالسرعة نفسها لكنها تخفي في طريقها، عندما تكلم أيضاً كانت تميل برأسها قليلاً إلى جانب وتخرج الكلمات من قمة مقطعة ومتدردة.

ظل سالم يراقبها من بعيد حريضاً لا تنتبه إليه، أحب عينيها العسليتين وشعرها الكستنائي المخصوص الذي يصنع دائرة حول وجهها، وتندلع منه خصلتان صغيرتان كعلامات استفهام بجانب الآذنين، أحب أكثر من ذلك شيئاً ما في مشيتها وطريقة كلامها، لكنه كان يراها مع أصحابها ومساحباتها في الكلية يقفون في (شلل) ويتكلمون بصوت عالٍ

فقال سالم لنفسه هم جميعاً أتجمع مني مع البنات ومن المؤكد أن واحداً منهم يحبها، أزداد أن يقول لحده: إن تكون قد رأيت في وجهي الحب، فهل رأيت أيضاً أنتي لم أبع بهذا الحب؟

★★★

مر شهران أو أكثر على يده، الدراسة دون أن يخرج سالم من وحدته، وفي مرة في الفاصل بين محاضرتين كان يقف وحده في ركن مزدحم بمجلات الحائط التي يحررها الطلبة، كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية تنشر كلاماً مع الرئيس السادات ومجلات أخرى بعضها مثبتة إلى الحائط مباشرة بدبابيس وقد تمزقت أجزاء منها وتنكتب كلاماً ضد الرئيس، وقف لمجرد أن يضيع الوقت في قراءة واحدة من هذه المجالس المزقة لكن الكلام بدا له كالفاز فهز رأسه وهو يهم بالانصراف، تذكر تحديرات جده الصارمة، السياسة

يكملان الحديث الذى استغرقا فيه ، بهمسان أحياناً، يضحكان كثيراً، يصمتان عندما يحملق طالب أو طالبة يجريان ليدخلان مدرجاً بذات فيه المحاضرات لكنهما لا يقumen من مكانهما، عندما يحل آئى صمت كانت لبني تمدن أصابعها لتعثب بخصلة الشعر المتلذذة بجانب أنفها، أو تلتف نحوه فجأة يعيشهما العسلين وهم يتكلمان فتري ارتعاشة أهدابه لحظتها ويصرخ وجهها وهي تحنى رأسها على الفور، تعثب في كتبها لحظة ثم تعود للنطلع نحو السقف تائهما الأصوات مكتومة ورثيبة من قاعات المحاضرات المغلقة فيشعران في عزلتهما بسلام، بهمسان وتزيد فترات الصمت، دون أن يتعمد وضع يده على يدها وهو يحرك شيئاً فسجيتها على الفور ونظرت نحوه بتعاب، ارتبك وتمتن باعتذر وهو يترجع مبتعداً عنها، لكنها تتصحت بعد ذلك بفترات سريعة لليمين واليسار في المرحالي ثم مد يدها وأمسكت بيده دون أن تنظر إليه ووضعتها ببطء فوق يدها كما كانت من قبل، كانت تجلس إلى جواره مشدودة كالرمم ولكنها حين وضعت يده الساخنة فوق يدها اللتهيأسندت ظهرها للحانط وهي تستهد بعمق، وراح هو يتحسس يدها برفق وكان أشامله تقبل تلك اليد، غير أنها يفرزان معها وينهضان حين يفتح باب إحدى القاعات ويخرج منه الطلاب بضجيجهم الماكف، يذهبان إلى ممرات أخرى، إلى كليات أخرى في الجامعة، تنساكس أيدييهما حين يشعران بالآلام وينهضان سرعان حين يلوح آى شخص أو يسمعان آى صوت، تمر الساعات دون أن يدرريا بالوقت وهما يتلقان من مبئى إلى آخر في الجامعة الواسعة،

قرب الغروب قالت «ياه، نحن تأخرنا»، ولكنها ظلا يسييران تائهين حتى وصلتا قرب السور الخلفي للجامعة، ووراء أحد المباني سقطت الكتب من يدها فانهضت للتقطها وانهضت هي في اللحظة نفسها وتلاسن الجسدان وهما ينهضان معاً وردد وجهها قرب وجهه تماماً متورداً بلون الشمس الفارمة فمس خدعاً بشفتيه

- مرة أصطدمت بي عند باب المدرج فاعتذرأت أنا له لكنه قال لي أن أنتبهلى المرة المقبلة.
 ضحكت لبني بعضبيه: نعم، هذا بالضبط هو مرتضى، تعطى يدك في يريد أن يأخذ ذراعك.
 ثم لوحت بيدها: دعنا منهرأيتك تقرأ المجلات، مارأيك في الكلام؟
 رفع سالم يده الخالية من الكتب أمام صدره كأنه يدفع تهمة وقال: أنا في السياسة صفر!.
 فهزت رأسها: هذا أفضل شيء.
 كانا يسييران جنباً إلى جنب بخطوات بطيئة وأراد سالم أن يساكيها عن سبب شجارها مع مرتضى لكن شيئاً في داخله قال له أن يسكت، كانت هي التي واصلت الحديث:
 - أراك من أول السنة في المحاضرات لكنى حتى الآن لا أعرف اسمك.
 قال لها عن اسمه وكان هو يعرف اسمها منذ زمن طويل لكنه سأله كأنه يجهله.
 ظلا يسييران معاً وكانت هي التي تنقل الحديث من موضوع إلى آخر، ولجة وجد سالم الكلمات التي كانت تختفي في حلقة تخرج دون عنا، لا يذكر حتى عن آى شيء، تكلما بعد أن تبادلا الأسماء، لكنهما ظلا يسييران جنباً إلى جنب.
 تركا المحاضرة التي كانت توشك أن تبدأ وخرجوا معاً من الكلية كان بينهما موعداً، واتجها دون اتفاق نحو كلية الآداب المقابلة، وكانت على عادتها تتوقف لحظة وهما يسييران وتشتت فجأة إلى الخلف ليجعل سالم منها، لكن أحداً لم يكن يتبعهما، دخلوا كلية الآداب ومشيا معاً في ممرات وصعداً الدرجات الصجرية وهيطا أكثر من مرة وهما يشرثان دون هدف عن الزملاء والمواصلات والأساندة وعن آى شيء، يخطر على البال، وجلسا على إفريز حجري في أحد الممرات وراحا

برقة وسرى ملمس بشرتها الناعمة من فمه إلى جسده كله.

ابتعدت ليلى وراحت تتطلع إلى الأمام والخلف في فزع ثم قالت: كان يمكن أن يطردونا معاً لو رأوا؟ فقال سالم وقد عاوده الفزع أيضاً: لم أقصد صدقين، لا أعرف كيف.

لكنها لم تكن تستمع، ضحكت ضحكة صغيرة وهي تقول: كل هذه الجرأة؟ فلساناً إذن ظلت من أول السنة تنظر إلى دون أن تكلمني؟ وكيف لم تفهم لماذا أنظر أنا إليك؟

ثم فجأة طوحت بكل الكتب التي ناولها لها بامتناد ذراعها وقالت بتبرة فرحة ملعون المخوت، ملعونة الـ... الـ.... ولم تكمل ليلى ليعرف ما الذي تعلمه لكنها جذبته من يده وقالت تعال... تعال نجمع هذه الكتب مرة أخرى!

★★★

مشى سالم دون أن يدري حتى وصل إلى البيت مببور الأنفاس.

سأله جده في دهشة:

ـ مازا يك، مازا تلهث هكذا؟ كنت في الجامعة أو كنت تلعب الرياضة، مازا تأخرت حتى الآن؟

لم يرد سالم على أي من هذه الأسئلة، ألقى على جده السلام ثم دخل إلى غرفته، جلس إلى المكتب واضعاً رأسه بين يديه، لم يكن يفكر في شيء، لم يسترجع حتى لحظات اللعنة التي عاشها، كان يرتاح وهو يحسس بيده ويسأل نفسه في دهشة: هل حدث لي هذا بالفعل؟ هل كان هذا أنا؟ ولم يخرجه من الدوامة غير طرقات جده على الباب وهو يسأل في تذمر:

ـ وبعد؟ ألم نتعش في ليلتنا هذه؟

فتح سالم الباب وقال لجده بابتسامة:

ـ سامحني يا جدي، الليلة لا أريد.

فتحت لبني باب الشقة فواجهها الظلام، وبعدها سبت المفتاح غمر نور النجمة
الكبيرة الثلاث الثقيل الذى تكرر فى ردهة الاستقبال الواسعة : المقاعد الذهبية
بيطاناتها الفضية ، والماندة الرخامية الطويلة التى تعلوها مزخرفة (الكريستال)
البيضاوية الفضفحة والخالية من الزهور ، ودولاب المكتبة الزجاجية الذى يضم
وسط الكتب دمى وتماثيل فضية .

وقفت لحظة تتطلع إلى تلك الأشياء وابتسمت لنفسها : ماذا كانت تتمنى ؟ أن
تدخل فتجد بدلاً منها بستانًا أثرياً سمع فيه .

تسألت ولم لا ؟ إن تغيرنا تحن للماضى لا يتغير ما حولنا ؟ ولماذا يظل العالم
جامداً ؟ لماذا لا يمكن أن نعيدي بفرحتنا قبصيحة أحفل وأرق .

اجتازت ممراً إلى بین الردهة ووقفت أمام باب غرفة مغلقة ونادت : دادة
سلبية .

أناها صوت ناعس : نعم يا لبني ؟ *

فضحكت شححة خافتة : أنا سعيدة يا دادة !

فاكمل صوت الدادة الناعس : الصباح رياح يا لبني .
ثلث واقفة للحظة ثم رجعت أدراجها في الممر وقلعت الردهة الطويلة وذهبت
إلى غرفتها في الطرف الآخر من البيت . وقفـت أمام المرأة تتطلع إلى وجهها
المترسخ وكروت برازانته :

- أنا سعيدة .

ثم أفرقت فى الضحك وقالت : كيف يعبر السعداء عن فرحتهم ؟ يرقصون ؟
بدأت تدور حول نفسها أمام المرأة حتى أصابها الدوار ثم جلست على طرف
سريرها وهي تلهث وهمست بصوت مسموع : وقبلة أيضاً ؟ وفي الجامعة ؟ من
يصدق ؟ أحكى لن ؟ من يمكن أن يسمعنى في هذا البيت الحالى ؟ من يمكن أن
يسمعنى في هذه الدنيا ؟ وماذا ت تمام دادة سنية الان ؟ .. حسن أنها نامت على كل
حال ، احتاج أن أبقى وحدي ، احتاج أن أفهم . احتجست كتفيها بذراعيها
وراحت تتطلع لنفسها في المرأة وقالت : ينسى من يحبون همومهم ؟ نسيتها
بالفعل . نسيتها كانها لم تكون .

رفعت إصبعها السبابية ووجهتها إلى نفسها في المرأة ما إذا انكذب ،
هناك أشياء لا تنسى . ولكن ، ولكن بالفعل سعيدة . إذن أفتح درجاً داخل روحى
أضع فيه تلك الأشياء وأغلقه بإحكام . ساقتع ذلك الدرج ذات يوم وأخر
الأشياء ، ليس الآن بالطبع . ولكن كيف كان يمكن للحب أن يجيء ، لو لم أكن
نسيتها بالفعل ؟ كيف كنت سأجزئ أنا ، على أن أبدأه بالكلام اليوم ؟
شكراً لربني البشغ على آية حال ، لولا بشاعته ما جاءت الفرصة اليوم . ثم
لو لم أكن قد نسيت بالفعل قبله كان يمكن أن يغزومني من الأصل حبيه : ذلك
الجميل الخجول ، المتباعد طوال الوقت الذى تقول البنات له غيط : ربما يكون
شازاً ؟

نهضت لبني وهى تكلم نفسها : ولكن بالفعل أريد أن أحكى ، هل أوقظ دادة
برغم كل شيء ؟ أذهب إلى أمي ؟
ابتسمت لبني لنفسها . أكون محظوظة لو لم تطردنى الان إذا ذهبت إلى بيتها
دون تليقون ولا موعد !

وقفـت مرة أخرى أمام المرأة ولوحت بيدها :

نظر إليها بدهشة : ولكنك منذ المدرسة الابتدائية وأنت يخترعونك دالنا
لألفاء الشعر ، وكانت درجاتك في اللغات شبه تهانية . حتى في الثانوية العامة
درجاتك ..

فكرت في تصميم : الحقوق طبعاً !

لو لم يسألها ووجب بالزيارة عنها فهل كانت ستفكر في كلية الحقوق ذات
يوم ؟

ثم فكرت : ولو لم يسألها وتدخل الحقوق فهل كانت ستقبل سالماً ؟ هل كانت
ستعرف هذا الفرج ؟
وتساءلت وهي تتجه نحو فراشها يختنق بطيئة : وهل الحب أيضاً هو كل هذا
التعب ؟ هل يملأ الروح والجسد فتصبح أكبر من أن تحملنا الأقدام ؟

★★★

قالت لنفسها وهي تتمدد على فراشها بثيابها : وأين كان الحب في حكاية
زواج أبيها وأمهما ؟ تستطيع أن تفهم أنه كانت بينهما حسابات العقل . تستطيع
أن تفهم لماذا تزوجت الدكتورة صفاء من الدكتور شوك : كان منذ شبابه الطيب
التابع ، وفيما بعد ، أشهر طبيب نساء في البلد . لابد إنّ أنه كانت له كثيرة من
المعجبات من زميلات الهيئة . حتى الآن مازالت له كثيرات من المعجبات من الهيئة
خارج الهيئة ، ربما المعجبات الآن أكثر بعد أن تحرر بالطلاق ! ثم إنه لا يهدى أبداً
اهتمام بالنساء ولا بالرجال ! هو مشغول طوال النهار والليل في عياداته وفي
مستشفياته . لم تعرف له أي أصدقاء غير الأطباء ، الذين يعملون معه في المستشفى ،
ولكن هؤلاء جميعاً مروّيون له : العلاقة تتفق عند حد . أليكون هذا التباعد عن
الآخرين هو الذي استهواه الدكتورة صفاء العنيدة ؟ حسمت أن تلوز به ؟ وهل
هذا أيضاً هو ما استهواها هي في سالم ؟ أنه جميل وبعيد وصعب ؟

- ٨٢ -

لا . لا راغب للبالغة . لن نطردكني . ستحتسم بابتسامة كبيرة وترفع حاجبياً
مستغرباً « حبيبتي ! ما الذي ذكرت بي ؟ حسبت أنه تسيّبي » . هذا إن كانت لم
تخرج مع زوجها إلى السينما أو إلى المسرح أو إلى عشاء في فندق من الفنادق
الكبيرة التي يعبّانها معاً .

ثم ما الذي يمكن أن يقوله أمها عن الحب ؟ أى شيء ، تعرفه الدكتورة صفاء عن
الحب ؟

وياماً ؟

سيرجع الدكتور العظيم متاخراً جداً . ثم يذهب مباشرة إلى غرفته حتى لو
كانت صاحبة . يخشى أن أشم في قمه رائحة الويسكي !
كائنني لا أعرف ؛ كان ما يفطه يهمني في شيء ، ولكن باباً حريص على أصول
التربية !

اتجهت لبني إلى مكتبتها في ركن المفرقة . أمسكت بدواوين الشعر . كانت
تمسك ديواناً ثم تفسمه في مكانه : عبد الصبور وبنزار ونزار وشوقى وشيللى
وريشمان ، يمكن أن تسامهم أيضاً . لكنها ظلت تقلب صفحات الدواوين دون أن
تفتح واحداً منها . شيء في داخلها قال لها إنها ليس في هذه اللحظة يمكن أن
تقرا شيئاً ، إنها الآن يمكن أن تكتب شعراً لو كانت تستطيعه . أعادت الدواوين
إلى مكانها .

تنكرت ما حدث قبل شهر عندما دخل والدها الدكتور شوك إلى غرفتها بعد
أن تجحت في الثانوية العامة . ليتلتها لم تكن تلوح منه رائحة الويسكي ولكن ،
كالعادة ، رائحة مطر امرأة . وقف هو يقلب الدواوين والروايات . دون أن يكلف
نفسه حتى قراءة العنوان ، وقال بلهجـة حازمة : ثوبت على كلية الآداب طبعاً .
فردت على الفور : لا . الحقوق طبعاً .

- ٨٢ -

من زعن؟ من أين تجد الوقت لتفعل ذلك كله؟ وكيف تزوجت من هذا البطل، إنكل صدق؟ هو لا يطبق المراة ولكنه يترك الدكتورة في حالها حين تقرأ . يحب الأكل منها مع ذلك!

لكن لابد أن لديه مواهب أخرى غير ذلك وغير كونه ملاكيته فلوس يضخها من شركاته للاستيراد والتتصدير . بالطبع يحتاج هذا الجسد الجميل لن يعتني به ولكن الدكتور شوكت يبدو جيداً أيضاً من هذه الناحية لا شر شهور إلا وتتغير رائحة عطر النساء في ثيابه .

تسائلت لبني: إنن أيكون هذا هو السبب في أنها تركته؟ هل كان يخونها مع غيرها؟ هل كان ينشغل عنها كثيراً بعمله؟ كيف تستعرف؟ كانت صغيرة جداً عندما حدث الطلاق، في العاشرة من عمرها . تركتها أنها لا يلبىء دون أي شجار، دون أي ذم! كيف تعرف إن كان هذا صحيحاً؟ لا أحد منها يتكلم، أبوها لا يذكر أنها أبداً، وأمهما تكتفي بالتهم حين تأتي سيرته وتسأل لبني: كيف حال عقري الطف وبطئنا الوطني؟

تعرف بالطبع مغزى هذه العبارة: أنه كان لا يلبىء ماض سياسى . قضى في شبابه شهوراً في السجن لأنّه كان عضواً في تنظيم شيوعي . ترك السياسة مبكراً بعد أن بدأ العمل يستفرق كل وقته . ولكنها تذكر قبل الطلاق مشاجرات لم تفهم معناها في حينها . تذكر أنها وقد انتلقت ساحتها الجميلة وتشوه وجهها وهي تصرخ: «لقدتنا بالإمبريالية والبروليتاريا! لماذا لا تعالج مريضاتك مجاناً يا دكتور شوكت؟ لماذا لا تفعل مثل الدكتور شطاينتز . تذهب إلى غابات أفريقيا وتريحنا!» تذكر لبني جيداً تلك المشاجرات بين أبيها وأمهما التي كانت تتبعها وهي ترتجف . هل بدأ من أيامها الشوف الذي يلازمها حتى الآن في كل خطوة؟ هل بدأ الخوف عندما كانت تسمع في فراشها أصوات شجار أبوها فيملؤها الرعب

ولكن يمكن أيضاً أن تكون المسألة عكس ذلك بالضبط . يمكن أن يكون الدكتور شوكت هو الذي سعى وراء الدكتورة صفاء . كانت جميلة الجميلات . مازالت جميلة الجميلات . لو ورثت نصف جمالها ! لو ورث تلك القامة المشوقة ، هاتين العينين السوداويتين الواسعتين ، هاتين الشفتين الشهيتين ، تلك الشفة السفلية المثلثة والشفة العليا البارزة يروزا طفيقاً في وسطها تماماً . وهي تتطيق على الشفة السفلية . أى رجل لا يتمتنى تقبيل هذا الفم المكتمل؟ و تلك البشرة البيضاء الناعمة التي كانت في طقوولتها تحب أن تلمسها بيدها وخدتها وأن تقبلها .

اللقت بحاشي وجهها إلى المرأة . رأت وجهها . رأت عينيها العسليتين . ألغها المستقيم، بشرتها التجميدة، شفتيها المثلثتين . ليست قبيحة؟ كل إنسان يقول إنها جذابة . ولكن جذابة شيء، وجميلة شيء آخر؟ أنها هي الجميلة حقاً . وما أهمية الجمال يا مثقفة يا من قرأت كثيراً! ألم يقل لك كل شعراءك إن الجمال في عين الرائي؟

هاها! فليقولوا ما يشاون! لو لم يكن سالم جميلاً، جميلاً حقاً، فهو كانت ستذكر فيه، ذلك الانطواوش الذي لا يحسن أن يتكلم؟ كم من ليال قضاها ووجهها يراهم كل الوجوه التي تراها وكل السطور التي تقرها! وهل كانت تلك القراءة ضرورية؟ هل كان ضروريًا الا انقرها الدكتورة صفاء . جمالها وأن تورثها حب القراءة؟ وكيف استطاعت الدكتورة أن تجمع بين هذين الشيئين الغريبين، حب القراءة وفستانها بجسمها؟ تنفس ساعات طويلة في التربين أيام المرأة ، وساعات أطول في التسوق واختيار ثيابها الجميلة دائمًا، وتأكل باستمتاع ، نوافة حقيقة . وبعد ذلك كله تقرأ الكتب في نهم؟ مازالت حتى الآن تسأل ايتها عن آخر كتاب قرأت وتهز رأسها حين تسمع الجواب . تكون قد قرأت

ما الذي يفعله الناس ليعيشوا السرور وينسوا أي شيء غيره؟
قالت لنفسها وهي تحول عينيها عن المرأة : هذا الفرج ليس متنبأً جدًا ؛
ستخترج الآن كل الأشياء التي أردت أن أدقنها فيه . أعرف أنها ستخرج ، لأنني
أفهم حقيقة لما حدث . لأنني أعتبر نهاية العالم ، ولكن لأن الإهانة ترافق أن
تزول ولأنني لا أعرف طريقة أزد بها هذه الإهانة .

غامت عينادها وشردت قليلا ثم تنهدت ورفعت رأسها تستكمِل المفكرة التي
سيطرت عليها : بالطبع لو سألتني سالم سأقول كل شيء .

لا تستحق حكاية مرتضى أي اهتمام . لا توجد أي حكاية أصلًا . لو سألهَا
سالم عنه ستفرغ من أمره في ثقتيتين . مرتضى نفسه لا يستحق من الحياة أكثر
من ثقتيتين . ولكن ماذا لو سأله عن الحكاية الأخرى ؟ وحتى لو لم يسأل فلابد أن
اقول الحقيقة . أنا لا أخاف ولكن من الذي يستحق الاستماع إلى الحقيقة ؟
الآباء ، وحدهم مثل دادة سنية . أنا لم أقل شيئاً ليابا ولا لاما لا لأنني خفت
منهما ولكن لأنهما لا يستحقان الاستماع إلى الحقيقة .

ومع ذلك فهو حقيقة بسيطة جدا . ليست معقدة ولا غريبة . استطاع أن
أحكيها بدون تمثيليات ولا مبالغات . سأقول كما في غرفة المكتب مثل ظهر كل
يوم . كان عمري ١٦ سنة وكانت في السنة الأولى الثانوية . كان يجلس أمامي على
المكتب . يعطيتني درس الرياضة . سأقول كان مدرساً عادياً . ربما في الخامسة
والإربعين من عمره . ربما أكثر . قلت للبنات في المدرسة إنه يشبه نجيب الريحاني
في فيلم غزل البنات . وكان يشبه بالفعل . أسميهما فيما بيننا الإستاذ حمام . لم
يكن يصلح فتن الأحلام لاي بنت . كان أكبر من أبي . ومع ذلك فسأقول الحقيقة .
لن أقول إنه المتصبني . سأقول إنني لا أذكر اللحظة . سأقول لا أذكر كيف قام
من مكانه أمامي وكيف جاء بمقدنه إلى جواري . هل قلت شيئاً أو فعلت ما
شجعه على ذلك أم كان هو الذي فعل كل شيء ؟ أذكر أن جسمى كله كان يتنفس
وأنى شعرت بسخونة كالحمى وهو يعبث بيده فى جسمى . ولكن بعد ذلك أيضاً .

وتضع الملائكة فوق رأسها والملائكة فوق أنفها ؟ لا . هذه مبالغة . الخوف معها من
رغم أن بعد . الخوف رفيقها منذ وقت على الدنيا وبهـما من قبل أن تعم . ولكنها
تذكر مع ذلك رعبها حين كانت تلك الأنفاس التي لا تفهمها تصل إلى سمعها :
الإمبريالية .. الدكتور شفايزر .. والترجسية . تلك الكلمة التي كان أبيها يكررها
دائماً في المشاجرات بصوت الرقيب الحاد . وفي وسط تلك الألغاز كلها تسمع
اسمها على لسان أبيها أو أمها . لا يهم ! لأن يمكن أن تطمئن تماماً يا دكتورة
صفاء !

لم تعد لدينا في البيت إمبريالية ولا بروليتاريا ! بينما الآن مليء بلوحات غالبية
وتحف غالبية بيتشرتها يابا لأنها غالبية . ربما يكون يابا الآن أغنى من أنكل صدقى
والبركة في المستشفى ! لم يعد لديه وقت حتى القراءة الجرائد . يسمع الراديو في
الصباح على الإفطار دون انتباه . تدهشه أخبار مرت على عليها أسبوع وشهر
فيسباكن يابا تبيتو في المستشفى ؟ وأضحك أنا في سرى . كيف أصبح جاهلاً
بأخبار الرفاق إلى هذا الحد ؟

في الواقع أصبح جاهلاً بكل شيء . عدا المال طبعاً ، والطب ربما ، والنساء
طبعاً . شيئاً ولكن لا تهمني يا دكتورة ما زالت أنا هنا لا إمبريالية ولا بروليتاريا
، نحن الآن نهتف للرجل الذي كتم ثعنونه : يابا لأنه البطل الشعوري الذي أدخله
السجن . وأنت لأنك سليلة المجد والشرف الدكتور صفاء ، بنت الدكتور عبد العليم
بك .

جلست لبني ووضعت يدها في حجرها وهي تنظر في المرأة إلى وجهها المقطب
وتقسم : بالذمة هذه الأفكار سعيدة ؟ ألم أقل إلى سعيدة ؟ لأنـا إذن تهرب
السعادة بسرعة وتنهى هذه الأفكار ؟ لماذا أحوم داشا حول حكاية الطلاق ؟ ما لمـا
أنا الآن وبابا وماما والثورة العالمية والمحلية ؟ ألا تستطيع أن أركـز على سالم
ووجهـه ؟ ألم أقل سعيدة لليلة واحدة ؟

أصبحت تقابل سالم كل يوم تقريباً . يلتقيان في الكلية ويخرجان معاً أو يتفقان سلفاً على لقاء خارج الجامعة . تركاً كثيراً من المحاضرات واكتشفا معاً مخابئ العشاق في القاهرة الشوارع الجانبيّة نصف المظلمة في وسط البلد ، الكازينوهات المشتركة على التهر والتي تضع مظللات مائلة يختبئ خلفها المحبوون ، الزوارق النيلية التي تبيع الخلوة .
ولم تقترب لبني أبداً الذهاب إلى أي من الفنادق الكبيرة التي كانت تلتقي فيها بانها وأبيها .

اعتقداً أن يسيراً معاً بالساعات ، يدها في يده ، يجمعهما الكلام وبضمهمما الصمت . ولم يتحددتا مرة واحدة عن الحب . لم يكن أى منها خبيراً بكلمات الغزل .

وكانت تسأل نفسها أحياناً ما جدوى كل الشعر الذي قرأت وكل الأدب الذي أدرسته إن كانت لا تستطيع أن تنقل له بالكلمات كيف تحبه؟ وما جدوى ما كان يقوله أنها وأمها ومدرسها من أنها ذكية جداً وأنها أكبر من سنها بكثير ، وما جدوى أنها هلت طوال عمرها الأولى في مدرسة اللغات وكانت تغدر هذه المدرسة ، يعرضونها على المفتشين كما يعرضون البضاعة الفادحة ، لتردد محظوظات الشعر العربي والإنجليزي . ولكن تجحب عن الاستلالة الألغاز عن عاصمة تايلاند وتاريخ ميدان طه حسين ومعركة واترلو؟ بماذا أفادتها هذا العلم وهذا الذكاء ، وهي لم تعرف السرور الحقيقي أبداً؟ من الصغر تزب نفسها وتنكشف أخطاء ، لم ترتكبها ، ثم اعتنقت أنها هي السبب في هلاك أمها وأمها وإن لم تستطع أن تحدد كيف؟ حين كانت تسمع اسمها يتعدد وهو يتشاجران في غرفتهما بصوت

هل كان هو الذي قادني إلى الكتبة أم أنا التي سحبته من يده إليها؟ سأقول لا أخرى ولكن سأقول إنني أذكر ما بعد ذلك بكل وضوح . سأقول إنه ذهب إلى باب الغرفة المفتوح وأغلقه فافتقت كمن يصحر فجأة من النوم . كنت أعرف أن أبي في العيادة وأن عم حسن الطياغ خارج البيت وأن دادة سنية في غرفتها البعيدة لا تسمع أي شيء ، خفت . كنت راقدة على الكتبة فقمت وزرعت رגלי في الأرض وسانكت بصوتي عال ، لكنه مذعور ، ماذما تفعل يا حيوان؟ سأقول إنه رجع ودقعنى بيده على الكتبة وهو يدخل ثيابه . قلت سأصرخ ولكن صوتي أصبح ضعيفاً جداً ، وأخلت الحصن التي كانت تذهب جسدي مكانها لبرودة كالثلج في أطرافني . كان يدقعنى بيده لأرقد وكانت أنا أدفعه لابعد عنى لكنى لم أصرخ لم أجد صوتي . سأقول إنه صفعنى وإننى أصبحت خائفة منه جداً . فكرت وأنا أنظر إلى وجهه المشوه بالشبوة أنه سبقتلى وشعرت وأنا أرقد بآلامه ، كالإغماء . وعندما جاء ذلك الألم أحياها وصرخت قفز فجأة ووقف فوقى وراح ينظر إلى بوجهه محظون وخائف وهو يمسكني «لماذا لم تقولي إنك بنت؟ لم أكن أتصور ! ثم وجه نحوى سبابته وهو يضم ثيابه بيده الأخرى «أنا لن أتزوج ! أنا رجل متزوج» سأقول إننى فجأة تهضي رغم الألم والإعياء . وكانت أصرخ : إيش ! اخرج يا كبك يا ابن الكلب ! . قذفت نحوه كتبأ وأشياء أخرى ثقلة كانت على المكتب وجريت وراءه وهو يعدل ثيابه ويجرى مفقارياً سقوط الأشياء عليه إلى أن خرج من البيت ولكن ظلت أصرخ . ونادت دادة سنية من غرفتها في ذعر فجريت إليها وحكت لها كل شيء . وبيومها بكبت .

وتنعمت لبني لنفسها في المرأة . سأقول إنني بكبت ، وسأقول إنني من لحظتها كرهت الرجال . كل الرجال . إلى أن جئت أنت يا سالم . فنهل سقطهم الحقيقة كما كانت ؟ هل أنت بري ، بالفعل؟

وكانت الآن ترفع رأسها كعادتها للمنع دموعها ففاقت صورتها في المرأة .

ووجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة الممتهنين بالحماس وأحسست أنها تحتمى بهم من وحديتها ومخاوفها . شاركت في اجتماعاتهم في مدرجات الجامعة وفي كتابة المقالات لمجلات الحاضر . وعندما عرف أبوها ذات مرة أنها تكتب مقالاً عن الرجل الذي يكرهه من كل قلبه غضب بشدة واتهمها بالسذاجة وبأنها لا تفهم شيئاً عن «الطاغية» الذي ضبع البلد ! وقال إنها تدافع عنه مجرد أنه يكرهه ، ولو قرأت بما فيه الكفاية عن عقدة أوريب لكتفت عن هذه البلاهة . أمرها وهو يمزق المقال بالفعل إلا تعود أبداً إلى مثل هذه القلطة فقلالت وهي تبسم «حاضر يا بابا» . كانت واثقة من أنه لن يتيسر له وقت لبيانع ما تفعله أو ما تترك ، ولكنها سالت : إن كانت عندي عقدة أوريب فما هي العقدة التي تجعل الدكتور شوكت يعتقد أنه محور الدنيا وأن كل شيء أفعله لايد أن يكون سببه؟ وهل طلاقته أنها لهذا السبب؟

طلت ليثي تشارك زملائها ولم يفسد عليها صحبتهم إلا وجود مترتبس وسطهم . لم يكن يكتفى بالوجود معهم ، بل أراد أن يكون رعياً لهم . وبدأ يصنف الطلبة على هواء ويستخدم مصطلحات لا يعرفون معن意大ها : الطفولة اليسارية ، الهلال الخصيب ، الخلاف البعضي القومي ، الماركسية التروتسكية . وكلام كثير من هذا النوع . ستعترف أنه خدعها أول الأمر اعتقادت أنه أكثرهم علماء ومحاسنا للذكرة . سمح لها أن يقترب منها على أقل أن تنتقم منه . كان على عكسها يعرف أن يتكلم بفصاحة وبهاجم الحكومة والطبيقة الجديدة التي سرت على الثورة ، فبهرها بكلامه وجدراته . ووافقت المرة الأولى منذ تجربة المدرس على أن تقابلها خارج الجامعة لكنها ظلت ترجي «ذلك الموعد باستمرار» .

لم تكون المسألة مجرد انتباها لاسم الذي أسمته في سرها (أبولا) وافتنت به منذ شعرت بنظراته الحذرة الحيةة . بل كان هناك نفور يتضاعد في داخليها من

عال كانت تظن أنها يتشاركان بسببيها ولم تستطع أبداً أن تتغلب على ثوابت الخوف الكاسحة التي تقرّوها وتشل تفكيرها . وبماذا تفعها أنها الأولى والأذكى والأكبر من سنها عندما اختصبها حمام؟ وهل كانت هذه القراءة وظيفتها بالكتاب هي طريقتها للهروب من العالم الذي يرعيبها؟ تلك على كل حال هي هدية أمها الوحيدة لتحميها من الدنيا فشكراً لها . وماذا كانت مستقبل بنفسها في ليالي الوحدة والخوف لو لم تكون الكتب هناك؟

لنتحدث سالماً عن ذلك الخوف . لن تحدثه عن قرامتها فمن الواضح أنه لا يقرأ شيئاً . لن تحدثه عن حمام ولا عن مرتفقي . لن تفعل أي شيء ، يبعده عنها . لن تحدثه عن السياسة . هي نفسها لا تعرف ما الذي أدخلها في هذه الحكاية المضحكه من الأصل . لا ، لا معنى لأن تظلم نفسها . ليست حكاية مضحكه . هي لم تدخل تنظيمياً سورياً كالذى دخله الدكتور شوكت . كانوا مجرد مجموعة من الطلبة والطالبات التقت بهم فور دخولها إلى الجامعة ووجدت أنهم يفكرون بطريقة أتعجبتها . تفضيلهم التغيرات العجيبة التي تحدث في البلد : تجارة التهريب وتجارة العملة والغلا ، البشع وحياة الأغنياء ، الجدد وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن وتشييان تضحيات الحرب الفربية وظهور شراء في السياسة يستعراضن جمالهن وأزياءهن على شاشات التليفزيون ويتاجرون بظهورهن مع مشوهي الحرب على مقاعدتهم المتحركة . وذلك في الوقت الذي ظهر فيه في الجامعة عشرات من الطلبة بجيالبيب بيضاء ، ولحن يمزقون مجلات الحاضر التي تكتب هذا الكلام ويضربون زملائهم الذين يكتبونه بينما يحميهم حرمس الجامعة حين يمزقون وحين يضربون . أحببت ليثي زملائها الماكسينيين الذين يخونون إلى أيام لم يكن فيها شيء من ذلك . ويحذون إلى الزعيم الذي أحببت صورته وصسوته وهي طفلة . وكانت تتعجب عندما تسمع أباها وأماها يسبانه كلما أطلت صورته من شاشة التليفزيون .

وكانت تسير مع سالم في ليلة شتوية باردة في شارع الفلكي الضيق الذي تحفه الأشجار وتكسر نور مصابيحه اللطيفة العالية، عندما انتزعت يدها فجأة من يده وافتقت حلتها . لم يكن هناك أحد قعاد يختضن يدها وهو يسيران هما مساميرن رسائلها في نفس :

- هم تفاصيل يا ليلى ؟
- من كل شيء ؟

أفاقت منها العبارة دون تدبر فسألها وهو يضم يدها بقوّة : ولكن لماذا ؟
- لا أعرف . أحياناً أصبحوا في الصباح فيخيقون كل شيء ، أصوات الشارع .
جدار البيت ، صوت الراديو ، ضجيجات التسالات على السلم ، كل الأصوات وكل الألوان والروائع . أشعر أن كل شيء فيه خطر . وحين أخرج من البيت في هذه الأيام أنتظر شيئاً مخيفاً . وبالليل أضيق النور حين أتام ، أخاف بالذات من الظلام .

هز سالم رأسه وقال : أنا لا أخاف من الظلام ولكنني أخاف من نفس ، وأضاف بعد قترة صمت : عندما كنت صغيراً اعتذر أهلني أمني مجئن .
وهكذا حكت للبيبي ما لم يقله قبلها لأحد ، اعترف أنه تناهى حالات لا يعرف فيها هو نفسه إن كان مجئون أو عاقلاً ، وأن الكوابيس كثيراً ما تعرّه من النوم فتصحو موجهاً وعاجزاً عن الكلام .

كان سالم يتكلّم ببساطة شديدة وبهدوء ، وشعر براحة تغمره لأنّه تكلّم أخيراً بما ظلل يخفيه في نفسه ، ضفتلت البيبي دورها على يده . وقالت :
- لا تهتم لذلك ، أنا شخصياً أعتقد أنك عاشر أكثر من اللازم .
ثم أكمّلت وهي تضحك : أتدرى ، عندما كنت أراك في الكتبة تمشي ثابتاً كالعملاق ، لا تتخصص بعيونك الجميلتين للبنات كما يفعل بقية الطلبة كنت أقول لنفسي في يأس لماذا لا تتعرّف على يا أبو بنت نظر ؟

- ٩٢ -

مرتضى ، لاحظت الانتقادات التي بدأت في المجموعة بسببيه ، واكتشفت أنّ حقده لا يقتصر على الحكومة وأمريكا والطبقة الجديدة بل يشمل الجميع . لم يكن الحقد الطيفي الذي صدّعوها بالحديث عنه ، بل الحقد الصافي البسيط على كل من يملك شيئاً لا يملّكه هو ، وبفضل مرتضى استطاعت لبني أخيها أن تفهم شخصية ياجو عند شكسبير التي ظلّماً حبّرها أمرها . فهمّت أن لم يكن هناك سبب حقيقي لكرافيتة لعطيل وسعيه لتدمير حياته غير أن المقربين كان يملك حب دينونة : كذلك مرتضى ! لم يكن يحتفل أن يملك أحد شيئاً لا يملّكه هو . سواء كان هذا الشيء هو المال أو المركز أو الشكل أو المساحة أو أي شيء آخر . كان يعتبر امتلاك غيره لهذه الأشياء إهانة شخصية له . هو الذي قال عن سالم إنه شاذ عندما لاحظ إعجاب البنات به . ولا حظّت لبني أنه لم يكن يتطيق بالذات الأستاذة الذين يحيمهم الطلب . يجد في كل منهم عيباً منكراً . فهذا الأستاذ سليم الانطاع ومصاص دم الفلاحين ، والأخر يسرق محاضراته من كتب الدكتور السنوري (التي كانت لبني واثقة أن مرتضى لم يقرأ منها حرفاً) وهذا الدكتور الثالث عميل للحكومة والأجهزة ، ومع ذلك فقد انتهى أمره بالنسبة لها حين ضبطه ذات مرة وهو يشتمل هذا الأستاذ العميل ويذلل له لكن يضمه إلى الأسرة الشبابية التي كان يكونها في الكلية . رأت يقف منكشاً أمام الأستاذ عن بعد ، ويداً لها أن جسده أصبح أكثر ضالة وصوته مرتعشاً وخائفاً . ولم تكن هي وحدها التي اكتشفت أمره وبدأت تتهرب منه ، بل عرف حقيقته بسرعة معظم زملائها وزميلاتها وصاروا يتذمرون وجوده في وسطهم . لم يبق على علاقة به إلا من كانوا يخافون من قدراته على جرح الآخرين وإذائهم .
ومع ذلك لا ينبع لها أن تشكر مرتضى هل كانت بدون مطارقته وفاحشه ستعرف فرحة هذا الاقتراب الذي ملا حياتها ؟

★★★

- ولكن أنا أعرف أنني لست جميلة . لا يهم ! معيك حق يا سالم . أنت لست جميلاً ولا أنا جميلة . الحب وحده هو الجميل والحب وحده يبرينا الجمال .. اشتبهت لبني إلى ظلال الأشجار الغريبة الراجحة التي تصنعها مصابيح الطريق العالية وقالت لنفسها نعم ! لو لم يكن سالم معن لا أخافتنى هذه الظلال . تجر إلى ذهني عشرات الأفكار الكثيبة التي لا تستطيع الخروج منها وتجعلنى منقضة طوال الليل . أما الآن فلنا أزاماً ظللاً لا غير . ظللاً كبساط ناعم يفرض طريقاً نعشى فوقه ، ويفرشه من أجلنا لأننا نحب . قالت وهي تتضعضع على يده من جديد : معيك يا سالم لا أشعر بالخوف !

انتقلت إلى سالم عدو انتقامتها ولكنه لم يكن يستطع أن يعبر عن نفسه مثليها . خطر له أنه هو أيضاً لم يستطع في حياته أن يتكلم مع أي بنت غيرها وأنه ظل طول عمره يخاف فييمنه الخوف من الكلام . يخاف أن يخطئ ، أو أن يقول شيئاً لا ينبغي قوله فيلزم الصمت . معها وحدها يستطيع - ولكن ليس تماماً ! إذ قال فجأة :

- الآن أيضاً أخاف أن أقول شيئاً يغضبك !

- ولكن أنا مستحبيل أن أغضب منك . كيف ؟ أنت تسامحتي أنت إن أنا أخطأت ؟

تردد قليلاً ثم قال : نعم . إلا إن تركتني .

ابسمت : الآن يا سالم أنت مجتون بالفعل !

نطلعت إلى جانب وجهه في الطريق المعمم وكانت تقاوم دموعها بصعوبة حين استطاعت أن تقول لأول مرة :

- كيف ؟ لا ترى كم أحبك ؟

ولكتها كانت سعيدة . الآن كانت خائفة من سعادتها .

- من .. من هو أبوابوا ؟ .. هو شخص جميل مثلك والسلام .
تلحسن وجه سالم وابتعد عن لبني ووقفاً متواجهين في العتمة وهو يقول بصوت خشن :

- لا أحد أن يقول أحد إنني جميل !

- لماذا ؟

- لا أحب ، البنات فقط جميلات ، أنا رجل .

- وما العيب أن يكون الرجل جميلاً ؟

قال وصوته يذمر بالخفق : قلت لك لا أحد بذلك . إلا تفهمين ؟

كانت شفتها ترتعش . كان جسدها يرتعش :

- نعم .. أنا لا أفهم .. أنا غبية .. سامحتي .

عندما يدا من صوتها أنها على وشك البكاء أصابه هو أيضاً الفزع ثم تمالة نفسه وقال بصوت متحشرج : أنا أسف .

مد يده يمسك يدها مرة أخرى فكانت باردة كالثلج . سارا فترة دون أن يتكلما أحدهما ، وأخيراً سألاها :

- عن أي شيء كنت تتكلمين قبل ؟

- عن الخوف !

- نعم ، الخوف هو الذي يعني من أن أكلمك . منذ رأيتني في الكلية لم أفكر إلا فيك أنت . ولكنني لم أستطع ..

فقالت شاردة : ربما حديست خوفي . ربما تراسل النقوس الخائفة بإشارات خفية . ثم هزت رأسها وقالت : لا ! لن أسمع ! لن أسمع لنفسي بأن أخاف بعد اليوم ولن أسمع لك . ولا فدأ فائدة الحرب ؟ قلت إينك تفكرين . هل تجدني جميلة ؟

- بالطبع .

عاش سالم أيضا أياما وأسابيع سعيدة . كان يطوف بخاطره أحيانا ويقلّه أن ليلى تتّبع إلى حياة غير حياته ، فهى تعرف لغات ولا تجد أى مشكلة في دروس الفرنسية في الكلية . وقد سمع أن أيامها طيبة مشهورة . فهى لا بد أن تكون غنية ، لأنّى منه بالتكلّيد . ولكنّه لم يفكّر في ذلك كثيرا . رضي بالقليل الذي يعرّف عن ليلى وينعم السكينة التي وجدها معها . وكان جده يتركه في حاله لا يلح على أن يسهرها معاً ولا على أن يستamerأ فوق السطح . وعندما يتّمّن سالم في بعض الأحيان بأن يحكى له شيئاً عن ليلى كان يستمع إليه صامتاً وعلى شفتيه ابتسامة ثم يقول في النهاية :

- المهم لا يصرّف هذا عن المذاكرة .

ولم يهتم سالم أيامها كثيراً بمسألة المذاكرة . نادراً ما كان هو أو ليلى يدخلان إلى المحاضرات حتى عندما يذهبان إلى الجامعة . ولكن القليل الذي كان يقرؤه في كتب القانون أو يسمعه في المحاضرات كان يثبت في ذهنه على الفور ، بل وكان يشرحه للبنى عندما تطلب منه . وصار جده يدّعى في بعض الأحيان من إجاباته على الألغاز القانونية التي يطرحها عليه أشخاص مراجعته لدورسه يقول مفتقراً : كنت متذكراً أشك ستنتسب في القانون . دعّاك رحمة الله عليه في آخر مرة رأيته فيها وأنت ململ صغير . عرف سالم بالطبع أنه يعني أبو خطوة . كما كان يعرف كثيراً من تفاصيل هذه الزيارة الأخيرة التي تركت بناها الغربية بصمة لا تمحى على جده . ولم تكن لديه في هذه الأيام رغبة في استئناف قصص جده المأثولة ، ولا كان الجد أيضاً يعود راغباً في الإفاضة . فعلى الفترة الأخيرة بدا الباشكانت يميل إلى الصمت والتأمل على غير عاده .

عاشت ليلى فرحاً لم تعرفه في حياتها من قبل ولم تخيل مجرد وجوده في هذه الدنيا . أن تنسى نفسها تماماً ، أن تكون وحيدة في فراشها بالليل تسمع الموسيقى فلا تأبهها الوساوس والمخاوف بل يحيط بها وجهه من كل جانب ، طيف عينيه الرماديتين ، شعره الغزير المهوش الذي لا يعرف أبداً كيف يمشطه ، حاجياء الكثيadan ، كل تفاصيل الوجه ، وليس أناقة الطولية . ثمرة صوته وعباراته تحيط بها وتغزوها هي والموسيقى في وقت واحد . وهي وحيدة في الليل وهو يعيش يداخلها ، لم تكن الدموع التي تنساب دون إرادتها تكفي لتفحّف وطاقة ذلك الامتلاء الذي تتشبّث به وتتمنى في الوقت نفسه وهي تقلب في فراشها لو تتحفّف منه . تقول لنفسها لا يحمل الجسم كل ذلك الامتلاء بالفرج !

كيف كانت دون سالم ستعرف ذلك كله؟ كيف كانت ستعرف الدوار المخمور وخفقان القلب حين تلقاء والدتها ، في الأديان والختن في الأطراف والرعشة في تلامس الشفاه ورغبتها في التحليل بعيداً لأن الأرض أصغر من أن تتسع لهذه النّسـوة والجسم أضيق من أن يستوعبها ؟

كيف كانت ستعرف ما يحدث لجسمها حين يضمها إليه فترى في الجسم كلّه رعشة وعرق خفيف كالندى وتفتح المسام كزهور تنشر عطر روحها وجسمها . وتتعود جيداً ، وتحلم مفهمسة العينين لو ينفتح هو أيضاً رحماً يحتويها فلا يقتربها إلى الأبد ؟

كيف كانت ستعرف هذا كله ؟

قالت دون أن تنظر في وجه أخيها : الحمد لله . فراج رجل طيب وسلام يملا علينا البيت.

ثم سكت وهي تتتسائل : هل تستطيع أن تحكم سالم عن مشاكلها الحقيقة ؟

هل يمكن أن تتكلّم عن فراج الذي تعرف رغم كل ما فعلت أن أنها لا يحبه ؟ هل سيفهمها ويفهمه ؟ كيف يمكن أن تحكم له عن التغير السريع الذي أصاب زوجها خلال ستة واحدة ؟ غاضت الابتسامة من وجهه وأصبح عصبياً يثور لأنّه شيء ويختلق شجاراً في البيت . وحين تحاول تهدّته وتقول له إنّها لا تقصّر في واجبها وإنّها تخدم في البيت كالجارية يرد بأنّه تعمل في بيتها أضعاف ما تعمله فوزية دون أن تشكو ودون أن تطلق بكلمة واحدة هي تعرف مع ذلك سبب ذلك كله . فراج لم يصبح سبباً لكنه يرافق نفسه في الشغل أكثر من اللازم وكل الأشياء التي توقفها لم تحدث : لا البعثة ولا المكافأة التشجيعية ولا الوقت الذي يسمح له بالدراسة العليا التي حلم بها . والمرتب الذي كان يمكنه تماماً قبل سنتين أصبح الآن يتصرّف قبل آخر الشهر بكثير . رغم كل ما تفعله لتغيير أمور المعيشة في البيت ورغم ما يعطيه لها جدها .

أخيراً رفعت فوزية رأسها وقالت لأخيها بصوت متعدد :

- أريد أن أخذ رأيك في موضوع يا سالم .

جلس إلى جوارها على الكتبة وهي تحمل طفلها على كتفها وراحت تربّت على ظهره ، ثم سكت لحظة وبدأ أنها قد عدلت عمّا تريده قوله وساقت أخاهما بابتسامة :

- على فكرة . هل عرفت يا سالم أين يذهب جدك يوم الخميس ؟

- لا . قلت لك إبنتي حتى لم أحاول . هل عرفت أنت ؟

ولكن فوزية ساكتة مرة بابتسامة وهي تجلس قبالته تررض طفلها سالم

الصغير :

- قل لي يا سالم . من هي التي (الخبيط) أخرى العاقل ؟

تصرّج وجهه وراید يداعب بسياحتها الرضيع الذي ترك شدّي أمّه وحوال عينيه نحو خاله وقال : لا ترين أن سلوم يشبهني بال فعل ؟ أنا أشتّق ابتك يا فوزية .

لكن فوزية أصرّت : هل هي واحدة أغرّها ؟ واحدة من الجيران ؟

فرد مظاهرها باللامبالاة : لماذا تسألين ؟ ومن أدرك أن هناك واحدة ؟

وضُعفت سبابتها في جانب رأسها وقالت : أنتن أن أختك لا تفهم ؟ صحيح أنك في الجامعة وأنّك لم تتعلم مثلك ، ولكن لمن عينين وعندى هنا مخ ؟

انهوك سالم في مداعبة الصغير الذي بدأ الآن يقتسم له ولكن حين مد يده ليحمله حول رأسه فجأة وعاد يلقم شدّي أمّه .

قالت فوزية وهي تربّت على رأس طفلها ببطء : أنت تكون طول عمرك . لا أحد يعرف تلك الحق ولا الباطل ، ولكن لو كانت واحدة من الجيران لعرفت . أنتن أنها زميلة لك في الجامعة .

كان يقف أمامها وهي تجلس في الصالة على الكتبة منهكّة في الإرهاص لكتّها ضحكت فجأة ومدت ذراعها لفجذب سالم نحوها وقبلت في خده قبلة حارة وهي تقول :

- الفعل ما بدأ لك يا سالم . المهم أن تكون سعيداً . سافرّج لك ما دمت سعيداً .

جلس إلى جوار أخيه وساختها :

- وأنت ؟ هل أنت سعيدة يا فوزية ؟

- لماذا إذن أنساك ؟

ثم أكلت بضحكه ملتفة : محببها يا سالم أن يكون جدك متزوجاً في السرا
تتزحزح مبتعداً عنها وقال في ارتياح : جدي ! لا يمكن !
قالت وهي تواصل التردد على الصغير : ولم لا يا صاحبي ؟ تحدث كثيراً
وتكلشف الحكاية بعد .. بعد فوات الأوان .

ثم أمسكت بابتها وأبعدت عنها قليلاً وراحت تزرجه : لكن أنت لن تكون
كذلك يا سلام ! أنت ستقول الحقيقة دائمًا . لن تتصدم أولادك عندما تكبر بأن لهم
آخرة لا يعرفونها . كما أن أمك وحات قد يكون لها أعمال وعمارات لا يعرفانهم !
ابتعد سالم عن أخته لينظر في عينها مباشرة وفي صوته هلع :

- فوزية ! ليس هذا موضوعاً للمرأة ! إلا جدي ؟
فواصلت حديثها لابتها : إلا جده يا سلام ! خالك طيب وعلى نياته لا يعرف

أن جده رجل كيسيقة الرجال !

لكن فوزية شعرت أنها ذهبت بعيداً في الكلام فعادت تتحسن ملطفها وتنظرت
في عين أخيها وهي تقول بهذه : لا تقلقي يا سالم . أنا أمزح بالفعل . أقسم لك
إني لا أعرف شيئاً وأنا متأكدة تماماً يمكن أن أشك في كل الرجال إلا جدي . أنت
ترى كم يحبينا . أتظن لو كانت له زوجة وأولاد فسيكتفي بإن يraham يوم الخميس ؟
ثم أكملت بضحكه عايرة وهي تنهض : ومع ذلك كما قلت لك . أدفع نصف

عمرى وأعرف أين يذهب يوم الخميس !
سار سالم خلفها نحو الباب وهو يداعب الصغير بأصبعه في خده مستجدداً

منه ايسامة أخرى ، لكن فوزية توقفت لحظة . ثم بدا أنها تغلطت على ترددتها :

- اسمع يا سالم ، ما رأيك في حكاية البيت ؟
قبل أن تستقر رده عادت تجلس على الكتبة فجلس سالم إلى جوارها ودو

يسأله :

- أي حكاية ؟

- أنت سمعت بحكاية الشرخ الذي في جانب البيت ؟
نعم وجدى يلوى أن يرمي . لكن السكان لا يريدون المشاركة في التكاليف .
فتالت فوزية وكثيراً تتزرع كلاماتها : سمعت يا سالم أن الأرض في حينها
ارتفع شتمها : سمعت أنتا يمكن أن تبيع نصف الأرض بشئون كبير ثمين به عمارة
جديدة في النصف الآخر ثم تبيع شققها بالشىء الفلاطى ، يمكن . قاطعها سالم
وهو يسأل يدهشة : نفهم ويش ؟ لماذا ؟ هذا يبتنا يا فوزية ؟
ثم استدرك : لا ، في الحقيقة هو بيت جدي . ولا يمكن لجدى أن يفرط فيه .
يهدى ! هل هذا معقول ؟

كان سالم الصغير قد نام على حجرها فتكلمت بصوت خافت :
- أتعرف أنه غير معقول ، وأتعرف أن جدك لن يوافق .
- إذن أنت تكلمت معه بالفعل ؟
- لمحت له فضحك . قال مثلك : هل هذا معقول ؟ وأين تذهب تحزن وأين
يذهب الجبران .

ثم أكملت بغيظ مكتوم : كان هؤلاء الجبران يذكرون قبينا ! يدعون مساليم
للبإيجار ويستخسرون حتى أن يدفعوا نور السلم ! تحزن . الذين تدفع كل شيء ..
رفع سبابتها : جدك هو الذي يدفع كل شيء .. لا تحزن . وهو ..
نظرت في عين أخيها مباشرة وقالت بلهجة بائرة دون أن ترفع صوتها : أنا
بحاجة إلى فلوس يا سالم ! مرتب فراج لا يكفى للبيت . وأنا لا أشتغل ولا أساعد
في المصارييف ..

قال متتعجبها : ولكنكم كتمنا تعرفان ذلك من قبل الزواج . كان يعرف جيداً
أنك لا تستغلين .

ثم استدرك بصوت خافت : وأعلن أن جدي يساعدك .

قالت وهي تنظر شاردة إلى طفلها الثانى : نعم .

ثم واصلت دون أن ترفع رأسها : جدى يدفع ما يقدر عليه ولكنه لا يمكن .

كيف يكون عننا هذا الكتز ونعيش فقراً؟

نهض سالم وقال وقد بدأ يتكلم القusp : هذا الكتز ليس ملك فراج ولا ملك ولا ملكي هذا بيت جدى وينا يعطيه طول العمر .

مدت فروزية يدها فامكنت بيد أخيها وجذبته ليجلس إلى جوارها حيث كان : - أهدا يا سالم . أهدا . أنا أيسنا أدعوه بطول العمر . أنا لا أحب أحداً في

الدنيا كما أحبه . ثم انحرفت عيناه بالدموع وهي تسأله :

- قل لي ماذا أفعل ؟ فراج أخترني رخيصة ، والواحدة منا يا سالم لابد أن تكون عزيزة في بيتها . كيف تكون لي قيمة و أنا لا أعمل ولا أملك شيئاً ؟ الرجل الآن بين زوجته بما تدفعه للبيت .

قال مفاجأة : والحب يا فروزية ؟ لا يزن الرجل زوجته بالحب ؟ ألا تكون عزيزة لأنه يحبها ؟

قالت ودموعها تتساب بلا انتقطاع : في الحكايات فقط يا سالم ! عند العبط مثل وملك ، أنا لست عزيزة على فراج لأنه لم يتعجب في زواجه ، هو يعتقد أنني أنا التي أشتريته ولكني لم أدفع كل الثمن الذي يستحقه . ومعه حق لأن الفطة غلطتي .

أفلت منها العبارة الأخيرة دون قصد فعادت تكرر .

- قل لي ماذا أفعل يا سالم .

نظر سالم إلى أخته الباكية في حيرة وعجز ، ثم مد يده إلى كتفها وضمها إليه برفق وهو يقول بصوت مرتجف .

- ولكن .. ولكن عزيزة جداً يا فروزية ؟

ثم اختنق صوته وسكت .

بعد تلميحات جابر جاءت فروزية ، وسائل الباشكاب نفسه : من عليه الدور
بعدهما ؟ شعبان الذى جاء قبل أيام يشكوه من مطالبة الضرائب الباهظة ؟ أو
ربما سالم الذى وقع في حب بنت غنية ؟ أو فراج الذى تخسر كل ثقاوله مع تخر
مرتبه ؟

كان الباشكاب يجلس وحيداً في شرفته في الليل ، يراقب الشارع الذي بدأ
يزدحم لاقتراب مولد السيدة وأصبحت أوصافته ملئى لزار الست . كما بدأ
 أصحاب الحال يعلقون أفرع المصاصيب الملونة بعرض الواجهات ، ولكن أشياء
كثيرة كانت تشغل بال الباشكاب .

لم يكُن عن محاسبة نفسه منذ جلسته وحيداً في المقهى ، ولاحقته أمور
تقتزعه من نفسه . فاجأه أولاً اقتراب فروزية ببناء المحلات في مدخل العمارة ،
ولتكن بعد تفكير قال ولم لا ؟ عزّ عليه أنه سيفقد شجرة التمر حنة التي كان
عمرها من عشره ثم تسأله : وكم يبقى من هذا العمر على أي حال ؟ .. كان يعرف
جيداً الحالة التي تعيشها فروزية وفراج ويعلم أن ما يعطيه لحفيدته خفية لا يساعد
كثيراً على تغيير هذه الحالة . ثم بدأ هو أيضاً يشعر بالغلاء الذي يتحدث عنه
الجميع . اعتاد لا يذكر أبداً في المال . كان معاشه وادخاره وإيراد قطعة الأرض
الصغيرة التي ورثها هو وشعبان عن سمية يفيض عن احتياجاتهما القليلة وبكل
للتيبة حاجة أسرته كلها . وتوقف من زمن بعيد عن الاعتماد على إيراد البيت
الذي لم تعد إيجارات مساكنه تغطي مصاروفاته . والآن بدأ يسحب من مدخراته
لصرفات الشهر العادي ، واكتشف أن هذه المدخرات ستتضاعف كلها في تكاليف

وعكات البرد وحالات طارئة من عسر الهضم لم تكن غريبة ، وهو الذي يعترف دائمًا بعجزه عن مقاومة إغراط الطعام الجيد وباته لا يعرف متى يتغذى عليه أن يتوقف . تجائزه حتى الم الأسنان الذي أرغم كل أصحابه في مراحل من عمره على استخدام الأطباق الصناعية وظل بيته على قتوته التي عجز عن السيطرة عليها في شبابه وفر شيخوخته . ولكنه يعلم أيضًا بالبقاء، المقابل الذي يبشره به أبو خطوة منذ مطلع الشباب . بداعيه بعد موته سمية البكر أنه كان لا بد من وقوع المأساة لكي يجد الطريق . غير أن رغبات جسده لم تكن وحدها هي التي مالت طوال السنوات التي أعيقت رحيل سمية . بل ماتت تطلعات روحه أيضًا ، عاش يزدري ما عليه من (واجهيات) نحو ولده ونحو ولديه من بعده . نسي الرغبات طوال تلك السنين ، ولكن روحه لم تطلق بعيداً .

قرأ أيامها الكتب التي أعطاها له أبو خطوة . قرأها طويلاً وأحبها كثيراً، وردد الفكرة في كل هذه الكتب ببساطة وجملة : أن يتحلى بالأخلاق معينة تصل به إلى الزهد الذي يميت الدنيا في قلبه فتزدهر جنة في نفسه ويقيس على المعجزات . ورأى أنه لا توجد أي مشكلة في ممارسة الحياة كما توصي الكتب . كان يعمل بذلك الوصايا بشكل طبيعي حتى وهو في عز شبابه والطلاقه وراء ، نزوات . بداعيه أنه قد ولد بهذه الأخلاق . كان متواضعاً دون افتخار لكن هو أدنى منه ، بعيداً كل البعد عن تعلق من هو أقوى منه بجاهه أو ماله . ببساطة من ماله وورده دون من ولا استعلاء . يكره انتشار المرض للخطاء ويشعر بمحن إيسادة المس ، إليه، ينساها لا يأن يغفرها فحسب . بل بمعنى أنه إن غضب لها في حينها فإنه لا يذكر بعدها فيما كان غضبها . يحب من قلبه أن يساعد الناس وأن يقتصر حوانجهم . كل تلك السجايا وغيرها مما أوصت به الكتب لم تكن غريبة عليه . غير أن الخلوة النالية التي نصت عليها بعد ذلك لم تكن لها علاقة بالأخلاق ولا بآرائه .

الترجميم الذى اعتذر السكان عن المشاركة فيه لأن «ليس ملكهم» كما قالت المست إنصال وكتابها تمرح قبل أن تضيف في أسمى حقيقى «من أين ونحن نفترض لمساريف علاج الحاج إبراهيم؟ فما العمل .. يهدى البيت بالفعل ولتكن ما يكون؟ يفقد البيت والجيران معاً؟ هو يصدقهم ، أن لكل واحد منهم عذرها بالفعل . تربى في هذا البيت مع أبنائهم الذين أجر لهم الحاج السعدي المساكن ، وظل الآباء ، الذين خلقوهم يحفظون له الود ويستلونه النصح .

كان يعتبرهم مثل أبته شعبان . وأقام أطفالاً يكبرون ويترزجون وينجذبون . يقولون له «يا عم» وأطفالهم يقولون «يا جدى توفيق» لم يعد يعرف أيهم هو ابن من ولا في أي طابق يسكن لكنه يحفظ وجوههم ويفرح بهم حين يلقاهم على السلالم أو أمام باب البيت . يقف ليسائهم عن حالة الأسرة وحالة المدرسة فيرون عليه في حجل وندوه .

احزنه أن شعبان لم يشا أن يكون له من هؤلاء ، الجيران أصدقاً ، وأنه رغم ابتسام يختلط سالم بآولادهم ويعاصقهم . ليكن ، شعبان حر ، أما هو فبدون هؤلاء ، الجيران ستتفقد حياته طعمها . سيشتاق لكل سكانه حتى للست إنصاف صاحبة الصوت العالى والأشجارات التي لا تنتهي مع الباقة .

يود أن يعيش حتى آخر عمره في البيت الذي تربى فيه ويعرف ناسه والذي شهد أيضاً آخر أيام سمية . يشعر منذ يوم المقهى أن صفحته الأخيرة قد دلت ويريدوها أن تطوى بسلام . لم يكتب حين قال إن صحته كالحصان . حالته مازالت أفضل مما يطبع أي إنسان في سنته أو حتى أصغر منه . عذبه هذه الصحة كثيراً منذ شبابه ، وما زال جسده «المذكوك» ووجهه العريض المتناقض القسمات والمتوردة بالدماء يوحيان بالقوة والعنفية ورغم التجاعيد الطولية العميقه والشعر الأشيب فهو يبدو أصغر من سنه بكثير . لم يشك في حياته من المرض باستثناء

إلى النساء، كثيراً هو في بدء حياته لا في نهايتها . حاول أن يتغلب على ذلك الإغراء المتناثر الذي غزا جسمه كالحمى . كان يوتب نفسه على نظراته التي تتضمنه لزميلاته في المكتب والمتعاملات معه . راح يسأل نفسه : ما الذي جرى له؟ يخرج من عمله ويمشي في الطرقات إلى أن يهدى التعب . ولكن الشوارع كانت تعطيه النساء، أجمل مما رأهن في عمره كله . تتجه عينه مباشرة بقوة قاهرة نحو السيقان المقوفة والصدر النافرة والشفاه المتلائمة والعيون الجميلة . لا يفوته أصغر تفصيل وهو يمشي مع ذلك يخطوه المسرعة كأنه يهرب .

يقول لنفسه وماذا في ذلك كله ؟ السيقان أعضاء لل المشي والعيون للنظر والصدر للرضاة . لكل انسان في الدنيا ساقان لا ينتبه إليهما . ولكن إذ يمشي في الطريق يرى امرأة تتطلع إلى أزياء، في وجهها محل . ترفع قدمها تخلع نصف الحذاء، وتشعر ساقها انتشاراً بسيطة فتحتمل فكره رغم كل محاولاته . هاتان الساقان تلك المرأة المشوقة القامة . ساقان طويتان تتسابان من امتلاء مستدير محبيب عند السماة إلى أن تتسجحاً بتدراج ونعومة نحو البيضة المرمرة للمساء لركب القدم .. يرى نفسه يكاد يصل هذه الساق بتأمله ، يتحسس نعومتها البيضة ، يرى شفتيه تسنان تلك السماة الشهية . ويشعر أنه يتصعد بشفتيه في تلك النعومة . فيتوقف في هلع وهو يغضب عينيه ، يزفر ويستقر ، يدق الأرض يقدمه غاضباً على نفسه ومن نفسه . ويعاود المشي كأنه يعود دون أن ينظر حوله . ولكن لا فائدة ، الساقان الناعمتان هناك وهما ليسا عضوين للمشي وإنما لتعذيبه وهلاكه .

وفي جولته المحمومة تلك دخل محلًّا للكتب القديمة وراح يقلب في الكتب مجرد أن يهرب من خيالاته وأطماعه . ظلاليان يحوم حوله دون أن يتكلم وهو يتأمله من بعيد بنظرة فاحصة . وأخيراً اقترب منه وقال بابتسامة ماكنة «عندى شيء لا يوجد فوق الأرفف ، تحب أن تراه؟» . وعندما عرض عليه المجالس أوشك أن يرميها

وإنما ينور يحل عليه وينشرح له صدره قيسلاً طريق الصالحين وتجرى على يديه الكلمات . أبيضاً عليه النور ولكنه لم يفقد الأمل حتى في هذا المزيع المتأخر من عمره . غير أنه أدرك عن يقين أن الرياء لن يقوده إلى الطريق . حين يحضر حلقات الذكر يدور في الحلقة أطول من غيره فيهنك جسمه تماماً ولكن روحه لم تكن تستيقظ . شعر بأنه يخدع نفسه ويخدع أولئك الناس الطيبين من حوله الذين تنطلق منهم بعد طول التطوع آهات الشخوخ ودموع الرجا .

ومع ذلك فقد حمل ولقاً من أن هذا لا يعني وقوعه في قبضة الشيطان . كان إيمانه بسيطاً وعميقاً مثل إيمان أبيه الحاج السعدي . وكان ندمه على خطایاه صادقاً كما شعر بذلك صديقه الصالح . وظل يذكر سينظهر في الوقت ما يؤذن به الوقت . وظل قلبه يقول له إن الوقوع في الريا ، معصية تفوق ما سواها .

أخذ يجادل مع ذلك منذ موته سعياً مقتنعاً باقتراب اللحظة والوقت بعد أن قمع جسمه حتى نسيه . انشغل تماماً بهموم حياته مع ولده وحفيديه . ولم يذكر في امرأة أخرى . الأصح أنه نجح في إخماد شهوره النساء ، التي لم تنتهي ، تماماً رغم ما حوله . ظل طوال تلك السنين يرى في عمله وفي حيرته نساء من كل نوع . بعضهن يلمحن وأخريات يرمي بها بالنظرات التي يعرفها جيداً كائنة يقرأن دخيلة نفسه : لماذا تكتب يا توفيق؟ وجهك يفضح النساء ، الذي تخفيه خلف قناع الزهد وجسمك يكاد يمزق جلدك كمن ينطلق ، لماذا تكتب؟

ولتكن ظل صامداً ، ونجح عبر السنين في أن يكل نفسه إذا ما هو هم بشيء أكثر من النظر .

يعن ذين جاتت تلك العاصفة المتأخرة التي اجتاحت كل سودة وملائمة؟ دهمته في الشهور الأخيرة التي كان يعلم فيها أوراقه لكي يخرج إلى المعاش .. ليقادع مثل عجوز طيب أدى ما عليه في العمل وفي الحياة . عندها ظهرت هي لا، الأصح أنها ظهرت بعد أن بدأ يستبد به شوق غريب إلى الحياة وحيدين جارف

واعتقدت أن ترتدى دانما الملابس والألوان الهاشمة ، وتعرف كيف تبرز أنوثتها الناضجة ، كانت تتجاوز معاونته وتدخل إلى مكتبه ثم تجلس مباشرة على المقد الجلدي المواجه له وتقول بلهجة شديدة التهذيب ، فيها شيء أمر مع ذلك «يا حضرة الباشكاب ، سعادتك بالأمس ..» فيترك كل ما بيده ويستدعي من مرؤوسه لينتابع بنفسه ما تطلبية . ومرة كانت تجلس أمامه واضعة ساقا على ساق فراح دون وهي يتطلع إلى جمال وتناسق ساقيها البيضاوين ، وضيئق نفسها يعربها بعينيه من ثوبها الرمادي المحبوك حول رقبتها المستديرتين المتلاصken ويتخللها فى صورة من تلك الصور التى أدمتها ، فتصعد الدم إلى وجهه ، وارتفاع من انحدار تفكيره ثم كأنما حدث فى لحظتها ما يفكر فيه فتضرسج وجهها وهي تغدر فى جلساتها وتطرق برأسها على الفور .

ولكن ربما فى تلك اللوانى حدث بينهما تقاهم ما ، اتفاق مضمر على أن شيئاً آخر غير الأرواق بدأ يجمع بينهما . وجد الباشكاب نفسه ينتظر حضورها إلى مكتبه باللهفة وصارت هي تتلألأ فى الانصراف بعد انتهاء أعمالها ، لاحظ الباشكاب زينة جديدة بسيطة حول عينيها وحمرة خفيفة فوق شفتيها ، لم يعد الحديث يدور عن العمل وحده ، بل صار يتطرق إلى مشاكل الحياة ، والى مقارنات بين أحوال الحاضر والماضى الذى كان أجمل بكثير أيام الشباب ، شبابها وشبابه .

وعلت ضحكات الباشكاب المشرف على التقاعد وأدهشت معاونيه الذين لم يتعادوا منه الاهتمام الخاص بإحدى المتعاملات مع المحكمة . يدائوا يشتملون وبهمسون . ولاحظ الباشكاب قضوال زملائه لكنه لم يفهم مطلقاً . أخذت تعلو فى داخله موجة من الاستهانة بكل شىء ، كلما اقترب موعد خروجه إلى التقاعد ، وكانت نازلى أول امرأة من لحم ودم تقتضم حياته منذ رحيل سمية . وعندما تقييت

فى وجهه ويخرج من محل ، لكنه لم يفعل ، بل وقف يقلب فيها وهو يشعر بشىء سريع فى صدفه وجبيه ويرمشة فى يديه . كانت الصور الملونة تذهب إلى ما هو أبعد من خيالاته الجامحة التى يهرب منها ولم يستطع أن يتوقف عن التلقيب فيها رغم شعوره بخجل وباته يتضائل أيام نفسه . لم يخرج من المكتبة إلا بعد أن اشتري تلك المجالس ثم بدأ بعد ذلك يبحث عن غيرها وغيرها وهو يفتح نفسه فى تلك الشهور التى استبدت به خلالها شهرة العونة إلى النساء ، يان ما يقطعه هو الشر الأفون ، يان هذه الرلة تعصمه من زلة الزنا الحقيقية . اجتهد فى جمع المجالس واجتهد فى إخفاتها عن انتظار أهل البيت . ابتكر له مساحات المفاتيح مفاتيح خاصة غالبة الثمن للمكتب وقال له إنه يستحق تلقيدها أو فتح أدراج الكتب بدونها . وظل هو يحتفظ معه بتلك المفاتيح باستمرار ، لا تفارقه لحظة . كان يشعر بالعار إذ يطلع شيئاً كهذا فى مثل ستة ، لكنه لم ينجح أبداً فى التخلص من تلك الهواية التى تعلمها فى شيخوخته . لم ينقطع تائب النفس أبداً ولم يطلع فى الإقلاع أبداً ، يسرر لنفسه : المجالس موجودة سوا ، جمعتها أو تركتها ، وأنا لا أؤذى أحداً ولا أرتكب شراً . ولكن عقله كان يقول له غير ذلك .

وفى تلك الأيام ظهرت نازلى هانم . ترددت على مكتبه أيامًا متعاقبة . كانت تتزرعه من استيقاء ، أوراقه وإجراءاته الخاصة بالمعاش لكي ينجز لها معاملاتها . كان معروفاً بأنه يخدم كل أصحاب القضايا على السوا ، وأن مكتبه مفتوح لهم جميعاً وإن حاول أن يختفي من هذا الغم، قبل المعاش تاركاً تصريف الأمور لروسيه . لكن نازلى كانت تدخل مكتبه دون استئذان ، تقدم أوراقاً ومستندات لقضايا عديدة لإثبات الملكية ولمنازعات قانونية مع شركاء زوجها الراحل . كانت تقترب من الخمسين من عمرها بالتأكيد لكنها تعنى كثيراً بمظهرها وملابسها فلا تبدو سنتها الحقيقة . ومع أنها لم تكن تصبغ شعرها ، أو ربما تصبغه وتنعد ترك خصلات بيضاء فقد كان جسدها قانياً .

ولم يستطع توفيق أن يحسم لنفسه أياماً وهو يتذكر ويتصرف كالنوم إن كان ما يحدث قد جرى خد إرادته أو لأنه يريده حقاً. كان يعرف بالطبع من متابعة قضيائها وأوراقها في الملفات أنها امرأة شديدة الثراء، تملك أراضي وعقارات وشركات وتسكن في قيلاً في جاردن سيتي، يعرفها جميع السعادة والكتبة والمحضرين في المحكمة ويتذوقها جميعاً «نازلي هاتم»، وعرف أيضاً أنها أم لشابين أحدهما وكيل للنيابة والأخر طبيب كما أن لها ابنة متزوجة ولديها منها أحفاد. وأدفأته قليلاً أنها تعرف عنه المعلومات المهمة: أسرته والبيت الذي يملوک والمحل الذي يديره ابنه والأرض التي ورثتها هو وشعيان عن سمية والأماكن التي عمل فيها قبل أن يأتى إلى هذه المحكمة، كل التفاصيل الأخرى، في حملة.

ولكن ما أدهشه حقا هو شروطها : سبتو زوجان عرقيا حتى لا ترثه ولا يرثها .
لن تقيم معه في بيته وإن يقيم معها في الفيلا ولكنها سيسكتان شقة صغيرة في
وسط البلد ، وإن يلتقطها كل يوم وانتها في الأيام التي تحددهما .

اعترض الياشكانت على الفور على فكرة الزواج العرفي، فقالت نازلى لماذا؟
مسألة الإشهار يعني؟ عن نفسى أنا بالطبع سأقول لأولادى وتسقط عينك أنت إن
شتت أن تقول لأسرتك.. تحزن لا تفعل شيئاً محظياً.
وهل سبق أولادها هذا الوضع؟

ضحك وهي تقول : سيرفضون فقط لو عرفوا أن الزواج يمكن أن يحرمهم من الميراث أو أنه يمكن أن يضيع أموال أمهم . ولكن قلت لك إنني سأكفك عنك وإنني أعرفك .

ثم أكملت بمسؤوليتها الخافت : وأظن أن هذا الترتيب يناسبك أنت أيضا يا أستاذ شفيفه يناسبك تماما :

كانت نازل هامن تعرف كل شيء، وتحبب كل شيء . فهل عرفت أنه سيظل يرجي «الإشهار» لأسرته ولغير أسرته باستثناء الشاهدين اللذين جلبتهم هي؟

يؤمن أو ثلاثة عن الحضور إلى مكتبه أصبح قلقاً وعصبياً . ومنع نفسه بالكاد من أن يتصل بها ليسأل «ما الأخبار؟» قال لنفسه «أثبت يا حضرة الباشكتاب ، لم

وَلَا أَهْلَتْ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَوِ الْرَّابِعِ وَجَدَ نَفْسَهُ يَقُومُ مِنْ مَكْتَبَهُ لِيَسْتَقْبِلَهَا
عَنِ الدَّبَابِ مَرْحَبًا بِعَبَاراتِ كَثِيرَةٍ لَا مَعْنَى لَهَا وَهُوَ يَسْأَلُهَا بِيَدِيهِ الإِشْتِينَ وَيَضْطَطُ
عَلَى يَدِهِ . وَكَانَتْ هِيَ أَيْضًا تَقْسِمُ مُتَوَرَّدَةَ الْوِلْجَةِ وَالتَّمَاعَةِ فِي عَيْنِيهِ . قَادَهَا
عَبْرَ الْحَجَرَةِ الْوَاسِعَةِ إِلَى مَقْعِدِهَا الْمَلْوَأِ أَمَامَ الْمَكْتَبِ وَهُوَ يَقُولُ «أَوْجَحْشِتَنَا» . قَالَتْ
بِصَوْتِهَا التَّافِعِ الْهَامِسِ «وَأَنْتَ أَيْضًا فَانِكِيلْ ضَاحِكًا وَهُوَ يَتَجَهُ إِلَى مَقْعِدِهِ خَلْفِ
الْمَكْتَبِ . إِذَنْ . لِمَاذَا لَا تَخْمِنُ الشَّمْلَ؟» .

لم يكن في نيته أن يقول شيئاً من هذا النوع . لا يدرى في الحقيقة كيف أفللت منه العبارة ، لكن نازلى قالت وهي تتأمله دون رهبة « بهذه السرعة ؟ أنت لا تخسيء وتحت ما حضرة الباشكتاب » .

وعندما وجدته ينظر إليها متوجهاً وقد فاجأه ردّها الذي يعني أيضاً الموقف
سعيه ضحك بدورها ضحكة خافتة وقالت:

- أنت أزيكتني كنت قد أعددت كلاماً في رأسي ولكنه مطار،
سألها وصوته يرتجف قليلاً : إذن فاتت توافقين ؟
رفعت إليه وجهها باسماً وهي تقول : أين نكاوكم يا حضرة الباشكتاش ؟ لو
يتكلكم أنت اليوم لتكلمت أنتاً . لماذا يتعيني أن بيدأ الرجال دالئماً ؟

عقدت الدهشة لسانه وراحت هي ترتو إليها بعينيها الخضراوين الضيقين وأخذت
أرتشم على وجهها تعبير جاد تماماً وأكملت بنبرة واحدة:
- ساكت عنك وعرفت كل شيء . أنت أزمل مثلي .
ثم قالـت ببساطة بصوتها الهادئـ: ولكن لي شروطـي .

خلاصة كل نساء الأرض ، في تمهيل وتلذذ تارة ، وفي اجتياح عاصف ثارة أخرى .

انتفقا في بدء الزواج على أن يلتقيا مرتين في الأسبوع في الظفيرة ليقضيا الوقت معاً حتى النساء ، ولكن في الشهور الأولى التي سبقت خروجه إلى المعاش والتي أعيقته كان ذلك اللقاء يتم أربع أو خمس مرات في الأسبوع لم تستك الأرض الجرداً من نقص الرى ولا انتهت العاشق الذى طال حرماته من اكتشافه لأعماقهها . أيامها كان اللقاء الذى انتفقا على إنهائه في النساء يمتد أحياناً إلى عمق الليل . وذلك قبل أن تتنظم أمورهما بالشريج ، قبل أن تهدا الثورة وينهك كل منها الآخر بما يتガوز قدرة جسديهما ، حتى ولو كانا جسمين عذيبين ومشوقين للعشق . انتهت المسألة إلى هذا اللقاء ، الأسبوعى الواحد يوم الخميس . وظل كلاهما يعرض عليه .

بعد كل لقاء ، كانت نازلى الجارية تأخذ وقتاً طويلاً أمام المرأة لتضع زيتها البسيطة ، المرسومة مع ذلك بكل رقة ، لكن ترجع قبل الخروج نازلى هانم بكل كبرياتها وشموخها . ولفت نظر الباشكتاب ، ولكن فيما بعد ، أنه لم يكن يدور بينه وبين نازلى ، خارج العشق ، أي حدث له معناه . أحياناً حين كانا يجلسان معاً في هذه قبل الخروج من شقهما ليشربا الشاي ولباقيلا الحلوى ، كانت تسأله عن رأيه في بعض قضائاهما التي لا تنتهي ، أو تحسب بدقة أرقام إيرادات ستحصلها أو مصاريف ستدفعها وترجوه أن يراجعها معها ، أو تشکوهه أحياناً من أن أولادها يتركون كل العبء عليها وكل ما يهمهم أن يجعلوا الفقد جاهزة في التهابه . أحياناً أيضاً كانت تتقد زوجها الراحل لأنه قبل أن يموت لم يرتب أمور الثروة والتركة ترتيباً مناسباً .

لم يستطع أن يقول حتى لا يبو خطوة ولكنه أدرك من نظرة وجه صديقه الصالح أنه يعرف ، تحدث نفسه : زواج شرعى وشهود فلماذا إذن لو كان مقتنعاً بذلك حقاً في قراره قلبه يتصرف كمن يخفى ما سرق ؟ ولماذا لم يشعر طوال هذه السنين بطمأنينة النفس التي عرفها مع سمية؟ سمية . أى مجال للمقارنة ؟ ولكن فليغيل الأن ما يقول ، في حينها كان الترتيب مناسباً وكان العلاج ناجحاً . لن يجدية الآن الانتكار ولن ينفعه الرباء .

لم يعرف نازلى هانم على حقيقتها إلا في تلك الشقة الصغيرة التي استأجرها بناءً على تصريحها في عماره مزدحمة بعيادات الأطباء . ولم يكن ذلك متفقاً تماماً مع الإشهار ولكنه كان ترتيبها المناسب بالفعل . ولا فرق أى مكان آخر . غير تلك العمارة المليئة بالضوضاء ، في السالم والعيادات . كانت نازلى مستحبة لنفسها بذلك الأصوات والصريحات التي أذهلت في لفائفها الأول في فراش الزوجية ؟ لكن تلك المرأة الخافتة الصوت ، الناعمة والهادئة ، التي توقع أن يقودها ويعملها من فتوته المكتسبة منذ الشباب كانت تحول ساعتها دون فاصل وسط الآهات والصريحات من أميرة متحكمة تطلب إلى جارية خاضعة تبدل ومن التهلك السافر إلى الحباء والتمنع ومن نمرة إلى شاة . غير أنها كانت تتلاق بالذات في دور الجارية الخاضعة التي تحب أن تؤمر وأن يعاقبها سيدها وأن تستجيب في تذلل فنيستثير ذلك كله السيد ليعطي أحسن ما عنده . وقالت له مرة بصوت مختنق وهي في حضنه : هذه الأرض هلت جرداً ، طويلاً و يريد الأن أن ترتوى . لم تكن وحدها . للعمرت ، كان السيد أيضاً يريد أن يعرض كل ما غافه في السنين الطويلة التي قمع فيها جسده و يريد أن يشفى من الحمى التي اجتاحته في الشهور الأخيرة .

راح يتعامل مع كل ذرة في جسمها . وكانت يريد أن يستقطر منها كل ما يمكن للجسم أن يعطيه . كان يريد أن يرثى مرة وإلى الأبد خلاصة المرأة .

أغلقت الدكتورة صفاء عيادتها مبكرة عن موعدها في الظهيرة وتوجهت إلى فندق (شبرد) لتقابل لبني التي طلبتها وقالت إنها تريد أن تراها اليوم . افترجت صفاء أن تتنقل في العبادة أو عندها في البيت ولكن لبني أصرت على أن يكون اللقاء في الخارج .

جلستا في الحالة التي تحمل على التل ، على مقعدين مقابلين بجوار الحاجز الزجاجي ، ولم يكن هناك غير بضعة رواد متاثرين في المكان . راحت صفاء تتأمل ابنتها بابتسامة ونظرة مستفهمة قبل تساها «خيراً يا لبني . ما الذي ذكرت بي؟» وابتسمت لبني بدورها لعبارة أنها المألوفة وقالت «اشتقت لك وأريد أن أتحدث معك في مسألة» .

كانت الدكتورة صفاء كعادتها تترك شعرها الأسود الطويل مسترسلًا ومرجلًا بعناية حتى منتصف ظهرها ، وتستخدم زينة كالكحل حول عينيها الواسعتين وتصبغ شفتيها الجميلتين برقعة إلحاكم . وكانت تلبس (تابير) أزرق (بلوزة) سماوية اللون . كان كل شيء فيها جميلاً . وارتدى لبني بلوزتها البيضاء العادية وفوقها (بلوفر) من الصوف الأزرق أيضًا . راحت تتأمل أمها وتذكر بأن مجرد النظر إليها ممتعة .

عندما طال الصمت بدأت صفاء الكلام : كيف حال دادة سنينة؟

هزت لبني رأسها وقالت: بخير ، ثم أطربت وعادت إلى الصمت .

شعرت صفاء بشوق حقيقي إلى مريبيتها القديمة ولكنها شعرت أيضاً برج من النطر للحديث عنها . يقارنها مع لبني جزء من اتفاق الطلاق . تعلقت بها منذ

وحين كان توفيق يحدثها عن قلقه أو عن ندمه لأنّه يعيش حياة مزدوجة فـ لأنّه يخون ثقة أسرته التي تحبه كانت تقول له بصوتها التافم وكانتها لم تسمع ما قاله يا توفيق . نحن كبرنا على هذه الأشياء !

ولفت نظره أن نازلى التي كانت تمارس العشق يجنون لم تتحدث مرة واحدة عن الحب ، ولا هو أيضاً .

ولفت نظره أنه لم يحذثها مرة واحدة عن سمية ولا عن أبو خطوة . لكنه استقر مع ذلك في الترتيب ، لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسبه . وعاد البشككاني يسأل نفسه ، المرة الآلف أيضاً ، وهو جالس في شرفته هل كانت نازلى هي التي أخذت روحه أم أنه وقع عليها لأن روحه خامدة بالفعل لا أمل له ؟ هل يجب عليه أن يسلم بأنه انتهى ؟

- وأنت ، هل وجدت السعادة ؟

سكتت صحفاً، وهي تفكّر: هل هذا فرع؟ ربما تكون لبني قد جات الآن
التحاسبها. لم تعد الطفولة التي اقتصرت علاقتها بها على أن تغمرها بالهدايا ،
وعلى التربة الفارغة في لقائهما القليلة. الآن جاء وقت الأسئلة الصعبة؛ ومن
يدرى؟ ربما يكون شوكت قد ملا رأسها بكلام عنها فنالت صفاء، متهورة من الرد
ـ هل تعرفي كلمة دادة سنية التقليدية ، الرضا؟ أن يرضي الإنسان بما يجدء .
هي مثلاً لم تجد في حياتها سوى القليل . ترملت في شبابها دون أن تنجب
ولكتها رضبت بي وبك أحياناً وأحياناً .

وفكّرت لحظة قبل أن تقول: وربما أيضاً أن يرضى الإنسان ب نفسه . إلا
يطلب من نفسه غير ما يمكن أن تعطيه . أن يرضى حتى يضعه الذي لا يستطيع
أن يغيره .

قالت ليني متبرمة : يا أمي يا حبيبي أنا لم أطلبك اليوم لاستمع إلى حكم مواعظ ، أنا أريد أن تكلمي عن حياتك . هل وجدت السعادة وكيف ؟ نظرت صفاء إلى ساعتها وتكلمت بهدوء لتخفي انتقامها : لا أستطيع بعد عمل كلّا ساعة في العيادة أن أدخل امتحاناً في .. ولكن عموماً ما السبب في هذه الأسئلة ؟

قالت البنى وهي لا تزال مطرقة : لأنى أحب ..
أشرق وجه صفا ، وبدأ فيه فرح حقيقي : أخيرا ! مبروك ! كنت أظن أنك أنت ..
ثم وضعت يدها على يد ابنتها وقالت : أترى ؟ الآن أنا سعيدة بحق .. سعيدة ..
بك من أحلق ..

لم تهتز لبني لانفعال أمها وقالت وهي تحول وجهها نحو زجاج الواجهة :
فلمانأ أنا لست سعيدة ؟

السفر أكثر من تعلقها بيتها . ومع أنها تعرف أن شوك لا يحبها . إلا أنه فهم أن بقائها ضروري مع لبني بعد خروج أنها من البيت ، واعتادت الدادة سنية أن تزور صفاً مرة في الأسبوع وأن تبيت عندما أحياناً بعد أن تستأنن لبني . لم تكن المربية كثيرة الكلام ، في الواقع أنها نادراً ما تكلم ، لكنها تسمع لصها ، وكان هذا يكفيها . لم تتحصلها أو تؤنبها بل كانت تسمع فقط وكانت تحبها . لكن تتفقدها الآن بعد أن أصبحت عاجزة عن الخروج والحركة ؛ صوتها المرتعش في التلفون يزيد شوقياً إليها وخوفها عليها . أحياناً تفتك فيها بالليل وتحلم بها ثم

تصحر وهي شبكي . هل ستلتف حق صوتها بما قرب ؟ ما علاقتها لأن بيضها ؟
هل تحكى لها هي الأخرى أسرارها ؟ وهل مازالت الداودة قادرة على أن تسمع
وتقهم أين لها كل تلك الطاقة على العنان والحب وهي التي تلتمتها الدنيا ؟
نزلت صيفاً ، شاردة عبر الواجهة الزجاجية إلى النيل . كانت سحب بيضاء

كثيفة في السماء، وكان النهر رمادياً.
أخيراً تكلمت لبني وهي مطرقة وقالت لأمها أريد أن أسأك عن شيء: كيف

ضحك صفا، ضحكة خالفة ثم قالت لابنتها: أنت تقرئين كثيراً يا ليثي.. ألا تجده، إجابة عن هذا السؤال في الكتب؟

- لا أزيد إيجابيات الكتب . أريد أن أسمع مفكرك .
- أنا بليدة في الأسئلة النظرية ؟ ربما لكل إنسان سعادته التي تختلف عن سعادة غيره .

- ولكنك أريد أن تكون سعيدة .
ابتسمت صفاء : الإنسان لا يريد أن يكون سعيداً يا حبيبي . هو إما أ
يكون سعيداً أو لا يكون . إرادته لا دخل لها بال موضوع .

- كيف ؟ أه ! أنت تحببته وهو لا يحبك ، أو ربما لا يعرف أنه تحببته ؟

- لا ، أنا أحبه وهو يحبني ، أو يقول إنه يحبني . لا أعرف ، أظن أنه بالفعل

يحبني .

- إذن ما هي المشكلة ؟ هل هو شخص صعب ؟

وأوشكت أن تبتل منها عبارة « مثل أبيك » لكنها توقفت في اللحظة المناسبة

وكانت لبني تقول :

- لا ، هو أطيب إنسان في العالم ! وأنا أحبه جداً وأكون سعيدة معه .

المشكلة ..

وضفت يدها على جبينها وصفا ، شطر إليها لكي تكمل فحالت لبني : أريد أن
تساعدني ؟

المشكلة أني أخاف من كل شيء !

- لا يمكن أن يكون هذا بدون سبب يا لبني . لو قالت واحدة غيرك هذا الكلام
سأقول لها ببساطة أن ترى طيباً نفسها . ولكن أنت بذلكك ، أنت حتى أذكر
مثلي يكثير ، لو فكرت ..

وتساءلت صفا ، إن كانت ابنتها ، قد فقدت بالفعل الثقة بسبب تجربة
انفصالها عن أبيها . عادت لبني تتكلم مطرقة فيما يشبه الهمس : لا أعرف
السبب . أو أعرف أسباباً كثيرة ، ولكن هذا لا يساعدني في ...

ثم نظرت إلى أنها بما يشبه من التحدى وقالت : أتریدين أن تعرفي ؟ الخوف
أعيش معه منذ صغرى . بعد أن كنت تصعبي في الفراش وتطفئين النار ، كنت
أقوم وأضيئه من جديد لور خروجك وفي أكثر الليالي لم يكن هذا يساعدني ، كنت
أخرج وأنا أرتجف من الرعب لأنما في حضن دادة سنية ، وكانت هي تحملني
بعد ذلك نائمة إلى الفراش ،

- وكيف لم تقل لي هي ولم تقولي أنت ؟ .. ولكن هذا طبيعي دادة سنية لا
تتكلم وأنت .. ثم سكتت لحظة قبل أن تتكلّل : عندما كنت في مدرسة الراهبات كنّ
يخوفننا من الشيطان الذي يوجد في كل شيء حتى في أظافر أصابعنا ، وانذكر
جيسيدا أني كنت أخاف بالفعل ، هل كان يخوّفتك أنت أيضاً ؟

قالت لبني ماقدة الصبر : يا أمي الخوف يعيش معن من قبيل أن أدخل
المدرسة . أنا ولدت بالخوف . أنا مازلت حتى الآن ..

- وماذا لم تكملي عن هذا من قبيل يا لبني ؟ ربما لو تحدثنا معاً .. ثم
استدركـتـ : أنا لا ألوّعك الآن ولكنـي ألوم نفسـي ..

عبر وجه صفا ، الجميل حزن حقيقي وهي تنظر إلى ابنتها . أرادت أن تقول
لها سامحيـني ولكنـها كانت تكرـه العبارـات العاطـفـية وتعـرفـ أنـ لـبنيـ أيـضاـ لا
تطـبقـهاـ ، رـياـهاـ الـدـكتـورـ شـوـكـتـ عـلـىـ اعتـيـارـ الدـمـوعـ وـالـكـلامـ العـاطـفـيـ ضـعـفـاـ لاـ
يـلـيقـ ، حتـىـ وهـيـ مـلـفـلـةـ كـانـ يـعـاـقـبـهاـ إـذـاـ مـاـ بـكـتـ ! وـلـمـ يـقـيلـ أـنـ تـتـدـخـلـ صـفـاـ فـيـ
اسـالـيـهـ الحـدـيـثـةـ لـتـرـيـةـ لـبـنـيـ لـتـكـونـ قـوـيـةـ ، وـلـكـنـ مـاـذاـ اـسـتـلـمـتـ لـذـاكـ ؟ مـاـذاـ قـبـلـ
أـنـ تـرـىـ اـبـنـهـ الصـغـيرـةـ تـصـارـعـ لـتـحـبـسـ دـمـوعـهاـ وـتـشـعـرـ بـالـعـارـ إـذـاـ مـاـ بـكـتـ ؟ كـيـفـ
هـيـرـتـ عـلـىـ هـذـهـ القـوسـةـ ؟

لـحظـتهاـ خـاجـتهاـ لـبـنـيـ مـرـةـ آخـرىـ حينـ سـائـتهاـ وهيـ تـنـظـرـ عـلـىـ الزـجاجـ إـلـىـ
الـنـهـرـ :

- هناك مـسـالـةـ حـيـرـتـيـ مـنـ الصـغـرـ ، لـمـاـ كـانـ الطـلاقـ بـيـنـ وـيـنـ أـبـيـ ؟ هلـ
كانـ لـيـ أـنـ عـلـاقـةـ بـالـمـوـضـوعـ ؟ هلـ كـنـتـ مـنـ بـيـنـ أـسـبـابـ الطـلاقـ ؟
ترـاجـعـتـ صـفـاـ ، فـيـ مـقـدـعـهاـ وـقـاتـلـتـ باـسـتـغـارـابـ : كـيـفـ تـكـونـ أـنـ السـبـبـ ؟
بـالـعـكـسـ وـيـمـاـ كـنـتـ أـنـ السـبـبـ فـيـ تـاجـيلـ الطـلاقـ ، لـاـ يـوجـدـ أـيـ شـيـءـ مـشـرـكـ بـيـنـ

بالبني من قراراتك أن الإنسان لا يعيش بمخاوف المفرولة ولا حتى بالمشاكل الحقيقة التي يمر بها في طفولته وشبابه، وكل إنسان يصفع نفسه بالبني، وفي الغالب يصفع نفسه ضد ماضيه ..

لورث لبني بيدها وهي تقول: لا داعي لهذا الكلام يا أمي، قلت لك من البدء، ابني لا يحتاج إلى مواعظ، أريد أن أسمع كلاماً مفيداً، قولى مثلًا ماذا أفعل في حكاية الاستاذ حمام؟

بدأت تحكى لأمها بهمس محابيد تمامًا، دون انفعال ودون تهدج، ولكن حين انتهت كانت ترفع رأسها كعادتها لتقاوم الدموع التي تريد أن تطفو، أما صفاء، فتركت دموعها تتسبّب في صمت. لم تتسألها هذه المرة لماذا لم تقول لي من قبل، كانت تذكر أنها لم تقترب أبداً حقيقة من ابنتها وأنها مسؤولة بشكل ما عما أصابها.

أمسكت بيدي لبني الموضوعتين على المنضدة دون أن تقول أي شيء، ثم سألتها هامسة أيضًا :

- هل حدثت أحدًا غيري عن ذلك؟
- دادة سنية.

- أقصد حدثت أحدًا غيرها؟
- لا ، ولكن لا بد أن أقول لسالم، من حقه أن يعرف .

فقالت صفاء، ببطء، وببررة حاسمة دون أن ترفع صوتها: ولا كلمة! لا هو ولا أي إنسان غيره، هذا شيء يمكن علاجه .

- بالخداع؟

تركت صفاء يدي ابنتها وسألتها : هل تريدين أن تتفقديه؟

وبين أبيك غير أنتا تحن الاشرين تحبك ! .. كيف يختظر بيال وحول صفاء وجهها أياًضا نحو النهر وهي تفكـر : بالفعل ، كيف يختظر بيال ليس شيء كهذا ! وما الذي يمكن أن تقوله لهذه الظللة ، التي ما زالت طفلة رغم ذكائها وقراراتها ، عن أيها العظيم ؟ غلطتها الأولى والكبرى بالطبع أنها لم تكتشف على حقيقته قبل الزواج . لم تكتشف أن ملائكة بنفسه التي أعجبتها وجذبتها إليها لم تكن سوى غزو أعمى يجعله يرى نفسه محور الكون - غزو بعلمه ، وبتجاهه ، وبوسامتة ، وبعاصبيه الشوري . ثم يتذكر للثورة وبملوكه العملية الجديدة . يجد في كل ما فعله أو يفعله في حياته مصدرًا للتباهي ودرساً فراشة ! في البدء، كانت تتذمّر في صمت . تخجل أن تقول له شيئاً وهي تراه يتصحر عنها فور أن يرقصي رغبته . تنقرض من نفسها إذ تضطر إلى أن تنهي توبيخها بنفسها خفية، ولما لم تعد تحتمل صارحته . وجدت صعوبة في القلب على خجلها وتكلمت بتردد، ياتصال جمل وبümühiمات مبهمة . وكانت تتغطر منه بعدها أي شيء، غير ما سمعته أذنها . قال شوكت وهو ينظر إليها مباشرة دون أي انتقام إن يفهم مواقفها لتجعله : قال إنه ينبع مع كل النساء غيرها فلمدانة الفعل إن يفهم مواقفها لتجعله : قال إنه ينبع مع كل النساء غيرها فلمدانة تتعذر هي إلا تضيّط نفسها معه ؟ هي بالطبع تغار منه ومن تجاهه ومن تقوه في الطبع وتتجزّع عن اللحاق به ولهذا تريد إذلاله بهذه الحكاية : لكنه لن يسمح لها بأن تهز ثقته في نفسها أو أن تعطله . إن كان عندها برود فلن تعالج نفسها دون أن تحمله مشاكلها ! أضاف إلى عذاب التوتر إشعارها بالذنب دون أن تهتز فيه شعرة .

يااه ! كل تلك السنين من التفاسة التي عاشتها مع هذا الجنون ! التفتت إلى لبني الصامتة وقالت لها : حدث الطلاق كما يحدث أي طلاق . لم تتفق ولا تذهب لك فيما حدث بالطبع ، بل الثقب تنبينا . تحن أخطأتنا في حبك ، أنا أشعر الآن بالذنب لأنني لم أعرف بحكاية مخاوف طفولتك ولكن أنت تعرفي

فأدارت لبني رأسها مرة أخرى: لا يريد أن أعيش في الكتاب.

قالت صفاء، دون أن تنظر في وجه ابنتها: لا أنت ولا غيرك . لا أحد يريد أن يعيش في الكتاب ولكن ما العمل وحياتنا نفسها كتبة كبيرة ؟

ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت مراة صغيرة وراحت تصلح زينتها التي أفسدتها الدموع، استقررت وقتاً طويلاً لأنها كانت تفتش في رأسها عن كلام آخر تقوله للبنى الغارقة في الصمت ، ولكنها شعرت أن ابنتها قد انسحبت داخل نفسها من جديد ، وأنها قد أصبحت الآن بعيدة عنها تماماً.

ومع ذلك لم تترك صفاء، لبني إلا بعد أن انتزعت منها وعداً بالابتعاد لحد بقية المدرس قبل أن تتكلما مرة أخرى، وعدت أن تتصل بها في اللد بعد أن تفكري جيداً في الموضوع ثم تلتقي بها وتناولها الكلام .

لم تتابع لبني أمها بتركيز، أخذت تهز رأسها وتقول نعم - بالطبع - غداً ، ولكنها كانت تفكير في شيء آخر كانت تقول لنفسها : إذن لا حل سوى الانتحار أو أن أترك سالم، ولكنها كانت تعرف أنها آجنب من أن تفعل هذا أو ذاك .

وخارج الفندق كان الجو بارداً، عرضت الدكتورة صفاء على لبني أن توصلها بسيارتها إلى أي مكان تريده لكنها قالت إنها تحب أن تمشي. سالتها أمها تمشين في هذا الجو؟ فهزت رأسها وقالت صفاء، بابتسامة متكلفة وهي تصعد إلى سيارتها «مجونة مثل أملك ! لا تنسى موعدنا غداً».

هزت لبني رأسها مرة أخرى وتنكريت وهي تلوح لأمها بالتحية : لم أقل لها حتى لماذا أردت حقيقة مقابلتها اليوم ؟

★ ★

سارت لبني على شاطئ النيل في اتجاه جزيرة الروضة لكي تقابل سالم في الموعد. كان الجو بارداً بالفعل فضفت (البلوفر) على جسدها وأسرعت خطواتها.

لكنها توقفت فجأة أمام حاجز الكورنيش الحجري، فكانت وهي تنظر إلى الامواج الرمادية المتواهبة : ومع ذلك فسوف أفقدكِ ثمن أو أبيت فسوف أفقده، رأت في الصباح مرتفضاً فتشامت ولم تكن مخططة.

شحث يديها أيام صدرها وراحت تتقلص بصرها بين السحب البيضاء في السماء وشارع مركب كبير ممتد بالهبوء يتوجه نحو الجنوب. كان الشارع مشدوداً ومتوتراً فليداً (الراكببة) يتسلقون المصاري ويطعون الشارع، راقبتهم وهي تحاول كالعادة أن تمنع الدموع من عينيها وفكرة واحدة تتكرر في رأسها ، كل شيء إذن سينتهي، كل ذلك الفرح القصيري العابر، كل تلك الشهور من الأحلام، كلها ستفسخ .

بدأت تمشي ببطء في اتجاه الكازينيو الذي ستقابل فيه، سترجع إذن إلى الحياة القديمة. سترجع إلى التلتفت للوراء في خوف واحتباس الصوت والهروب في القراءة والرعب من الناس والأشياء . سترجع إلى الوقت الذي يقتل الوقت ويعيشه معه !.

ولتفرض أنها سكت وأن المسألة هرت بسلام فهل سيفوت مرتفضاً الفرصة؟ معجزة؟ لا تدرك! فهل سيفغر لها أنها أخلفت عنه حكاية المقالات والمنشورات والمظاهرات؟ هل سيففهم أنها كذبت عليه لكن لا تفتقده؟ هل سيفصدق؟ هل سيفهم؟

ولتفرض أنها سكت وأن المسألة هرت بسلام فهل سيفوت مرتفضاً الفرصة؟ عرف رغم كل محاولاتها للتخفي أن هناك شيئاً بينها وبين سالم، وبين يتصادف أن يراهما معاً يرمي بها بابتسامة بقبيحة ونظرة كارهة. لديه سبب للحدوث أكثر من (ياجو) على أي حال ! يعتبر أن سالم سرقها منه! تعمدت المجموعة الاشتراك في أي شيء، لا في الاجتماعات ولا في تحرير المقالات لكنه جاها مع ذلك في

قذارة أجسامهم! لكنها لم تفعل. لم تقتل رأيها في أي شيء، بل كانت تشعر بالذنب حين تاتيها هذه الأفكار، وإن لم تستطع التخلص منها أبداً.
 أعم من ذلك أنها كان يجب أن تعرف بان حبها لسالم يشغّل كل حياتها، لكنها لم تفعل. تركت نفسها لعمل لا تستطيع تحمله وأخفت أمره عن سالم. أقنعت نفسها ببيت من الشعر لش الكبير يقول «لا تدخل معركة ولكن إذا دخلت فاشت»، برأفيو؛ ولكن ماذا وهي لا تستطيع أن تثبت حقائق لا تستطيع بدأ رذاذ خفيق في السقوط. فانسربت لبني خطواتها ولكن ساقيها عادتاً ترتجحان أكثر من المعاند.
 سذهب إلى الكازينو لتتجدد أن سالم عرف كل شيء، من مرتفع، سيمتهمها بياتها تخونه. تخفي عنه أفعالها. سيكون قد عرف بحكاية الاستاذ حمام، ليس بعيداً أن تكون قد وصلته بطريقة ما. سيسألها، سيعبر عنها، ستفقده إلى الأبد! الأفضل لا تقابلة، الأفضل أن تموت الآن حالاً، لماذا لا يأتي الموت عندما يقتنه الإنسان؟
 لكنها وجدت نفسها رغم كل شيء في الكازينو، لم تكن ساقها وحدهما ترتعشان بل شفتها وتليها.
 وحين رأها سالم مقابلة عليه وقف وقال متزوجاً: ماذا يك يالبني؟
 فجلست قياله دون أن تنطق بكلمة.
 قال لها: تحبين أن تدخل في الصالة؟ الدنيا برد وشيفتك ررقواون.
 هزت رأسها وتنبّمت: لا ياس.
 لكنها ظلت في مكانها، وكرر سالم في قلق: ماذا حدث؟
 فربدت شاردة: قايلت أمي.
 ثم استجمعت نفسها بجهد خارق وقالت: معك حق، فلندخل إلى الصالة.

الصياغ بابتسامته التي تتفقها وقال لها سنة حلوة يا جميل! إذن ستحتفظ غداً ونفسه، المنشورات؟ ندا ١٥ يناير؟ أليس كذلك؟
 ابتعدت عنه وجاءها الدوار على الفور. خافت منه وكانت خائفة من الأصل. نادا لم تقل لهم الحقيقة وهم يوزعون المهام؟ لماذا لم تقل على الأقل أنا جبانة وأرجوكم أن تغفوني من هذا العمل؟ خافت حتى أن تقول ذلك. جاء غثيان الخوف والعرق البارد لكنها لم تطق، وشعرت بالعار وهي ترى زملائها وزميلاتها يقبلون المطلوب منهم ببساطة وحتى بحماس. كان يجب أن تتسحب، لا في تلك اللحظة وإنما قبلها بكثير، كان يجب أن تعرف نفسها بيان هذه اللعبة ليست لعبتها. ستعرف بهذا سالم، ستكون أصرح مع نفسها. ستقول إنها حتى وهي في قلب اللعبة لم تفتن تماماً بما تفعله، حدتها نفسها بيان هؤلاء، الطلبة الفقراء، بدافعهن بالفعل عن مصالحهم، أما هي فعن أي شيء تدافع؟ الدكتور شوكت مشوك معه كل الأموال ويعطيها كل ما تطلب.

هل أراحت ضميرها عندما امتنعت عن أن يوصلها سائقه بسيارته إلى الجامعة؟ عندما صممت لا تلبس الثياب الغالية مثل الدكتورة صفا؟ أبداً، هي ليست منهم. أكثر من ذلك، تعرف بياتها كانت في وسط اجتماعاتهم تشعر بنفور وتقزز من روانهم؛ أحياناً تبعد خطوات عن يقرب منها ليكلمهها ورائحة فمه وجسمه وثيابه تصيبها بالدوار. تسأل نفسها لماذا لا يستحقون ياربي؟ لا يوجد في مصر أكثر من الماء ولا أرخص منه، لماذا لا يغسلون ملابسهم ليزيلوا رائحة العرق على الأقل؟ كيف لا يشعرون بقدرتهم؟ كيف لا يتقرزون من روانج أحساسهم وهم طلبة جامعة؟ المفترض أن يكون أحد قد علمهم شيئاً عن النظافة وأنهم يفهمون هذه الكلمة، قلماً ياربي كل هذا الاستهانة؟ لو كانت لديها ذرة من الشجاعة لصرخت فيهم أنهم قبل أن يثوروا على السياسة يجب أن يثوروا على

نقررت لبني إلى وجهه المذهب ، تابعت محاولاته لكنه ينتزع الكلمات بصعوبة
لغيرها إحساس جارف أنهاها كل شيء آخر غير أن سالم يتكلم ، وأنه يتكلم من
أجلها فنال شفاعة فيها شيء من الاستسلام :

- وكيف يمكن لي أنا أن أتركك؟ ألم أقل لك أكثر من مرة إنك أحسن شئ
حدث في حياتي؟ ثم إنني لست جميلة ولا ذكية. لست أذكى منه.. أنسنتك
أنت الذي تشرح لي مسائل القانون الصعبة التي لا أفهمها؟ وأنا أحبك لأنك أنت
كما أنت. أحب جدك الذي لم أقابلته وأحب اختك وأيتها عندما تتحدث عنهم لا تك
أنت تبيههما. ولو كنت تعييني فلأت تعيني لأنني أنا كما أنا ..

سرى ويب سام فليلا وهو يذكر شيئاً جدى أيضاً يقول ذلك، عندما حدثه عذ قال لي إن الحب الحقيقي النقاء، روحين والأرواح لا تتناهى في الجمال ولا في النكاء، لأن كل الأرواح جميلة وذكية.

قالت ليلى : لو كان جدك معنا لفيفته لأنه يقول هذا الكلام !
ولكنها ابصمت لنفسها حين طرأ على ذهنها ما يمكن أن يحدث لو سمع
الدكتور شوك أو الدكتورة صفا ، هذا الكلام عن الأزواج . ليس علمياً على
الأطلاق .

وقالت لسالم في دهشة حقيقة: لو نبقى معاً ياسالم هكذا إلى الأبد! فقط هكذا! ولو في هذا المكان، في هذا البرد! عندما جئت قلت لي إن هناك شيئاً يعترضني، نعم، هناك أشياء تخزنني ولكنني معك أنساها، وأرجوكم لا تستڪنوني اليوم عن العزم.

وأكملت لنفسها سيناريو موعدة فدعنا على الأقل نتساءل في هذه اللحظة، ثم حكت حسنه سدها وقالت:

- لكن أنساها إلى الأبد . فلابد أن تتفق معني الأبد : لا تترك لحظة ..

- 178 -

فأمات وتبعها. كانت المسالة الزوجية للكازينو التي يغطونها في الشتاء، أشد
بيرودة من المكان المفتوح. يتصرف إليها هو، بارد من فرجات الزوج. لم يكن
هناك غيرهما في المكان وعدد من الجرسونات في سترات بيضاء، لاحظت أنهن
جميعاً يركزن أنظارهم عليها فقالت لسالم: تشرب الشاي ونمثسي.
ولكنها استرخت قليلاً وهي تشرب الشاي الساخن وسالم ينظر إليها حاملاً.
راحت تتطلع إلى هاتين العيدين الحبيبين وكأنها تريد أن تحفرهما في ذهنها
كأنها لن ترآهما مرة أخرى. وراح هو أيضاً ينظر في وجهها متسللاً ثم قال
بصوت خفيض:

مسوٹ خلیج

- مذاکرہ شیء، پھر علت -

- 48 -

نعم .
سكت مرة أخرى قبل أن يقول في شيء من الحزن: ثم بنت من أجلك بالبني لو
كنت أحسن بما أنا .

ساخته قمی تلقی : هزارا تلخه

قالت ليلى على ياس: أنت تزور أن شركتي.. هل هذا ما تقصده؟
ـ لا.. كييف تلقيون في ذلك؟ أنا أريد فقط أن تعرفي .. ربما تعتقدين أني
الآن أو لاحظت.. لأنك كانت تعييني الحالة التي جعلت أبي يعتقد أني مجنون..
ـ بما تعتقدين أني لا أعرف .. ولكن أنا أعرف الفرق .. أعرف أني لا أستحقك ..

ولكن لو تركتنى .. أهلاً لأنى .. ربما بالفعل ..

عندما دخل العمارة توقف لحظة في المدخل . كان فسيحاً ، من رخام أبيض على جانبيه رسوم فسيفسائية ملونة لغزلان ترعى وسط حشائش . وتحف به من التاجيين أصص نباتات أوراقها خضراء لامعة ، ومن السقف تتدلى ثريات فخمة باهرة الفسق من الكريستال . وفور دخولهما هي واحد من حراس الأمن الجالسين إلى مكتب في الركن بزياتهم الزرقاء ، وحيما لبس في أذن شديد ثم أسرع قبلهما ليفتح باب المصعد وانتبه سالم إلى أن لبني لم ينتظرا نحو الحارس وأنها لم تشكره .

انتبه أيضاً إلى فخامة الشقة عندما واجهته المسالة الواسعة التي توشك أن تكون في مساحة شققهم كلها . بهرء كل شيء ، قطع الأثاث وطريقة ترتيبه والمكتبة الجميلة بخيالها المزخرف فحال وهو ينظر حوله :

- بيك جميل يا لبني .
- شكراً . هو بيت أبي .

أراد أن يسألها وهل هناك فرق؟ ولكنه لزم الصمت . منذ رأها هذا المساء ، وهي شريرة كثيرة ولا يدرو عليها أنها تستمع ما يقوله . بينما كلاماً ويتوقف قبل أن تتكلله ، يمتع وجهها أحياناً وتضحك ضحكات عصبية في أحيان أخرى . وعندما عرضت عليه أن يأتي معها لم تترك له فرصة للتفكير .

قالت : ما دمت ت يريد أن تعرف كيف أعيش مازا لا ثانية وترى بنفسك ؟ سأعرفك على دادة سنينة ولو أسعدها الحظ فسأعرفك على الدكتور شوكت ! هيا !

قامت وجذبته من يده ، وفي الطريق أشارت إلى تاكسي ثم خلال دقائق كانت أمام العمارة الشاهقة التي تطل على نيل الجيزة في النصف الآخر . ضفت على الجرس قبل أن تفتح الباب بفتحتها فاستقبلهما في الودهة

- ولكن أنا أحذرك عن كل شيء ، ولا أعرف عما إلا القليل .

ساخت في توجس وقد عاودها ما تهرب منه : ما الذي ت يريد أن تعرفه ؟

- عندما ساخت قلت إنك قابلت أمك . هل حدث شيء ، عندما قابلتها ؟

تفهنت بشيء من الارتياح وهي تقول : نعم قلت لك من قبل أنت لك جد تحبه وأسرة تحبها وأنا ليس لي أحد أبداً . أرى أمي قليلاً . أما أبي الذي أعيش معه فربما آراه أقل مما أرى أمي . هو طول الوقت في العيادة أو في المستشفى . لولا دادة سنينة لانتحرت !

قال في انزعاج شديد : شترين ! كيف تفكرين في ذلك ؟

ابتسمت بالرغم منها : لا تخف هكذا ! أنا أجبر من أن أنتحر !

سكت لحظة قبل أن يساكيها : هل تعيين والدك ؟

رجعت في كرسيها ورفعت رأسها وهي تقول : لا ! أقصد نعم .. نعم . بالطبع أحبه . هو أبي ، ولكن لست صاحبين .. لماذا بدأت هذه الحكاية من الأصل . ما السبب في كل هذه الأسئلة ؟

- كنت أقول .. كنت أريد .. أردت أن أتعرف عليك . على حياتك وعلى أسرتك .

فقالت دون تفكير : هذا سهل جداً يا سالم !

خادم يليس سترة بيضاء مثل الجرسونات، ساكله قور دخلوها :

- الدكتور هنا ؟

- لا ، الدكتور اتصل وقال إنه لن يأتي العشاء .

وأشار بيده سالم في اتجاه المسالون المختلف في آخر الصالة الشاسعة وهو يقول : تفضل يا أستاذ .

لكن لبني جذبت سالم من يده قائلة : تعال ، أنت تحب النيل فاحتمل البرد !

جلسا في الشرفة العالية على مقعدين مبطئين بمقعدين اسفنجي، وكانت الشمس القارية قد بدت بعض السحب وصيفتها بلون وردي ينعكس على سطح النهر أطيافا ذهبية متقطعة ، تبتهلها الأمواج ثم تطفو على السطح في التألف .

استغرق سالم في متابعة تلك الالتفاءات الرجزاجة في الماء قبل أن تحجب الشمس سحابة كبيرة فتختفي هذه الأطياف ويتحول النهر إلى مجرى رمادي دائم مستطيل يشق كتل المبانى على جانبيه ويجتاز الجسور التي تزجّمها العربات . لم يسبق له أن رأى السيارات من هذا الارتفاع صغيره الحجم وضجّتها تائش من بعيد خافتة كالاصدئ ، لكن النهر المتد أمام بصره كان هو الشئ الوحيد الهدى ، الذى يوحى بالسكون حين يركز نظره عليه .

التفت إلى لبني التي كانت تنتظر منه صامتة إلى النيل وقال : معك حق ، عندما تنظر إلى النيل من بعيد ..

ثم سكت فانكلت هي : يكون النيل وحده هو الجميل ، أليس كذلك ؟

- هذا ما أردت أن أقوله .

طلت تنظر نحو النهر وقالت بصوت خافت : أحب أيضا قصيدة النهر الحالـ ملينة بالصور الجميلة - مسافر زاده الخيال . ، وظمآن والكلنس في يديه .. ولم يزال ينشد الديارا ويسأى الليل والنهاـ ، أحب بالذات البيت الذي يقول بالبيتش موجة فاختكى إلى لياليك ما شجاني وأعندى للرياح جبارا ، أى هروب أجمل من

هذا الهروب ؟ أن تصمّح موجة في النيل وأن تهمس للريح بشكواـ ، لا مشاكل على الإطلاق !

قال وفي صوته نبرة من الآسى : أنا لا أقرأ الشعر مثلك يا لبني ،

ضحكـ ضحكة خافتـ وهي تحول وجهها نحوه : أى قراءة يا سالم ؟ هذه أغنية يذيعها الراديو كل يوم تقريبا . ألم تسمعها أبدا ؟

- سمعتها ولكنها لم تطرأ الآن على بالي ولم أفكـ فيها كما فكرتـ أنت .

أنت فكرتـ هكـذا لأنـ تغرينـ كثيرـا ، ليتنـ استطـيعـ أنـ أصـبحـ مثلـا

قالـتـ منـتظـاهـرـةـ بالـلامـبـالـاـ . نـعـمـ قـبـيلـ أـنـ أـعـرـفـ كـتـ أـقـرـأـ . عـدـىـ وـقـتـ كـثـيرـ لـاـ أـعـرـفـ مـاـ أـفـعـلـ بـهـ ، قـلـتـ لـكـ أـنـتـ عـنـدـكـ أـسـرـةـ تـحـبـهـاـ وـتـشـفـكـ ، أـمـاـ أـنـاـ ، فـلـيـسـ لـيـ

أـحـدـ أـعـطـيـ هـذـهـ أـسـرـةـ يـاـ سـيـدـيـ وـهـذـهـ كـلـ الـفـرـاءـ الـتـيـ قـرـأـهـاـ ؟

ثـمـ أـنـطـرـتـ وـهـيـ تـكـرـ لـنـفـسـهـاـ : لـيـتـنـاـ يـاـ سـالـمـ لـاـ تـحـدـثـ أـنـ بـالـذـاتـ عـمـاـ يـفـرـقـ

يـتـنـاـ : لـيـكـ تـسـاعـدـنـ وـتـكـونـ عـنـ ؟

مـاـلـتـ نـحـوـ فـجـاءـ وـهـيـ فـيـ مـقـعـدـهـاـ وـجـذـبـتـ ذـرـاعـهـ ثـمـ قـبـلـتـ قـبـلـهـ سـرـيـعـةـ فـيـ

جـبـيـهـ وـاـيـتـعـدـ عـنـهـ بـالـسـرـعـةـ نـفـسـهـاـ .

فـلـيـ تـكـ اللـحـلـةـ سـمـعـاـ صـوتـ خـطـوـاتـ بـطـيـئـةـ تـقـرـبـ ، ثـمـ ظـهـرـتـ بـالـبـابـ سـيـدةـ

عـجـوزـ تـسـتـنـدـ إـلـىـ الجـدـارـ وـهـيـ تـقـلـ خـطـوـاتـهاـ بـصـعـوبـةـ . لـمـ يـتـحـقـقـ سـالـمـ مـنـ

مـلـامـحـاـ جـيدـاـ فـيـ عـنـتـةـ الـفـرـوبـ الـتـيـ حـلـتـ . رـأـيـ لـفـطـ أـنـهـ تـبـيـسـ جـلـبـاـيـاـ مـنـ قـعـاشـ

مـشـجـرـ وـتـنـصـعـ عـلـىـ رـأـسـهـ طـرـحـةـ بـيـضاـ ، تـحـيـطـ بـوـجـهـهـ كـهـ .

هـيـتـ لـبـنـىـ مـنـ مـكـانـهـاـ وـقـالـتـ وـفـيـ صـوـتـهـاـ اـتـزـاعـ : دـادـةـ ؟ مـاـذـاـ تـرـكـتـ غـرفـتـ ؟

مـاـذـىـ جـعـلـكـ تـقـومـ وـتـخـرـجـ إـلـىـ هـنـاـ فـيـ هـذـاـ بـرـدـ ؟ مـنـ مـنـ تـقـلـعـنـ ذـكـ؟

احتـفـستـنـهاـ لـبـنـىـ وـهـيـ تـقـسـ ، تـورـ الغـرـفـةـ فـرـأـيـ سـالـمـ وـجـهـهاـ المـتـفـضـنـ بـالـجـمـعـيدـ

مـثـلـ إـسـفـنـجـةـ مـتـكـورـةـ تـقـلـ مـنـ عـيـانـ كـاـبـيـشـانـ . لـمـ يـبـدـ أـنـهـ رـأـيـ سـالـمـ لـاـنـهـ قـالـ

بـصـوتـ ضـعـيفـ : مـتـىـ رـجـعـتـ يـاـ لـبـنـىـ ؟ وـمـاـذـاـ تـاخـرـتـ ؟ فـلـيـ يـاـكـنـىـ عـلـىـ طـولـ

الـهـارـ .

دادة سنية ، تعال ندخل ..

ظل يقف مكانه وسائلها دون أن يحول وجهه تجاهها : مادا قلت لدادة سنية عن؟

فرد ببساطة : كل شيء ، أنا لا أخفي عنها أي شيء ..

فقال وببرة التوتر تتضاعف في صوته : ولكن مادا قلت لها بالضبط ، نحن فقراء ، ولكننا لا نسكن في حارة ؟

قالت في دهشة : وماذا لو كنت تسكن في حارة ؟ ما أهمية ذلك يا سالم ؟ ألم يقول جدك ..

ثم توقفت فجأة وراحت تربت على ذراعه برفق وهي تقول : لا يا سالم ، لم أقل لها عند أي شيء ، غير إنك زميلي وأنتي أحبك وكانت هي سعيدة لأنها تعيني ، واليوم رأيت بنفسك أنها تحبك أنت أيضا .. تعال .. تعال ندخل ..

كانت غرفة المكتب واسعة ودافئة تحف بحوانطها كلها مكتبة من خشب أبيض صفت في رفوفها كتب ومجلدات مختلفة ، ويتصدرها مكتب من الخشب نفسه وكرسي عالي النظير . وفي ركن من الغرفة منضدة صغيرة حولها مقعدان وبالقرب منها كتبة من الجلد الفاتح اللون .

قال سالم وهو يجول وسط المكتب : هذه معظمها كتب علمية وكتب في التاريخ . قلت لي إنك تقرئين روايات ولكن لا أرى أي روايات هنا ..

ـ فقلت ليبي التي كانت تسير وراء متتابعة خطواته : هذه كتب أبي وبعض كتب أمي التي تركتها . مكتبة الصغيرة في غرفتي ..

ـ ثم أضافت وهي تتساءل : ولا تقلق .. كلها روايات ويمكن أن أعيرك منها لو كان عندي وقت للقراءة الروايات ..

ـ فقال بانفعال : نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفين . أريد أن أصبح مثلك . فهزت ليبي رأسها وهي تقول لنفسها : ليبي لا تصبح مثلك !

قالت ليبي وهي تقبليها : مسأ ، الغير يا دادة ، أنا ، أنا جئت منذ قليل وكانت سالمة عليك الآن في غرفتك ..

ـ ثم وأشارت بيدها إلى الشرفة وهي مازالت تحضر مريضتها : هذا زميلي سالم الذي كلمتك عنه . سذاكر الأن معها ..

ـ راحت العجوز تتضخم من بعيد بعينيها الكليتين وهي تسد يدها إلى باب الشرفة قالت : مسأ ، الغير يا ليبي ، بالنجاح إن شاء الله ..

ـ تنهض من مكانه ورد عليها من بعيد بارتياح فقلت وهي لازال تتضخم :

ـ أنت إنسان طيب .. أشرق وجه ليبي حين سمعت هذا وقالت سالم ببرة ظافرة : أرأيت ؟

ـ فقلات المربية بصوت يدا لسالم حزيناً : وانت أيضا طيبة يا ليبي و .. غير أن ليبي قاطعتها وهي تضع يدها حول كتفها وتقدوها ببطء ، مبتعدة عن الشرفة : تكلني هذه .. الشفاعة .. يادادة ؟ الآن ترجع إلى غرفتنا وتأخذ النواة ..

ـ قالت العجوز وهي تبتعد مستندة إلى ليبي ، ولكن مادا تجلسان في الهواء .. سيسبيكما البرد ..

ـ قررت ليبي : لاتقلق أنت يا دادة .. سأقول لعم حسن أن بعد لنا فنجانين من الشاي ، وستشربها في غرفة المكتب وتحنن سذاكر ..

ـ عادت ليبي بعد لفترة فوجدت سالم يقف مستندا إلى سياج الشرفة وهو يتطلع إلى التل . كانت أنوار الشوارع والإعلانات الملونة قد أضيئت وانعكست على صفحة التل . وفقت ليبي إلى جانب سالم وكان إعلان في أعلى عمارة بالضفة المقابلة يتوجه بنور أحمر ينطفىء ، وبيفس ، بانتظام . وكان يلقى على التل أشعة حمراء متوازية ورجراحة . وقالت سالم إنها تكره هذا الإعلان لأنه يعطي للتل لونا كاذبا مثل وجه هرقل السيرير ..

ـ لم يرد سالم .. شعرت به يقف متورتا رغم أنه كان يرتدي ارتجاجة طفيفة . مدت يدها وأمسكت بيده : وقالت يدك باردة بالفعل وستصاب بالبرد كما قال

جلسا متوجهاً بِرِشْفَان الشَّاي الساخن في صمتٍ . كان ينظر لها بعينين
تموج فيها غشاوة رقيقة كالندع ويتصفح وجهه كلاماً ثقيلة عيونهما . وكانت هي
مستغرقة في التفكير . تتحرك في ملمسها يطلق ، يرتعش فتجاذب الشاي في يدها
ويحدث صلة في الطبق كلما رفعته إلى شفتيها أو أعادته إلى مكانه ، ويدأب أنها
سلة تزيد الصمت أن يستمر ، لكن عم حسن العجوز ظهر بالباب . كان يمشي دون
أن ينقل قدميه كأنه يزحف وقال وهو يحمل التليفون بيده والسماعة بيد أخرى
ويجرجر وراءه السلك الطويل :

- مكالمة لك يا نسمة لبني ،

امسكت بالسماعة وراجحت ترد على المتكلم بصوت خافت : نعم .. نعم .. ثم
امتع وجهها فجأة وقامت من مكانها وابتعدت عدة خطوات وهي تقول :

- نعم ، قابلت هذا الكارتة في الصباح وأعرف أنه يعرف ..

ثم ارتفع صوتها فجأة وهي تقول : أنت متسائدة .. بالطبع هو يعرف كل
الأسمااء نعم .. وما العمل الآن ؟ فلأت الوقت ! مع السلامة . نعم ، نعم ،
سأخلص منها ..

كان عم حسن يقف في انتظار أن تنهي المكالمة ولكنها ظلت تمسك السماعة
مطرقة الرأس قبل أن تتناولها له بيده شاردة وهي تقول :

- لا أريد أي مكالمات أخرى .

ساكيها وهو يمسك التليفون ك طفل رضيع : هل أجهز العشاء ، لك وللأستاذ
لو جدت بيدها لا ، أنا لن أتعش . يمكنك أن تتصرف إذا شئت .

قال دون حماس : ولكن يمكن أن أبقى يا نسمة ..
قاطعته بعناد صبر : إفعل ما تشاء يا عم حسن ، ولكن أنا لن أتعش ،
إذن بعد إذنك .

وعندما اتصرف الخادم بخطواته الزاحفة قالت وهي تنظر نحو سالم دون
وعن ما الفائدة ؟

- ما الفائدة من مازا ؟
فلوحـت بيدهـا دون أن تـرـد .
قال سالم وهو ينهض من كرسـيـه : هناك شيء مهم تخفيـته عنـ اللـيلـة .
أنت لست طبيعـيـة مـنـذـ قـاـبـلـكـ وـتـخـفـيـنـ شـيـئـاـ ، أنا قـلـتـ لكـ مـاـ لـأـقـولـهـ لـأـيـ إـسـاـنـ ..
حتـىـ الحـالـةـ الـتـيـ .. حتـىـ الطـيـبـ الـذـيـ .. حتـىـ آتـيـ بـأـنـيـ رـبـاـ ..
أـضـافـ أـضـطـرـابـهـ وـاحـتـقـانـ وـجـهـهـ وـهـوـ يـتـحـرـكـ فـيـ الـغـرـفـةـ بـعـصـبـيـةـ إـلـىـ
خـوفـهـ فـعـادـتـ تـجـلسـ مـكـانـهـ وـيـنـصـعـ بـيـدـهـ أـمـامـ وـجـهـهـ كـلـثـمـاـ تـحـمـيـ نـفـسـهـاـ منـ
خـطـرـ ماـ :

- نـعـمـ ياـ سـالـمـ ، نـعـمـ .. أـنـاـ أـخـفـيـ عـنـكـ شـيـئـاـ لـأـنـ الـغـرـفـةـ فـقـدـ أـخـسـرـكـ ، وـأـنـاـ
لـأـرـدـ أـنـ أـخـسـرـكـ .. لـوـ وـعـدـتـنيـ ..

قال ووجهـهـ بـزـادـ اـحـمـراـراـ : المسـالـةـ مـفـهـومـةـ ، هـنـاكـ رـجـلـ أـخـرـ ؛
وـضـعـتـ وـجـهـهـ بـيـدـهـاـ وـمـالـتـ عـلـىـ الـمـنـسـدـةـ وـهـيـ تـكـلـمـ بـصـوـتـ مـهـدـجـ ؛ أـيـ
رـجـلـ أـخـرـ ؟ أـيـ رـجـلـ وـأـنـاـ قـبـلـ أـنـ أـعـرـفـ كـمـ أـكـثـرـ كـمـ الـرـجـالـ كـلـ الـرـجـالـ ، كـلـهـمـ بلاـ استـنـاءـ .
سـاقـتـوـلـ لـكـ مـاـزاـ وـلـكـ لـيـسـ لـاـنـ .. أـعـدـكـ أـنـتـيـ لـأـرـدـ أـنـ أـدـخـلـكـ فـيـ ..
أـنـتـ بـرـىـ ، جـداـ وـيـجـبـ لـأـشـخـلـ فـيـ .. أـنـاـ ، أـنـاـ خـانـقـةـ ؟

انـصـرـفـ أـنـ يـاـ سـالـمـ مـنـ فـضـلـكـ ، أـرـجـوكـ ، الـلـيـلـةـ لـنـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـسـاعـدـنـيـ .
سـمعـ سـالـمـ صـوـتـ إـلـغـلـاقـ الـيـابـ الـخـارـجـيـ فـانـتـيـهـ فـجـاءـ وـقـالـ :

- أـنـاـ أـيـضاـ سـاـنـصـرـ .

فـالـتـ وهيـ لـاـنـزـالـ مـنـكـتـةـ عـلـىـ وـجـهـهـ وـجـسـدـهـ كـلـهـ يـرـتـجـفـ :

- نـعـمـ يـاـ سـالـمـ قـلـتـ لكـ لـأـفـائـدـةـ ، انـصـرـفـ أـنـ ! حتـىـ هـذـاـ كـذـبـ ؛ لـأـمـدـ
يـحـمـيـ أـحـدـاـ مـنـ خـوفـهـ .

لـكـ سـالـمـ تـلـكـاـ قـيـ مـكـانـهـ . ظـلـ وـاقـفـاـ يـتـطـلـعـ إـلـىـ الـجـسـدـ المـقـوسـ المرـتـجـفـ
يـسـعـ كـلـامـهـ . يـدورـ رـاسـهـ وـيـكـادـ يـترـجـعـ وـهـوـ يـتـقـدـمـ تـحـوـهـاـ .
يـضـعـ بـيـدـهـ الـكـبـيرـتـيـنـ عـلـىـ كـتـفـيـهـاـ الـمـرـتـدـتـيـنـ وـيـسـدـهـاـ بـيـانـاهـ بـرـفقـ كـنـ

كانت تجلس وحيدة على الأرض في المكان نفسه، تحد ساقيها وتسند ظهرها
ومرفقها إلى الكتيبة الجلدية. لا يريد أن تذكر في شيء، تتمى فقط ما تمنته منذ
البدء، أن تمام، أن يستحبيل الهسود الذي حل بها إلى نوم طوويل تنسى فيه كل
شيء، لكنها فجأة خبطت جبينها بيدها وهمست لنفسها وهي تعدل في جلسها:
ـ ياربي! كل هذه الفسحة عن الحب تنتهي هذه النهاية؟

كل أفراح الأسابيع والشهر لم تكون سوى أكاذيب؟ كل حياتنا كذب كما قالت
الدكتورة صفاء؟ أوهام نصنعها بأنفسنا لأنفسنا وفي النهاية لا فرق بين سالم
والحب والاستanza حمام والاغتصاب؟

لا أمل إذن أبداً في أن يتخرج الجسم من حصار جلد؟ لا أمل في الحب
ال حقيقي ولا في تلك المرات الموعودة التي كتب بها عليها الشعرا و الموسيقي؟
لا وجود ل تلك المرات؟

موجودة ولكن لا يمكن الحصول عليها؟
بعض يصلون إليها ولهم تستمر الحياة؟
كيف يمكن أن تعرف؟

فهت بأن تقوم من مكانها وهي تسند يدها إلى الكتيبة الجلدية لكنها شعرت
بتعب شديد ونقل في أطرافها فخلقت جالسة كما هي، كان رأسها محموماً ولكن
جسمها ظل خائراً، راحت تهز رأسها وهي تقول لنفسها نعم، لا فرق بين سالم
وحمام.

ها هي مرة أخرى لا تعرف إن كانت هي التي قادته أم هو الذي قادها، هل
يخونها حتى جسدها؟ ولكن النتيجة هي نفسها: تحور وجهه وتشوه وهو يعدل

يساعد طفلها على النوم . ولم يكن يدرك تماماً ما الذي يفعله ولا ما الذي يريده .
لكن ليس كفت عن ارتعادها بعد فترة ورقت رأسها فاسفتها إلى ذراعها
الموضوعة على المنضدة ونظرت له بعينيها المحتقنتين وقالت في نفس لا يكاد ي بين
كانتا لتلمسها، كأنها تحاول أن تفهم : وكل هذا لأنني قابلتك أنت ..

فانسكت ذراعيها برفق وساعدتها على أن تنهض وتتفق على قدميها واحتضنها
إليه واستمر يمسك برفق على كتفيها وذراعيها وهي مستسلمة له كأنها هو الذي
يرفعها بيديه القويتين من أن تسقط في الأرض ووضع رأسها في صدره وهي
هامدة تماماً . وظلا واقفين في سكون كامل وهو يضمها إليه فتمتنعت وهي ملائكة
العينين تستمع إلى نبض قلبها المنظم : لو ياتي النوم هكذا ! لو ياتي النوم هكذا !
ونسبان !

ولكنها أحست وهي في حضته بصدره يعلو ويحيط وهو يتنفس بصعوبة
وباصابعه التي تتحسسها برفق متزداد سرعة وهي تهبط من كتفيها إلى ذراعيها
ووجدت نفسها تقبل صدره قبلات صغيرة متقطعة وهي تقول بهمس معترض: أريد
أن أنسك . وكانت تضع يدها تحت البلوفر السميكة الذي يلبسها وتحل أزرار
قميصه بيد أخرى مرتبكة وتنسلل للنفس صدره بانصابعها الرعنوية وتتجذب برفق
شعيرات ناعمة وجدتها هناك ثم تزيح البلوفر والقميص كثلة واحدة إلى أعلى
وتقوس بوجهها كله في صدره وهي تستنشق بمحق رائحة جسمه وتصدر
ممسميات متقطعة وسط أنفاسها اللاحقة: نعم هذا هو أنت ! هذا سالم .. هذا
جسمه وهذه رائحته .

وكان هو يتنفس بصوت مسموع كآهات متقطعة بينما يدفع بيديه الكبارتين من
كتفي يلوزتها الذين تمزقاً وصدرها يرتجف في صدره وكان يقول بصوت
متلحرج وهو ينزلقان معاً فوق السجادة: هذا لا يجب .. لا يجب ..
ولكن كل شيء كان يقول غير ذلك.

المبيت . ظلت في مكانها على الأرض منكشة على نفسها وهو يعدل عليها بوجهه الذي فقد كل جماله فجأة وهو يهدى بعيارات لم تفهمها على الفور إلى أن فهمت أنه يشنمنها ويشتم أنها وأمها ودادة سنية وعم حسن بعيارات فاحشة . ويقول كلاماً غريباً آخر عن أبيه وعن أخيه لم تفهمه أيضاً وقد أصابها الخرس والشلل . كان ينظر نحوها بكراسية وتقرّز وهي تنظر إليه ضارعة لا تجرس حتى أن تطلب منه أن يشنمنها بعيارات خافت . ومع ذلك كانت تقطّع لحظات في قلب ذلك الظاهر يحتاجها فيها إشفاق غريب عليه . تود لو تقول سالم هذا ليس أنت ! هذا ليس صحيحاً ! هو كابوس ستفيق منه لتتجدد مرة أخرى إلى جوارها تحتمي به من خوفها ويعيمها من نفسها . ولكنها لم تستطع أن تخرج صوتها أو أن ترفع إصبعها إلى أن تعب من نقاء نفسه وخرج كنه يترنح .

هذه حالة هي لا تستطيع أن تفند نفسها من حالاتها !
من يمكن أن يشرح لها ما يحدث ؟ من يمكن أن يساعدها ؟

نهضت بعصوية وبذات تنحرج بيته . ووقفت لحظة أمام مراة جانبية فوجدت شعرها مهوشأً وثابتها مهوشة وممزقة الأكمام . ورأت وجهها شاحباً ومتقدعاً . حاولت أن ترتب نفسها قليلاً . بدأ تزور يلوزتها ثم عدلت عن ذلك وسارت نحو الباب ببطء . قطعت المصالة وانحرفت إلى اليسار وهي تنسى في طريقها كل الأنوار في البيت وطرقت الباب وهي تقول في همس :
- دادة سنية ، أنت صاحبة ؟

فجأها الصوت المتعـب : ادخلـي يا ليـثـي . أنا أـنتـظرـكـ.

توجهت نحو العجوز الجالسة على فراشها وهي تستند إلى وسادة وجلست إلى جوارها وهي تقول : دادة ، أريد أن أحكي لك ..

لمدت المربية يدها المتغضنة تبحث عن يدها وقالت :

شـبابـ ويفـقـدـ فـوقـهاـ . ولـكـ هـنـاكـ فـرقـ معـ ذـكـ . حـمامـ كـانـ مـذـعـورـاـ . استـطـاعـتـ أنـ تـشـمـنـهـ وـأـنـ تـفـسـرـهـ . أـمـاـ سـالـمـ فـشـرـكـهـ يـشـتـمـنـهـ دونـ أـيـ ردـ . مـنـ أـيـنـ مـكـنـ أـنـ يـائـسـ بـكـلـ هـذـهـ الشـتـامـ ؟ أـيـنـ كـانـ يـخـتنـنـ كـلـ هـذـهـ الـبـذـاتـ التيـ لمـ تـحـلـ حتـىـ بـأـنـ يـمـكـنـ أـنـ يـعـرـفـهاـ ؟

تـهـنـهـتـ وهيـ تـفـكـرـ : لـمـ يـكـنـ يـنـقـصـ شـيـ ليـكـونـ مـثـلـ حـمـامـ سـوـيـ أـنـ يـسـأـلـهاـ وـهـوـ يـقـفـ لـفـقـهـاـ : مـاـذـاـ لـمـ تـقـولـيـ إـنـكـ لـسـتـ يـتـنـاـ؟ـ غـرـبـ أـنـهـ لـمـ يـذـكـرـ ذـكـ . هلـ اـكـثـرـ إـذـنـ بـالـشـتـامـ لـيـعـبـرـ عـنـ رـأـيـ؟ـ

وـهـلـ تـكـونـ هـذـهـ هـيـ (ـالـحـالـةـ)ـ التـيـ حدـثـهـاـ عـنـهـاـ ؟ـ الـجـنـونـ الـذـيـ يـائـيـهـ وـيـخـافـهـ ؟ـ وـمـاـ الـفـرقـ ؟ـ ظـلـتـعـرـفـ .ـ كـانـ هـنـاكـ شـيـ يـخـتـلـفـ .ـ معـ حـمـامـ لـمـ يـكـنـ شـيـ غـيرـ الـظـعـرـ وـالـشـمـزـاـزـ وـالـأـلـمـ .ـ هـنـاـ حلـ عـلـيـهـاـ فـيـ الـبـدـءـ سـلـامـ وـسـكـنـةـ لـمـ تـعـرـفـهـماـ فـيـ عـرـشـهـاـ وـهـيـ فـيـ حـضـرـهـ تـحـلـمـ لـوـ يـسـتـمـرـ هـذـاـ الـهـدـوـ إـلـيـ الـأـبـدـ .ـ كـانـ الـحـبـ أـخـرـ مـاـ تـفـكـرـ فـيـ .ـ ذـهـنـهـ كـانـ مـشـوـشـاـ بـعـدـ مـكـالـمـةـ دـعـاءـ .ـ مـشـغـلـاـ بـالـشـاـكـلـ الـتـيـ يـجـبـ أـنـ تـحلـهـاـ وـالـأـشـيـاءـ الـتـيـ لـاـيدـ أـنـ تـخـلـصـ مـنـهـاـ .ـ وـلـكـ كـلـ شـيـ أـنـجـحـ مـنـ رـأـسـهـ فـجـاءـ وـلـمـ يـقـيـدـ أـنـهـ هـنـاكـ مـعـ سـالـمـ .ـ بـدـاـ جـسـدـهـ يـتـصـرـفـ وـحـدـهـ .ـ بـدـاـ تـلـسـسـهـ وـشـفـاتـهـ تـقـبـلـ وـهـيـ تـلـتصـقـ بـهـ أـكـثـرـ فـاكـثـرـ كـانـهـ تـرـيدـ أـنـ تـصـبـحـ إـيـاهـ جـسـدـهـ وـاحـدـاـ .ـ ثـمـ بـدـاـ تـوـنـ فـاـصـلـ تـحـلـقـ مـعـ فـيـ نـشـوـةـ أـخـتـهـاـ بـعـدـاـ عنـ الـأـرـضـ وـهـيـ تـرـىـ مـفـضـةـ الـعـيـنـينـ نـجـومـاـ لـمـ تـرـ مـثـلـ بـرـيقـهـاـ .ـ وـأـنـوارـاـ لـمـ تـحـلـ بـمـثـلـ جـمـالـهـ وـجـسـدـهـ يـتـنـبـلـ فـيـ ذـكـ الـفـضـاءـ الـتـورـ إـلـيـ أـنـ أـنـلـفـتـ أـفـهـ المـفـرـجـ وـهـيـ تـرـفـعـ تـرـاعـهـاـ وـيـدـهـاـ وـتـقـبـضـ أـخـيـراـ .ـ أـخـيـراـ ،ـ عـلـىـ تـلـكـ النـجـومـ الـمـسـحـيـلـةـ وـتـوـرـ مـعـهـاـ فـيـ عـاصـفـةـ دـوـامـهـاـ الـأـبـدـيـةـ .ـ

وـفـيـ الـحـلـةـ الـتـيـ تـقـبـلـ فـيـهـاـ كـلـ ذـكـ الـفـرـجـ وـهـيـ تـحـلـ عـالـيـاـ وـيـعـدـاـ أـهـوـيـ سـالـمـ عـلـىـ رـأـسـهـ بـمـطـرـقـةـ تـعـيـدـهـاـ إـلـيـ الـأـرـضـ .ـ إـلـيـ يـاطـنـ الـأـرـضـ .ـ إـلـيـ الـظـعـرـ - ١٢٨ -

- لا تحكى شيئاً يا ليني ..

مالت على صدر مربيتها فراحت تربت على شعرها وهي تقول:

- لا تحكى شيئاً يا بنت صفاء ، أنا أعرف هي كانت تدور .

وكان النعاس يتسلى إلى عيني ليني وربيتها تهددها .

وقالت دادة سفينة لنفسها قلبى حدثنى منذ الصباح . لم يكتب على أحداً
أصحو منقبضة فانعرف أن شيئاً سيمحدث لصفاء أو لا ينتها . أقول ليت ظنني يخيب
فلا يخيب ، ياحسرتى ! وهما تصيدين من الدنيا ، لو كانت واحدة منها بنت بطني
لما أحبيبها أكثر مما أحببها ، حككت يارب ! صفاء ، كانت كالقلة المفضة العينين
حتى تزوجت . دكتورة قد الدنيا ولا تعرف شيئاً عن هذه الدنيا أكثر ما تعرفه
مللة ، كانت أضحك على عيدها وهي تائى لتبكى في حضنها لأن واحدة صاحبها
خاصمتها أو لأن واحدة في كتاب تقرؤه ماتت . أضحك في سرى على عيدها
وأقول لها (معلهش) ياصفاء ! ولا أتركتها حتى تهدا . ولكن شوكت عنديها . وعندما
كانت شائى لتبكى أو تشكوك لم أكن أعرف ماذا أقول ! مانا كان يمكن أن أقول ! لو
كان شوكت يكلمنى مثل صفاء لتصحته . ولكن لم يكن ينظر حتى قى وجهى . هو
حتى الآن لا ينظر فى وجهى ولا يكلمنى ، لولا ليني لتركت له البيت من زمان .
تزوجت صفاء من سيدة ، ورضى رينا عنها . ولكن هل سيفغر لها رينا ما فعلته ؟
يارب ! هذه الأميرة بنت الناس ! لماذا يقع أولاد الناس على أولاد الحرلام ؟ لماذا
وقدت صفاء في شوكت ووقيعت ليني في المدرس ؟ ليني أخيب حتى من أمها ولها
ياكلنى قلبها عليها أكثر أنا لا أخالف الآن على صفاء ، ولكن أخاف على ليني . هنا
التلمية الذى تحبه ابن حرام ثان ؟ يارب ! تجها يارب !
كانت ليني قد نامت فراحت العجوز تعدل وضعها فى الفراش بجهد شديد . لم
تشأ أن توقفها لتعود إلى غرفتها قالت لنفسها اللوم رحمة .

★★★

لابذكر سالم كيف رجع إلى البيت.

لابذكر إن كان قد ركب أو مشى لا يذكر أى شى يسبق وجوبه فى صالة
البيت وجده يقول فى شى من الفزع .

- مازا حدث يا ولدى؟ وجهك كالبنية البيضاء ! هل حدث شى ؟ شكلك ..
ظل سالم والقنا ينظرون إلى جده فى صمت وتكلم مجدها : حدث شى ، أريد أن
أتكلم معك يا جدي حدث شى ، أنا لا أذكر ، لا أعرف ، ولكن ربما ، يا جدي تكون
قد رجعت الحالة .. أنا .. مستathom أولاً ثم نتكلم ، يجب أن تساعدنى ، يجب أن
نتكلم ..

قال الياشكانت متوجهـاً : كنت مع لينى

- نعم .. نعم كنت معها ، ولكن أين كنت بعدها ؟ أنا خائف .. يجب أن نتكلم .
قام الجد من مقعده فى بطيء وطال بيده ، وهو يحيى رأسه :
- أنت متعب الان .. وأنا كذلك .. سأدخل لأنام ..
- ولكن يجب ..

فتاز جده فى حسم وهو يتجه إلى غرفته : فى الصباح يا سالم .. حاول الان
أن تنام ..

ولكن بعد الحمام ، بعد أن دعك سالم جسمه تحت الماء ، حتى كاد يدميه ، كان
يرقد فى فراشه وعيناه مفتوختان وهو يتسائل : مازا حدث ؟
كانا يساعنان ، يذكر هذا جيداً ، يذكرة تماماً يرى نفسه يقبل وجهها
وشفتيها ورقبتها وكل قبلة تبعث فى جسده رجلة لم يعرفها من قبل ، ولا حتى حين
كان يقبلها خلسة فى الكازينو أو وهما يسيران فى طريق مظلم . كانت نشوة ترج
جسمده كله ، ولكن أيضاً ترجف وهي تقبل صدره وتتنفس بصوت مسموع وتترنـع
يده بعنف لتقبل راحته بلطفة وعصر كما لو كانت ترثىـت منها ثم تمسـح بها وجهها

لا لن تصدق شيئاً مما يقول ، هل يأخذنا إلى الطبيب الذي كان يعالجه ؟
 يطلعها على حجاب جدها؟ يستشهد بفورية وبأبيه ؟ وماذا ستقول لو صدقت ؟
 ستقول أنا وقعت في مجنون حقيقي ويجب أن أهرب منه ، لا فائدة خسرها
 وانتهي الأمر .

ولماذا قالت في أول الليل سأخسرك ؟ لماذا لم تقل ستخسرني ؟ الا تعرف أنه
 لن يحتمل أن يخسرها ؟ هذا بالفعل هو الشي الأسوأ من الجنون ومن الموت نفسه
 هو يعرف بالطبع أن ما فعله معها خطيئة عظيمة ولكن سيفكر عنها على الفور .
 سيقول لجده وسيوافق على أن يزوجها له ، سيعترض لايها وسيقبل اي عطاء
 ينزله به وبينما .

سمع سالم لحظتها صوت الجرس ، ثم سمع بعده صوت المفتاح وفتح الباب
 وجاء صوت أبيه وهو يقول في ردهمة : لماذا الشقة كلها مطلية ؟

ثم نادى : يا سالم ! وخفت صوته وهو يتسائل : هل نام الجميع ؟
 قام سالم وأخذ يخلع ثيابه مرة أخرى دون أن يحدث صوتاً ثم وقف في فراشه .
 أخذت الأسلطة التي تتدافع في رأسه مكانها الخوا ، كامل وكانت كلمة واحدة تذكر
 في ذهنه سأخسرها ... سأخسرها .. ثم جاءت صخرا ، واسعة بامتداد البصر
 وكان ظمان ورای يتلفت حوله في ذعر وهو يبحث عن شيء ما يعرف أنه شاع منه
 فجاجة ، غرالة تعدد وظهوره وفدت إلى جانبه وراح تتصفح به وتكلم بصوت يعرفه
 ولا يستطيع أن يحدد وقالت لو فككت سحرى سأخطبك ما تبحث عنه ، فقال أنا
 أخاف من الساحرة التي ربنتي في الصحراء ، وأخذت البيت من جدي وسحررت
 فورية . ثم أخذ يجري والغرالة تعدد خلفه وهو ي يريد أن يهرب منها ولكنه يقع على
 الأرض فتفتك الغرالة فرقه ودموع تزل من عينيها الواسعتين مثل مطر غزير ثم
 ترفع ساقها وفيسهل من هلقها ما ، غير وجهه ولكن خاف أن يشرب من هذا الماء

الذى لم يره أحدا مثل هذا الأحمرار من قبل ، ويفكر كيف هيقطا معا على السجاد
 وهما يتمنيان بكلمات غير مسموعة ويفكر كيف كانت هناك يد جباره تطوح به
 بعيدا في الفضاء ، وتدور به وتغوص به في باطن الأرض في اللحظة ذاتها ، ويفكر
 الصبيحة التي أفلتت منه وكيف وضعت لبني يدها على قده لتكلمتها ، كل ذلك يذكره
 ولكن ماذا بعد ؟

يدرك أنك كان سعيدا جدا ، ثم ماذا ؟
 كيف تركها وكيف خرج من الشقة ؟ أجهد ذهنه للمل يكن هناك سوى ظلام
 كامل ، هل طلبت منه مرة ثانية أن يخرج كما طلبت من قبل ؟ هل خرج من تلقائه ،
 نفسه ؟ هل قبلته وأوصلته بنفسها حتى الباب ؟ هل نزل السلم على قدميه أم ركب
 المصعد ؟ عاد مشيا على قدميه أو ركب الأنبوبيس ؟ كل تلك اللحظات ثلاثة من
 ذهنه تماما ، انتهت ، فيما معنى ذلك يا سالم ؟
 لا تحاول أن تهرب . ليس له سوى معنى واحد . رجعت الحالة . لماذا فعلت
 أشياءها وماذا قلت ؟
 جلس على الفراش ومسدغه يتبخر . ولكن الحالة انتهت من زمن ، منذ سنين
 لم أخطئ معها ولا أخطئ في البيت مرة واحدة ، أراقب كلasm جيدا وأراقب ما
 أفعله ، ألزم الصمت عند ما أخاف أن أخطئ في الكلام ولكن ماذا إن لو
 كانت الحالة التي جلعتهم يعتبرونى مجنونا قد رجعت ؟ هل شفعت لبني ؟ هل
 ضربتها ؟

نزل من سريره وبدأ يردد شبابه بسرعة سيفكليها في التليفون لأبدا لا بد
 ولكن ماذا سيقول لها ؟ هل سيقول من لفظك أنا مجنون ذكرني ما الذي
 حدث بيننا ؟ وهل ستصدقه لو كان بالفعل قد أساء إليها ؟
 عاد يجلس على فراشه بعد أن ارتدى القميص والبنطلون .

كان يعرف أنها لن تذهب إلى الجامعة في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، فطلبها في التليفون من كشك للمسجاني قرب البيت. ويجدر رفع السماعة قال في لهفة: لبني؟ فرد الصوت: لا أنا، الشغالة، المست لبني.. ثم ترددت وسكت.

قال بشيء من الارتياح يمكن أن أكملها؟ أنا سالم.. أنا زميلها.. فكررت الشغالة يترددتها نفسه: المست لبني.. (ثم سمع صوتا بجوارها يقول شيئا لم يتبيّنه)، أكملت الشغالة بعده في حسم: غير موجودة، ثم وضعت السماعة.

لم ينجح سالم في دخول الجامعة عندما وصلها. رأى مظاهرات وهنافلات في داخلها ورأى البوليس يحاصر الطلبة المتظاهرين داخل الجامعة ويمنع الموجورين خارجها من الدخول. فوجئ سالم بما يحدث لكن فكره كان في مكان آخر.. وقف أمام حديقة (الأورمان) قبالة الجامعة ينتظر.. قال لنفسه لا يمكن أن تكون لبني داخل الجامعة. ستصحل بعد قليل وساكنون هنا وسأشرح لها كل شيء.. كان الطلبة المحتجزون بالقرب منه يتناقشون مع الجنود والضباط بصوت عال ويتشاجرُون معهم وهم يتدافعون ليعبروا الحصار ويدخلوا الجامعة.. وكان الضباط الذين يلبسون نظارات شمس سوداء يكتفون بكلمة واحدة «ممنوع» دون أن يتلفتوا بوجههم للطلبة وراح الجنود المترافقون يدفعون الطلبة والطالبات بعصيهم إلى الخلف.

ظل سالم بعيدا عنهم وهو يتطلع في كل اتجاه بحثا عن لبني لم يجدوها وسط هؤلاء المتدافعين لعبور الحصار. وبينما كان واقفا يقترب ببصره بين القادمين من

أو هذه الدموع لتألق فمه وسده بيده ثم قام وأخذ يجري من جديد والغزاله وراءه وبسب حريق في مكان ما وكانت السنة كبيرة جداً من الهيب تقترب منه فتسارع في عدوه وصار في جبل في أعلى خصبة ورأى الغزاله فرسا بيضاء لم يخف منها فراح يمسح شعر رقبتها ويفعلها وراح الفرس تقبله أيضاً وقالت يا سلام إن صعدت الجبل يمكن أن تقل السحر للحال ولكنني عطشان... وكانت شفتها حادة ولسانه في فيه كلطعة من الخشب عندما صحا وهو يلهث نظام وشرب ، لكن أشباحه لم تفارقه طوال الليل.

★★★

في الصباح لم يذكر سالم جده بالليلة الفائته ولم يطلب منه أن يتكلما كما ألح عليه بالليل..

نظر جده إلى وجهه المكتوب وعينيه الخايتين بعد ليلة الارق وعندما رأه يرتدى ثيابه كاملة سأله:

- عنذر محاضرات اليوم في الصباح؟ فقال نعم.
سأله مرة أخرى بلهجة عابرة دون أن ينظر في وجهه : العجب الذي أعطيته لك يا سالم .. أما زال معلم؟

- نعم يا جدي..
- أين هو؟
- في جيبي في المحفظة باستمرار.

فقال جده بلهجة حزينة: قلت لك يا سالم أن يكون دائمًا في رقبتك وأن يلمس قلبك قلم تنسم؟

فرد سالم شاردا : حاضرا يا جدي

★★★

ناجية تمثال النهضة اقتربت منه فتاة سمراء، كثيراً ما رأها مع لبني وحيثه ببرقة

من رأسها ثم وقفت إلى جواره وقالت في همس:

- أنا دعاء .. صديقة لبني ..

قال ياربيك: أهلاً .. هل تعرفي أين هي؟ هي ليست في البيت ...

- أعرف .. (ثم أكملت في همس وهي تلتف حولها) قبضوا عليها في المجر مثل الآخرين ..

ظل سالم واقفاً يتطلع إليها دون فهم كأنه لم يسمع شيئاً فقلات وهي تحول وجهها عنه:

- أعرف أنك لا تعرف أي شئ .. كانت لبني حرية على الاعتراف .. تخاف منك أكثر مما تخاف من البوليس ..

- تخاف من البوليس ومني أنا؟ من كانت تخاف؟ أنا؟
فريدت دعاء وهي تحني رأسها نحو الأرض .. كانت تخاف أن تعرف عملها في السياسة .. قالت لي لو عرف سالم فسأخسره .. لم أفهم أبداً مع ذلك لماذا كانت تخاف إلى هذا الحد .. هل أنت ضد الناصريين؟ .. كانت واثقة تماماً أنها ستختبر لو عرفت .. (ثم تطلعت إليه وهي تبتسم) شكلك إقطاعي على كل حال ..
- أنا .. أنا ضد من؟ ثم احتبس الكلمات في حلقه ووقف ينتظر إلى دعاء عاجزاً عن النطق ..

- سيسيرها مع ذلك أن المظاهر نجحت (ولوحت بيدها) يعني؟
أخيراً وجد سالم صوته فقال لداعاً، يهمن شديد الخفوت: ولكن لماذا؟ لماذا
قبضوا على لبني؟

أجابه وهي صوتها غضب: مرتكب الكب أبلغ عن الجميع .. ولكن من المؤكد أنهم سيفرجون عنها .. لا يوجد أي دليل ضدها .. أنا حضرتها في الوقت المناسب
لقلات إنها ستخالص من .. من الدليل ..

- وفي أي سجن هي؟

- وماذا يفديك أن تعرف؟ إن تزورها .. لست زوجها ولا قريبها.

لم يفهم سالم ما قاله .. ظل مطوفاً وهو يقف في مكانه مشلولاً القدمين وقد غابت كل الأصوات من حوله وبداً طنين غريب في أذنيه .. وحين رفع رأسه أخيراً لم يجد دعاء إلى جانبها، بدأ يجري هنا وهناك بحثاً عنها وسط تجمعات الطلبة، لكنه لم يستطع أن يعثر عليها.

واصل الجري بعيداً عن الجامعة وكان يكلم نفسه: يجب أن أسألاها يجب أن أراها .. يجب أن أعرف لماذا قبضوا عليها .. يجب أن أفهم ما حدث ليلة أمس .. لماذا كانت تخفي عنِّي .. وما الذي أخفته عنِّي .. وما معنى أنت ضد الناصريين؟ وما هو الدليل الذي تكلمت عنه دعاء؟ دليل على مَاذا؟ ما الذي تفعله بالضبط وما الذي كانت تريده مني؟

وجد سالم نفسه في عيادة الدكتور شوك الذي استقبله في غضب وكان سالم يجد مرة أخرى صعوبة في الكلام .. كان الدكتور شوك أشقر، شعره ناعم ومرجل، أخذت منه لبني لون العينين العسليتين الفاتحتين والأنف المستقيم .. وكان يتكلّم ببرخاؤه رغم غضبه .. بصوت يكاد يخرج من أنفه .. وفي وجهه الإلبيس الناعم البشرة تعبر عن الاستعلاء، نفر منه سالم أكثر من نظره من غضبه وهو يتكلّم بغيره الرخوة ..

- ما معنى زميلها؟ .. ومادمت زميلها وأنت بهذه الطول والعرض فلماذا لم تطبع أنت المنشورات وتوزعها بدلاً من أن ترك بنتاً تحفظ بمنشورات؟

- منشورات؟ أي منشورات؟ أنا لا أعرف أي .. أنا ..

- أنت مَاذا؟ من أدخل في عقولكم لعب العيال الذي تعلمونه الان؟ كنتم ت يريدون العرب والحمد لله حارينا وانتصرنا .. البلد بالكاد تشم نفسها وأنت تريدين أن ترجع إلى أيام الخراب ...

ولكن سالم كان قد استدار وخرج من القرفة بخطوات الواسعة وهو مستمر في التلوّي بجانب أذنه ووقف الدكتور شوكت خلف مكتبه ينظر في اتجاه الباب فكر أن يخرج وراءه ويطلب منه العودة ليحدثه عما بينه وبين لبني ، لكنه لم يتحرك من مكانه . وبعد فترة استدعى المعرضة وطلب لا يدخل عليه أحد.

جلس وهو يفكّر: إذن فهو أيضا لها قصة؟ لا تكفي حكاية السجن ولكن هناك غرام أيضا؟ لا يمكن الغرام ولكن هناك سجن؟ كان يجب أن يتوقع كل شيء من بنت صفتاء فاجأته حين عرف أنها تهتم بالسياسة. كانت تبدو قاتعة بالدراسة والتفوق وقراءة كتب الأدب الفارغة مثل أمها. لم يلاحظ أبدا أنها تهتم بشيء آخر، لم تتكلم أمامه عن السياسة لكنه يشرح لها ما يجعلها تفهم شيئاً فليلاً . وتحن أيضا لل أيام السوداء؟ تحب الرجل الذي لم يكره في حياته أحداً كما كرهه؟ وتدخل من أجله السجن رغم تحذيراته لها؟ صباح الغبار يا عم فرويد؟ هي تتحداه لا أكثر . تتردد عليه . سيعرف كيف يعيد إليها عقلها . ولكن لماذا لا تتردد أيضا على أمها؟ لماذا لا تذكرها وهي التي تستحق بفضها . على العموم لحسنحظ أنه هنا . عندما كلم صديقه الكبير في الداخلية بعد أن جاؤوا إلى البيت وقيضوا عليهما في الفجر قال له لا يهتم . قال إنه مجرد «قرصان» إذن وإنهم سيفرجون عنها خلال أيام . ولكن أي سذاجة وفجأة ، يلقيان تماماً بأفكارها السياسية! تحفظ بالنشرورات في غرفة النوم! لو كان يمثل هذا الغباء أيام عمله في السياسة لظل في السجن حتى الآن! نعم، من حسن حظ لبني أنه هنا وأنه يستطيع أن يكلم أحداً في الداخلية وأن يطمئن عليها. عندما قبضوا عليه في أول أيام ثورتهم لم يستطع أحد أن يعرف حتى مكانه . والآن فإن الآنسة لبني تشن إلى هذه الغرفة! تحن إلى الزعيم الخالد الذي لا يأتينا من ورائه إلا السجن حباً ومينا! خالد فعلا!

- يادكتور أنا لا أفهمك ... أنا لا علاقة لي بهذا كله ، أنا لست زميلها في السياسة ولا أعرف أى شيء في السياسة...
ظل الدكتور شوكت صامتاً لفترة وهو ينظر نحو وجهه المحتقن . ثم قال:
- إذن من تكون؟
- أنا زميلها في الكلية.

- وماذا تزيد الأن؟ لماذا جئت إلى هنا؟
تردد سالم لحظة ثم قال باندفاع:
- أريد أن أراها ، أريد أن أتعذر لها عن شيء حدث بالأمس ...
ظل الدكتور شوكت ينظر نحوه في دهشة ويفارق صير قبل أن يقول:
- تزبد أن تتعذر لها الآن وهي في السجن عن شيء حدث بالأمس؟ هل هذا
كلام عاقل؟ إذهب إلى مأمور السجن وأطلب مقابلتها لتعذر ؟ لماذا جئت لي أنا؟
- لأنني أحبها!

افتلت منه العبارة فانتبه الدكتور شوكت ، كان قد قرر أن يطرده ولكنه بدأ ينظر نحوه بتركيز شديد متمنياً أن يكمل كلامه ... ولما وجده ساكتاً ومطرقاً قال:
- ما شاء الله ! وهل جئت الآن لتخطبها؟

لم يتكلم سالم ووقف أمام الدكتور ينقل كتاباً يحملها من يد إلى أخرى وقد بدأ عرق ينتصد من جبينه وراح ينظر حوله دون تركيز ثم بدأ يلوح بيده بجوار آذنه كما لو كان يهينه ذباباً . فقال الدكتور شوكت بنبرة أهداً ليشجعه على الكلام:

- ولبني .. هل هي تحبك؟
- هي تحب دادة سنينة؟
ضحك الدكتور شوكت شححة عصبية بالرغم منه:
- إذن فاتت تعرفها حقاً! انتظر .. أنت .. ما اسمك؟ تعال..

ساكم سيادة اللواء وأنظر عليه الفكرة . من السجن إلى المطار ! كيف فاتته هذه الفكرة ؟ ثقى في السجن يومين ليرجع لها عقلها ويكون هو خالدهما قد اتفق مع اللواء وأعد الجواز والتنشير وبعدها تذهب إلى إيطاليا وتقيم هناك مع عمتها . ثم إن من يريد أن يدرس القانون عليه أن يدرس في إيطاليا . تدرس هناك القانون الروماني . نعم ، المطب في إنجلترا والقانون في إيطاليا هذا هو المصير يقترب عصفورين يبعدها عن لعب العibal في السياسة وفي الحب . لأنه من هو في النهاية هذا الأبله الذي يحبها ؟

ما الذي يدريره أنه أليله؟ قد يكون أحياناً يظهر عليه وربما يطبع في أموال
لبعض في أمواله هو؛ وشكلاً بصرأحة، جذاب فليعطيه حقه، أكثر من ذلك قليلاً يا
دكتور؟ هو جميل بالفعل، عندها نونق لبني؟

وَمَا الَّذِي تُرِيدُ بِالضَّيْطِ؟ تُرِيدُ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْعِيَالِ أَنْ يَقْبِرُوا التَّارِيخَ
فَلِيُعْرَفَ أَنَّ كَانَ سَانِدًا مُثْلَهَا فِي شَبَابِهِ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ عَادَ إِلَيْهِ مِنْذَ زَمِنِ طَوْبِيلِ
أَصْحَابِهِ وَزَمَلَاؤِهِ الَّذِينَ تَلَوُّ بِعِيشُونَ بِالْمَدِيَادِ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ السُّجُونَ وَالْفَقْرِ.
يَخْرُجُونَ مِنَ السُّجُونِ لِيَخْلُوُهَا مِنْ جَمِيعِهِمْ، أَمَّا الْفَقْرُ الْوَطَنِيُّ الْعَامُ الَّذِي كَانُوا
يَعْلَمُونَ بِتَغْيِيرِهِ فَهَذَا كَمَا هُوَ وَسَيْنَلِكَ كَمَا هُوَ، هَذَا كَانَ الدِّنَيَا وَهَذَا بَوْفَ
تَيْقَىٰ، لَمْ يَقْبِرْهُمْ هَذَا جَيْدَا فِي شَبَابِهِ، كَانَ يَصْدِقُ خَرَافَةَ الْمَسَاوَةِ بَيْنِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ فَكْرَ كَثِيرٍ وَهُوَ فِي السُّجُونِ وَاَكْتَشَفُ الْحَقِيقَةَ، النَّاسُ يَتَقَوَّلُونَ فِي الْذَكَاءِ
وَمِنَ الْطَّبِيعِيِّ أَنْ تَقَوَّلُونَ قَوْرَتِهِمْ فِيمَا يَحْصَلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ، بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَمَا
سَافَرَ لِلْخَارَجِ أَنْدَرُكَ فِي رَحْلَاتِهِ أَنَّ الْفَقْرَ مُوْجَدٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فِي الْبَلَادِ الَّتِي
تَرْفَعُ الشِّعَارَاتُ وَالْبَلَادِ الَّتِي تَعْيِشُ بِلَا شِعَارَاتٍ، الْفَقْرُ هُنَا وَهُنَاكَ عَلَى السَّوَاءِ
وَالْفَرقُ فِي الْتَّرْجِيْهِ لَا أَكْثُرُ، وَمَعَ ذَلِكَ نَقْدُ اسْتَمَرَ هُوَ نَفْسَهُ يَكْرُبُ الشِّعَارَاتِ
الْقَدِيمَةِ لِلْفَتَرَةِ حَتَّى يَعْدَ أَنْ تَرَكَ الْتَّنظِيمَ، كَانَ صَفَّاً هَامِ الْاسْتَنْدَارِاطِيَّةِ تَسْتَغْزِهُ
بِتَفَكَّارِهَا الْمُخْلَفَةِ، لَكِنَّهُ كَفَ عَنْ ذَلِكَ مَعَ الْوَقْتِ أَيْضًا، بَعْدَ أَنْ رَكَّزَ كُلَّ جِهَدٍ عَلَى
عَمَلِهِ، الْعَاقِلُ مِنْ يَدِكَ أَنَّهُ إِذَا أَسْتَطَاعَ أَنْ يَنْقُذَ نَفْسَهُ فَلَيَفْعُلِ.
لَنْ يَنْعُجْ فَقَرَاءُ الْعَالَمِ أَنْ يَضَافَ إِلَيْهِمْ فَقِيرٌ أَخْرَىٰ، وَلَكِنَّ الْأَنْسَةَ لِبَنِي
وَاصْحَابِهَا يَرِيدُونَ أَنَّهُ أَنْ يَسْتَعِرُ الْفَقْرُ لِلْجَمِيعِ، مِنْ حَسْنِ الْحَظَّ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعِرْ
كُلُّ شَيْءٍ فِي الْبَلَدِ، قَدْ تَسْتَجِيبُ الْحُكُومَةُ لِظَاهِرَاتِ هُؤُلَاءِ الْعِيَالِ وَتَؤْمِنُ الْمَصالَحُ مِنْ
جَدِيدٍ، مِنْ حَسْنِ الْحَظَّ أَنَّ لَدِيهِ مِيلَغَا لَا يَائِسٌ بِهِ فِي الْخَارَجِ وَأَنَّهُ يَرِسلُ الْمَدْخَرَاتِ
إِلَى هَنَاكَ أَتُولَا بِتَوْلِ، وَلَكِنَّ مَمْ يَخَافُ؟ لَا يَمْسِ أَحدُ الْمُسْتَشْفَيَاتِ، طَالِمَا يَقْرُ
الْإِنْسَانُ فَسْتَبَّلِي الْأَمْرَاضِ وَسَتَبَقِي الْحَاجَةَ الْمُسْتَشْفَيَاتِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَاصْحَابِ
الْخَارَجِ أَضْعَنُ؟
نَعَمْ، الْخَارَجِ؟
فَلَلْ يَتَطَلَّمُ فَتَرَةً إِلَى صُورَةِ لِبَنِي فِي إِطَارَهَا عَلَى الْمَكْتَبِ وَقَالَ هَذِهِ أَحْسَنُ

صفاء ، عندما فتح له الباب نظر إليه في ذهول وتمس في ارتياك : تفضل ..

تفضل يا دكتور .

تكلم بهدوء دون أن يدخل من الباب : قل لها إلا ترجع إلى البيت . ثم اتصرف .

ولكن هل هذا يكفي ؟ ألم يكن من الواجب أن يصره ويضربها بالرصاص مثل أولاد البلد ؟

ويضيف من أجل ساقطة وخنزير ؟ لا . هكذا أفضل للفضائح . بل ولا كلمة من أجل لبني ومن أجل نفسه أيضا تغور ؟ ربما يقتلها صدق الخنزير نفسه ذات يوم . في داهية هي وهو ؟ لم تجادل بالطبع في مسألة حضانة لبني ولكن لم يستطع أن يمنعها من رؤيتها . كيف كان سيفسر المسألة للبني المطلقة ؟ كيف يستطيع أن يفسرها لها حتى الآن ؟ لم يستطع أيضا أن يمنع لبني من تشبيتها بهذه الدارة الملعونة . مجرد وجودها في البيت يذكره بمسأله السابقة . أما الآن فثلاثة عصافير ؟ لا ، بل أربعة ؟ شافر لبني . تبعد عن السياسة وعن هذا الولد وعن صفاء وعن الدارة . بعد سفرها تأخذ صفاء لو شات هذه الدارة الجنة وتربيه من بقائها في بيته .

نعم ، عملية ناجحة !

رجح سالم في المساء ، فرأى جده حalte أسوأ من البارحة . وجهه الشاحب والنظرة المنقطة في عينيه وخطاء البطيئة وهو يقطع المسافة من باب الشقة إلى غرفته . سأله الباشكابي مشتفقاً : لماذا تأخرت يا ولدي ؟ أين كنت يا سالم ؟

فهز رأسه وغمض عينيه ثم يبيحه جده وهو يدخل إلى غرفته .

ظل الباشكابي متربدا أمام غرفة سالم بعد أن يقر فيها فترة طويلة دون أن يند عنه صوت ولا حركة . وأخيرا طرق الباب برققة ثم دخل ليجد سالم مستلقيا على فراشه بشيابه الكاملة وهو يحدق في السقف . تاره وهو يهزه برفق فالتفت نحوه . نظر إلى جده كأنه لا يراه وقال بصوت عميق : رأيتم بعيوني . كانوا يركبون الآتوبيس معن ويعشون في الشارع معن وصعدوا السلم معن ..

قال جده بطلق : من هم ؟

ولكن سالم رفع إصبعه إلى سقف الغرفة وراح يدور بعينيه من العين إلى اليسار . ورفع الجد رأسه أيضا بصورة ثقانية وراح ينظر إلى حيث يشير حفيده وهو يغمض :

- لا يا سالم . بيتنا ظاهر لا تدخله الشياطين . أهذا يا ولدي ، لماذا لا تقوم الأنفتوضا ونصلني معا ركيعتين ؟

أخذ يمسح بيده على رأس حفيده وهو يتو قى سره أدعية بينما كان سالم يضحك خشحشات خافتة متقطعة وهو يحول رأسه ببطء من اليمين إلى اليسار وبالعكس يتابع حركة دور هناك . ثم نظر إلى جده وقال :

- أنتعرف ؟ أنا لا يهمني ؟ أنا كشفتهم ؟ لا أخالف الأن منهم ...

قال الياسكيات بلهجة مشجعة : بالطبع يا سالم أنت لا تخاف لأنك لا يوجد ما تخاف منه .
فأكمل سالم دون أن يتحرك من مكانه : يأتون أحياناً كالآراجوزات وأحياناً يليسون فساتين وعساكر بوليس ومعاطف بيضاء، وأحياناً يكونون غزلاناً وخربولاً ولكنك اكتنفهم حتى لو كانوا أشجاراً أو أحجاراً . يعرفون أنك أشكفهم ولهمذا لم يتمكنوا اليوم لحظة ، وركبوا معنى الأنوبيس ويعملون ضجة كبيرة جداً ، حتى هنا .

فنا .
 أشار إلى صيغة السقف ثم أمسك رأسه بكلتا يديه ليشد آذنه وهو يقول : لو
 تتوقف هذه الضجة ؟ رأسي يوجعني ، يكاد ينفجر .. رأى جده جبته يتندد
 بالعرق وعندما مسحه وجده عرقاً بارداً تقلب سالم على جنبه وراح يرتعش
 ارتعاشة هيبة ومنتظمة ، وكان جفناه يرتخيان على عينيه الدايتين وهو يقول
 بصوت خافت متubb : لا تخف منهم يا جدي . في الصباح ساتصرف معهم
 ولكن الآن أريد أن أثأم .
 فقال الجد : نعم يا سالم ، نم ، أهدا ، كل شئ سيتغير في الصباح إن شاء
 الله .

وكان ينكم وهو يضع يده على صدر سالم ويقتضي في ملابسه لم تبدر عن
حليده أي مقاومة ولم يجد أنه يشعر بما يفتعله جده .
لكن الباشكانت شتم أخيراً في ياس : أين ذهب يا سالم ؟ رميته ؟ ضاع ؟ ألا
تعرف أنك إن تركته تركنا ؟
غير أن سالم كان قد أفلق عينيه وراح في النوم دون أن تتكلف انتظافه
جده .

جلس الباشكاتب وحيداً في المسالة المظلمة دون أن يضيّع المصباح ورأى
يتسائل مهوماً ما الذي يحدث لهذه الأسرة؟ لماذا وقع سالم في هذه المحن
ولماذا لم تسعد فوزية في زواجهما ولماذا لا يطغى ابني في تجارتة؟
أن تكون الخلطة مرأة أخرى غلطني أنا وحدى؟ قال شعبان ابن أفسندت
حياته ولكنه لم يشرح لي كيف أفسدتها، ولكن فلبيك أنس قصرت مع شعبان
فما هي غلطني مع فوزية وسالم؟ ما الذي كنّت أستطعه لفوزية مثلاً؟ لم أعرف
بسرها إلا بعد أن وقعت الفاتس في الرأس فلما ذكرت أملك لها غير أن أحارو
التفاها؟

كفى ! لماذا تهرب يا حضرة الياشاكات ؟ ليست المشكلة الان شعبان ولا فوزية . المشكلة هي سالم . لماذا سكت عنه حتى سقط وضعاع ؟ لماذا قلت له متن البدء إنك فرج لأنك أحب ؟

كت أقصد الحب ، الحب البريّ لن هم في مثل سنّة . يحبها ثم يتزوجها بعد أن يتخرجا في الجامعة . هكذا تحدث الأمور . شفنيت له أن يعيش حياة عادية كالشبان ظنت أن هذا سيساعد على شفائه وظن أن يصبح عادياً مثل بقية زملائه . وبالفعل تحسنت أحواله كثيراً بعد أن أحب ، لم تعاوده الحالة قبل هذه المصيبة الأخيرة . قبل أن يسقط هو مثلاً سقطت أنت من قiel . وكيف كان لي أن أعرف أن هذا سيحدث ، وأن الحب بدلاً من أن ينقذه سيرجع به إلى أنسوا
سما كان عليه ؟

كان يجب أن تعرف ! قبل أن تشجع على البداليات كان يجب أن تفهم أنك لا تستطيع أن ترسم النهايات . كان يجب أن تصلت تماماً . أن تفهم من تجربة حياتك أنك لست أهلاً لأن تتضمن غيرك بعد أن عجزت عن تضمين نفسك . لكن حفظ على سالم أن يصبح مثل أبيه ! ما عيده أبوه ؟ شعبان أفضل منه بكثير يا حضرة البشكـاتـب ! على الأقل هو لا يخفي أسراراً مشينة في حياته .

ثم يقول لك أبو خطوة إنك تكابر وإن المكافحة مستندك !

أى شئ إكابده أنا الآن سوى الكتاب ؟

حتى لم شبابي لم أكن بهذا السوء . لم أكتب على الناس ولا على نفسك كنت أخطئ فاعتذر بذنبي وأعزم في كل مرة على التوبة وعلى أن تكون هذه آخر مرة لكتني لا أتظاهر بالتفويت ، لا أمام أبي ولا حتى أمام أبو خطوة . وعندما أحبيب سمية لم يكن هناك عش في حبي لها ولم أختها ولا حتى يفكري . ولما وفيت وقتها وحياتي بعد ذلك لشعبان وأولاده لم يصرفي شئ ، فكيف إذن قاد كل هذا الصدق إلى كذبة نازلي ؟

أعرف أنى لم أكن ملائكا في أي يوم ، ظلت عمري كله أغمر بين للدنيا وبين الآخرة دون أن استقر على حال . ولكن لماذا نزلت إلى هذا الحد ؟ أخفي عن الجميع سرى مثل لحس يخفي ما سرق . لمن شديد اليراعة نجح سنتين طولية في أن يخفى سرقة . عمر طويل آخر وأنا أكتب على الناس وعلى نفسى . وتساءل بعد ذلك لماذا يحدث لسالم ولأسرتك ما يحدث ؟ لا يمكن لثلك بالطبع إلا أن يفسد حياة من حوله . شعبان على حق ! والآن تأخرت التوبة . وتأخرت كثيرا يا سيد توفيق .

اجتاحت الباشكتاب ، من جديد ، موجة من اللضب على نفسه وقال لا . فمن هذه المرة إن لم يأت التغيير حالا فهو الهلاك إلى الأبد . حالا ! سمع الباشكتاب المفتاح يدور في الباب . وجين دخل شعبان وأضاء النور فوجي بوجود والده فقال في دهشة :

- لماذا تجلس في الظلام يا حضرة الباشكتاب ؟ ماذا حدث ؟

نظر إلى وجهه نظرة مذنبة وهو يعمتم - لاشيء . ولاحظ أن وجه شعبان مشرق على غير العادة . جاء فجلس قبالة والده وهو يقول :

- ١٥٦ -

- عندي أخبار جيدة يا حضرة الباشكتاب !

غير وجه توفيق المستفرق في أفكاره نظرة استفهام وهو يتطلع إلى شعبان الذي أكمل . كنت قد حدث حضرتك عن مطالبة الضرائب . الحمد لله استطعت أن أخلفها كثيرا جدا .

قال الباشكتاب وهو يزور عينيه : وكيف حدث ذلك يا شعبان ؟

بدا على شعبان بعض الإحراج وهو يتقاضى نظرة والده قائلا :

- لي صاحب في السوق يفهم في هذه الأشياء ساعدى على شوية المسألة .

- كيف ؟ نحن يا شعبان منذ أيام جدد المرحوم نسوى كل أمورنا بالأمانة والقانون . واعلم يا ولدي أنى لو اخترت طريقا آخر لكان عندي بدل هذه العمارة

التي بناها جدد عمارات كثيرة . بعض الموظفين كانوا يعتقدوننى سانجيا أو أبيه لأننى لم أمد يدي إلى مليم خارج مرتبى ولهذا يبارك لنا الله فيما نملك ويعيش مستورين رغم كل شئ ، فقلل إلى كيف سوى صاحبك هذه المسألة مع الضرائب ؟

تراجع شعبان قليلا في مقعده وقال : بالقانون طبعا يا حضرة الباشكتاب .

بالقانون : راجعنا مما دفاتر الحسابيات وخصصنا من الإيرادات مصروفات لم تكن مخصوصة . بالقانون . ولكن كنت أريد رأى حضرتك في موضوع آخر . صاحبى هذا يتاجر في السجائر المستوردة ويريد أن لأجر له زاوية من محل لبيع سجائره ستكسب في شهر واحد من الإيجار أكثر من مكسبنا الصالى في شهور . فما رأى حضرتك ؟

- وهذه السجائر مستوردة فعلا أو مهرية ؟ إن تكون ..

ثم عدل الباشكتاب عن إكمال ما بدأ : وقال وهو يحك جببته : اسمع يا شعبان ! الفعل ما يدا لك . أنت تصللى وتعرف ربنا وأنت أدرى بمصلحتك . أنت أدرى مني . تنهى شعبان بارتياح وهو يقول : على خيرة الله !

أراد أن يقوم ولكن والده استيقاه بإشارة من بدء :

- مجلس يا شعبان . تمنت أن تكون عندي أنا أيضاً أخبار طيبة ولكن ..
بدا الفرق في وجه الآباء وهو ينظر إلى أبيه الذي كان من الواضح أنه لا يعرف
من أين يبدأ ، وأخيراً ، حكم الولده بكلمات موجزة حالة سالم والواسوس التي
حلت به وسأله في لقى ما العمل؟

قال شعبان بلهجة محاباة وكأنه يخطي مسؤوليته

- رأي من زمن أن هذا الولد غير طبيعى وأنه يحتاج إلى علاج .

قال الباشكتاب دون افتتاح : فلستظر حتى الصباح ، قد ياذن الله بالفرج كما
حدث من قبل .

- كينا نتشاء يا والدى .

ثم قام شعبان ودخل إلى غرفته .

ولكن في الصباح عندما وصلت لوزيرية تحمل ابنها الرضيع لم يكن سالم قد
خرج من غرفته . ورأت جدما ، الذي ترك ثقته الثابتة دون حلاقة على غير عادته
يجلس متهدلا على مقعد في الصالة . وقد بدا أنه شاخ فجأة . حكم لحفيده
بعبارات متغيرة ما حدث لسالم . طرقت لوزيرية باب غرفة أخيها برفق . ثم طرقت
بشدة فلم تسمع آى رد . ففتحت الباب بيد وهي تحمل ابنها باليد الأخرى . لم تبق
هناك طويلا .. صرخت وهي وجهها فزع وهي تسأل جدما :

- ما الذى جرى له ؟ كنه لا يعرفنى . كانه لا يعرف سلام ..

ثم قالت ودموعها تنساب دون إرادتها : اندخل يا جدji وانظر بنفسك .

قام الباشكتاب بجرجر قدميه متربدا نحو غرفة حفيده . لم يكن يريد أن
يعرف ما الذى جرى . وحين دخل فاجأه منظر سالم وهو يجلس بثياب الأسر
ويكتب بسرعة فائقة أشياء على ورقه فولسكاب وأمامه على المكتب أ��ام أخرى

من الورق وأجزاء ملكرة من جهاز الراديو الترانزistor . كانت هناك أيضاً أوراق
مبعثرة على الأرض فوق السرير . ورفع الجد ورقه من الأرض فوجدها ممزوجة
بازقام كثيرة ومعادات رياضية مكتوبة بخط صغير .

سأل الباشكتاب حفيده بهدوء مبالغ فيه : ماذَا تفعل يا سالم ؟
نظر سالم إلى جده وعلى شفتيه ابتسامة غريبة وقال : أشكك أن انتهى .

- تفهـى من مـاذا يا ولـى ؟

- من حساب الذـينـيات ! هـمـ يـعـمـلـونـ ذـيـنـياتـ فـيـ الجوـ وـيـحـدـثـونـ بـهـاـ هـذـهـ
الـضـجـةـ الشـدـيـدـةـ .

قال سالم وهو يضع يدا على أذنه دون أن يتوقف عن الكتابة : سأتوصل
بالحساب إلى موجات هذه الذـينـياتـ . هيـ مـعـادـلـةـ بـسيـطـةـ جداـ . سـينـ وـصـارـ لهمـ
أـيـنـ السـينـ وـأـيـنـ الصـادـ ؟ عـندـماـ أـعـرـفـ سـيـسـكـتـونـ تـامـاـ . سـتـصـبـعـ أـفـيـاءـ
وـسـتـعـبـشـ فـيـ بـيـتـ كـبـيرـ لـأـكـتـشـافـ سـيـرـيـعـ الـعـالـمـ مـنـهـ . لـنـ تـسـمـعـ لـهـمـ أـيـ
صـوتـ . مـثـلـ هـذـاـ . هلـ تـسـمـعـ صـوـتـهـ ؟
 وأشار سالم بيده إلى الأجزاء المبعثرة من جهاز الراديو الذي فككه إلى قطعـهـ
صـغـيرـةـ .

وقفت لوزيرية بالباب وهي تحمل طفلها وقالت وهي صوتها أثر الكـاءـ:
- هل أكلت شيئاً يا سالم ؟

رد جده ثانية عنه : لا ، لم يأكل شيئاً منذ الأمس .

- سـاعـدـلـ كـوـيـاـ مـنـ الشـايـ وـأـيـ لـقـمـ .

فصاح سالم في لفسب : اخرجوا من فضلكم . أنتم تعطلونى !
وانكب ثانية على أوراقه ينبعش فيها بسرعة وعصبية ويلقط بين الحين والآخر
قطعة من مقابايا الراديو يقربها من أذنه ويضمض باهتمام .

أن يعترض حتى لو أراد ، لأن المرة الأولى لزم هو أيضا الفراش دون أن تكون هناك برد أو أزمة معدة . فاجتهاده وفجارات الأسرة إغماطة طويلة حلت به . وأمر الطبيب الذي استدعاوه إلى البيت على عجل بأن يلزم الراحة التامة ويستظر في العلاج . ويقى الباشكارات رغم ما أياها في الفراش لأن الدوار كان يعاوده كلما حاول النهوض .

لهذا أيضاً أخفوا عن الباشكات خبر جلستي الكهرباء، اللتين عالج بهما الطبيب الكبير حفيده.

三

كانت تلك أيام مولد السيدة زينب التي اعتاد اليابشكاتب أن يتابعه من شرفته ويشارك فيه بنفسه كل عام . في هذه المرة أعجزه المرض فكان يتبع بذاته كل شئ وهو يرقد في قراشه ويقاد بيري الصور من خلال الأصوات . لاحظ الضجة وهي تزداد يوما بعد يوم مع وفود الآلاف الجديدة من الزوار من كل مكان والذين يعلم أنهم احتلوا الآن كل الارضية في الميدان والشوارع المتفرعة منه وانهم رحفلوا حتى جنبة البيت . ميزت أذنه ، إلى جانب الندبات وصياح الصبية وضجيج الميكروفونات ، تلك الوشوشة الجماعية الموحدة لآلاف الأصوات . تلك الضجة المبهمة التي تتوجه وحدها فوق كل الطبقتين بين مد وجزر . والتي كان يسميها بنفسه «روح الأصوات» . يتعرف مع ذلك على كل التفاصيل المفردة في الصورة الآتية من الطريق ومن الخيام والاكشاك المنصوبة في شارعه للمولد .
يسمع صوت ربابية وإنشداد مداحين ، وقرقعات بنادق التنسين ، وأزيز (الراجح) . ونadam ياعنة الأطعمة ، وباعة العطور وباعة كتب الأذاعية الدينية ، وخشنخة ميكروفون المساحر الذي ينشر ابنته بالمنشار إلى نصفين أمام أعين المترجين والدخول بقرارش صاغ واحد . يقاد بيراهم جميما ويلسمهم ولكنه يستطر

تبادل البشكاب النظر مع قوزية التي بدأت دموعها تسيل من جديد ، ثم خرجا من الغرفة . عاد الجد إلى مقعده في الصالة بينما تهبت قوزية لتعمل الشاء ..

三三

فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ نَفْسَهُ ذَهَبَ شَعِيْرَانَ لِإِسْتِشَارَةِ الطَّبِيبِ التَّقِيِّ الشَّهُورِ فِي
أَبِ اللَّوْقِ :

باب اللوق .
 ذهب بمفرده وبهذا يشرح للطبيب حالة ولده وحكاية المعادلات والكلام الذي يقوله عن الذئبيات والأصوات . قال له إنه لا يكاد الآن يتكل أو ينام . سأله الطبيب : هل تعرضت ابنته لصدمة قبل أن تأتي هذه الحالة ؟ - لست من تلكا ، سأستطيع أن أجده . ولكن على العموم هو ليس طبيعيا - هنا ما يكتبه في المنشآت قبل سنوات .

من زمان ، كنا قد عرضناه على حضورتك قبل سنوات .
نعم قرأت ملفه عندي قبل أن أقابلك . ولكن تلك الحالة لا تنتهي إلى هذه

التصورات . لا بد وأن يكون ابنك قد تعرض للصدمة حديثاً .
كرر شعبان : ربما . سأسأل إن كان أحد في البيت يعرف .
كان الدكتور قد بدأ يكتب (روشتة) طولية من الحقن والأدوية الأخرى وقال

لشعبان: - ستجد صعوبة في إعطائه هذه الأدوية . هم عادة يرفضون العلاج في هذه الحالة ولكن لا بد منه . وعندما يهدأ قليلاً أحضره لي لازاره . هذا علاج مؤقت وإنما لم ينفع فقد نضطر إلى أشياء أقوى . ربما نحتاج حتى إلى الكهرباء . قد تعالج الصدمة بصودمة .

☆ ☆ ☆

في هذه المرة لم يعترض الباشكاب على شيء . لا على العلاج بالحقن ولا العقاقير ولا على عودة سالم إلى النوم الطويل بالليل والنهار . لم يكن يستطيع

- 13 -

الشخلين للفرجة على النجع بتردد الصلاة على النبي ودعا اللدد من حقيبة الطاهرة . ثم علت بعد ذلك من مكبر الصوت الموضوع فوق البيت آيات القرآن الكريم يتذمرون المقرونون الذين يختمون المصحف الشريف .

وفي المساء أصر شعبان على أن يرتدى والده بذلك وعياته وأصطحب سالم المخذل وهو يستنه من تحت إبطيه بينما يستند بيده الأخرى ذراع والده المعتمد على عصاه وصعد بهما معا إلى السطح . أجلسهما متاجوريين في الصف الأول في مقعدين كباريين مقطعين بالقماش ، إلى جوار الحاج إبراهيم المشلول الذي صعدوا به محمولا على المقد .

وكان المكان قد امتلا حتى آخره بالجمران من العمارة ومن البيوت المجاورة الذين لم تكفهم كل المقاعد فظل البعض واقفين . وكان شعبان يطوف على الموجودين وفي يده قارورة عطر معدنية كبيرة ينشر منها على أكفهم الميسوطة قطرات فيمسحون وجوههم وهم يدعون له . وكان غيره يطوف بالكواب ما ، معطر بالزهر ، يوالى إرساله الحاج مرعن العطار من شفته في الدور الرابع في أيام نحسية كبيرة .

وتنتمي الباشكتاب فرقة المنشدين كانوا خمسة يرتدون جلابيب صوفية رمادية اللون وعمائم ، ويوضع كبارتهم شالا من حرير أبيض يتدلى من على كتفيه وتلف أمام الميكروفون واصطف الأربعة الآخرين خلفه ، وكان الباشكتاب يعرف من تجاريه أي مقاطع سيلتها وحده ، وأية آيات سترددها وراءه الفرقة . وارتاح قلبه عندما وجده جميل الصوت منه بدأ ينشد مع فرقته مدائح قصيرة لصاحبة المولد والمقام .

وأخيرا جاءت اللحظة التي انتظرها الجميع ، حين علت من فوق سطح البيت بعد انقطاع طويل أبيات البردة التي اعتنوا على سماعها منذ الصغر ، تقللها

مع ذلك في كل مساء ، في آخر الليل ، صوتا شجيا لا يخطئه أحدا رغم كل الضجيج ، يعبر من أذنه إلى قلبه على الفور وهو يكرر بذاته المنغم « وكلت على الله ربى وحالقى ... » ، يمزج في سمعه باللغة الجماعية المتواترة كمحوج البحر وهو ينادي رحمة الرحمن ملجا المؤمن فيتم الباشكتاب الرائد في فرات « يارب » .

★★★

ولما جاء يوم المولد قرر شعبان أن يحتفل به كما كان جده السعدى يفعل وكما ظل الباشكتاب يحييه لستوات طويلة . فلكر أن هذه هي الطريقة التي يمكن أن تعود بها البركة إلى البيت ويرفع بها الدعاء إلى الله ليشفي أبوه وأبيه . أراد أيضا أن يشكر الله على المال الذي بدأ يجرى في يده منذ أن تاجر الزاوية لبيان السجائر وبعد أن راحت مبيعات الأقمشة هذه السنة لزوار المولد .

استأجر شعبان يومها عشرات من المقاعد الخيزران ورصها فوق السطح ، وشارك السكان أيضا بإضافة مقاعد من بيوبتهم حتى امتلا المكان وشمل الحمام العسارة كلها ، فتشلّو كل واحد بما يقدر عليه . ركب حميد الكهربائي الميكروفونات ومكبرات الصوت ، ووضع أنفر المصايد الملونة في مدخل البيت وفوق لتساء في النساء ، ونصب أبو عزوز النجار أعمدة خشبية فوق السطح وعلق فيها ثوباً من قماش الخيام المزخرف كاعلام مطوية لمجرد الزينة . وشاركت بنات البيت منذ الصباح بمسح السلالم في أبوارهن ، واستطاع أبو زيد أن يكتس الدخل .

وفي الظهيرة ضحن شعبان بجعل كبير زوجه أمام باب البيت وزرع لحومه على زوار أم هاشم . وفي لحظة النجع هلل أبو زيد وكثير بصوته المرتعش متلما كان يفعل في الزمن القديم ، وارتقت أدعيه أطفال البيت وأطفال الجيران

احشأه وقطوي»، ويرى بعيته معجزات الغار في هجرة «ظلوا الحمام وظلوا العنكبوت على خير البرية لم تُنسِّج ولم تَحْمُ». ويسرى معه من «حرم إلى حرم» كما سرى البدر في داير من اللطم، ويعيش أيام جهاده وغزوته «وسل حنيناً وسل يدراً وسل أحداً»، ثم يطعو صوته مع المتشددين وهم حداته:

باب بالصلطاني بلغ مقاصدنا
واغفر الهى لكل المسلمين
بما يأتون في المسجد الأقصى وفي الحرم
بجاه من بيته في طيبة حرام
واسمه قسم من أعظم القسم
ولم بعد الياشكبات الان ينتبه إلى الدموع التي غطت وجهه ووجوها كثيرة
حوله . وكان يقف على قدميه عندما أنهى المذاهون البردة وهو يرفع يديه ويستلوا
الفاتحة عليهم . وعاد شعبان إلى الظهور وهو يحمل مبخرة راح يطهّرها أمام آية
وأمام سالم الذي كان يتفق ويتفق ، ثم بدأ يطوف بها بين صفوف المقادع وبين
الجيزان الواقعين وهو يصبح بأعلى صوته مدحلاً ! فينهر المكان كله الهاتف
صلٰى على النبي »

وكان الليل ينقدم وأصوات الزحمة صاحبة في الطريق مثلاً كانت منه مطلع التهار ، تعلو من هناك ومن فوق السطح أصوات التهليل والتكبير والدعا ، الصاحبة للتلة الحبيبة السيدة زينب ، الست الطاهرة ، أم هاشم ، بنت بنت النبي ، اخت الحسن والحسين ، أم العواجز وحاجرة المتكبرين .

三

مكيرات الصوت للحن كه . واغرورقت عينا الياشكائب بالدمع و هو يسمع
الآيات الأولى التي يهتز لها قلبه :
أمن ذكر جيран بذى سلم مزجت دمعا جري من مقلتي يدمي ؟
لولا الهرى لم تُرق دمعا على طلال ولا أرقلت لذكرى البان والعلم
فكيف تذكر حينا بعد ما شهدت به عليك مُدول الدمع والسمق ؟
وكانت شفنا الياشكائب تسپقان المتشددين ، ووضع وجهه بين يديه مخافة أن
 يحدث بالبكاء فهو متيم في سره .

محضتي النصيحة لكن لست أسمعه
إن المحب عن العذال في صمم
فإن أمانتي بالسوء ما اتعظت
من جهلها بتدبر الشيب والهرم
وتسائل الياشكائب هل يتحدد البوصيرى عن نفسه أو عن؟ إن يكن هناك
من لم يردهه الشيب فلا يمكن أن يكون ذلك الشاعر التقى وإنما هو من طال
أمامه وقت أمداه ، ولكنه انتبه من خواطره إلى المتشددين يكررون مرة بعد مرة
ـ السادسـ ملخص دراسة ملخص دراسة

محمد سيد الكوئين والشطرين
والفربيين من عرب ومن عجم
نبينا الامير الناهي فلا احد
أبر في قسو لا منه ولا نعم
لكل هنول من الاموال مقتصر
هو الحبيب الذى ترجى شطاعته
ازاح الياسكاتب يده عن وجهه وبدأ يردد مع الجميع بصوت خافت مجده أول
الامر تلك الفسراعة الواحدة للحبيب الذى ترجى شفاعته ، ثم نسى نفسه بعد ذلك
 تماما ، وانطلق يتشدد فى سره حينما متابعا المذاхين ، ويجهر حينما آخر مع
الجميع وكان نقل السنين وثقل المرض قد ازاحا بالفعل عن كافله وعاد مرة
 أخرى إلى شبابه وهو يردد أبيات البردة عن مولد المصطفى عليه السلام وعما
 قاساه في حياته وأثناء دعوه ، وقد اشتكت قدماء من ورم وشد من ساق

- 178 -

القسم الثالث
(الباحثات)

عرف الباشكاب متن بدأ عملية ترميم البيت لكنه لم يعرف أبداً متى سنتهي.

اصر المقاول على الحصول على الجزء الأكبر من أتعابه مقدماً لشراء المواد وانتقل على إنتهاء العمل في خلال شهر أو شهرين على الأكثر، لكن شهوراً كثيرة مضت وبما أنهم كثيرة أخرى مضت دون أن يحدث شيء، إذ وجاء يختفي المقاول وعماله بعد أن يتركوا البيت مصلوباً بالأعمدة الخشبية ومن حوله أكياس المغير والأسمنت وأسياخ الحديد، وتحقق قيام الباشكاب ورائه فلا يرجع إلا بعد أن يتضاعف مبلغاً جديداً غير الذي اتفقا عليه، ويداً أنه لن يتنهى إلا مع انتهاء آخر فرش يملئه صاحب البيت..

وفي هذه اللحظة اضطر الباشكاب أيضاً إلى استشارة أكثر من طبيب بعد أن تكررت نوبات الدوار وأصابة هزال مفاجئ، كان الطبيب الذي زاره بعد إقامة الأولي قد أثبته وسألته كيف سكت على نفسه حتى ارتفع ضغط دمه إلى هذا الحد وأضطررت نبضات قلبه؟ ومع أنه التزم بالعلاج الذي وصفه له الطبيب حتى استطاع أن يقف على قدميه، إلا أنه بدا بعد ذلك يفقد الكثير من وزنه بالتدريج فاتضح أنه أصبح يمرض السكري، أصبح من الضروري أن يعالج بحقن يومية وأن يتعاطي أدوية كثيرة أخرى، وبالكاد كان المعاش والإيراد الضئيل الذي يائس من أرض سمية يكفيان لسداد أثمان هذه الأدوية ولزيارات الطبيب الكبير الدورية، والتحليلات المستمرة التي يطلبها في معامل يحددها بنفسه، كان يغضب إذا ما أجرى الباشكاب التحليل في مستوصف شعبي أو في معامل رخيصة.

يقول إنه لا يثق في هذه النتائج أبداً ولا يمكنه الاعتماد عليها في كتابة العلاج، فيضطر الباشكاب إلى إعادة التحليل في المعامل الفالية، ولم يعد يستطيع، حتى لو أراد، أن يدفع لفروزية ما كان يعطيه لها من قبل، لكنه على الأقل لم يطالب فراج أبداً بسداد ما اعتبره ديناً عليه، وكف فراج أيضاً عن الاعتذار لعدم سداد هذا الدين.

ما كانت تشغل الباشكاب قبل كل شيء آخر في هذه الأيام هي حالة سالم، ظلل مرضه على حاله رغم العقاقير المنومة والمخدرة، وكان «براهم» كلما أفاق ويشير إلى أبيه أو أخته طالباً بصوت مجده إبعادهم عنه، اعتادوا أن يأتوا إليه في معظم الوقت في معاطف بيضاء، وأن يحيطوا ضحيجاً يسبب له مداعماً مؤلماً فيسد أذنيه بكلب، ويعصر جبينه دون جدوى، لكنه كف بعد العلاج عن محاولة اكتشاف العادات التي تستلزمهم ثم انقطع ظهورهم تماماً بعد جلستي الصدمات الكهربائية، طرد هاتان الجليستان الأشباح الماكوفة واستبدلنا بهما أشباحاً أشد شراسة، إذ ظل سالم يقوم مفترضاً في الليل ويصبح صيحات أقرب إلى العوا، وهو يلوح بيديه محاولاً أن يطرد الخفاش والصقر التي تتلقن على رأسه وتنهشه.

بكث فروزية وهي تقبل يدها خارعة إليه، مرة أخرى، أن يرحم أحاجاً من هذا العذاب - سائله هل يمكن أن يحدث لسالم ضرر أكبر مما هو فيه الآن لو تركوه دون علاج؟

أراد شعبان أن يستمر مع ذلك حتى تنتهي الجلسات التي حددتها الطبيب لظهور النتيجة، لكن الباشكاب الذي غادر فراشه بمجرد أن عاد له شيء من نشاطه، فزع عندما رأى حالة حفيدة، لم يستطع أن يأمر شعبان كما فعل من قبل بأن يوقف العلاج على الفور، اكتفى مثل فروزية بالإشارة إلى ما جرى لحفيدة

كانت تلزم أخاها ليل نهار، تطعمه بيدها القيمات القليلة التي يقبلها مثلاً اعتناد أن تفعل وهو صغير، تأخذه في حضنها وتهدهده عندما تهمج عليه الوحش التي تنهش رأسه، تلتف حكايات كثيرة وتحكيها لسلطون الذي كان يتعلم المثل دون أن تفارق عندها أخاها الرائق في الفراش، إن لاحظت أنه قد شرد أو كف عن متابعتها تبدأ في اختراع شئ جديد لتقبيله صاحبها ومتتبها، وصارحت جدها بأنها تدعى لأبيها، أنها تعطى سالم الألوية في مواعيدها لكنها في الحقيقة تسبقه بدلاً منها البنفسن أو التيليو، ولم تلاحظ أى فرق يحدث في حالته حين تعطيه الألوية أو حين شمعها.

لها الباشكتات بعد أن سمع ذلك إلى الحاج مرعي العطار، ذهب إلى جاره في دكانه القريب الذي تفوح منه من بعيد روانج البخور والاعشاب والمكتوب على واجهته «تنس سنة ١٨٨٠». كان يشبه والده الراحل صديق الباشكتات في كل شيء، يرتكب على وجهه تعبير الجد والانشقاق طول الوقت، ويلبس منه الجلبان البلدى وطربوشًا تنفيقاً ومكميناً باستمرار، وكان ذلك يحير الباشكتات بسبب انفراط محلات كي الطرابيش من الصى ومن البلد، استقبله مرعي بترحيب كبير وأدخله مكتبه الواقع في عمق محله الواسع الذى وجده الباشكتات مزدحماً باكدايس من الكتب القديمة المجلدة، وقوارير زجاجية صغيرة مرصوصة فوق أرفف خزن أنها تضم الاكتشافات الممينة.

وعندما عرف مرعي ما يطلبها الباشكتات تحول تعبير وجهه الجاد إلى ما يشبه الصراوة وهو يسأله بدقه أدهشته عن كل تفاصيل حالة سالم، ما الذي يحدث له بالضبط في ثوبه وفي يقظته، وهل يستقر الطعام في بطنه أو يرجعه، وهل ترتفع درجة حرارته أحياناً؟ سال أيضاً عن لون البول وما إذا كان يشعر بجفاف في الحلق، وهل يسلل لعابه حين تأتيه الحالة، وما هي، بلا مراوحة، حالة «الطبعية»، عنده؟ كم مرة؟ وهل تميل إلى الإمساك أو العكس؟

بعد العلاج، إذ استنقع سالم عن الأكل وأصبح يشكو بعد الجلسات، إلى جانب الصداع، من غثيان مستمر وهو يمسك بيشهه والألم يعصر وجهه محاولاً إرجاع طعام لم يذقه.

قال الباشكتات لوالده متظاهراً بالهدوء: يا شعبان، هذاولد سيموت لو استمر على هذا الحال، لنعطيه على الأقل فترة راحة من الجلسات، فإن سمات حالته أكثر يمكناً أن نفكّر فيها من جديد.

رد شعبان على والده بهدوء، أيضاً لم يخل من ثبرة تأثّب: ربما يا حضرة الباشكتات لو كنا أكملنا علاجه من البداية لما اضطررنا الآن إلى هذه المصدمات.

ـ معك حق يا شعبان، أنا كل ما أطلبك الآن منك هو فترة راحة لسالم ترجع بعدها إلى هذه الجلسات إن شئت.

ـ ففر شعبان ثم قال وكأنه يخلع مسؤوليته مرة أخرى: كما تشاء يا والدى، يعلم الله ما الذي فعلته لأدبر تكاليف هذه الجلسات وهو نحن الآن نوقفها!

ـ أرشك الباشكتات أن يقول: لهذا هو ما يشغلك يا شعبان؟ حالة سالم كانت أن تقضى على، تكاد حتى الآن أن تقضى على وأنت تحسيبها بالتكليف! أليس ابنك؟ لم لا أراك جزعاً عليه مثل قوزية؟.. ولكن لا! كفني! توقف! من أدرك بما يدور في قلب شعبان أو في عقله؟

ـ ألم تتفق على أنك لست أهلاً لتحكم عليه أو على غيره؟ تواضع! تواضع! ثم أنت تجرؤ على أن تلوم شعبان؟ هل هو السبب فيما حل بسالم أم أنت؟ من الذي شجعه من الأصل؟

ـ قال الباشكتات بلهجة كثيرة لا تشبه لهجهة في شيء: لا تقلق يا ولدى سيمحو سالم من هذه الآلة يا ابن الله.

ـ طافت يدهمه لحظتها ثوبه أبو خطوة القاضية لحفيدة ليبحث عن العجاب وأعاد تعليقه من جديد في صدره، لكن فزورية دفعته إلى التفكير في شيء آخر.

ابتسم الياشكانت وهو يقول: لا أعرف يا حاج مرعى إيجابيات كل هذه الأسئلة،
حتى الطبيب لا يسأل عن كل هذه التفاصيل
أزاح مرعى طريوشة قليلاً إلى الخلف وقال دون أن يبتسّم: ما لدينا يا حضرة
الياشكانت هو أبو الطيب، ليتك جئت لي منذ البدء
أزداد الياشكانت أن يداعمه «خفها حية» لكنه فدر على الفور أن مرعى ليس
من النوع الذي يقبل المزاح، فنهض وهو يقول:
— ناتيك ساحقة لك! أسلئلك إن شاء الله.

وأخيراً أطعاه الأكياس في حرص شديد وهو يقول: وذكره يا حضرة
الياشكاتي بالدعاء وذكرتني معه، وربنا يقبل بحاجة المست..
فقال، اليشكات وهو يتناول الأكياس بالحرص نفسه: أهين.

حفيده، أخذت الوحوش تتسلب التدريب، وبدأ سالم يعود ببطء، من العالم الذي غاب فيه طويلاً. يتحدث أحياناً بجمل قصيرة إلى جده والي فوزية، ويطلب الطعام بنفسه، ويوم تعرف على سلوك الصغير وبدأ يداعبه فهمست فوزية لجدها بثمرة قاتلة «أرأيت البركة في عِم مرعى؟»، فقال جدها وهو يقبل رأسها «وفيك أنت يا فوزية!».

يقيت بعد ذلك فقط حين رجع لهم سالم تلك النظرة المنطلقة في عينيه وبسمة ثانية على شفتيه وعاد إلى صمته الطويل، غير أن ذلك كان شيئاً الفوه منذ زمن طويل.

وكان الباشكاتب قد فعل شيئاً آخر يوم ذهب إلى الجامعة بحثاً عن ليبني.. إذ قدم شهادة مرخصية لإعفاء سالم من الامتحان في هذه السنة، لم تكن حالته تسمح بذلك.

ولكن في السنة التالية كانت هذه الحالة تسمح بأن ينزل سالم للعمل..

★★★

وبينما كان الباشكاتب يتبع مع فوزية حالة سالم وجد الوقت أيضاً ليفعل شيئاً آخر مؤجلة، كان عزمه قد استقر منذ ليلة المولد، حلث به ليلتها سكينة افتقدوها طويلاً وهو يتصهر مع جبرانه في تلك الليلة من المحبة الفالصة، لم يكن يردد أحياناً من الشعر ويسمعها فحسب، ولكنه كان يسترد عافية نفسه، في أول خميس استطاع فيه الخروج ذهب للقاء، نازلى وجلاساً معاً كصديقين غالباً عن بعضهما لفترة، أعلمه نازلى نصائح بشأن صحته وزوجته باسم الطبيب الكبير الذي أصبح بعد ذلك يتابع حالته، قالت بلهجة جازمة:

- هو أحسن طبيب في البلد فاسمع كلامه يا توفيق.. وحاسب على نفسك، لم تعد صغيراً!.

حفيده بني شكل، ولو عن طريق رسالة أو زيارة، تذكر الدكتور شوكت كل شيء عن الشاب الذي زاره يوم سجلت ليبني وقال لنفسه يجب أن تضع نهاية حاسمة لهذه الحكاية.

قال بلهجة الرخوة مخاطباً الباشكاتب: تسامتني إن كان يمكنني مساعدة حفيديك، يمكنني بالطبع، أتصفح بيان تضمنه في مصحة للأمراض النفسية أو العقلية ثم لا تجعلني أراه أو أسمع عنه أو عنك بعد اليوم! ليس عندي وقت لهذا العبث.

قال الباشكاتب في ذهول: على أيامك كما تكلم من هم أكبر مما سنا بطريقة مختلفة، أنا في سن والدك يا دكتور؟

قال شوكت وهو ينهمك: أنت لست مثل والدى، والدى كان يعرف... استنشاط الباشكاتب غضباً وهو يقول: أَمْدَ الله أَنْتَ لَسْتَ مُثْلَّ وَالدَّكَ! عَلَى

الاقل أنا استطعت أن أربى أولادى! واستدار خارجاً وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف وقال شوكت لنفسه دون أن

يهتز: أظن أنتا فرقنا من هذه المسألة، تهانينا!

غير أن سالم لم يعد بحاجة إلى المستشفى التي تصح بها الدكتور شوكت، استرد شهيتها بالفعل كما تنبأ الحاج مرعى وأصبح الطعام يستقر في بطنه، وشيئاً فشيئاً أخذ يستعيد بعض الوزن فقده وأصبح نومه أهداً مما كان، ظلل مرجعي يمر على بيت الباشكاتب كل يوم تقريباً في منزله وصعوره، يسأل عن تطور الحالة، وغير أحياناً خلطة الأعشاب معتمداً الصراع مع الوحوش التي تشتبث برأس سالم معركة تخasse هو بالذات، وإن ظل يتعثب على الباشكاتب، بروانته المعمودة، لو جتنى منذ البدء، يا والدى لما استغرق العلاج كل هذا الوقت!

وكان الباشكاتب يبالغ في الاعتذار عن هذا التقصير، مجاملة مرجعى في بعض الأحيان، وصادقاً في أحياناً أخرى حين لاحظ التحسن الذى بدأ يطرأ على حالة

وكان «شروطها» بسيطة هذه المرة، أن يتم الطلاق كتابياً أيضاً وأمام شهود وأن يسجل فيه أنه ليس لاي منهما حقوق لدى الآخر.

لم يملك الباشكابن نفسه فقال ضاحكاً: يا نازلى هاتم هذا ليس طلاقاً، هذا رد كبيلاً ومحالصة:

فرد دون أن تضحك: لصلاحتك ومصلحتي يا توفيق.

وبعد أن اتفقا على موعد الطلاق والشهود، قالت نازلى وهي تنظر حولها:

- على فكرة، يمكنك أن تطلب «خلوا» كيمرا لهذه الشقة، الموقع مطلوب.

ستسأله الإيجار الذي دفعته طول هذه السنين، وربما أكثر.

جال الباشكابن بانتظارة في الشقة ولم يرد، ظل ينتظر إلى نازلى وهو يذكر: هل يقتل العرض الشديد على المال الأزواج أم أن الأزواج المليئة من الأصل هي التي تتکالب على المال بهذا العرض؟ وهل موات الأزواج يعدي؟.. لا، هي لم تفرض نفسها على، بل أنا الذي سعيت ورائها، فهل تنتحر الأزواج عن عدم كلام الأمجاد؟ ولماذا؟ كأنني كنت أبحث عنها لكن أهرب في الوقت ومن الوقت، لم أسمع من أبو خطوة أن العاقل من يصر على الأوقات لا الذي شر به الأوقات؟ من يحكمها لا من تحكمه؟ وأنا لم تمر بي الأوقات فحسب، بل تركتها تزحف بي عمراً اتسعت أمداته وانعدمت أمداته، حتى أعذاري الوجيهة لم تكون في الحق وجيهة، لكت لن أنا فوق - سأنتظر لا أشتئي الدنيا لا توجه بعده تقى خالصاً، ولكن كيف توقع أن يائى هذا النقاء؟ لماذا لم تكن تصبر أبداً على ظلم جسدك واستطوال صدرك على ظلم روحك؟ ولماذا مثلاً لا تظلم روح نازلى؟ وهل هي تعرف أصلاً أن هناك ظلم للروح؟

وكان هو يعرف أنه قد أصبح كبيراً جداً في السنين الأخيرتين ظل يحافظ على موعد الخميس بحكم العادة لا أكثر، واعتماداً أن يقضى الوقت في الترثة عن قصایها ومشاكلها مع المحامين ومع أبنائهما. فإذا جاء العشق بعد ذلك أو قبله، ثم يصعوبة وفتور، لا شيء فيه من حرارة الزمن القديم، كاد لفترة الخميس أن يقتصر على الترثة حتى لو كانت لدى الباشكابن الرغبة، وحتى لو توافرت القدرة التي أصبحت تزداد صعوبة أسبوعاً بعد الآخر.

لزم الباشكابن الصمت قترة وهو يتأمل وجه نازلى الذي أجرت له عملية شد جلد فاصبحت عيناه الخضراءان الصغيرتان تخرجن لا تطردان، ثم قال بهدوء وهو يبتسم:

- وما رأيك يا بنت الناس...
لم يكمل كلامه لكن نازلى قالت بلهفة: عمرك أطول من عمرى
- أنت تعرفي ما كنت أريد أن أقوله؟

فابتسمت وعادت تتكلم بنبرتها الباردة الهاستة:
- طبعاً يا توفيق! من مدة أعرف أنك تريد أن تقولها.. وأنا أيضًا..

ثم هزت رأسها وقالت باسفة أصبحنا عجوزين
ورجعت تبتسم وهي تخضع يدها فوق يده: ولكن لي شروطى
فاجاءه ردها بالفعل، كان قد فكر قبلها كثيراً كيف يصارحها.. شعر يكتير من الإيجار والارتباط مخالفة أن يخرج مشاعرها بعد «عشرة» هذه السنين الطويلة، لكن نازلى أنهت المسالة بكلمتين وايتسامة، لم ير في وجهها أى حزن حقيقي، تصرفت كاتها ستفرق عن شخص قابلته بالصادفة.. ليست غلطتها على أى حالٍ

توقف يا حضرة الباشكابي! ها هو ضلال آخر! هل اكتشفت نازلى الان فجأة؟ قد تكون أفضل منك على الأقل هي لم تفعل شيئاً معتقد في قرارة نفسها أنه خطأ، ألم تصمم هي على أن يكون هناك زواج وإشهاد؟ إن كنت أنت تطمع في الرحمة رغم كل خطاياك فلماذا نفسن بها على نازلى؟ لا، إن أردت أن أطوي هذه الصفحة فيجب ألا تلوم نازلى على شيء، أبداً، بل ربما كان يجب أن أطلب منها الصفع.

ساخته نازلى حين طال صمتها:

- لماذا تنظر إلى كائنك لا ترايني؟ فيم تفكير يا توفيق؟

فقال بهدوء: في الطلاق.

عندما كان عاطف - أو سلوم - في الرابعة من عمره تقريراً رجعت فوزية إلى بيت الأسرة بصحبة ولدتها . لم تكن تلك هي المرة الأولى في الفترة الأخيرة . تكرر مجيئهما وبياتهما ليلة أو ليلتين أو أكثر ، في اليد، كانت تتقول إنها اشتاقت لهم أو إنها تزوج أدنى تزوجي « رجالها » قليلاً لأنها لا تطمئن تماماً إلى عمل الشفالة التي أصبحت تناصي مرة واحدة كل أسبوع . ولكن فوزية لم تكن ترجع إلى بيتها إلا بعد أن يأتى فراج لاصطحابها ، وفهم الجميع ما يجري دون حاجة إلى كلام ، ولكنهم سكتوا لأن فوزية لم تشا أن تقول شيئاً .

كان فراج يأتي في العادة متوجهما ، يجلس فترة مع الجد ، ومع شعبان أو سالم إن كان أحدهما موجوداً ، بينما تخنق فوزية في غرفتها ، في تلك الأحوال يجلس مطرقاً ويلزم الصمت معظم الوقت مكتفياً بتبادل التحيات والمحاولات ، وأحياناً يشكو من ظروف العمل . يقول إن كل « الشغل » فوق رأسه ولكن لا أحد يقدر . وإن من يحصلون على المكافآت والعلاوات هم محاسبين رئيس مجلس الإدارة الذين « يعطّلون الإنتاج » لأنهم لا يغطّلون شيئاً للشركة ويقومون بأعمال خارجها . ساخته الباشكابي مرة كيف يغطّلون ذلك وهو ممنوع بحكم قوانين العمل؛ فتتظر فراج تغوره بإشراق وشرح له أن الدنيا تغيرت ، وأن هؤلاء الموظفين يديرون أمورهم . يدفعون « المعلوم » و يقدمون المدحيايا الرؤسا ، ليسمحوا لهم بالتفاخر لأعمالهم الخارجية وإرسالهم أيضاً في إعارات للبلاد العربية . واعتادوا أن يتركوا فراج يتكلم أو يصمت كما يشاء ، وهم يعرفون كيف سيتهي ذلك كله . فيعد أن يشرب الشاي يسأل « أين فوزية؟ » وينادي عليها جدها أو يخرج أخوها أو

تعليمات المدير التي يزجر بها زملاءه طول الوقت للتزام الصمت الكامل والتذكر على العمل لهذا أنها سالم وحده من الطرد خلال ستة أشهر . على عكس بقية زملائه الذين التحقوا معه بالعمل في وقت واحد . لم يكن المدير يحب التعامل مع مكتب العمل ، ولكنه أدرك حاجته إلى سالم الذي بدا أيضاً أنه لا يعرف أي شيء عن هذا المكتب .

كانت المسالمة قريبة من البيت إلى المطعم مما وفر مصاريف المواصلات ولم يكن سالم يدخن أو يحتاج إلى صرف أي نقود فاعتاد أن يسامح بمربته كه تقريباً في البيت . بعد أن يقطع جزءاً من هذا المرتب الصغير يعطيه لفروزية .

حکى له أخته بعد شفافه كل شيء عن حمومتها مع فراج - قالت له إنه كلما سادت حالة في العمل بسبب مكانه زملاء الذين يلتقون عليه عبء العمل كله وبحصلون وحدهم على العلاوات والمكافآت . كلما تذكر عليها عيشتها في البيت . قالت إنها طلبت من فراج أن يمسك بنفسه مصروف البيت ليرى كيف يمكن تدبير المعيشة بالمرتب حتى آخر الشهر فرد بأن هذا «شفل المتناس» ، أمّة اعتادت أن تدبر بيتها وتوفّر مصاريف تعليمه باقل من المبلغ الذي يعطيه لها .

وصارحت فروزية أخاهما بمخاوفها ، هي تعتقد أن فراج يفتعل كل هذه المشاجرات لأن يريد أن يتزوج من موظفة لها مرتب . لم يعد مربته وحده يكفي للمعيشة . وبعد أن كان متشدداً في أن زوجته يجب أن تبقى في البيت لتربية الأولاد أصبح يغيرها باذن شهادتها الإعدادية لا تنفع لأن تشتمل في أي وظيفة .

قالت لأخيها في مرارة : بدلاً من أن يشد حبله ويبحث عن عمل على تأكير بعد النهر أو أي شغل إضافي مثل شفاف ومثل بقية خلق الله فهو يدفن نفسه ليل نهار في الوظيفة (الهياكل) ويعبرني يأتي لا أعمل ..

ابوها لاستدعائهما ، فشأنى وتلف بباب الغرفة مطرقة وهي تشبك يديها أمام حجرها أو وهي تدفع أمامها طفلها الصغير الذي يجري نحو حضن أبيه في ضجة كبيرة ي مجرد أن يراه . ويقول فراج عابسا دون أن ينظر نحوها كلمة واحدة «ليس» .

ويع أن فروزية لم تحدث أحداً عن أسباب خلافاتها مع زوجها فقد كان مفهوماً أن مربته لم يعد يكفي مصاريف البيت حتى منتصف الشهر . وأن الديون التي تراكته عليه كانت سبباً مستمراً في اتهامه لزوجته بالإسراف وعدم التدبير .

كانت في كل مرة تحسبيها له بالورقة والقلم وهي تبكي . ولم يكن يقتضي . وفي هذه المرة طال بقا ، فروزية مع ابنتها في البيت . لم يأت فراج لاصطحابها بعد يومين أو ثلاثة ولا أسبوعين أو ثلاثة . ولم يكن هناك من رجالها من يستطيع مساعدتها .

اعتقد (شعبان) أن المبلغ الكبير الذي حصل عليه مقابل تاجر الزاوية لبانع السجائر سيُكلئ إلى جانب القليل الذي يدره محل القماش ليعيشوا حياة معتولة . وتناول كثيراً ما اعتقد بإمكانه عودة أيام الرخاء القديم . لغير أنه اكتشف بعد قليل أن الفداء يسبق أي مبلغ يمكن له تعبيره . وبعد أن ضاعت مدخلات الباشكتاش وأصبح دخله يكفي بالكاد لعلاجها . نشأت مشكلة حقيقة في تغطية مصاريف البيت . وهكذا لقد اضطر أن يجد وظيفة سالم في مطعم أمريكي للدجاج لمنع بالقرب من ميدان السيدة بعد شهور من شفافه .

عمل سالم كاتب حسابات في المطعم . وأعفاءه هذا من ليس الطلاقية البيضاء المنقوفة التي يلبسها بقية زملائه مع سترة زرقاء ، إذ كان يعمل في ركن داخل المطعم صغير . يكفي بالضبط مقعدة والمكتب الذي يشتغل عليه . وارتفاع إليه مدير المطعم كثيراً . كانت حساباته في غاية الدقة والأمانة . كما أنه لم يكن بحاجة إلى

اعتماد أن يصحو في الفجر ليصل إلى مكتبه . كان يقرأها بتركيز وتنعم حتى كاد أن يحفظها كلها ، لم يترك وصية من وصايتها في العبادة أو السلوك إلا ونفذها بكل دقة . أدرك أنه يطلب شيئاً كبيراً . يهون في سبيل كل ما يبذل ، وسلم بأنه أياً كان ما يبذله الآن فهو قليل بعد أن بدء عمره في التراخي والمعاصي ولكن صديقه قال له يوماً إنه حتى المخصية تستغفر لصاحبيها إن أتني طانعاً وغضباً . فهل يتقبل منه بعد كل ما سلف؟ ثم ما هو ذلك الذي يطلب بالضيبيط؟ ماهي تلك البشرى الموعودة؟ إلا يكفي أن يطلب من ربه المقدرة؟ يكفي ويزيد . يل هي في حالي فضل ونعمته من الله . وفكراً ساخراً من نفسه: ألم تزد حظاً يا توفيق يا ابن السعدى بعد كل ما فعلت في حياتك أن تكون من الأولياء الصالحين؟ ولكن لا بد مع ذلك من حكمة في تشبيه تلك البشرى الخامسة التي حدثنا عنها صديقه . الحكمة هي أن تتواضع! أن تتعلم ما قاله لك «أن تزيد إلا تزيد» ولكن كيف؟

كان يجلس ممسكاً بعصايه بيديه الائتين ومستندًا عليهما يذقنه وهو ينطلع إلى الميدان . سرخ بذكرة وهو ينظر إلى السبيل المطلق الذي يواجهه وابتسم لنفسه لأن ظل طول عمره يحاول قراءة أبيات الشعر الطبوسية المحفورة في أعلى واجهة السبيل دون أن يتنجح ! استطاع بعد جهد على مر السنين أن يجعل البيت الأول «سبيل الله يا عطشان فأشرب» . هنئنا صافياً بشفف العلياء ، لكنه توقف بعد مطلع البيت الثاني ، أنا ظمان فارون... وظل ما يعدد حروفها مباغضاً كالطلاسم . لكنه يجب النظر إلى هذا السبيل . يتخيل زماناً لم يكن فيه هذا البناء ، المهجور الرمادي اللون وكانت تحف بيتيات الشعر على الواجهة الزخارف من أفرع أوراق الشجر وتشكيلات الأزهور والتقوش الملونة كلتها تحبس كل قاصد السبيل .

أصبح سالم ، بعد العلاج ، يحسن الاستماع دون أي تعليق . تتساعد صحته القديم وأصبح يتحقق بتركيز قيم يحده فيعتقد أنه يصنف إلى كل حرف ، لهذا أحبه زملاؤه في العمل وصار موضع أسرارهم جميعاً . كان ينسى هذه الأسرار بسرعة بعد الاستماع إليها ولا يلمع إليها حتى لصاحبها فيعتقد أن هذه مبالغة في الكتمان ، ولكن في هذه المرة بعد أن استمع إلى شكوى فوزية قال بهدوء وبالسمة الثانية على شفتيه :

- كان رأيي منذ البداية أن هذا الزواج غلطة يا فوزية . لماذا وافقت عليه؟

تحول وجهها عن أخيها وأنهكت في ترتيب ملابس سلوم . لا تستطيع أن تقول لسالم ، هي نفسها لا تعرف كيف حدث ما حدث . كانت تزور صاحبة لها في البيت الذي يسكنه فراج . زارتها قبل ذلك مرات كثيرة دون أن يخطر ببالها أي شيء . اهتممت هي وهو أن يلتقيا خارج الحي ، في أماكن بعيدة عن الأنظار . وفي هذه المرة وهي تنزل من عند صاحبتيها وجدت يقف بالصادقة أمام باب شقته المفتوح وكان السلم خالياً فابتسمت وابتسم . هي لا تعرف ولا تذكر بالضيبيط ما بعد . تذكر فقط أن ذعره كان يفوق تعرها وأنه راح يلطم خده .

التفتت مع ذلك نحو سالم وقالت بلهجة هادئة ، تكاد تكون مستسلمة :

- لأنني أحببته ، لأنني أحبه .

جلس الباشكاب في مقهاه القديم بعد أن أدى صلاة الظهر في مسجد السيدية . أصبح يمر على المقهى كل يوم في هذا الموعد الذي يكون فيه شعبان وسالم في العمل وتكون فوزية مشغولة بإعداد الطعام .

قال جابر متظاهراً بالأسى : والله يا حضرة الباشكاتب أنا أردت أن أخدم ولكن ما العمل ؟ أنت رجل طيب والناس في هذه الدنيا إما أكل أو مأكل ..
رفع الباشكاتب فنجان القهوة بيده المرتعشة وهو يسأله وأنت يا جابر ، أكل أو مأكل ؟

أشار جابر إلى جلبابه ومتزره (الدمور) الممزق وهو يقول :
- انظر بنفسك حضرتك واحكم !

وأشار الباشكاتب بيده إلى فم جابر الذي كان يستحلب شيئاً وساها :
- لماذا إذن يا جابر تصرف قرشك على هذا ؟
رد جابر دون أن يهتز : أنا يا أنسان في النهار الواحد ألف هذا الميدان الواسع على رجلي عشر مرات دون أن أترك المقهي . أظل بالنهر والليل كالملك وراء طلبات الزبائن حتى تورمت قدمي كما ترى ، فماذا أفعل لاحتمال هذا العذاب ؟

- وما الذي رماك على هذا العذاب ؟
- ثانية أولاد وأمه ..

- ألم يكتر أحد من أولادك حتى الآن ليروحك من العمل ؟
- كلهم كبروا يا أنسان . منهم من تعلم وأفلح واستعمل ، ومنهم من خاب ولكنهم جميعاً مازلوا يعودون أيديهم إلى جابر الغلباً .

تنكر الباشكاتب عبوات الكيف اللثفوفة في ورق السيلوفان وحكاية الدولارات والسمسار الذي أهلك ف قال ضاحكاً :

- أنت غلبان يا رجل يا ضلالى ؟ مَاذا ستقول لربنا يوم يلقاك ؟ فكر لأن حكايتنا أنا وأنت قررت !

وواجهه رد جابر حين قال باذب شديد وهو يمسح الطاولة بمنشفة :

هو يحبه حتى على حاله الآن . يحب كل شيء في هذا المكان . يذكر فرحة عندما كان يهل على الميدان بعد غيبة أثناء عمله في أسيوط أو المنصورة . فرحة عندما يرى من بعيد القبة والمنارة المسماقة بشرفاتها المتعددة ، رحمة الناس حول المقام الظاهر . يخفق قلبه ويود لو يصافح كل إنسان دون تمييز . المارة في الشوارع ، وأصحاب المحلات ، والباعة الجالسين على الأرصفة ، وحتى عمال الترام في الكشك الذي يتوسط الميدان والواقفين حوله . يريد أن يقول للجميع «أنا رجعت» ، وما زال حتى الآن ، بعد أن أصبح بالفعل يتوكأ على العصا التي كان يمسكها من قبل على سبيل الأنفاسة ، لا يستطيع أن يحمل يوماً دون ضوضاء ، هذا المكان وناسه ، لا يشعر أنه يعيش حقاً إلا حين يراهم ، لو أمكن أن يدقنه بعد موته تحت أسفلت هذا المكان !

توقف الباشكاتب ليسائل نفسه : كيف وهو ممثل يا دنيا إلى هذا الحد سيحصل إلى العزلة والخلوة اللتين تقول الكتب ألا وصول بدونهما ؟ ولكن أبو خطوة قال له خذ من هذه الكتب ما يوافقك . ستعلم وحدك ما الذي تأخذه منها وما الذي تركه لأن طريقك لم يبعده لك غيرك . لا ترهق نفسك بالتفكير فسيأتي كل شيء في حبيه .

وضع جابر فنجان القهوة أمام الباشكاتب المستغرق في أفكاره وهو يسأله مبتسمـاً .

- مازلت غاصباً على يا حضرة الباشكاتب ؟
فابتسم بيده وهو يرد عليه : قلت لك يا جابر مائة مرة سمسارك زبحني والقاول الذي جاء به ليرمي البيت أكمل المهمة . وعذ بآن ينهي العمل في شهرين فاستمر أكثر من سنتين . ولكن مَاذا أفعل ؟ ربنا يسامحك !

- سارد مثلث يا حضرة الياشكارات !

ثم قال وهو يرفع الفنجان متاهلا للانصراف :

- أنا في هذا العمل يا أستاذ منذ أن كنت صبيا صغيرا ، ورد على هنا كل أصناف الناس ، رأيت الكبار والشبان والنسابين والفجوار والناس الطيبين الذين يعلمون الخير في السر ، والذين يظاهرون أنهم طيبون ويأكلون مال الشبي ، فإذا كنت أنا جابر القلبان أستطيع أن أمير بينهم فما بالك ؟

ورفع يده الخالية نحو السماء ، ثم أكمل بضحكة وهو يبريش بحقفيه :

- ولكن صدقني يا أستاذ ، أنا بالفعل غلبان !

وأنصرف عن الياشكارات وهو يضحك .

قال توفيق لنفسه بعد أن ابتعد جابر : تستأهل ، موعضة بموعضة ! ولكن موعضة جابر أقوى بالفعل يا حضرة الياشكارات ! فمن يعرف القلوب حقا غير مولاك ومسلاه ؟ هل ازدحات الكبير لأن ذلك دخلت في طاعة قربة بعد طول معصية ؟ إن يكن ذلك فقد هلكت يا أخ توفيق ! مائة مرة قلت لك تواضع ! تواضع !

نادي جابر ليدفع له الحساب وعندما جاء ، قال له بقلب مثلث :

- سامحتي يا جابر على ما قلته لك .

تراجع جابر خطوة وقال : استغفر الله يا حضرة الياشكارات ! أنا أسامحك !

أنا لم أقتل لك إبنى وإلى ! قلت لك أنا غلبان !

ثم راح يضحك فقال الياشكارات : إبن فسامحني يا غلبان !
رفع جابر يديه معا وهو يقول : ربنا يسامحنا نحن الاثنين لأن حكايتنا قربت !
وضحك من جديد ، فضحكت له الياشكارات ولكن قلبه ظل متلا .

عندما رجع الياشكارات إلى البيت كان مجدها وقلقا لكنه وضع على نفسه الابتسامة التي يلقى بها فوزية وظلها . كان يحاول كل ما يستطيعه ليخفف عن حقيقته إحساسها بالهزيمة . انحنى على المصير وقبله ، لم يعد يستطيع أن يحمله . رفع سلوم بيده القصيرة محاولا أن يتحسن جيب الياشكارات وهو يسأل : «فين الملبس يا جدي؟» فوضع الياشكارات بيده على جيبه وهو يقول الصغير «أولا ، سمعت كلام ماما أو عذبتها زى كل يوم ؟» قال سلوم وهو يشب على قدميه ليتحسن الجيب بلطفه : «سمعت الكلام . سمعت الكلام ، هات الملبس !» . أطعنه قطع الحلوي فجرى سلوم مبتعدا وهو يهلل ويقول «لكن يايا أحسن متك يايا حلوا وأنت عجوز ؟» .

ضحك الياشكارات وهو يتطلع إلى فوزية يعين مستفهمة فهمست : «ممثل كل يوم ، يصدعني كل دقيقة بالسؤال عن أبيه وعمتي سترجع إلى بيتنا». ثم قالت لجدها بابتسامة صغيرة : أنت تقرأ كتابا قديمة كثيرة يا جدي . ألم تجد في أي كتاب منها طريقة نعمل بها عملا يعيد إلى فراج عمه ؟ عمل نسخه له تحت غيبة الباب أو في ذيل قرموده ؟

ابتسم جدها وهو يقول : هذه ليست كتابا في السحر يا فوزية .

فقالت وهي تنجه للمطبخ : وأين إذن تجد كتاب السحر ؟ .. فكر إلى أن أخذك الغدا !

لم يتحسن الياشكارات كثيرا . أصبح غداً بلا طעם بعد حرمانه من الأرز الذي لم يكن يعتبر أي طعام يدونه وجيبة حقيقة ، وبعد منه من اللحم والتوابيل ولكنه اعتاد أن يأكل أي شيء تقدمه له فوزية لكنه يملا بطنه ويتناوله . وفي مساء ذلك اليوم كانت الأسرة كلها مجتمعة على العشاء وراحوا يزدرجون طعامهم في صمت ، يبدو الاجهاد على وجه سالم وشعيبان والوجوم على وجه

فروزية ، وكان الباشكاب شاحباً أكثر من المعتاد ولكنه قطع الصمت فجأة وهو يقول لشعبان : -

- رأيت اليوم محلك في المنام ، رأيت زحاماً كثيراً ورأيت مشغولاً جداً في تلبية طلبات زينتك .

قال شعبان دون أن يرفع رأسه عن طبلة : يسمع منه ربنا يا والدى . الحال واقف تماماً هذه الأيام ، لو لا إيجار محل السجائر لأفلستنا من زمن .

قالت فروزية وهي صوتها نبرة خفيفة من المزاج : ألم تحلم شيئاً أيضاً عن زوجي الجنون يا جدي ؟

فهز رأسه وقال بعد لحظة صمت : ربما يائى يوم الخميس ..

ثم انتقت نحو حقيقته مكلاً : وبحسن أيضاً يا فروزية أن تعطى شعرك . رأيته في الطريق قبل أيام وقد أطلق لحيته . ربما لا يجب الآن أن تكتفى شعرك .

غمضت فروزية دون اقتناع : لم يشتك قبل اليوم من شعرى يا جدي ، المشكلة الآن أنه يريد زوجة بمرتب ، ولكن غريبة حكاية أنه ربي ذقت !

★★★

مع ذلك عندما خرجت فروزية في اليوم التالي لتشترى لوازم البيت وضفت غطاء على شعرها .

وفي المساء عاد شعبان إلى البيت متلهلاً . قبل بد والده في حرارة وامتنان وهو يقول : جاشر اليوم يا أبي طليان كبيران لاقمعشة أزياء ، مدارس في العي .

طليان لا طلب واحد يا أبي ؟

وقال لأبي في حماس : أحلمك أحلام الصالحين يا والدى . أنت رجل ميرور ! ثم إنه في يوم الخميس التالي زارهم فراج بعد غيبة شهور .

- ١٨٨ -

لم يكن هناك تمهد لحيته ففوجئت به فروزية وهي تفتح الباب ، تعلق سلو بعنق والده وهو يصبح صبحات عالية ، وأشارت فروزية صامتة إلى غرفة الجلوس ثم انسحب إلى غرفتها .

جلس الرجال معاً دون أن يبدأ أيهم الكلام . كان شعبان وسامي ينظران إلى فراج يفتور تكرر هذا الموقف كثيراً من قبل ، أما الباشكاب فقال وهي صوتها نبرة من العتاب الرقيق : مرحباً يا فراج ، لم تترك منذ مدة .

لم يرد فراج على الفور . أخذ يعيث قليلاً بلحنته الجديدة قبل أن يقول : - في الواقع أنا كنت أفكراً في حالي أنا وفروزية . لا يمكن يا حضرة الباشكاب أن تستمر الأمور على هذا الحال .

قال شعبان بشيء من الضيق : إذن يا ابنى كما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف . أبانتا يوجد ألف ..

قاطعه الباشكاب : انتظر لحظة يا شعبان . هل هذا هو ما تريده يا فراج ؟ تتحسن فراج وقال : لا ، كيف ؟ عاطف هذا ؟

ثم أنزل الصغير من على حجره وقال : هل يمكن أن نتكلم على راحتنا ؟ حمل شعبان حفيده رغم صراخه وبكلاته وأعطاه لامه وحين رجع كان الباشكاب يقول : .. هذا مفهوم يا ابنى ولكن ما باليد حيلة . أنت ترى حالتنا الآن .. ثم تطلع إلى والده وأكمل : يقول فراج إنه ظلم فروزية بالفعل عندما اتهمها بالتبذير ، وإن مرتبه لا يكفي بالفعل ليغطي مصاريف الشهر .

قال شعبان : وماذا بيدنا نحن أن نفعله يا سيد فراج ؟ هذا حال كل الناس ، ربما لو بحثت عن عمل آخر ..

قال سالم ، الذي كان صامتاً طول الوقت ، بصوت هادئ : ما هو الميل الخطوب يا أستاذ فراج ؟

- ١٨٩ -

رد زوج اخته محتاجا وقد أحمر وجهه : أنا لم أتأنسول يا أستاذ سالم !

وتدخل الياشكائب فانلا : سالم لا يقصد هذا بالطبع .

لكن فراج أكمم شربته المحتجة : مع ذلك لا يصح الكلام بهذه الطريقة ! يعني هذه حالة طارئة . ستحسن الأمور قريباً بإذن الله ، أنا تقدمت لإعارة إلى السعودية وسيوفقني ربنا هذه المرة إن شاء الله ، وأي مساعدة حتى تأتى الإعارة ستكون ديناً على بالطبع .

قال سالم بالهدوء نفسه : ليست ديناً . بما أن فوزية لاتشتغل فليتعين أن يكون لها دخل كل شهر . أنا ساعطيها نصف مرتبى ..

نظر الجميع نحوه في دهشة ، يمن قيهم فراج ، وقال شعبان محتاجاً :

- وكيف ستنصرف نحن في البيت ؟ أنت تعرف أن مرتبك يسد في ..
لكن الياشكائب رفع يده يسكن ولده وهو يقول : بارك الله فيك يا سالم .

نحن نستطيع أن تحتمل يا شعبان . سندبر أمورنا بإذن الله ،
وقال فراج مؤكداً : ومع ذلك فسأغتيره ديناً حتى الإعارة .

قال شعبان : مفهوم ، ولكن أرجو يا أستاذ فراج من أجل ابنك الصغير لا تذكر هذه الحكاية .

فرد فراج : إن شاء الله لن تتذكر ، لم يكن بيدي .

وقال الياشكائب وهو يتطلع إلى السقف :

- لا تحمل هماً يا شعبان . هذه الحكاية لن تتذكر .
وكان يتكلم بلهجة واحدة تماماً .

وعندما رأى فراج فوزية وقد غطت شعرها استعداداً للخروج معه ، قال وهو

يشير إلى رأسها في إعجاب ورضا :

جلس الدكتور شوكت لمي (كافتيريا) المطار ينتظر الطائرة القادمة من روما التي تأخرت كعادتها . فكر أنه لن يستطيع الآن أن يذهب إلى عيادته ويرجع إلى المطار لأنها لن تتأخر، كما قبل . غير ساعة ونصف . ضاعت الليلة وعندما تحصل الطائرة ويصحب لبني حتى البيت سيكون الوقت تأخر جدا . قال للمرضة على أبيه حال إنه سيتأخر عن موعده ، وتستطيع المربيات الانتظار أو الاتصال . عودهن على احترام النظام والوقت . لا يستقبل أي مريضة تتأخر عن موعدها دقيقة واحدة . لايد من شيء من الشدة في هذا البلد . ولكن المسالة ليست بهذه المرة . إن كن عاقلات فسيقتصرن ، لا داعي حتى لأن يكلم المرضة . ثم أين يمكن أن يجد التليفون في هذه القوشى الشاملة في المطار؟ جرب ذات مرة أن يجده حين عاد من إحدى رحلاته فلم يفلح . كل شيء فوضى في هذا البلد . ربما كان يجب أن يسافر هو إلى روما بدلاً من لبني . لديه ما يكفي ليعيش هناك . لا إلى لندن بالطبع : لن يجد مشكلة في أن يعمل هناك ولكن ماذا عن لبني؟ إن كانت لم تتبع في روما فهل تحتمل الحياة في لندن؟

لم يكن هناك كثير من الزبائن في الكافتيريا . معهم حق قهوة مقرفة . رأى عبر الواجهة الزجاجية المستقبليين ينكسرن في حالة الانتظار . معظمهم يلبسون الجلابيب وينتظرون أقاربهم العائدين من الخليج . يا عمال العالم اتحدوا! أهلاً وسهلاً ! ترى كيف يتحدد عمال الخليج مع إخوانهم من الفلاحين والصعايدة؟ بالصرم القديمة ! راهم بعيته هناك . في أحد المطارات راهم يقرفصون على الأرض في صلوف وأمامهم شرطي يمسك عصا ليمنع أي واحد من النهوض أو الحركة !

لم يأت الاخ ماركس إلى هنا ليرى ويتعلم ؟ كان سيقول شيئاً مختلفاً بالتأكيد . مثلاً يا عمال العالم انتحرؤا : هذا هو الحل الناجع بالفعل . الطريقة الوحيدة للقضاء على الفقر هي القضاء على الفقراء ؛ لا مشكلة لأنه يدمنك ماذا في معيشة هؤلاء النساء يستدعى التمسك بالحياة بالطبع الرملاء ، الذين يدخلون السجن ويخرجون منه كالملوك يعتزروني خانتها لو سمعوا هذا الكلام . هم يعتزروني خانتها دون أن يسمعوه ؟ يكن : أترك لهم بكل ارتياح السجن والفقر وتغيير التاريخ بدوني !

ولكن انتظر لحظة يا شوكت أنت لست استقراطياً مثل صفاء هاتم . ربما بعض هؤلاء العمال الواقعين هناك من أقربائك الذين لا تعرفهم . ليس مجرد أن أيام الخلوى الملاج تزوج من أمك التركية أصبحت أنت من جنس آخر . ثم إنك لا تعرف أي شيء عن أمك التركية هذه . ليس لك أخوال أو خالات . فهل صحيح ما سمعته أنها كانت خادمة جلبواها من استانبول لبيت صاحب العزبة ؟ يقولون (كمبريرة) كان هذا شيء أرقى ! لا يهم . المهم أنها ورثت أختك الشعر الأصفر والعيون اللون والجسم الأبيض الذي يحبه أبناء هذا البلد فتزوجها أحد дبلوماسيين . ينفعه كثيراً زوجها في متابعة حساباته في الخارج . أما أين فقط كل صلة له بأخوه وأقربائه عند ما نزح إلى القاهرة وعمل في سمسرة العقارات . لا أعرف لي أي أقرباء ، ولكن أنا لا يهمني من يكون أبي أو أمي أو أقربائي . أنا شوكت ابن شوكت ! أنا الذي صفت نفسى ولا فضل لأحد على لم أرث أرضاً ولا مالاً ولم يساعدنى حال ولا عم ؛ لا فضل لخليق على فيما وصلت إليه . أنا بالفعل شوكت ابن شوكت ومن حقن أن أفترئ بذلك !

ولكنها هو شئ جديد في الكافتيريا امرأة جميلة وأنيقة وتحمل في يدها ياقنة ورد تأبهها بنظره إلى أن جلس قبالتها على منضدة بعيدة ثم تجمدت عضلان وجهه فجأة وهو يتأنثها بالطبع . نعم . هي صفاء هاتم . لا أحد غيرها !

ظل يعتمد بيده على المنضدة وقد نهض بجذعه وهو يتطلع نحوها ثم عاد إلى الجلوس وهو يقول بلهجة جافة :
- مساء النور . خير؟
- لنأخذ من وقتك دقيقة . هل يمكن أن أجلس ؟
أشارت إلى منضدتها التي تركت فوقها كتابها وباقي الزهور ليقطم أنها سترجع إلى مكانها . لم يردد شوكت ولكنها كانت قد سحبت كرسياً وجاءت بحركتها الرشيدة متباينة قليلاً عن المنضدة وبدأت تتحدث بلهجة عملية جداً :
- كنت أريد أن أقترح عليك شيئاً . إذا وافق يمكن أن تستقبل لبني معاً بدلاً من أن تقابليها بالدور . أعرف أن هذا سيسعدها . لا ، هذه كلبة كبيرة . أقصد على الأقل سندقيها من الإحراج والارتباك .

لا توجد تجاعيد في وجهها بنت الحرام ! أبد وأن التجاعيد موجودة أيضاً في صورة دوريان جراي . هذه شيطانة ! لا يمكن أن يكون هذا الجمال والبشرة للنساء في هذه السن أدمياً !

قال وفي صوته الرخو نبرة عصبية : ملادمت لبني تهمك وتحرصين على مشاعرها إلى هذا الحد فاظن أنك كان يجب أن تفكري فيها منذ زمن طويل . عندما ..

نهضت صفاء وقد احتقن وجهها وهي تقول : أخطئت بالفعل حين تصورت أنك يمكن أن تفهم أي شيء ! كان يجب أن أعرف أنك لا تتغير . حلق على ! ثم قامت وعادت إلى مكانها بخطوات مسرعة .

فتحت الكتاب وراحت تنظر فيه دون أن تتمكن من قراءة أي شيء . قالت لنفسها حلق على أنت يا صفاء ! لا يهم . فعلت ذلك من أجل لبني . نعم كانت غلطة . أعرف . كانت غلطة وما أهمية ذلك على أي حال ؟ تراهما لبني معاً أو تراه أولاً ثم

حول وجهه بسرعة إلى ناحية أخرى . هو لم يرها ولا حتى بالصادقةمنذ الطلق . لحسن الحظ . تعمد كلامها أن يتتجنب الآخر . حتى في روما كان ينسق زياراته مع لبني لكن لا يلتقيا هناك . ولكن كان يجب مع ذلك أن يتوقع أنها ستاتي الليلة كيف غاب عن ذهنه هذا الاحتمال ؟ وما الأهمية ؟ هي في حالها وهو في حاله . يمكن حتى أن يخرج من الكافيتيريا إكراماً لخاطرها !

مع ذلك تلخصت بنظره نحوها في حذر شديد . كانت تفتح كتابها وتقرؤه باتهماك شديد وعلى المائدة باقة الورد .
فكرة : طبعاً الهام لا تقوتها الأصول بنت الأصول تعرف الأصول ! ولكن هل تدخل الخيانة الزوجية ضمن هذه الأصول ؟ منظرها بربة جداً وهي تجلس هناك منهكمة في القراءة . بربة جداً وجميلة جداً مثلما كانت طول عمرها . مثل حكاية دوريان جراي . لأبد أن لديها مثل صورة في البيت يرسم عليها بشاعرها وانحلالها بينما تحافظ هي بقىاع هذا الوجه البريء ؟ ولا فهناك قلم في أن يظل وجهها بهذه النصاعة والجمال حتى هذه السن ! ولكنني لا أراها عن قرب . وبما كانت هناك تجاعيد في الوجه . لا يمكن أن تهرب من الزمن !

في هذه اللحظة رفعت صفاء وجهها والتقت عيناها بعيته . لم يجد أنها فوجئت . ظلت تنظر نحوه ثم هزت رأسها بليونة خفيفة . أو ما ، هو برأسه بعصبية ثم حول وجهه على الفور . الهام مهندية أيضاً الكلبة ! يجب أن أترك لها هذا المكان على الفور . أترك هذه الكافيتيريا البشرة واتحد هناك مع عمال العالم ! يمكن احتمال روانهم وأوصواتهم المزعجة أكثر من الوجود مع هذه الهام في مكان واحد !

وكان يهم بأن يقوم عندما وجد صفاء تقف أمامه وهي تقول بابتسامة صغيرة :

- مساء الخير .

لا . هي ليست نادمة . صدقني هو أنفصل شئٌ حدث في حياتها بعد لبني .
وكان عزماً لها قد استقر على الطلاق وانتفت عليه مع صدقني من قبل تمثيلية
شوكت . وفر عليها بهذه التمثيلية أشياء كثيرة ، لكنه حرمتها من لبني . إن تكون هي
قد تركت جرحها في نفس ابنتها فهو لم تعرف عمق الجرح الذي خلفه غياب لبني
عنها إلا بعد أن سافرت إلى روما ولحقت هي بها على الفور هناك لترى ابنتها
المريضة . أصابها الانهيار العصبي في السجن ونقلتها شوكت من هناك إلى
المصحة . شاهدت عذاب ابنتها في هيستيريا الانهيار التي تعرفها جيداً من
دراستها وتعرف أنه ما من إنسان يستطيع أن يساعد غيره على الخروج منها .
ظلت مع الطبيب دقيقة بحقيقة تتبع العلاج وتتابع ابنتها دون يوم ولا راحة حتى
كادت هي نفسها أن تسقط . ولازمت لبني بعد ذلك أسابيع في تقاعتها ، لم
تكتشف كل الحب الذي كانت تخترنه لا بنتها ونكتبته إلا هناك وهي تراها ضعيفة
ومريضة في تلك الشاب البيضاء ، راقدة على فراشها في المستشفى . لكم تجدها ،
ولكم هي نادمة على كل الوقت الذي ضاع منها !

لم تتبني الدكتورة صفاء إلى الدموع التي كانت تتساقط على الكتاب المفتوح
لكتها انتبهت فجأة إلى شوكت يقف أمامها فمسحت دموعها بسرعة ونظرت إليه
 بشيء من التحدي .

قال لها وهو يضع يده على المنضدة : أنا أسف لما قاطعتك ولكنهم أعلموا عن
وصول الطائرة . إن كنت مازلت تردددين ، فلياتا .. من أجل لبني
هزت رأسها وقالت دون أن تنظر نحوه وهي تشيز ياصبعها إلى باب

الكافيرية : ساكون عند بواية الاستقبال .
ابتعد عنها ورأها تخرج من حقيبتها على الرiese ، وقال لنفسه وهو يخرج
دموع التسامسح ! جرحت مشاعر الهاشم بكلمتين . كاتما لديها بالفعل

مشاعر ..

نراها يعدد . هي تعرف أن كل شئٌ يبيّنها إلى الأيد ، مع ذلك تمنيت لو أتوف
عليها هذه الدقائق من الإحراج وهي ترى أنها وأياها متباuginين وتنظر إلى أن
تحببها بالدور . أنا أعرف الآن كل جروح لبني . لو أمكن أن أعيّنها من جرح
واحد جديد ! مع ذلك فهم لم تعرفها كابنة ولم تعرف نفسها كأم إلا في روما . لا
 تستطيع أن تغفر لنفسها ابتعادها عنها هذه السنين الطويلة . لا تستطيع حتى أن
 تفهم السبب . هل كانت تهرب منها لأنها بنت شوكت ؟ وما زنتها ؟ هي في النهاية
 كما كانت تقول دادة سنية « بنت بطئي » البت الوحيدة . صدقني إنقذها بالفعل من
 تعرف لبني الحقيقة ؟ ما الجريمة في هذه الحقيقة ؟ صدقني إنقذها بالفعل من
 الجنون مع شوكت . إنقذها من الانتحار . قيلت شوكت على ملاتة من أجل لبني
 ولكن أحال حياتها جحيمها منذ أن صارت بحالها معه . لا تدري هل كان يعايبها
 أو يعاقب نفسه لفشله بتلك المشاجرات والإهانات المستمرة يوماً بعد يوم . ماذما
 كانت ستفعل لو لا صدقني ؟ ظهر في الوقت المناسب بالحسبني . عندما استولت عليها
 فكرة الانتحار للهروب من جحيم الحياة مع شوكت .

رأته في البيت لأنه كان يستوره معدات المستشفى من أجل شوكت . وكثيراً ما
 كان يأتي قبل وصول الدكتور لتجلس معه في انتظاره . وعندما كانت تتكلم كان
 يميل قليلاً بجسمه الضخم وينتصت لها وعلى وجهه تعبر اهتمام واحترام مبالغ
 فيه فتشوكت أن تضحك . هذا قبل أن تكتشف أنه لا يتكلف هذا الاهتمام ، وأنه
 يعطي كل نفسه بالفعل لن يحدثه . سواء كانت هي أو شوكت أو أي إنسان آخر .
 لم تعرف في حياتها قليلاً محبًا للناس مثل هذا القلب . وبידأت تفقد هذه حين يغيب
 وتنقلب بلهفة حين يأتي . وبهذا هو أيضًا يهرب بنظراته منها ويختنق وجهه
 الأحمر من الأصل حين يتواجهان . وسأله مرة وفما في انتظار شوكت : لماذا لم
 تزوج حتى الآن يا صدقني بك ؟ فثار إلى صلعته ووضع يده على كرشه وقال
 ومن التي ترضي بي يا دكتورة صفاء ؟ فقال دون تفكير : أنا !

- ١٩٦ -

في السيارة كان شوكت يختلس النظر إلى لبني التي جلست إلى جواره صامتة تتطلع للطريق . تغيرت كثيرا في هذه السنوات الثلاث . لم تعد الطلة التي سافرت هي الآن امراة جميلة، أكثر امتلاء ، وقد أصبح وجهها أميل للاستدارة ، والزينة التي تضعها تبرز جمال ملامحها، كل هذا حسن، ولكن لانا صبغت شعرها باللون الأسود ولانا تركت يسترسل؟ تتشبه بإنها؟ أتفنى إن يقتصر هذا على الشعر؟ أتفنى أن تكون قد أصبحت أطلال يجب أن تخرجها من هذه الحالة التي استولت عليها منذ سمعت عن مريضتها و يجب أن أطمئن عليها على كل حال.

حاول أن يجعل لهجته عادية وهو يقول: هل تعرفين يا لبني أن القضية التي أخذوك من أجلها مازالت في المحكمة؟ أفرجوا عن زملائك ولكن القضية مازالت.. التفت نحو والدها: أعرف.. كانت تصليني كل الأخبار في روما.. - ولكن أنت الآن لا علاقة لك بهذه المسائل بالطبع؟ قلت هذا السعادة اللوا، وأوصى بنفسه في المطار لكن لا تواجهي أي مشاكل في الدخول.

ابقتسمت لبني ابتسامة صغيرة، ولكن المشاكل حدثت مع ذلك يا أمي؟ أخذنا جواز سفر، وفتشوا كل حقائبنا وأخذوا كل الأوراق التي معنـى قبل أن يسمحوا لي بالخروج.

لتفشن الدكتور شوكت في مكانه وقال: كيف؟ سعادة اللوا، وعذرـى بنفسـه.. - لا يهم يا بابا، خرجت في النهاية وهذا هو المهم.. قال فيما يشبه الغضـب: ولكنه وعدـى، المفروض أنه مدـين لي.. عالجـت له زوجـته.

رفعت لبني يديها وهي تقول: كما ترىـا لكن الدكتور أكمل غاضـبا: كان المفروض أن ياتـى بنفسـه ليـتـنـظرـكـ ويسـهلـ خـروـجـكـ، أنتـ لا تـعـرـفـينـ كـمـ هوـ مـدـيـنـ لـيـ، زـوـجـتـهـ كـانـتـ فـيـ حـالـةـ مـيـتوـسـ مـنـهاـ لـوـلاـ ماـ فعلـتـ لـعـاجـهاـ..

وقـدـاـ مـتـحـاـورـيـنـ عـنـ بوـاـةـ الخـروـجـ مـنـ المـطـارـ دونـ أـنـ يـتـبـادـلـ كـلـمةـ . كـانـتـ صـفـاءـ تـتـلـعـبـ بـلـهـفـةـ إـلـىـ وجـهـ الـخـارـجـيـنـ وـتـشـرـبـ بـعـقـبـهاـ حـينـ تـرـىـ زـحـاماـ مـنـ عـرـبـاتـ الـحـقـابـ الـتـيـ يـدـفعـهاـ الـقـادـمـونـ . وـلـكـنـ لـبـنـيـ تـاخـرـتـ كـثـيرـاـ دـاخـلـ المـطـارـ عنـ بـقـيـةـ الرـكـابـ فـيـ طـائـرـةـ روـماـ . وـكـانـ الـدـكـتـورـ شـوـكـتـ يـلـقـبـ بـعـبـيـةـ أـيـضاـ عـنـ لـبـنـيـ وـيـنـظـرـ فـيـ سـاعـةـ كـلـ دـقـيقـةـ . غـيرـ أـنـ كـانـ يـلـتـصـصـ بـنـظـرـهـ بـيـنـ حـينـ وـأـخـرـ إـلـىـ صـفـاءـ الـواقـفـ إـلـىـ جـوـارـهـ وـالـتـيـ لـمـ تـوجهـ لـهـ كـلـمـةـ وـلـمـ تـنـظـرـ نحوـ مـرـةـ وـاحـدةـ . وـقـالـ لـنـفـسـهـ تـجـاهـلـتـ؟ كـانـاـ لـمـ تـكـنـ فـيـ الـتـيـ طـلـبـتـ أـنـ أـصـحـبـهاـ . وـلـكـنـهاـ تـخـيلـ بـالـطـبعـ أـنـ تـنـظـرـ فـيـ وجـهـيـ...ـ

بعد أن انقطع زحام ركاب الطائرة ، ظهرت لبني وحدها وهي تدفع أمامها عربتها ، بدا في وجهها شيء من الدهشة وهي ترى أنها وأياها يقفان معاً، عانقت أنها بعد خروجها ، وكانت الدكتورة صفاء ترتجف تقريبا وهي تحضن ابنتهما ثم تأولتها ياقـةـ الـورـدـ واستـدارـتـ تـسـعـ دـمـوعـهاـ . وـقـبـلـ لـبـنـيـ أـيـاـهاـ فـيـ وجـهـيـ.

ابتعدت لبني عنها قليلاً، وساقت بهدوء: رادة سنـيـةـ؟ تـبـادـلـ صـفـاءـ وـشـوـكـتـ نـظـرـةـ سـرـيـعـةـ ثـمـ نـظـرـاـ نحوـ لـبـنـيـ لـوـنـ روـماـ . قـالـتـ لـبـنـيـ بـهـدـونـهـاـ نـفـسـهـ: كـنـتـ أـغـرـفـ (ـثـمـ نـظـرـتـ نحوـ أـمـهـاـ) مـنـ اـنـقـطـعـتـ عـنـ الحديثـ عـنـهاـ فـيـ الرـسـائـلـ وـالـتـلـيـقـونـ فـهـمـتـ. وـلـكـنـ يـقـنـعـنـدـيـ مـعـ ذـلـكـ شـيـءـ مـنـ الـأـمـلـ..

اطـرـقـتـ لـبـنـيـ وـقـدـ تـدـلـىـ تـرـاعـهـاـ الـذـيـ يـحـمـلـ يـاقـةـ الـورـدـ . هـمـتـ صـفـاءـ، أـنـ تـحـضـنـهـاـ مـنـ جـدـيدـ وـلـكـنـهاـ قـدـرـتـ أـنـهاـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـشـارـكـهـ حـرـزـهـاـ وـلـكـنـهاـ لـتـسـتـطـعـ أـنـ تـحـمـلـ يـدـلاـ مـنـهـاـ فـيـ هـذـهـ الـلحـظـةـ . فـامـسـكـتـ بـذـراـعـ اـبـنـهـاـ وـهـيـ تـقـولـ: سـاتـرـكـ تـرـاحـمـنـ اللـيـلـةـ يـاـ لـبـنـيـ وـسـتـحـدـثـ غـداـ..

ثمـ قـالـتـ بـلـهـجـةـ عـادـيـةـ وـهـيـ تـنـصـرـفـ: سـلامـ يـاـ دـكـتـورـ شـوـكـتـ .

★★★

أنه ربما يجمع معلومات أو شيئاً من هذا القبيل، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه شريك ، ويتبادل المصالح معهم.

لهم كل الحق هؤلاء الطلبة، حتى ولو كانوا لا يستحقون ! ولكنها الآن تعرف حدودها، تمنى لهم حظاً طيباً ولكن من بعيد!

جلس الدكتور شوكت إلى جوارها مستترقاً في التفكير هو أيضاً، بدا عصبياً وهو يعطي أوامره للسائق طول الوقت أن يسرع ، بدا متعجلاً ولكن كان يفكر في الحقيقة في شئ آخر: الآن يجب أن يتلقى النصائح من ساقطة وطلقة هزلت بالفعل... ثم إن هناك شيئاً يذيننا في أن تكون امرأة في هذه السن بمثل هذا الجمال.

في البيت تلقت لبني حولها وقالت لنفسها رجعنا إلى بيت خال ، لا راداة سنينة ولا عم حسن، ربما يكون الله قد رحمهما بالموت. كيف كانت سيعيشان في هذا العصر السعيد؟ دادة سنينة كانت أنها سترعاها بالتأكيد ولكن عم حسن؟ حتى قبل أن تتسافر إلى روما كان يوسطها لدى الدكتور لزيادة مرتبه لأن المرتب لم يعد يكفي لصاريف البيت وتعليم الأولاد. هل سأل الدكتور شوكت عن هذه الأسرة بعد وفاته؟ يجب أن تعرف.

ذهبت إلى غرفة دادة سنينة، لم يكن هناك سريرها ولا (الكتبة) التي كانت تتربى فوقها . حولها الدكتور شوكت إلى مخزن لخطة الجديدة، في وسط الغرفة كان تمثال خشبي فوق حامل لرجل طويلاً نحيل محظي الرأس، كان يفلد أسلوب (جياكوميتي) الذي تحبه، ولكن بدلاً من الرشاقة والتوازن والشموخ في تماثله كان هذا يشبه تمثالاً لرجل مريض . كان تمثالاً مريضاً، حولت بصرها عنه، ورأت الدادة تجلس فوق الكتبة يطربحتها البيضاء، ورأت البسمة التي كانت تثير وجهها المتغضض حين تراها: أهلاً يا بنتي يا حبيبتي . لا ! ذلك انتهى . لا الكتبة ولا دادة

ظللت ابتسامة لبني على شفتيها ولكنها ثالت بشيء من تقاد المصير:

- لماذا لا تتغير يا أمي؟

قال متعجباً: أنتغير؟ كيف؟

- أنت الأدري . سامحي.

فكرة شوكت : أنتغير! هذه الكلمة أنها ابنه هي لم تصميم شعرها فقط ولكنها صيغت أفكارها أيضاً.

قال : بالطبع . لا توجد عذر مشكلة لأنغير ، ولكن أنت ؟ هل غيرت أفكارك التي انتهت بك إلى السجن؟ هل سترجعين مرة أخرى إلى هذا اللعب؟

- لا، لن أرجع.

تهجد الدكتور شوكت في ارتياح: عين العقل.

- أو عين الجبن؟ لكنني لن أرجع.

لم تقل له إيتها في روما المتنعمت تماماً بأن ما يقوله زملاؤها في مقالاتهم ومتشاروئتهم أقل من الحقيقة . رأت في بيت زوج عمتها дипломاسي تجار الانفتاح الذين كانت سمع عنهم . اعتاد أن يدعوهم للعشاء ، وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من ال威سكي يطلب عيارهم وتطلق السليم . يتذالون الخبرات عن كيفية تهريب الشحنات من الجمرك، وعن أماكن شراء البصانع (المضروبة) من إيطاليا وتمريرها على أنها بضائع صالحة ، وعن أضمن الطريق لتهريب العملات، ومن الذي يجب أن يدفعوا له في البلد..! كانوا يتباكون أيهم (أشطر) من غيره ويشكلون بصراحة تدهشها لا يشعرون بخجل مما يقولون ولا يفهمون حتى مدى اليدزة والإجرام فيما يقولون.

ولكن ما أدهشها أكثر أن زوج عمتها дипломاسي المثقف يصبر على سماع أحاديث هؤلاء، اللصوص الذين كانوا بلا استثناء حفنة من الجهلة، وأنه يضحك على نياتهم الفجة وينبادرل المزاج معهم، في البدء اعتقدت أن هذا جزء من عمله.

لن يذهب إلى العيادة في هذه الليلة وعلى المريضات الاتصال غداً لتحديد مواعيد جديدة.

جلس إلى مكتبه وأخرج زجاجة الويسكي من مخفيتها الذي وضعها فيه قبل مجيئي لبني . لا ، لم أخطئ ليس هذا تماماً يجب أن تهتز صورة أيهما أمامها . أنا لست سكيراً على أية حال . أشرب فقط لازرع أحصائي من إجهاد العمل . حب لنفسه كأساً وجلس إلى مكتبه .. ولكن أني إجهاد يريد أن يرثى منه الليلة بالذات وهو لم يعمل أبداً! إذن فلنعمل!

اتجه الدكتور إلى مكتبه وأخذ منها أحد مجلدات مجلة طبية متخصصة في طب النساء ، وصلته من لندن ثم رجع إلى مكانه وبدأ بشرب من الكأس في جرعات كبيرة على غير عادته.

فتح المجلة وقرأ قائمة المواد ثم اختار الموضوع الذي يهمه . انتهت الكأس فصب لنفسه كأساً جديداً، راح يشتمل المصورة الموجودة في صدر الموضوع بالألوان.

رغم دراسته وعمله وكل من عرف من النساء فهو لم يستطع أبداً أن يتغلب على تلوره من هذا الشكل . هذا الجرح المستطيل الذي لا يندمل . هل يكون تقرزه القديم العهد من أيام الدراسة هو السبب في ...

ـ لا ! لا داعي لهذه الأفكار التي لا تؤدي إلى شيء ، فلنعمل.

ـ لكن العمل لا يأتني . كان يقرأ وبعد قراءة ما سبق دون أن يستوعب شيئاً . وانتهت الكأس الثالثة بسرعة أيضاً . أغلق المجلة بحركة عصبية . ربما الأفضل لو خرج ، يذهب إلى مكان يلتقي فيه بناس آخرين ويشرب وسط رحام . أحسن من ذلك أن يلتقي بآني واحدة من صاحبات ويقضى معها الليل . ها هو التليفون . يمكن أن يجرب لكنه راج ينظر إلى التليفون دون أن يمد يده إليه . وحب لنفسه الكأس الرابعة بيد ترتعش.

ولا حتى لبني لبني انتهت من زعن . منذ متى ؟ منذ السجن؟ منذ المصححة؟ قبل ذلك في الليلة التي سبقت السجن؟ المهم أنها انتهت.

ذهبت إلى غرفتها . هناك وجدت كل شيء في مكانه . رأت سريرها ومراتتها ومكتبتها الصغيرة . لا . حتى هذه الأشياء ماتت في داخلها . هي لا تستيقن إلى شيء حقاً . عالجوها جيداً في مصحة روما . عليها الطبيب الذي رافقها شهوراً ولم يكن يكل عن الكلام أن تنسى التوف وتنسى معه كل شيء آخر عالجها بالبقاء في حمامات السباحة ساعات كل يوم؛ ولم بعد ياتيها غثيان المعدة ولا الدوار ولا ارتعاش الساقين . لم تعد هناك وساوس ولا هلاوس . قال لها الطبيب شيئاً قريراً مما قالته أمها: إن الإنسان ينضج ويصلح نفسه بالصراع ضد ماضيه . لكنها لم تصنع نفسها أبداً . ولم تصارع أي شيء . صارع الطبيب نهاية عنها وصنعتها ضد ماضيها ومستقلتها معها ! لأن لا خوف ولا طمأنينة . لا حزن ولا فرح . لا حب ولا كره . لا إفراط ولا تفريط ! ستعيش في الوسط المريح ، مثلها مثل كل الناس .

ـ سالم كان عيناً وانتهى . كان كايوسا وانتهى . كان ما كان وانتهى . والدكتورة صفاء ؟ تعرف الآن كم تحبها . تشقق لبني عليها وهي ترى عواطفها الجارفة وترى كل ما تفعله لتسترد أمورتها . وهي أيضاً تحبها . ولكن الطبيبة وصلت مع الاسف بعد وفاة المريضة !

جلست لبني على السرير ونظرت إلى صورتها في المرآة مثثماً اعتناتها أن تفعل في القديم . وقالت لنفسها بابتسامة صغيرة . والآن ماذا ستفعل في كل هذه

ـ البهجة ؟

ـ صرف الدكتور شوكت الطياخ الجديد عندما قالت لبني إنها لن تتعمش ولها مجدها من السفر وتود أن تنام . دخل هو بدوره إلى غرفة مكتبها واتصل

ـ بالمرضة :

ما زلت يادكتور شوكت؟ لما زلت هذا الهم في داخلك؟ طبعاً لأنني رأيت
صيفاً ولكن ما زلت؟ أنت تعرف أنها موجودة طول الوقت وتعيش معك في نفس
المدينة . كان يمكن أن تراها في أي لحظة . نعم ولكنها أعادت لي ذكري ذلك اليوم
التعيس . أنت لم تتسه أبداً على كل حال . الساقطة! .. نعم أعرف ، أعرف ساقطة
وجميلة . جميلة جداً وساقطة . كانت ملك يدك على أي حال . أنت استمتعت فعلاً
بامتلاك هذا الجسد الخارق فترة من العمر . ولكن هل استمتعت كما يجب؟ وهل
استمتعت هي؟

ساقطة . ساقطة ، بكل ما أعني ! وأنت ماذا بالضبط؟ قالت إنك يجب أن
تتغير ، صفا ، قالت ولبس قالت .

يتغير ! ضحك لنفسه بصوت خافت وهو يرشف الآن من الكأس الجديدة ببطء
وقد بدأ الوار . ظظ فيها وفي بيتها! أنا شوكت ابن شوكت!

ضحك مرة أخرى ولرضا يده على قمه . ظظ في شوكت ابن شوكت ! لماذا
تهز هكذا يا دكتور مجرد أنك رأيتها؟ تعال نقل الحقيقة . هل مازلت تحبها؟ إن
يكون ذلك كذلك فعليك العوض يا شوكت يا ابن شوكت ! عليك أن تذهب إلى
مصلحة لبني في روما . الأسهل أن تتخر ، هذا أيضاً تغير يا دكتور!

وما الذي تغير؟ يجب أن تعرف . نعم أنت كنت تعرف نفسك من زمن طوبل
تعرف . حاولت أن تعالج نفسك بذريعة من مصر وبذريعة من اللدن ومن فرنسا ومن
واق الواقع . وكانت تسمع متظاهراً بعدم الالتفات إلى النصائح والتجارب التي كان
يتبادر لها أصدقاؤك في جلسات الرجال ، وإلى أقوال هؤلاء الكتابين «بالامتن طول
الليل...» الكتابين.

ضحك لنفسه مرة أخرى بصوت مسموع . أنا لم أكن أريد طول الليل
عشر الليل ، واحد على عشرين من الليل ! عشر دقائق من الليل ! خمس ، لا
پاس ! ولكن لا قاعدة ! البداية هي النهاية !

ولكن ماذا عن الآخريات؟ لم يكن يشتكى . قبله على حاله .
على من تكتب يا دكتور؟! كنت تجدنهم يومياً وشهرتك ودعاياك الفالية
فلمانأ لم تبق أى واحدة منها معك أكثر من أسبوع؟

ظل ؛ أنا لم أكن أريدهن أيضاً ! ماذا كنت تريد إذن؟ نعم؟

أنا لم أرد واحدة غير صفاء ! لو أنها ساعدتني بدلاً من أن تخوشتني ، فربما ..
مسح دموعاً من خده وهو يقول لنفسه أنت سكرت يا دكتور شوكت يا ابن .. يا
ابن الـ ..

مد يده إلى التليفون وطلب الرقم . يجرب معها العلاج الأميركي الجديد!
طول الليل! ما ها ها! وماذا لورد عليه صدقى الخنزير؟ لكنها هي! هذا هو
صوتها:

- الـ ..

- هذا أنا .. أنا شوكت ابن ..

ثم سكت واحتبس صوتها .

تحصل صوتها هي: نعم ، ماذا حدث؟ لبني بخير؟

- لبني؟ نعم ، نعم ، لا ، أنا أبي لبني . أنا لست بخير . إسمعني ، من فضلك هل
يمكن أن أراك؟ يعني .. من فضلك!

قالت بهدوء: أنت سكران يا شوكت . صوت يقول إنك سكران جداً فلا تتكلم
الآن .

- نعم؟ لماذا من فضلك؟ .. على الأقل مرة؟ على الأقل أنا كنت زوجك عندما
ذهبت إلى صدقى ! لماذا صدقى من فضلك وأنا لا؟ على الأقل مرة؟

كررت: أنت سكران ولا تعرف ما تقوله يا شوكت ..

- على الأقل ...

احتد صوتها فجأة: يا مجنون! لو انظرت صنف الرجال كله من العالم !
على الأقل احترم أنت ابنته في ليلة عودتها . يا مجنون!

- من فضلك تسك يا أبي .. أنت لا تعرف الان ما تقول . أرجوك أن تذهب إلى غرفتك أريد أن أتأمّل.

- لحظة من فضلك . أنت لا تفهمين . من فضلك .. مجنون ، عاقل ، قاتل، أنا أنساك هل تحببوني؟.. أقصد ما الذي يمنع يعني؟ إن كان الحب يحتمل الخيانة فلماذا لا يحتمل الجنون؟ الشئ الوحيد المهم في الموضوع يا لبني .. أبي .. جدك يعني ، كان عنده مثل يحبه .. كلب أبيض وكلب أسود الاثنين ولاد كلب .. هي؟ .. يعني كلب دكتور وكلب مجنون ما الفرق ؟ أقصد يا لبني .. من فضلك ..! ازاحت لبني أياماً من الباب بعنف وهي تقول في غضب : من فضلك أنت ؛ إذهب إلى غرفتك الان . أنا أريد أن أتأمّل

ثم صافقت الباب وأغلقته من الداخل باللatch . أفاق شوكت قليلاً مع ضجة إغلاق الباب ووقف يتسلّل في ذعر : ماذا حدث بالضبط ؟ يجب أن أذهب إلى الحمام؛

في الصباح كان الدكتور شوكت وليني على مائدة الإفطار في المساء ، كان وجهه شاحباً قليلاً ويشعر بصداع ..

سأله ابنته: هل نمت جيداً يا لبني ؟ هل ارتحت من السفر؟
تأملته قليلاً وهي تقول: نعم، شكراً.

- هل ستخرجين اليوم؟

- لا أعرف ، اسمع يا أبي : لماذا لم تقل لي من قبل إن سالم مر عليك في العيادة ..

- من هو سالم؟

- زميلي، الذي قلت إنه جاء وجاء جده أيضاً إليك في العيادة.

- ابنتي ؟ ملعون أبو ابنتي ! أنا أقول على الأقل مرة ... من فضلك؟ لكن صفاء كانت قد وضعت السماعة في غضب ولم يكن هناك على الطرف الآخر غير صفاره ومد شوكت يده المخمورة في استمناته إلى التليفون ليطلب الرقم من جديد فسقط الجهاز على الأرض في ضجة وربين وحين نهض بليقته وجده نفسه يترمّع ويتعثر فتلّقها لحظة وهو يمسك رأسه بين يديه وبعصر جبهته . ظل يقف فترة محاولاً أن يتماّن نفسه وهو يقول: ابنتي، ابنتي؟ هناك شئ قالته عن لبني، ما الذي قالت بالضبط؟ يجب أن أرى لبني .. طرق باب ابنته ففتحت له وكانت بثياب النوم.

وقف متّسحاً بالباب فقالت يائز عاج : بابا ؟ هل حدث شئ؟
نعم ، ولكنني لا أذكر بالضبط ما هو؟

وقف مستنداً بيده إلى الحائط وقال : أنت الآن تشبهين أمك يا لبني فهل .. ثم هربت منه الفكرة التي كانت تتشكل في رأسه فقال فجأة :
- إسمعني يا لبني .. هل أنت تسبعين الوالد.. الولد المحبوب الذي جاء إلى عيادتي يوم قبضوا عليه..

- أى ولد؟
- الولد .. الولد (الحلبيّة) الذي .. الذي كان يريد أن يعتذر لك وأنت في السجن هنـ .. هـ ..

- سالم؟ هل جاء إلى العيادة .. لماذا لم تقل لي؟
لم يسمع فناكمـلـ: جاء جده أيضاً بعد سفرـكـ وقال إنـ الـولـدـ جاءـهـ حالةـ نفسـيةـ لاـ حـالـةـ ولاـ يـحـرـنـونـ . أظـنـ أـنـ مـجـنـونـ مـنـ الأـصـلـ لـكـ مـنـ فـضـلـكـ أـنـ أـسـكـ هـلـ أـنـ تـحـبـبـيـ بـالـفـعـلـ؟ـ هـوـ مـنـ أـسـرـةـ مـجـانـينـ بـالـطـبـعـ جـدـهـ أـيـضاـ مـجـنـونـ،ـ جـاءـ إـلـيـ وـشـمـنـشـ فـيـ عـيـادـةـ أـنـاـ شـوـكـتـ أـبـيـ ..ـ

التفيد الباشكابط صحبة سالم الذي أصبح الآن مثل شعبان يقضى النهار كله في العمل ويستيقظون في الليل أيضا جزءا من الليل ، وطلب من حفيده ولكن دون إلحاح أن يوفر وقتنا المذاكرة ليدخل امتحان الكلية . غير أن سالم لم يجد أى حماس لذلك ، فاقصر الباشكابط أن يقدم من جديد شهادة مرضية لإعفائه من الامتحان سنة أخرى . وكانت تلك إحدى المرات النادرة التي خرج فيها بعد عودة فوزية إلى بيتهما ، اعتادت حفيديثه أن تأتى كل ظهيرة تلعد له الغدا ، وتبقى معه حتى يدخل ليرتاح قليلا ، وفي المساء يقضى وقتا قليلا مع سالم وشعبان ، وفيمما عدا ذلك كان يقضى معظم وقته في غرفته .

أصبح الباشكابط يجد صعوبة في صعود السلالم ، مع أن الجيران كانوا حين يسمعون إيقاع عصاه يخرجون له مقعدا في كل دور ليرتاح قليلا على (البسطة) قبل أن يواصل صعوده . قلل خروجه من البيت ، وقل أيضا حاجته إلى التوقيف والغداش والتواكل ، وبكره الفرض الواحد أكثر من مرة ليعرض ما فات في السنين القائمة .

وانهمك الباشكابط أيضا في قراءة الكتب التي أعطاها له أبو خطوة مرة بعد أخرى حتى كاد يحفظها . وكان يلوم نفسه لأنه مع حرصه على التزام وضوابطها ظل يهمل أهمها جميعا . وبذكر أحيانا : الذين ذنبوا يا سيد إن كانت البشرى تراوغك ! كيف تريد الوصول وأنت تعطى نفسك رخصة واجازة من التقاديم بالعزلة الالزامية للتنفسة روحك وتصفيتها من كل كدر ؟ يقول لنفسه في الواقع أنا أعيش

قال بشئ من الدهشة : أنا قلت ذلك ؟ أه ، بالفعل جاشي يوم القبض عليك ولد محبول قال كلاما غريبا ، لا أظن أن أمره يهمك في شيء . أقصد لا يستحق أن تهتم بي . ربما تكون قد قلت لك لا حذرك منه ومن جده الجنون ولكن متى حدثت عنهما ؟

لزعت لبني الصمت ثم انفجرت فجأة بالضحك وقالت :

- أنت لا تتغير يا بابا إلا إذا

- إلا إذا ماذا ؟

- إنس ! المهم ، هل جددت اشتراك النادي هذه السنة يا سمي ؟

- ما العلاقة بين هذا و .. بالطبع أرسل من يجدد الاشتراك كل سنة ، لماذا تسألين الأن ؟

- لأنني يجب أن أواصل السياحة ؟ وربما يجب أن تسبح أنت أيضا يا بابا !
- لماذا ؟

- لأنني أبتك ولذلك أبكي !

قال الدكتور لنفسه وهو يرثشف الفهوة : لولا أنك تشبهيني لما صدقت !

★★★

قال الباشكابي وكيف آراه في قلب الظلام ؟ فرد صاحبه : سيد عصوه ظلمة الليل والنهار . سأله : وفي النهار ظلمة ؟ فرد : أشد حلقة من الليل .

بعد كل مرة كان الباشكابي يخرج فيها ويعود وهو يلهث مجدها من السير ومن صعود السلم كان يلزم البيت متسلاً مما يدعوه إلى الخروج واحتلال هذا العذاب ، ولكنه بعد أن يقضى في البيت عدة أيام ، كان يتجلو قلقاً في البيت الشالي متسللاً من غرفة إلى غرفة ، يذكر نفسه بمحالاته وبما قاساه في المرة الماضية وبيان الأفضل أن يبقى مكانه لينفذ تصريحه الطيب بعدم التعرض للإجهاض ، ولكن صورة الميدان والمسجد والناس الذين يلقاهم هناك لا تفارق ذهنه رغم كل ما يحاوله ، فيعود إلى غرفته فجأة ويرتدى ثيابه وينزل وقلبه يخنق في انفعال طفل صغير ذايب اليلعب .

ولكن كما جاء الجوع والعطش اجباريين للباشكابي فذلك جاءه العزنة الكاملة التي طال تهربه منها .

فمن إحدى مرات خروجه القليلة كان يصعد السلم في الطابق الثاني مبطنا كعاته وفارقاً في التفكير كعاته ، وكان يزبُّ نفسه الآن لخروجه وهو يذكر فيما يبقى له من درجات السلم ، حين انزلقت العصا من يده فجأة وهوت في الفراغ بين درجتين فانزلق هو أيضاً وتدرج على السلم . ظل رائداً على ظهره على (البسطة) وهو يتأنه ، وحين حاول النهوض مرة أخرى مستمدًا على يديه ، لم يستطع أن يحرك ساقه فصرخ يطلب التجدة .

حمله الجيران إلى البيت وظلت ساقه في الجبس عدة أسابيع وقالت فوزية نفسها في حزن وهي تنظر إليه يتمدد شاحباً في فراشه : كائناً لا يكفي السكر والضغط والنوار وقلة الأكل . لأنها ساق مكسورة أيضاً !

- ٢١٦ -

نصف عزلة ولكنها إجبارية ! لا فضل لي فيها منه أصبح الخروج من البيت مشقة لا تحتمل ، والتعود على الجوع والعطش اللازم في العزلة لقهر الجسم جاء إجبارياً أيضاً . أملاء المرض لا العزم ! ثم إنك لم تقو على أن تهجّر الناس الذين تسميهم الكتب «السوى» لكنك تفرّغ لنفسك وحدها فتتأملها وتصل إلى حقيقتها .

ثم كيف تدخل بالفعل هذا العالم من السكينة وعقلك لا يكف عن التفكير وعن المسؤول ؟ أنت تلميذ خائب يا حضرة الباشكابي ! تزيد أن تذاكر الدروس السهلة وتتجول الصعبة ! تلميذ عجوز جداً وخائب جداً لم يبق لديه وقت لتجنّب الامتحان ! وتكلّشت أحلام الباشكابي وسط نومه المتقطع واختلطت بأحلام يقظة كان يخاطب أثاثها أحياه بصوت مسموع . وفي فترات صحوه كان يحاول أن يفهم مغزى تلك الرؤى واثقاً من أن الأحلام رسائل . ألم تكن هذه الأحلام هي التي ضاعفت أمله بعد أن تحققت رؤياه لوالده وخطبته ؟

زارته سمية وزاره أبو خطوة عدة مرات . اعتادت سمية أن تأتيه مبتسمة كما لو كانت في صحراء أو في خلاء واسع ثم تستدير مشيرة بيدها إلى ذلك الفضاء الذي لا يرى نهاية ولا أنه ينطفئ فيه بوجه كاته يعرفها وإن لم يستطع أن يعيز أصحابها . ويسأل توفيق نفسه هل تشير سمية بهذا الفضاء إلى الأجل ؟ إلى اقتراب النهاية ؟ هذا يفهمه جيداً ولا يحتاج إلى سمية لتدلي عليه ، فتاي رسالة أخرى تزيد أن تبلّغها له ولماذا لا تتكلم ؟

أبو خطوة ، على العكس ، كان يتكلّم كثيراً حين يزوره . يأتيه كما رأه آخر مرة يشعره الأشيب وعيشه التنازعين وابتسماته المرحة . يذكر جيداً حين جاءه مذنبًا ذات ليلة وكرر عبارة سمعها منه من قبل «ليس يعقل ولا حتى يفلك ولا ينفك ، وإنما عندما تنسى ذلك كله يا توفيق . حين تزيد لا تزيد فتدرك نفسك وترى التور في قلب الظلام» . سأله الباشكابي صاحبه في لهقة : إذن فما هي العلامة ؟ فكرر عليه : أن ترى التور في قلب الظلام .

- ٢١٧ -

أصبح من الضروري بعد ذلك أن تقيم فوزية مع جدها لترعاه ، فكان فراج ياتي إلى البيت ويتناول وجباته هناك إلى أن يرجع شعبان أو سالم في المساء فيصطحب زوجته وولده إلى بيتهما القريب . غير أن فوزية كثيرة ما كانت تصير على أن يتضمن الليل معهم في بيت جدها ليستجيب لطلباتها .

وطلب سالم أن يعمل في وردة المسا ، ليقى مع جده أطول وقت ممكן . كانت حالة الجد تقلقه بعد أن تكررت نوبات الدوار عندما تحررت ساقه من الجبس . جاء الطبيب إلى البيت لخاضاعه جرعة الإنسولين التي يتعاطاها الباشكاب ، ووصف أدوية جديدة لغضف الدم ثم تصحى بالالتزام الراحة والتقييد الدقيق بتنظيم الغذاء .

وقالت فوزية لسالم : انتصر جدك يا سالم يا ياكيل ، تعجب منه في الكلام لكنه لا يكاد يتنفس الطعام . أعرف أن لا يحب الملاعق ولكن هذا ما أمر به الطبيب . كللت عم مرعي ليعطيها وصفة لفتح شهيته على الأقل فقال لها يا بنتي في حالة جدك يجب الانتظام بأدواء الطبيب . خلط العلاج لا يفيد . لا حل يا سالم غير أن يأكل ما هو موصوف له . انتظر كيف صار جدك على عظم !

اشتت هزاز الباشكاب بالفعل . وتهدل جد وجهه الذي كان عريضاً لحقن تدلي في مطبخ كالرواند إلى جوار ذقنه . لكن عندما حمله سالم عن فسورة أن يأكل كما يشتهي وهو يشير إلى تحوله رد عليه جده ردًا لم يفهمه .

إذ قال :

- هل أصاب التحول إن هذا الجسم وحلت به الأمراض ؟ تلك عطالي يا سالم . كيف أعرف بدونها أنني أتلقي ما استحق من العقاب ؟ كيف أعرف التي ربما استحق الرحمة ؟

قال سالم محتجاً : ولماذا تستحق العطاب يا جدي ؟

اغزورقت عينا الباشكاب بالدموع : بسبب ما فعلته بنفسه بسبب ما فعلته بك وبشعبان وبفوزية .

ولكن يا جدي أنت .. أنت لم تفعل غير كل خير . كيف تقول هذا الكلام ؟ نحن كلنا نحبك وندعوك .

- إذن فلا تدع لي بسالم بالصحة ، بل ادع لي بالقرب النور .

- أي نور يا جدي ؟

فقال جده وهو يتطلع إلى نقطة ثانية في الغرفة . النور العلامة ... ولم يكمل .

سؤال سالم وجبرته تشتت : عالمة على ماذا ؟

- سترعرف أنا وأنت حين يظهر . ربما يا سالم حين تزيد في هذا الجسم العطايا . ثم خطط رأسه بقبحه وهو يقول : وحين يكت هذه التعابس عن طرد النور !

بعد ذلك صار الباشكاب يتضمن كل وقته في غرفته . كان يطلق النور بالليل ويغلق الشيش بالحكم في النهار وترتفع صلواته وأدعياته بصوت المتهجد . وكان يجلس في الظلمة ينتظر . ولكن أبو خطوة قلل يائمه مؤذنها دون أن يفهم السبب .

لم يعد الباشكاب يقرب الطعام إلا حين ترجمته فوزية وتضنه بالقوة في فمه . وكان ذلك ضروريًا على أي حال لأن يده المرتعشة صارت عاجزة عن حمل الطعام والشراب . كان يلوث ثيابه إن حاول أن يأكل بيده .

لزم الباشكاب غرفته بزارته وبغير إرادته بعد أن صار يعجز على مساميه الصابة ويتكلم من السير عليها بضع خطوات . لم يعد يستطيع الفروج ولا حتى

وسماعه يسجّنها ، ثم تتفّذ ذكرياتي عند ذهابه إلى غيادة أبيها ويلقّها بعد ذلك
الظلام . ولكن تلك كانت تبدو له أشياء بعيدة جداً . لا يتعلّم لها حين يذكرها .
كانت مثّلها مثل كل شئ آخر في الحياة بالتشبيه له : صوراً يراها من وراء حاجز
زجاجي ويراقبها كمتفرّج دون أن يشارك فيها . لم يعد حياً وقوياً في نفسه بعد
أزمات حياته وصدمات الكهرباء ، غير جده ولديه .

وأصبحت الجامعة أيضا ذكرى بعيدة لا تعنى سالم في شيء . لكن مدير المطعم الأمريكي الذى أعجب به كثيرا شجعه على أن يتحول أوراقه إلى كتبة التجارية . قال إنه يمثل تقانة فى العمل ومواهبه فى الحسابات يمكن أن يكون له مستقبل كبير فى «البيزنس» ومن يدرى ؟ فقد يائى يوم يصبح فيه مديرًا لمطعم مثله . المهم أن يستغل وقت فراغه من العمل للدراسة .

فقال سالم وهو يشكرة أنه سيفكر .

三

وفي تلك الأيام التي كان الباشكاتب معتكفا فيها ، وبعد منتصف الليل يكتير
والجبيح بنام ، ارتجت العماره على صوت دوى هائل كالانفجار .
علا الصراخ والبكاء من كل الشقق وأخذ الجميع يتلقون على السلم بملابس
النوم والصيحات تتجاوب من كل مكان « الززال » ألطىء يارب ..
وجري سالم وشعبان أيضا بشباب النوم إلى غرفة الباشكاتب يحاولون حمله
للتزول معهم ، لكن الجد كان يقف في وسط الغرفة تحيلاً وشاحباً في جلابيه
الأبيض الذي أصبح واسعاً جداً عليه وقال بصوت متهدج :
ـ رأيت ذلك في المنام ، رأيت سميمية تجري وكنت لكم تجرون وراسها .

رَاجِيَنْدَهُمَا عَنِ بَيْدِيهِ التَّاحِلَتِينَ تَحْوِيلَ الْبَابِ لِكُتُهُ رَفِشْ وَهُوَ يَصْرُخُ أَنْ يَخْرُجَ مَعْهُمَا أَوْ أَنْ يَتَرَكَ غَرْفَتَهُ .

لصرف معاشه الشهري الذي كانت الأسرة يحاججه إليه لتكليف علاجه وللمساعدة في مصاريف البيت . فاضطر شعبان أن يحصل من والده على توكيل شامل للتصرف نهاية عهده . وجاء موظف من الشifer العقاري إلى البيت ليحصل على توقيع البشكاتب على التوكيل . وافق على ما طلبه شعبان دون نقاش . كل ما كان يعنيه هو أن يتبعوا الحد أياً منهم سرعة وأن يتركوه لخلوته .

غير أنه في معظم الوقت كان مجلس صامدا على عاته . حاولت فوزية أن تجعله يتكلم بعد أن استرد نفسيه . حتى لها جدا القليل الذي يعرفه عن لبني وعن علاقة سالم بها . وفكرت أنها لو جعلته يروح بما في صدره لميساعد ذلك على اكتمال شفائه . لكنها حين فتحت معه الموضوع بصورة عابرة ابتسامة المحايده وقال :

فقالت فلوريزية بلهجة مازحة : كيف انتهت يا سالم ؟ يقول جدي إن الحب النساء
أرواح وأنا أعرف هذه الأرواح . أعرفها تماماً . هي أرواح (الزفة) ! إن جات فهين
لا ترجل ، فكيف استطعت أنت أن تهرب منها ؟ أنا لا أصدقك !

ولم يكن يكتب على آخره . كانت لبني تختظر على باله أحيااناً وينظر الأشياء الكثيرة التي سبقت مرضه : ليلته الأخيرة معها ، زيارته لبيتها وما جرى هناك ،

قال في عناد : في هذه القرفة سأبقى إلى أن يتحقق الوعد أو أموت !

فقال سالم : إن بقيت هنا يا جدي فانا أيضا باق .

راح جده يدفعه بيديه الضعيفتين ليترك القرفة لكنه لم يفلح في زحزحته فتركهما شعيان معا ونزل هرولا .

وجد شعيان كل السكان وجيران البيوت المجاورة في الشارع وهم يضربون كلها بلكف ، ويسلعون وسط سباحة من الغبار تلف البيت والمكان ! لم يقع زلزال ولكن شرفة الست انصاف تصدمت فجأة وهوت بسحارتها في الشارع ، تحطمته الشرفة وتثارت حجارتها في المكان ولكن السحارة الهائلة خللت ملقاه على الأرض كتلة واحدة مقلقة ومتمسكة لم يصبه شئ .

وقال واحد من السكان : الحمد لله أن ذلك حدث بالليل ، لو سقطت بالنهار لراحت فيها أرواح .

وريد آخر وهو يصلع : هذه بركة الباشكانت الطيب . لا يريد الله له البهدلة وعلاء صرخ الست انصاف : وأنا ماذا ستفعل ؟ والجاج إبراهيم الرائد فوق ؟

يا مصيبي !

ويسأل عزوز ابن النجار أباه في قلق : معنى ذلك يا أبي أنتا ستجمل الفرج ؟
فتمد أبوه يده وجذبه إليه وصلعه بكل قوته .

لكن صوت شعيان علا فوق كل الأصوات وهو يصبح بلهجة أمراء :
- استكروا !

كان يسمع صوتا بدأ الجميع أيضا ينتبهون إليه ، وصمتوا جميعا وهم يسعون تقule سقوط كتلة من الطلا ، والأسمنت في جانب البيت الذي سقطت منه الشرفة . جرى السكان متعددين متعددين أن البيت كله سينهار فوقهم وارتفاع من جديد صوت الصراخ والبكاء والدعاء .

- ٢١٦ -

(٥)

ثم انصرف عن ولده دون أن يكمل وهو يذكر : والآن اشنان في البيت ؟ على
العلوم لدينا أشياء أهم ،

لم يكن الباشكاب وحده هو الذي رفض إخلاص البيت . تمسك كل السكان
باليقان رغم الإنذار الذي قال بوضوح إن العمارة على وشك الانهيار . توجهوا إلى
شعبان وسألهون أين يذهبون وكل أشغالهم ومحالهم قرب البيت ، ولم تجد توجداً في
الحي مساكن خالية ؟ عرضوا بعد فوات الأوان أن يرمموا البيت على حسابهم ،
فرد شعبان بأن الأمر ليس في يده وعليهم الآن أن يتلقوا مع الإدارة الهندسية في
الحي المسؤولة عن قرار الإخلاء ، وسينفذ ما يتفقون عليه . وعلق بعضهم منتقدين
خراب الذمم وتديليس المقاول الذي استغل طيبة قلب الباشكاب وغضبه في الترميم .
قالوا إن هذه آخر الأيام وإن القيامة أوشكت أن تقوم مادام العرش قد وصل حتى
إلى جوار المستطاهرة .

تركهم شعبان يحاولون مع إدارة الحي . كان بحاجة إلى وقت لينظم تفكيره
وليدبر أموره .

أما الباشكاب فلم يعد يقادر غرفته المعتنة إلا حين يصحبه سالم وهو يكار
بحمله حملاً إلى الحمام . ولم يعد يكف عن عبادته وأيتها الات بالليل أو النهار . إلا
في لحظات غفوتها القصيرة . وبعد أن استغنى عن الأكل استغنى عن النوم ،
وكانت فوزية تستطيع إرغامه على أن يزدرد بعض الطعام الذي تضعه له بيدها
في فمه . وإن رفض أحياناً في عداد أن يفتح فمه . تتخلل فوزية والله أمامه وبiederها
طبق الأكل وتقول إنها تعلم أن يكرهها ولا يطبق أن يراها ولكنها لن تتزحزح
وترى من وجودها إلا إذا أكل شيئاً . ومع ذلك فلم يكن يأكل إلا لقيمات كما أن
فوزية لم تكن تستطيع إرغامه على النوم فتدورت حالته بسرعة وأصبح يعجز عن
الوقوف على قدميه إلا إن ساعدته أحد . وحين كانت فوزية ترى الجبابا الأبيض

- ٢١٩ -

عاين المسئولون في الحي العمارة . وبعد أن حرروا محضرها لمالكها والسيد
إبراهيم المشلول . صدر قرار بإخلانها على الفور قبل انهيارها على من فيها .
قال الباشكاب الذي تعود عمره كله على احترام القانون إنه لن ينتقل من
مكانه . تشتبث بأصابعه العظيمة المرتعشة بذراع شعبان وهو يبكي ويتشنج كظلل
صغير متصرفاً إلى ابنه أن يتصرف . أراد أن يقبل يد ولده وهو يرجوه بصوته
الياكى أن يتركوه في غرفته حتى يموت . قال ابنه حلم باقتراح العلامة .
انتزع شعبان يده من قبضة والده وقبل رأسه وهو يدعوه ببطول العمر قائلاً
له ألا يشغل باله وأنه سيتصرف بإبن الله .
سأل سالم والده بصوت هامس بعد خروجهما من الغرفة المعتنة :

- ما هي هذه العلامة يا أبي ؟
فرد شعبان وهو يهمس أيضاً : لا أعرف يا ابنى . ولكن أشن أن جدك يتضرر
كرامة من الكرامات ، هذا ما فهمته .
قال سالم باقتناع كامل : هو يستحقها .
نظر له أبوه ملياً وهو يقول بشئ من التردد : بالطبع . ولكن الكرامات كما
أعلم يا سالم تهرب ولا تطلب . يكفى الإنسان أن يطلب من ربه المقدرة لاسماً إن
كان خلال عمره ..
قامته سالم وبصوته ينذر بالغضب : هو يستحقها ! ألم تقل أنت بتفسك إن

أحلامه أحلام الصالحين ؟
نعم قلت وأنا أدعوك ، المهم الآن هل الوقت ..
-

- ٢١٨ -

يهدل على جسدك الهزيل كأنه يخوض فيه كانت تحول وجهها لكن لا يرى

دموعها ، رغم ثقافتها بأنه لن يرى شيئاً في قلعة الغرفة .

واعتاد سالم أن يحلق لجده ذقنه في ظهيرته كل يوم قبل أن يصحبه إلى الحمام للوضوء ، وكان في هذه الحالة يضطط على زر التور في الغرفة المعتمة بمجرد دخوله ، ولكن دخل ذات يوم فوجد الضوء يغمر الغرفة . رأى جده يجلس فوق سريره وهو يتشمّس تحته بينما تقدّم ساقه المصابة من السرير ، وقد فتح شيش الغرفة على أخيه . ظل يقف مأخوذاً عند الباب ، محاولاً أن يفهم ما حدث ، فقال جده بصوت هادئ وابتسامة تغمر وجهه الناحل المتغضّن :

- ادخل يا سالم واجلس .

تقدم سالم وقبل رأس جده على عادته ، فبد الجد نراعيه الضعيفتين واحتضن سالم إليه ياقتنه ما يستطيع من قوة . ظل يحتضنه طويلاً قبل أن يطلقه فذهب حفيده ليجلس على الكتبة المواجهة للسرير وهو ينطبع إلى الشرفة المفتوحة والتي جده بنظرة مسقمة .

كان الباشكاب يبدو ضئيلاً في جلسته على قرارشه وكان وجهه شاحجاً جداً في ضوء النهار الذي لم يدخل الغرفة منذ مدة طويلة . غير أن صوته لم يكن مرتعشاً ولا متهدجاً . رُن في آذن سالم كصوت الباشكاب المرح القديم وهو يرنو إليه مبتسماً ويقول :

- أوحشتني جلسات سمرنا القديم يا سالم وأوحشتني كلامك . قلل لي ما

أحوالك الآن في العمل ؟

لم تغادر الدهشة سالم وهو يرد على جده :

- شغلني ليس فيه جديداً أبداً ، حسابيات وأرقام .

- وإنْ فلقي أي شيء آخر تفكّر يا سالم ؟

- ٢٢٠ -

- أذكر فيك أنت يا جدي . رجوتوك كثيراً أن تأكل وأن ترتاح لكن تسترد صحتك لكنك لا تسمع كلامي .

- ألم أقل لك من قبيل إيه مع كل جزء يموت من هذا الجسم يصboro جزء من الروح ؟ وأنا الآن كما ترايني يا ولدي وأحب أن القى الله بروج حية .

قال سالم متقدعاً وهو يمد يده نحو جده كائناً ليمنعه من الكلام :

- لا تقل هذا الكلام يا جدي . سيسألوك الله من المرض وسيعطيك العلامة التي تطلبها ، لا تعرف أنه لا حياة لي بدونك .

قال الباشكاب متحيراً : ولكن لماذا يا ولدي ؟ ما الذي فعلته أنا طول حياتي لاستحق أن يكافعني الله بك في نهايتها ؟ وهل تلك هي النبوة ، أن تكون أنت أباً لجده ؟

راح الباشكاب يتأمل سالم وهو يذكر : أم أنت أبي لاني يجب أن أتعلم منه ؟ كيف مر بك يا سالم كل ما قاسيتك في جسمك وفي عقلك دون أن يذكر صفع نفسك ؟ كيف تظل تعطى كل شئ لأخيك ولا ينك ولي ، مالك ووقتك وحبك دون أن تتطلب شيئاً للنفس أبداً ؟ أيمكن أن يكون المرض هو الذي يهب كل تلك الطاقة على الحب أم أنت نحن المرضى ؟ ما الذي يدور في عقلك حقاً ؟ وما الذي يجب أن أتعلم منه يا أبي ؟

قال الباشكاب فجأة بشيء من الارتفاع : قلل لي يا سالم . هل مازلت تفكّر في زميلك لبني ؟

نهض سالم بجذعه وهو يجلس وقال لجده بشيء من الذهول :

- إننْ فلانت تعرف يا جدي ؟

- ما الذي أعرّف ؟

- وإنّ لفلماذا تمسّكت ؟ اليوم ، الأن ، كانت معنٍ وكانت أنت أيضاً معنٍ ..

ظلّ جده ينظر نحو متساناً . فاعتذر سالم في جلسته من جديد وقال :

- ٢٢١ -

أطرق الجد قليلا ثم رفع رأسه بعد فترة ، كان يبدو عليه الإجهاد لكن صوته
قل وأحسا تماما وهو يتكلم .

- أنا لم أقل لك يا سالم كل ما سمعت من أبو خطوة عندما رأيته آخر مرة .
هل تذكر أني حكت لك عن بشري حلم بها لي ولم يفصح عنها ؟ يومها أيضا
أعطاني الصحاب الذي أوصى بأن يظل دائما قرب قلبك وذهب في اليوم التالي
وكان يوم الخميس لأودعه قبل السفر ، جلست إلى جواره وتفصي تراوحت أن
أسأله : ماهي تلك البشرى ومتي تتحقق ؟

سامحنى الله لأنى ساعتها كنت أشك فيما سمعته منه وقالت لي نفسى إننى
حتى لم أر أيا من كراماته التي يتحدثون عنها وأنى كلما سالته كان يتهرب من
الجواب . استجمعت شجاعتي وقررت أن أسأله لكنى رأيت وجهه يشحب فجأة
وأصبح يتنفس بعصوبية ثم غامت عيناه ، أصابعى الذعر أنا وكل من في الكتب
وبدأت نجري هنا وهناك ، ففتحت له أزار قميصه وأحضر أحد هم ، رشه على
وجهه وحين صرخت أين الطبيب ؟ جرى البعض يستدعون طبيبا . لكن ذلك كله لم
يستغرق غير دقائق قليلة أفاق أبو خطوة بعدها كأنه كان في ستة من النوم ونظر
لى ولن حولى وقال بهدوء واستغراق : كيف يسبق جنائزى موكب وشربة وانا
لست من الحكام ؟ وما حاجتى إلى التشريبة وأنا يكلفين قلب واحد ظاهر
يصحبى إلى مثواى ؟ علا صوتى وأصوات الجميع فى المكتب ونحن نكرر بعد
عمر طويل يا حضرة الباشمحضر .. أتق الله فينا يا رجل .. أنت أغلق عندي من
كل حكام الدنيا .. هل تستدعى الطبيب ؟ فرد علينا وهو يسوى ثيابه ويضحك :
لماذا خفتر هكذا ؟ أنا كنت أمثل عليكم دورا ، أريد اليوم أن أزوج قليلا من العمل
ثم عاد بعد ذلك يمزح معى ومع الجميع . لم أره في حياته يا سالم أكثر مرحا
ما كان في ذلك اليوم . وعندما قلت له إننى جئت لأودعه قبل سفرى قال

- إنما لم أفك فيها أبدا من زمان ، إن خطرت على ذهنى فقد كنت استغفر الله
لذنبى ، ولكنها اليوم .. نمت متأخرا في الليل بعد رجوعى من العمل ، نمت قرب
الصباح فجأتنى فى المنام ، ربما هذه أول مرة أحلم بها . لابد أنك تعلم مادمت
تسائلى ..

قال الباشكاشى بهدوء : لا يا ولدى ، أنا لا أعرف . لكن أحلامنا تتقول لنا
الحقيقة أكثر من مسحوننا ، فماذا قالت لك ؟

حول سالم وجهه عن جده وقال بصوت خفيض : لم تقل شيئا . كنا أنا وهى
في زورق على النيل وهناك غناه لا أعرف من أين يأتي . هل كان ملاحا فى زورق
أو هل كان الغناه أصوات طيور فى السماء ، ولكنك كنا سعيدين ثم جاء ظلام وأخذ
الزورق يهتز بنا وعدت لبني يدها نحوى وعدت لها يدى فانقض فرقنا طائر أبيض
ضخم له مخالب كبيرة ووقفنا خائفين كأن أحدنا سيمسك الآخر ولكن دخلنا بعد
ذلك فى مصر طوبل مظلم كان سجن وكنا نجري معا ، تعرف أن شخصا يطاردنا
ونريد أن نصل إلى آخر هذا المر لا أن هناك نورا في نهايته . صحوت بعدها وكان
وجهك أنت أخر شئ فى العالم أو أول شئ فتحت عليه عينى . فما معنى ذلك يا
جدى ؟ هذه أول مرة تزورنى هي فى الحلم وأول مرة تسألى عنها من زمان .
لماذا ؟

رفع سالم إلى جده عينين ملهمتين فقال الجد بلهجة فاطمة :

- لا أحد يفسر حلمك غيرك يا سالم ، أنا أعرف الآن أن الأفضل لا انطق
بما لا أعلم ، لكنى أعرف أيضا أنك تستحق النور الذى رأيته فى حلمك ، المهم يا
سالم لا تخطئ النور حين يجيء .

- لا أفهم يا جدى .

- ربما تفهم معا يا ولدى ، وبما لا يكون الوقت قد فات ، اليوم أنا أيضا أريد
أن أفهم ..

ستحدث في ذلك مما ، ثم أمسك يذراعي وهو يقول : ألم أصارحكم بأنني أريد أن أزوج اليوم ؟ وقال لزملائه وهو يتجه نحو الباب : أراكم غداً إن شاء الله . فرد أكثر من واحد بعد قد إن شاء الله يا حضرة الياسمحقر . غداً الجمعة . فقال لهم نعم ، يوم مبارك .

وعندما خرجنا من باب المحكمة قال وهو يتوكل على رزاعي كائناً تستأذن حدبياً بدأناه : سأقتنى يا أخي توفيق عن الكرامات ، ما الذي يشغل بالك عنها ؟ هل سمعتني أنت أتحدث عنها مرة ؟ ردت وأنا أكاد ارجف لأنه حدس ما أفكر فيه « لا » فقال : وصدقني أنت ما تحدثت عنها مع غيرك . كل ما يحدث خارج نفسك لا وزن له . المهم هو ما تطبق . الحق في داخلك أنت ، والكرامة الحقيقية هي أنت . حتى السحرة والجحواة يتلذذون الأشياء ، من مكان إلى مكان ويختفون علامه ، قال وقد تكون فتنة وقد تكون امتحانا ، ربما يفتر إنسان في شبابه بما وصل إليه ولكنه إن لم يرجع ثانية عن التلذذ فسيظل دائماً عبداً للظهور ويسقط في الفتنة . فلما حصلت عليه ولكن الكرامة علامة على الوصول : أليس كذلك ؟ قال أنت وما تؤمن به يا أخي توفيق . الوصول الحق هو أن ترى النور في قلب الظلمة وقد يكون أقرب إليك مما تظن . لكنك لن تراه قبل أن ترى نفسك . قلت ضاحكاً صارحتك من قبيل يا مولانا أنه من الصعب أن أحب نفسي ! فرد أبو خطوة بما يشبه ثناء الصبر فانتظر إذن حتى تحبها ! ولا ترجع ثانية إلى ذكر ذوبك فتذنب بتذكران الرحمة . حين تصبح التوبة فاعلم أنه لا صغيرة إلا في قابلك عدل ربك ولا كبيرة إلا قابلك فضله وأحسن الظن بفضل خالقك . ثم سكت أبو خطوة بعد ذلك لحظة ورق حشوته وهو يسأل عنك : حفيديك اسمه سالم . أليس كذلك ؟ ولم ينتظر ردك . بل قال : هو ما هو يابن الله . وأنت منه معه لأن نوره سيسحب عمله .

ثم وضع يده على كتفي وقال ستصل يا أخي إلى ما تطلب بفضل مولاك وستعلم وحدك أن المكافحة والانتظار باب للرحمة واسع . لكن لا تتجل الوقت كما قلت لك فالوقت مختلف مثلك ومسير مثلك ، أما أنا فسأبتلوك غداً لشكيل ما بداه فلا تساور اليوم .

ودعني بذلك الكلمات ولم أكن أعرف ولا كان أحد من في المكتب يعرف أنها في اللد ، في يوم الجمعة المبارك ، مستكون شحن وأسيوط كلها تترقباً في جنازة أبو خطوة ، وأن ستكون هناك جنازة تسبقها للوا ، في الشرطة متقدمها الموسيقي والطبلول وصفوف الجنود . قيدت كلها كما لو كانت (تشريفة) لجنازة أبو خطوة . وشاركت في حمل نعشها يا سالم فكان خليفها كالريشة . فهل أكمل بذلك ما بدأناه ؟ قل أنت يا سالم ؟

قال سالم الذي كان منتبها لكل حرف من كلام جده : ألم يقل يا جدي إنه يريد قلياً ظاهراً يصبحه إلى متواه ؟ هتف الياشكاب وبدأ الإجهاد يتسلل إلى صوره : ولكن خاطئاً لم يزرمني النور !

سكت سالم قليلاً ثم قال : عندما كنت أخاف وأنا طفل صغير من عقاب أبي أو من المرض كنت أتني هنا إلى غرفتك ، حتى ولو لم تكن أنت فيها . فكنت أطمئن . كنت أعرف أنك تحبني وأنك ستشادعني . وفورية أيضاً .. فورية لا تدب أحداً مثلك لأنها تعرف أنك تحبها ، أقصد يا جدي ..

ثم سكت مرة أخرى وبدا في وجهه الألم وهو يقول : أنا لا أفهم كثيراً من الأشياء ، ولا أعرف أن أنكلم ولكن قرأت معك في كتبك أن النور نور لأن ضوء يهدى ظلمة النفس ويجلو البصيرة وأنت يا جدي ..

ثم سكت مرة ثالثة و قال في يأس : ليتنى أستطيع أن أتكلم : أنت الذى تستحق يا جدى . أنا لا أستحق .

ظل جده ينظر إليه وقد انسعت عيناه وبدأ صدره يعلو ويهدى ثم قال : ولكن الآن أراك يا سالم : نعم ، أنا أراك !

ثم نزل من فراشه فجأة و تقدم من سالم وهو يخرج على رجله المريضة ويخوض في جلابه الأبيض الواسع . مد يديه الاشتثن نحو حفيده و راح يشير ياصبع مرتعش وهو يقول : أنا أرى ! أرى يا سالم !

التفت سالم خلله لينظر حيث يشير جده . ولكنه ترمع فجأة في مكانه فاستدار ليجد جده قد ارتفع عليه يريد أن يتثبت به . ثم أخذ ينزلق بيته . وقد ارتحت زراعاه فهمس في ذعر وهو يرفعه ليمنعه من السقوط : لا ! لف يا جدى اقف !

قبل أن يصرخ يانعلى صوته متدايا : يا فوزية !

★★★

انقطع سالم عن الذهاب إلى عمله .

أرسل المدير إلى البيت من يسأل عنه فلم يخرج من غرفة جده . وقال شعبان الرسول إن سالم يلازم جده الرئيس .

لم يترك جده لحظة متن سقط بين ذراعيه ، ومنذ أن قال الطبيب إنه شلل كامل . كان شعبان قد قرر أن ينقل والده إلى المستشفى لكن الطبيب العجوز الذي كان يعالج الحاج إبراهيم قال له : كما تشاء ، ولكن رب البيت هو رب المستشفى ، ولعل أسرته تهتم به أكثر من المرضات هناك . وتشبت سالم بإن يبقى جده في البيت . فانهضي الأمر بإن يمر الطبيب على البيت مرتين في الأسبوع . وأن يأتني المرض كل يوم لإعطاءه حقنة وتغيير المحاليل التي علقوها في عمود السرير . ومع أنه ظل يأتني في ظهره كل يوم . فقد تعلم سالم بسرعة كيف يقوم بهذا العمل . وبعد أن يفرغ منه كان يجلس على كرسي إلى جوار فراش جده ويمسك الكتاب التي تعود أن يقرأها ويردد بصوته عال الأدعية التي كان يسمعها منه .

لم تكن عين الياشكائب تطرف ولكن حقيقة كان واثقاً من أنه يسمعه . وكان سالم يؤدي كل صلاة مرتين . مرة لنفسه ومرة لجده . وباستثناء فترات القراءة كان يطفئ نور الغرفة أو يغلق الشيش .

وفي ذلك الوقت وصل إنذار ثان للسكان بضرورة إخلاء العمارة الآيلة للسقوط والا تم إجلاؤهم بالقوة . فلم يتحرك أحد . قالوا أين مذهب ؟ غير أن شعبان كان قد اتفق بالفعل ، بواسطة يائع السجان المستوردة ، مع أحد الملوك على أن يبيعه نصف أرض البيت بعد هدمه . وقبض جزءاً من مقدم الثمن . أجر شقة في

قال متخيلاً : نعم أذكر وحتى الان لا أعرف لماذا فتحت يومها ، ولا أفهم ما حدث .

- لأنه كان يحب دانساً أن يبقى في النور . أحب جدي الظلمة فقط وهو مريض ، وله أحسن بما سيحدث له فراراً أن يودعنا في النور . لم يسمع سالم كلمة يودعنا ، كان مستغرقاً في انكاره وحياته لأكل لشبيط :

- لم أفهم كل ما قاله لي يومها وهذا يعذبني يا فوزية ، كان يريد مني شيئاً لكنني لم أعرف ما هو وسألته عن .. عن أشياء لم تتحدث عنها من زمن طويل . وتكلم أيضاً عن النور .

قالت بأسف : لو كنت معكما لحظتها .. لكنني أعرف أن جدي يحبك الخير ...

ثم قالت في هدوء : افتح الشيش يا سالم من أجلك لامن أجده . فهو الان لا يفرق بين نور وظلمة .

لم تر فوزية النظرة الغاضبة في عيني سالم ولكنها شعرت بها في صوته وهو يسألها :

- من يدرك ؟

فردت عليه بالهدوء نفسه : هذا كلام الطيب .

قال سالم وقد ازداد غضبه : وما الذي يعرفه الطيب ؟ جدك من الصالحين وسيشفيه الله ويقوم سالماً بإذن الله ..

- حتى الرجال الصالحون يا سالم ..

ثم سكتت قبل أن تقول بلهجة مختلفة : لم ألتكم معك في هذا الموضوع . كنت أريدك في شيء آخر . أردت أن أسألك : هل وقعت على توكييل لوالدك ؟

هي الميرة القريب واستعد للانتقال إليها مع الأسرة . وقال له السكان الذين شعروا بهفته على إخلاق العماره في أقرب وقت إن الياشكاتب ما كان ليتصرف هكذا .

فرد عليهم : وأنا ماذا يبدي أن أفعل ؟ هل استطيع أن أمنع البيت من الوقوع أو أن أقف أمام الحكومة ؟

لكن بعض السكان المقتررين الذين فهموا أن المسألة متعلقة بال فعل دفعوا لشعبان في السر مبالغ كمقدم لإيجار إسكانهم في العمارة التي سبببها في الجزء الذي يخصه من الأرض . وحدها السيدة إنصاف كانت لا ت肯 عن البكاء وتزور شعبان كل يوم وتتوسط فوزية لديه فيعدها خيراً إن شاء الله . ولكنه يزورها بصورة غایرة : هل كانت ضرورة هذه المساحات التي جلبت كل المصائب ؟ فتردد وسط بنايتها : نعم وكانت ضرورية لتكلف في الدنيا وعدي !

لم يكن سالم يعرف شيئاً عما يدور أو عن قرب انتقالهم إلى البيت الجديد . اعتنقت في الغرفة التي أصبحت لها رائحة المستشفى ، غير أن فوزية دخلت عليه مرة بعد أن انتهت من تحميم جده في طست بالغرفة وأرقدت في فراشة بعيداً . كان يلف حوله القطا ، بإحكام عندما دخلت فوزية فصرخ فيها :

- إغلقلي الباب بسرعة !

أغلقت الباب كما أمرها . وكان من الصعب عليها أن ترى شيئاً في الغرفة المظلمة ، فراح تتحمس طريقها نحو فراش جدها وسجحت سالم من يده وأجلست بجوارها على الكتبة المواجهة للفراش وقالت له :

- لماذا تبقى في الظلماً يا سالم ؟ لماذا لا تفتح الشيش على الأقل ؟

- جدك لم يكن يريد نوراً في الغرفة في الفترة الأخيرة .

- ومع ذلك فقد كان الشيش مقنحاً يوم سقط . لا تذكر ؟

قد وضعت من زعن . وتقول لي إنه كان يتمنى نورا ؟ أنا أراه هناك وهو مدد على السرير في القلالم كالفنلة وكله نورا ! ولكنك كان يحبنا يا سالم ويحب لنا أنا نعيش .

هذا فوزية يدها وضمت أخاها إليها وهي تقول : معد حق يا سالم .
أنا لا أعرف وأغلب الطبيب أيضا لا يعرف . لعله بالفعل يسمعك وأنت تكلم وتقرأ له ولكن من أدرك أنه لا يتعذر إن كان يسمع ولا ينطق ؟ لا تعذر جدك يا سالم . أنت تعرف كم يحبك .

قال سالم : وهو يعرف أيضا كم أحبه .

- إذن فلا تعذر . جدي لا يحب ذلك له ولاك .

هذا سالم : لماذا تعذرينني أنت بكلامك يا فوزية ؟

- أنت سالتي عما كان جدي يريد أن يقوله لك يوم مرضه .

فقال سالم بصوت متوالي : وماذا كان يريد يا فوزية ؟ ليتنى أعرف ؟
- يريد ما قلت لك . ويريد أن أشارك في رعايته لأنني أستطيع أن أفعل مثلث بالشريط . لا يريدك معه طول الوقت .

سكت فلزم سالم الصمت بدوره ، ثم قاتل فوزية ومشت حتى سرير جدها انحست فوقه وقبلت جبينه برقة . ثم توجهت نحو الباب وقالت لأخيها بهدوء قبل أن تخرج :

- افتح النور يا سالم ، جدي يحب النور .

وقالت لنفسها في أنس وهي تخرج : ولكن هذا لن يستمر طويلا !

★ ★ ★

حدد شعبان موعد إنتقالهم من البيت إلى شقة الميراث الجديدة .
 جاء عمال فكروا قطع الأثاث وكوموها في أركان الغرف . كان قد قرر أن يبيع بعضًا من الأثاث وأن ينقل بعضه الآخر إلى المسكن الجديد وأصبحت الشقة

- ٢٢٦ -

رد سالم دون مبالاة : نعم ، أعطاني ورقة وقعت عليها . لا أنكر ما هي .
- كيف لا تذكر ؟ هذا شيء مهم . وأنت لا تعرف بالطبع أن أبيك باع جزءا من البيت ؟

كان يجهل ذلك لكن فوزية شرحت له في حزم أنها لم توقع على التوكيل لأنها تريد أن تعرف رأسها من رجلها ، وبكلس ما فعله سالم مشكورا من أجلها حتى الآن . إن كان والدها قد قبس مبلغًا من المال فهي تريد أنه تأخذ نصيبيها منه وأن تعرف كيف سقطت الأمور بعد ذلك . عليها الآن أن تحمى مستقبلها ومستقبل سلوم . لم تأت الإعارة التي انتظرها فراج ولا تظن أنها سباتها وهي لا تزيد أن تكون تحت رحمته أو تحت رحمة أبي مخلوق .

كان سالم شارداً وهي تتكلم وسالها : ولكن لماذا باع أبي الأرض ؟
نظرت فوزية إلى وجه أخيها في العنة التي ألتتها عيناها ورأت أنه يركز نظره على سرير جده . فأنسكت وجهه وحولته نحوها وهي تقول :
- اسمعني يا سالم من فضلك . لو طالبت أبي بتصفيبي من المال الذي قبضه فهل تساعدني ؟

حاول سالم أن يستجمع تفكيره وقال لأخته :
- بالطبع سأساعدك يا فوزية . أي شيء تطلبينه سوف أفعله . تنهدت فوزية ثم قالت بعد فترة :
- وكيف ستساعد نفسك يا سالم ؟

- أنا .. أنا لا احتاج إلى أي مال . عندما يشفن الله جدي سائز للعمل .
قالت بيضاء : لو كنت تحب جدك حقاً فادع له أن ...
ثم توقيفت وهي تتسائل : ما الذي يمكن أن أقوله لسالم ؟ أخاف عليه أن يمرض من جديد أو أن يسوء مرضه . لو بيدي أن أجعله يسلم بالحقيقة ؟ أنت تقول لي يا سالم إن جدك من الصالحين ؟ لو تعلم كم أحبه ! لولا ربما لكت أنا

- ٢٢٧ -

وكانت لبني تنتظر وحيدة في الصالون الخالي الذي لم تبق فيه سوى أربعة مقاعد متباينة . كانت تليس من جديد بلوزة بيضاء ينصف كم (جونلة) واسعة كما اعتادت منذ سنين . قالت لنفسها وهي تتلفت حولها : لماذا أنا هنا إنما الذي جعلني أتي الآن ؟ قد تكون غلطة . لا يهم . كل شيء غلطة . أنا نفسى غلطة لا فائدة منها . تجاهلت طويلاً ما قاله أبي في ليلة سكره . ليكن . جاء سالم إلى عياته قبل سنين فيما جدوى أن أراه الآن ؟ لو كان سالم مريضاً حقاً فلن أستطيع أن أساعده . لن أستطيع حتى أن أتصفح بيان يذهب إلى المصححة في روما ! رفض أبي أن يقول شيئاً حين سأله عنه فلم أفتح معه الموضوع مرة أخرى . الدكتور غارق في عوالمه العظيمة ولا وقت لديه لأمثالنا . لا يكفي الان عن العمل ليل نهار حتى الويسكي انقطع عنه بعد ليلة سكره الكبير . أظن أنه كان منفعلاً ليلتها لأن قابل الدكتورة صفاء . لم أفهم كل كلامه لكنه تحدث على أي حال عن الحب . لعله مازال يحبها حتى الان وإن كانت هي شفقة لماذا ؟ عمال أنا وذلك الان ؟ تذكره أو تحبه المهم أن لكل منها حياته فماذا عن حياتي أنا ؟ أين ضاعت بعد أن عولجت في روما وتحسن الأحوال ؟ واظببت على الآدوية والعلاج . غطست في حمام بارد وحمام ساخن وحمام فاتر وشفيت تماماً ! وقبل أيام عندما غطست في حمام السباحة في النادي قررت لا أطفو من جديد . قال عقلي هذه هي النهاية المنطقية الجيدة لواحدة مثل شفيت من كل شيء حتى من الرغبة في الحياة ! تمنيت أن يتنهى كل شيء في تلك العتمة الراجحة في قاع الحمام . لكن عندما نفذ الهواء من الصدرى خاثنى جسمى . راحت ذراعى تضربان الماء بجنون ولما وصلت إلى السطح كنت أشقيق وأصرخ وأطرد من جوفى باستماته ما ، الحمام وطعم الكلور . تذكرت أن جبني غريبى لا علاقة له بما يقرره عقلى . لا علاقة لعقلى بشىء . قرر لا أرى سالم وهو أنها هنا أنتظره . لماذا ؟ حكاياته انتهت

حالياً باستثناء غرفة الباشكتاب التي أرجاحتها شعبان حتى اللحظة الأخيرة . بدأ الشقة الخالية واسعة جداً ، أصبحت الأصوات والخطوات ترن فيها وتتردد في صدى ضخم كتيب . سمع سالم من أبيه أن هذا هو الحل الوحيد لأن العمارة على وشك الانهيار فسأل عما سيفعلون بالنسبة لجده وطمهاته شعبان : إنفقت بالطبع مع عربة إسعاف وستقل غرفته كما هي . سريره ومكتب وكل كتبه . ستكون حضرة الباشكتاب حتى ...

ولم يكمل عبارته .

وكانت فوزية مشغولة مع أبيها في الترتيب للانتقال من البيت . انفقو أيضاً أن تنتقل هي وفراج وسلم إلى شقة الميرة لمشاركة في تنظيم المسكن الجديد وفي رعاية جدها . ولابقى هناك إلى أن تجد الشقة المناسبة التي كانت تبحث عنها لنفسها . حصلت من أبيها على جزء من تنصيبها من بيع الأرض وحصلت مع فراج أن الشقة الجديدة التي ستضع فيها جزءاً من المبلغ ستكون باسمها هي .

وأثناء الاستعدادات الأخيرة دخلت فوزية غرفة جدها . كان سالم يفتح جزءاً صغيراً من الشيش وجلس على الكتبة معتمداً رأسه بيده . يسترجع من جديد كل ما دار بيته وبين جده يوم سقوطه ويحاول أن يفسر ويعرف . رفع رأسه حين دخلت فوزية فقالت له :

- هناك واحدة تزيد أن تراك يا سالم .

ظل ينظر إلى آخره مست聆هما فقالت بهدوء شديد : هي لبني .

هي سالم واقفاً حين سمع الاسم وقال : «جدي» ثم قفز من مكانه واندفع نحو الباب ، لكن فوزية سدت طريقه يذراعيها وقالت :

- لا . لن تخرج بالبيجاما ! أرتدي ملابسك .

وابتسمت فوزية لنفسها وهي تطلق الباب وراها : كنت متاكده أنى أعرف هذه الأرواح ! يارب !

كفى ! ما الذي يحدث ؟ لماذا أنا هنا ؟ يجب أن أتصرف ! لكنها مع ذلك أخذت رأسها وقال في همس : تعجب حتى عرفت عنوانك . ذهبت أولاً أسأل في محلات الأقمشة عن والدك ..

لم يسمع سالم ما قالته ولكنه رفع رأسه فجأة وقال :

- هل هو الذي طلب منك أن تأتني ؟

- من ؟

- جدي !

- كيـف ؟ أتـالـم أـرـه فـي حـيـاتـي !

- لا أـدرـى ، لـماـذا إـذن سـائـنى عـنـك قـبـل أـيـام ؟ أـلم يـكـنـ هوـ الـذـي طـلـبـك ؟ سـكـنـتـ ليـتـي لـحظـةـ ثـمـ قـالـتـ : رـيـماـ ، لـمـ لـاـ ؟ مـذـ أـيـامـ وـاـنـاـ أـفـكـرـ فـيـهـ . الحـقـيقـةـ أـنـ جـهـتـ لـأـرـاهـ ، تـقـولـ طـلـبـنـيـ ؟ لـمـ لـاـ ؟

هـزـ سـالـمـ رـأـسـهـ وـهـوـ يـقـولـ : جـدـيـ مـنـ الصـالـحـينـ .

فـقـالـتـ لـيـتـيـ : لـاـيدـ ، وـلـكـنـ مـاـذاـ قـالـ لـكـ عـنـيـ ؟

- كـانـتـ أـوـلـ مـرـةـ يـذـكـرـ فـيـهـ اـسـكـ مـذـ سـنـينـ وـسـائـنىـ إـنـ كـثـرـ فـيـكـ .

- وـبـعـدـ زـادـتـ يـاـ سـالـمـ ؟

- قـلـتـ إـيـشـ .. إـيـشـ حـلـمـتـ بـكـ مـرـةـ ..

فـقـالـتـ لـنـفـسـهـ : مـرـةـ وـاحـدـةـ يـاـ سـالـمـ ! حـلـمـتـ بـيـ مـرـةـ ؟

راـحتـ تـنـظـرـ إـلـىـ وجـهـ الشـاـحـبـ ، وـإـلـىـ ذـفـنـهـ الثـابـتـةـ ، وـإـلـىـ عـيـنـيهـ الجـمـيلـيـنـ اللـتـيـنـ تـمـحرـكـانـ فـيـ قـلـقـ .. وـإـلـىـ سـاقـيـهـ الطـوـيـلـيـنـ اللـتـيـنـ يـيـدلـ وـضـعـهـمـاـ كـلـ لـحـظـةـ وـسـائـتـ نـفـسـهـ : هـذـاـ هـوـ سـالـمـ ؟

ورـدـتـ وـدـمـوعـ تـطـفـرـ مـنـ عـيـنـيـهاـ دـوـنـ أـنـ تـيـذـلـ أـنـسـ مـحاـلـةـ لـنـعـهاـ كـمـ اـعـتـادـ أـنـ تـقـعـ طـولـ عـرـهـاـ : نـعـمـ ، هـوـ !

وـكـلـ الـحـكاـيـاتـ اـتـهـتـ . قـلـتـ لـنـفـسـهـ وـلـكـنـ أـحـبـ أـنـ أـرـىـ جـدـهـ . هـذـهـ لـيـسـ كـذـبةـ . هـوـ الـوحـيدـ الـذـيـ أـفـكـرـ فـيـهـ عـنـدـمـاـ أـسـمـعـ الـكـلـامـ الـعـاـقـلـ الـذـيـ يـقـولـ أـمـيـ وـكـلـ النـاسـ الـذـينـ أـغـرـفـهـمـ . هـوـ الـوحـيدـ الـذـيـ سـمـعـتـ مـنـ عـلـىـ لـسـانـ سـالـمـ كـلـمـاـ يـخـلـفـ عـنـ كـلـ هـذـلـاـ العـقـلـاءـ الـذـينـ يـدـفـعـونـيـ لـلـمـوتـ . قـلـتـ رـيـماـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـسـاعـدـنـيـ . وـإـلـاـ تـقـولـ حـفـيـتـ إـنـ هـوـ أـيـضاـ مـرـيـضـ لـيـتـكـلـمـ . ضـاءـتـ الـفـرـصـةـ ! لـوـ كـنـتـ قـدـ جـتـتـ عـلـىـ الـفـوـرـ ! لـمـاـ أـبـقـيـ ؟ هـلـ أـنـصـرـفـ أـنـ ؟

لـكـنـ الـبـابـ فـتـحـ وـدـخـلـ سـالـمـ .

كـانـ يـرـتـدـيـ الـقـمـيـصـ وـالـبـيـطـلـوـنـ لـأـوـلـ مـرـةـ مـذـ مـدـةـ قـيـداـ تـحـبـلـاـ فـيـ شـيـابـهـ . وـنـهـضـتـ لـبـنـ حـيـنـ رـأـهـ . قـلـتـ تـقـلـفـ صـاصـةـ وـهـيـ تـتـأـمـلـ وـجـهـ الـمـتـقـعـ وـالـابـسـامـةـ الـمـصـنـوـعـةـ عـلـىـ شـفـتـهـ ، وـكـانـ هـوـ أـيـضاـ يـتـأـمـلـهـ وـهـوـ يـتـقـنـ بـصـعـوبـةـ . فـجـاءـ وـجـدتـ نـفـسـهـ تـدـفـعـ تـحـوـهـ خـطـوـتـيـنـ ثـمـ تـوقـتـ حـيـنـ مـدـ لـهـ يـدـهـ بـاـسـتـادـ ذـرـاعـهـ وـهـوـ يـقـولـ :

- حـمـدـ اللهـ عـلـىـ السـلـامـةـ . سـمـعـتـ مـنـ جـدـيـ أـنـكـ فـيـ فـرـنـسـاـ .

لـمـ تـصـحـعـ لـهـ اـسـمـ الـبـلـدـ . عـادـتـ تـجـلـسـ مـكـانـهـ دـوـنـ أـنـ تـحـولـ نـظـرـهـ عـنـهـ . فـأـخـنـيـ هـوـ رـأـسـهـ وـهـوـ يـقـولـ : صـحـلـ أـحـسـنـ ،

كـانـ يـرـيدـ أـنـ يـقـولـ : أـنـتـ الـآنـ أـجـمـلـ ، وـلـكـنـ غـيرـ رـأـيـهـ .

فـسـائـتـ : وـأـنـتـ ؟

ردـ بـيـسـاطـةـ : أـنـاـ مـرـضـتـ بـعـدـ .. وـلـكـنـ عـوـلـجـتـ وـأـنـاـ أـحـسـنـ .. لـمـ أـعـدـ أـخـذـ عـلـاجـاـ وـلـكـنـ أـنـ أـحـسـنـ .. هـلـ اـنـتـهـتـ مـنـ درـاسـتـكـ أـوـ سـتـسـافـرـيـنـ مـرـةـ أـخـرىـ ؟

لـوـحـتـ بـيـدـهـ وـهـيـ تـقـولـ : لـاـ . اـكـتـشـفـتـ أـنـتـ لـأـحـبـ الـقـانـونـ فـتـوـقـفتـ عـنـ الـدـرـاسـةـ ، لـمـ أـنـ أـلـكـيـ ..

ثـمـ سـكـتـ . كـانـاـ يـجـلـسـانـ عـلـىـ مـقـدـيـنـ مـتـقـابـلـيـنـ يـتـبـادـلـانـ الـحـدـيـثـ بـلـهـجـةـ مـهـدـيةـ فـازـرـادـتـ لـبـنـ أـنـ تـصـرـخـ : كـفـيـ يـاـ سـالـمـ ! لـاـ تـدـعـنـاـ نـتـكـلـمـ لـجـرـدـ فـتـحـ الـفـمـ وـإـغـلاقـهـ .

شعرها ! لكنه بدلاً من ذلك كله كرر سؤاله :

- لماذا تبكين ؟ .. هل ثلت شيئاً ؟

مسحت ليفي دموعها براحتيها وقالت بعد لحظة :

- لا ياسالم . أنت لم تقل شيئاً . تمنيت أن تقول شيئاً !

سأكها في حيرة : مازا أقول ؟

فابتسمت ابتسامة صغيرة وهي تقول : حدثني مازا يقول جدك عن الأرواح ؟

- يقول كل الأرواح جميلة وكلها طيبة .

- وهل قال لك ياسالم ما الذي ينقد هذه الأرواح ؟

- نعم . قال الحب .

النهاية

وها هو الجواب : أنت هنا من أجله ! تعرفي في قلبك منه جئت ومن قبل أن
تاتي أنت هنا من أجله ، حتى ولو كان قد فقد كل عقله ، فهو نفسه سالم . سالم
الذى كان يفاجئك وجهه فى روما وفى مصر وقبل السفر وبعد أن رجعت . سالم
الذى فعلت كل شيء لنطردك من حياتك لكنه ظل يظهر لك دون توقع فيحيسك يدك
وأنت تعيشين هناك على شاطئِ النهر فى روما أو يأتى ليجلس أمامك على رصيف
المقهى أو ينام إلى جوارك فى الفراش . هو نفسه . سالم ، الذى تمر أسابيع
وشهور لا تذكره وإذا به فجأة يحيط بك كفالة ترين كل شيء من خلالها ولكنك
لا ترين غيره . ما هنك إن كان مرضاً ! لماذا طوال تلك السنين ظل الأصحاء
والأقواء الذين رأيتمهم أشباعاً عابرة ويقي هو يغيب ثم يعود بلا انقطاع ؟ لو
ترجع يا سالم أيام خوفنا معاً ! لو يرجع للدنيا طعم حقيقي غير طعم الكلور فى
حمام السباحة ! لحظة واحدة من ارتعاشه اليد ودقنها حين تمسك بها ، من مذاق
قبيلتك ، من رائحة جسدك وهي تنفذ إلى مسام الجلد ! لحظة واحدة من الخوف
ال حقيقي والحب الحقيقي بدلاً من هذه الحياة الكتب ، من المشى بلا سبب والكلام
يلا معنى وفتح الأبواب وغلق الأدراج وطلوع السلم والردد على التليفون وانتظار
السيارات وت鹑اع كاذب للحزن وقناع أكتب للضحك لمقابلة أقنعة الآخرين ! لحظة
واحدة تبعث فيها الأرواح الميتة لتنفس كما قال جدك ! ولكن كيف تبعث هذه
الأرواح ؟

سأكها سالم فى ازعاج : لماذا تبكين بالبني ؟
لم ترد . وراح يراقبها بعينين تلقين ودموعها تنساب دون أن تتشنج أو يصدر
عنها أي صوت . وكانت أفكار كثيرة تتدافع فى ذهنه وتطارد بعضها دون أن
ينطق ، أراد أن يسألها كيف خرج من بينها فى ليلتها الأخيرة معاً . وأن يتلو
لها ساكتفَر عن ذنبٍ بعد أن يشفى الله جدي . وأن يسألها لماذا غابت لون

تنويه

رجعت أثناء كتابة هذه الرواية إلى بعض الدراسات والكتب الصوفية . وأخص بالذكر - بين كتب أخرى - «المواقف والمخاطبات للنفرى» ، وكتاب «الكنز في المسائل الصوفية» للاستاذ صلاح الدين التجانى .

بهاء طاهر

رقم الاداع: ١٨٨٩٥ / ٢٠٠
I - S - B - N
977 - 07 - 0749 - X